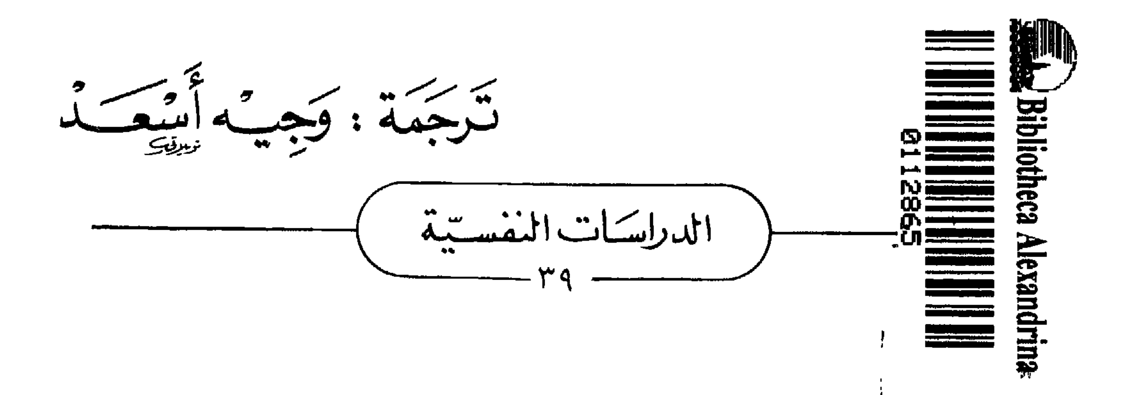
أنزيو . شاسيغيه ، سميرجل ، دولوز ، فرويد . غاتاري
غرنبرجر . جونز . كلاين . مالينوسكي . مولر . رايخ . روهايم

الأوديب

عقدة كليَّة



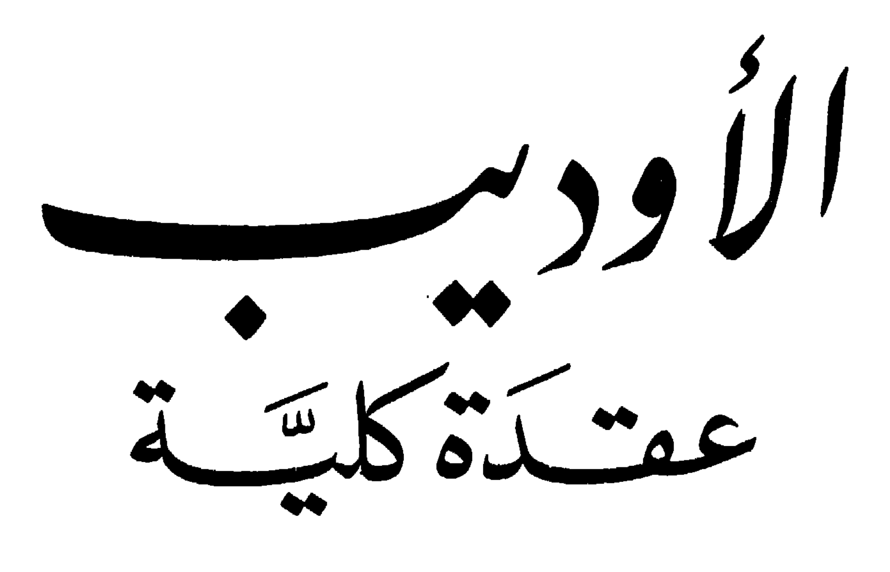
ترجمة : وجيه أسعد

الدراسات النفسيّة
٣٩

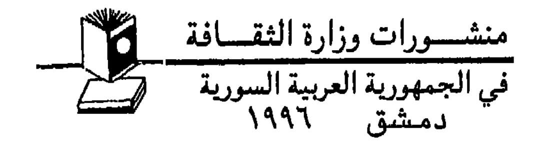
الإشراف الفني :
زهير الحمو

تأليف:

أنـزيـو، شـاسيّغه-سـميرجـل، ديلـوز، فرويـد، غاتّـاري،
غرنبرجر، جونز، كلاين، مالينوسكي، مولّر، رايخ، روهايم



ترجمة : وَجيه أسْعد



العنوان الأصلي للكتاب:

L'ŒDIPE
un
complexe
universel

Sand

Anzieu
Chasseguet-Smirgel
Deleuze
Freud
Guattari
Grunberger
Jones
Klein
Malinowski
Muller
Reich
Roheim

Les grandes découvertes de la psychanalyse
Collection dirigée par Jeanine Chasseguet-Smirgel et Bela Grunberger avec le concours de Claire Parenti

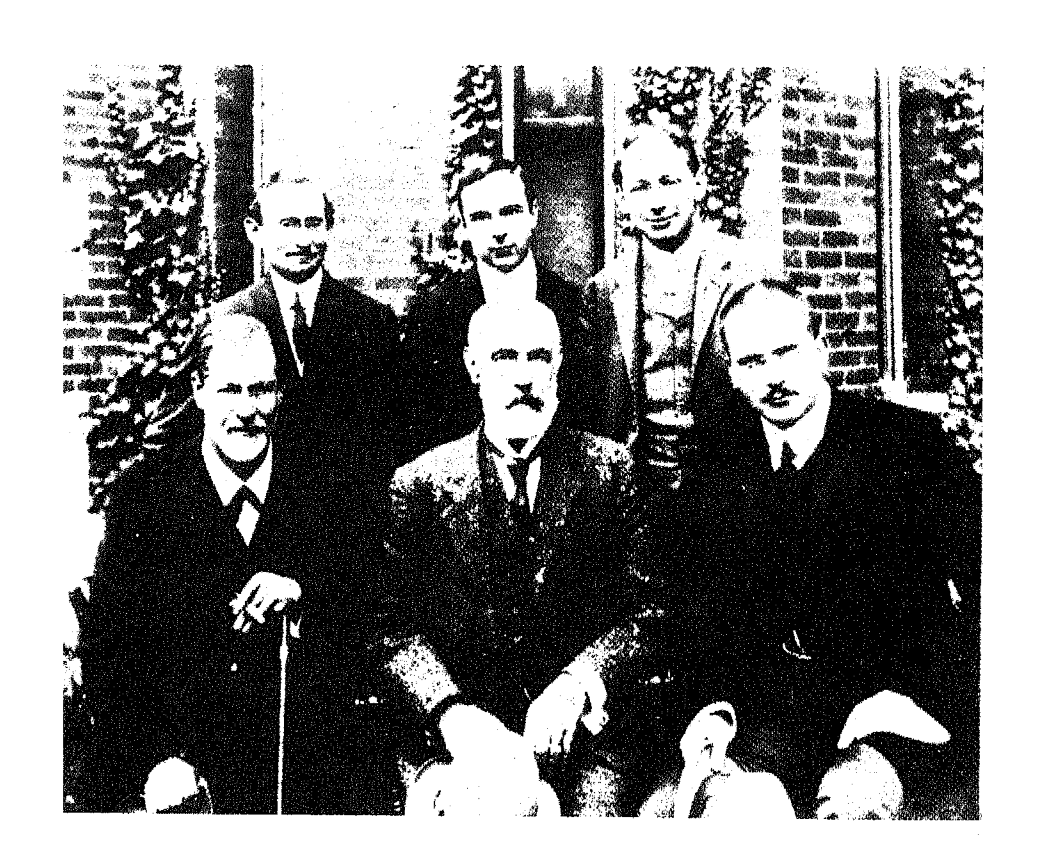
الدراســات النفسيــة
« ٣٩ »

L' oedipe un complex universel sand = الأوديب عقدة كلية
أنزيو . . . [وآخرون]؛ ترجمة وجيه أسعد . - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٦ . - ٣٨٠ ص؛ ٢٤ سم . - (الدراسات النفسية؛ ٣٩) .

١- ١٥٤ أ ن ز أ ٢- العنـوان ٣- العنـوان المـوازي
٤- أنزيـو ٥- أسعـد ٦- السلسلة

مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني: ع - ١٧٧٣ / ١٢ / ١٩٩٦



فرويد وبعض تلامذته
إنه في هذه الفترة الزمنية إنما لجأ للمرة الأولى إلى مصطلح عقدة أوديب


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدخل

القارىء والمشاهد والمستمع يفاجئهم التحليل النفسي في أيامنا هذه بمفهوماته، مفاجأة مستمرة في الصحافة، والإذاعه المرئية، والإذاعة المسموعة، والسينما، والمسرح أو الجامعة. وانتقلت مصطلحات «عقدة أوديب»، و«عصاب»، و«ليبيدو» (ثمة لعبة تسمى على هذا النحو «ليبيدو»)، و«تحويل»، إلى اللغة اليومية.

وليس ثمة على الإطلاق نقد للفن والسينما أو المسرح لايطلق بعضاً من التفسير الرمزي، من وقت إلى آخر، على المؤلفات التي يشرحها. وهناك برامج إذاعية وتلفزيونية، باحثة عن رائحة فضيحة، مخصّصة لمناظرات تنصبّ على فرويد. والواقع أن المشتركين في هذه البرامج يتجنبون التعبير عن آرائهم بكلام التحليل النفسي. فهل هذا الموقف بسبب الكسل الفكري؟ أم أنه ضرب من المقاومة لفرويد؟ ولهذا السبب، فإن هؤلاء المعلّقين يجرحون الإحساس بفعل كونهم ليسوا، في حالتين من ثلاث، محلّلين نفسيين (أو إن أولئك الذين يزعمون بأنهم أنداد المحلّلين النفسيين لايعترفون أنهم محللون نفسيون)، وكونهم ينطقون، بإيمان مطلق لايتزعزع، كلاماً يكتنفه الإبهام على الغالب، هذا إذا لم ينطلقوا – وذلك أمر ذو علاقة أقوى بالكلام المكتوب-في عرضٍ مصطنع، في نوعٍ من الغرغرة الكلامية الجديدة التي كافحها موليير منذ زمن طويل جداً. وما ينتمي إلى الخزي حقاً في كل ذلك هو هذه الحالة المحزنة التي زُجّ فيها القارىء والمشاهد والمستمع. فالمعلومات لا تنتقل الى هؤلاء إلا في الظاهر، وكل شيء يحدث كما لو أنهم كانوا موضوعاً سلبياً لخديعة إرادية. ذلك أن

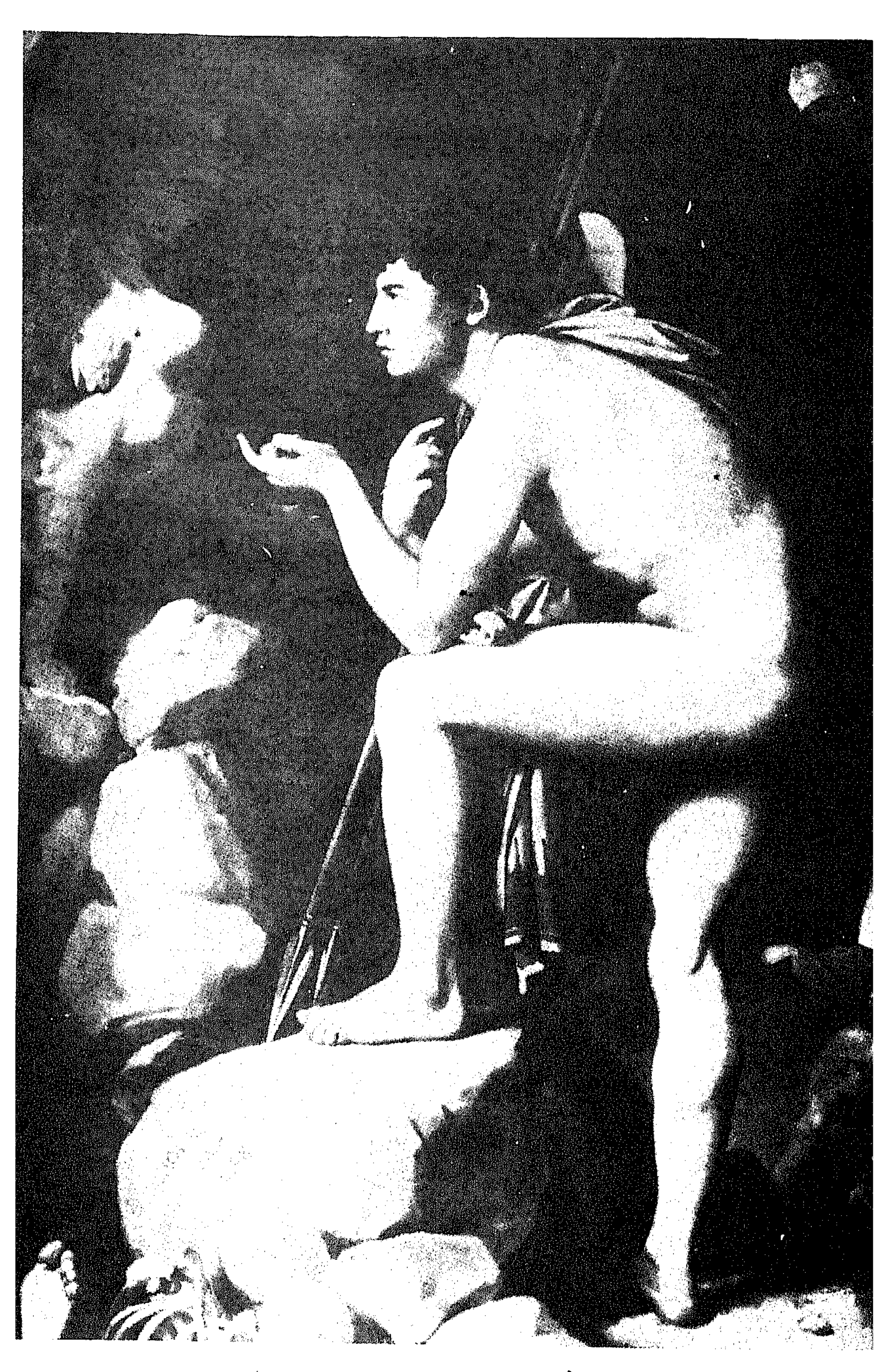
العناصر التي تنتقل إليهم تحولت عن معناها، وهي مبتورة ومشوّهة؛ أو أن ما يُقدّم إليهم ضرب من التبسيط الفرويدي الذي ينصرفون عنه إذا لم يكن يروي ظمأهم الى المعرفة، (ظمأ مشروعاً)، ويغذّي مقاومتهم في الوقت نفسه. وليس بوسع المرء أن يمنع نفسه عن الظن بأن ثمة احتقاراً خفياً للجمهور يختبىء خلف هذا النموذج من المشروع.

ويشكّل التحليل النفسي مع ذلك جزءاً من إرثنا الثقافي المشترك من الآن فصاعداً، وعلى الإنسان المثقف أن يكون بوسعه الدنّو منه دون أن يكون قد طرأ عيه «تمثّل» مسبق ولاتزييف.

وفي بعض معاهد التحليل النفسي، قوائم للقراءة، أي مقالات في التحليل النفسي مخصّصة لتكوين المحلّلين النفسيين الشباب. وبدا لنا أن بوسع القارىء الحريص على إعلام جدّي، دون أن يكون عسير الفهم، أن يُدعى على هذا النحو إلى قراءة نصوص التحليل النفسي الأكثر بياناً، والمتمحورة حول عدد معيّن من الموضوعات المتتالية. والكتابات التي اخترناها هي الكتابات التي نقترحها عادة على طالب علم النفس، وعلى محلّل مبتدىء، ولكن قراءتها لاتتطلّب مع ذلك أي تخصّص سابق.

ونراهن بأن القارىء ذا الفكر الشغوف بالمعرفة سيُعنى بما فكّر به التحليل النفسي والمحلّلون النفسيون حقاً وقالوه، ولن يكتفي بمعلومات غير مباشرة وعرضة للخطأ على الغالب لأننا نمنحه الوسيلة.

وبوسعه وحده أن يفهم عقدة أوديب في مؤلفات فرويد دون أن يرجع إلى التقارير النقدية الصادرة عن الاتجاه الذي يعارض الأوديب، المنشورة في صحيفتها المسائية. وبوسعه أن ينفذ الى عالم التحليل النفسي للأطفال، عالمه الأخّاذ، بفضل ميلاني كلاين أو وينّيكوت، فالأحاديث التي تنقلها أمواج الأثير غير ذات جدوى. ويمكنه أن يفهم مباشرة ما عبّر عنه المحلّلون النفسيون في موضوع جنسية المرأة، بدلاً من أن يثق فقط بقراءة المؤلفات التي



«أوديب يسأل السفنكس إنه سيعرف وحده حل اللغز»

يكتبها أنصار المرأة. فحكمه سيصبح بهذا الفهم أكثر يقيناً، ورسوخاً، وموضوعية.

ولم ندَّعِ، ونحن نجمع هذه النصوص، بأنها نصوص شاملة. إنها النصوص الأكثر تمثيلاً. وقد استسلمنا في بعض الأحيان أيضاً إلى أفضلياتنا وانجذاباتنا، دون أن ننسى لهذا السبب إبراز التناقضات بين شتى وجهات النظر كلما كان الموضوع مناسباً لذلك.

واعتقدنا أن القارىء، في هذا الربع الأخير من القرن العشرين، جاهز لأن يفهم فكر التحليل النفسي من داخله إذا صحّ القول. وإنجاز هذه المجموعة يهدف الى مساعدته على الدنوّ من هذا الفكر. ونحن نعتقد، إذ فعلنا ذلك، أننا قدرناه حق قدره.

مديرو المجموعة

مقدمة

تشغل عقدة أوديب مكاناً رئيساً في نظرية التحليل النفسي، وذلك من منظور مبدعها، منظوره ذاته. والواقع أن فرويد وظّف اكتشافه توظيفاً مفيداً من البداية حتى النهاية. ذلك أنه إنما كتب قبل موته (**في موجز التحليل النفسي**، ١٩٣٨): «أُتيح لنفسي الاعتقاد بأنه لولم يكن للتحليل النفسي من نجاحات سوى اكتشاف العقدة الأوديبية المكبوتة، فإن ذلك سيكون كافياً لجعله في صفّ المكتسبات الثمينة الجديدة التي أنجزها النوع الإنساني». وفي جملة المعايير التي يستخدمها فرويد لتمييز محلّل نفسي من «منشقّ»، معايير يعدّدها في أثناء خلافاته مع يونغ وأدلر، الخ، وقائمتها مختلفة كل مرة، يحتلّ دائماً معيار الاهتمام الذي يوليه عقدة أوديب مكان الصدارة.

ولئن كانت العقدة الأوديبية تمثّل في المستوى الأول عروة العصاب بالنسبة لفرويد، فإنه يمنحها معنى وصحة يتجاوزان إلى حدّ بعيد إطار الاضطرابات النفسية أو النفسية الجنسية: إنه يمدّها على مجموع الفاعلية النفسية الجنسية «السويّة» أو المرضية للموجود الإنساني بصورة عامة. ويبيّن في كتابه **الطوطم والتابو**، عام ١٩١٣، أهمية العقدة الأوديبية لدراسة «الثقافة» بوجه عام، والتنظيم الاجتماعي والسياسي، والحقوق، والمعتقدات، والأخلاق، والتصعيد، ولفهمها.

ويقصد فرويد بعقدة أوديب، في البداية، رغبة الطفل الجنسية الموجّهة إلى الأب من الجنس المقابل والعداوة الموجّهة الى الأب من جنس الطفل. وسيكتشف فرويد فيما بعد «أوديب المعكوس» أى حب الطفل لأحد الأبوين

من جنسه وكرهه للأب الآخر من الجنس المقابل. ويقوده هذا الأمر إلى تصور «أوديب الكامل» بجانبيه الإيجابي والسلبي اللذين تختلف نسبة كل منهما إلى الآخر من حالة إلى أخرى، ولكنهما موجودان دائماً.

وعلى هذا النحو، ليس عدد المشاركين في علاقة جنسية اثنين بل أربعة، ذلك أن مفهوم **الجنسية الثنائية** الكامنة يغني بالتالي نظرية التحليل النفسي. والواقع أن عدد البدائل يزداد أيضاً إذا أخذنا بالحسبان وجود ضرب أبوي من «ضد أوديب» أي حب الأم وكرهها طفلها والموقف المتّصف بثنائية المشاعر الذي يقفه الوالد من أبنائه، ولاسيما أن الرغبة المناظرة لدى الأب في «قتل الابن» تُضاف الى الميل لدى الابن الى قتل الأب (راسكوفسكي، ١٩٧٠).

ويتذكّر بعضهم في الواقع أن لايوس هو الذي أراد، في أسطورة أوديب التي ستكون موضوع البحث فيما بعد، أن يقتل ابنه عند ولادته. إنه، بوسع المرء أن يقول، «هو الذي بدأ»... وتشمل عقدة أوديب كل علاقة الطفل بأبويه (فرويد: **الرجل ذو الذئاب**)، وتشمل بالطبع كل العلاقات الإنسانية على وجه العموم، بالنظر إلى أن ذلك ليس صحيحاً بالنسبة للطفل فحسب، ولكنه صحيح أيضاً بالنسبة للراشد في حدود معيّنة.

وهذا الصوغ وحده يشرح أهمية هذه العقدة «المنظِّمة»[1] بمعناها العام، أي في «كليتها». وكلية العقدة وضعها موضع البحث مجدداً مالينوسكي، الإتنوغرافي، وسيجد القارىء تفصيلات المناقشة حول هذا الموضوع في بعض من النصوص التي جمعناها هنا. وإذا كانت عقدة أوديب ضرباً من البنية، فإنها تمثّل أيضاً عاملاً دينامياً نوعياً: إنها يُعترف بها منذ زمن

(١) - إن سبيتز هو الذي طبق عام ١٩٥٩ مفهوم «المنظِّم»، المفهوم البيولوجي، على التحليل النفسي، وعلى عقدة أوديب على وجه الخصوص.

بعيد على أنها انعكاس الرغبة اللاشعورية الجنسية لدى الطفل بالنسبة للوالد وانعكاس عدوانيته (والعكس بالعكس). والواقع أن نظريات نشوء الكون ومجموعات الأساطير تنطوي جميعها على عناصر أوديبية؛ [٢] وكان هذا الموضوع دائماً مصدراً من مصادر الوحي الفني، والوحي الأدبي على وجه الخصوص [٣].

وكان فرويد قد استخدم على هذا النحو مسرحيتي سوفوكلوس وشكسبير. وإذ اقتبس فرويد أول الأمر ملاحظاته من معاش حداده خلال موت أبيه، فإنه مدّ هذه الملاحظات فيما بعدُ على **أوديب الملك** وعلى **هاملت**.

أما فيما يتعلق بصوغ مؤسس التحليل النفسي عقدة أوديب، صوغه ذاته، فإننا نجده الآن بريشة دنيس ديدرو الذي كتب يقول: «لو كان المتوحش الصغير متروكاً لذاته، بحيث احتفظ بحماقته، كلها، و جمع عنف أهواء الرجل في عمر الثلاثين إلى القليل من عقل الطفل في مهده، للوى عنق أبيه

---

(٢) -غايا، أي الأرض، ولدت، وفق التقليد اليوناني القديم، مولودها الأول أورانوس أي السماء. وأخصب أورانوس أمه فأنجب التيتان على هذا النحو والسيكلوب وثلاثمئة عملاق من ذوي المئة ذراع. ويكره أورانوس ذريته ويخفي فسائلها في الأرض. وتنتقم غايا بالتواطؤ مع آخر مولود من التيتان، كرونوس؛ فتعطيه منجلاً. وعندما يقترب أورانوس من غايا، يخرج كرونوس من مخبئه، ويقطع عضو الذكر الأبوي ويقذف به في البحر؛ فتولد أفروديت من الزبد الناجم عن إلقائه في البحر، إلخ.

ويجد المرء عناصر مماثلة في النظرية اللاهوتية لنشأة الكون بمصر القديمة وفي كل مجموعات أساطير البدائيين.

(٣) -إن سوفوكلوس، وأوريبيد، وأشيل، وأشايوس، وكزينوكلوس، عالجوا الموضوع نفسه (أوديب الملك)، وعالجه من المؤلفين الرومان سينيك، وجول سيزار. والمسرحية الأولى التي كتبها فولتير، وهو في التاسعة عشره من عمره، تعالج أوديب، وألف كورنيل دراما تحمل العنوان نفسه بعد موت أبيه بزمن قليل. كان أوديب مصدر إلهام تورنيل، وشينيه، ولوكوت، وروبير غارينه، وكذلك كوكتو في زمن أقرب إلينا (**الآلهة الجهنمية**). وسار مؤلفا الدراما الانغليزيان، لفيدن ولي، على الدرب نفسه دون أن ننسى بالطبع هوايتهيد وشكسبير. ونحن نعرف في الأدب الألماني **جوكاست** لهانز ساش، **دون كارلوس** لشيلر، **أوديب والسفنكس** لفون هوفمانتال. أما عن الأدب الحديث وفن المسرح أو السينما، فإن الروايات حول الدراما الأوديبية لم تعد تُحصى.

وضاجع أمه». وعالج ستندال عقدة أو ديب الخاصة به بعبارات عفوية على وجه التقريب أيضاً في مؤلفه المعنون **حياة هنري برولارد**، المنشور بعد وفاته[٤].

ولعقدة أوديب بداية، وسياق (يختلف باختلاف الحالة، ويخلّف بعض العقابيل بالضرورة)، ونهاية (نسبية مع ذلك تماماً). وسنرى مع فرويد واقع هذه العقدة. وسيجد القارىء، في هذا المجلد والمجلدات التي تليه، توضيحات حول مكان العقدة في «ما وراء علم النفس» الفرويدي. وسنلحّ على تغيراتها تبعاً للتطور النفسي الجنسي لدى الطفل والراشد بصورة عامة: وسنشير في ذلك إلى الأساسي.

ويسوق فرويد، ليشرح أصل العقدة، نظرية لتطور الموجود الفرد وفرضية لتطور النوع. ويصوغ فرويد نظريته في كتابه **ملخص في التحليل النفسي**، حيث يتكلم على عناية الأبوين بالطفل وعلى «عيشه المشترك المديد معهما».

أما الفرضية، فإنها موجودة قبل فرويد بزمن طويل، لأن الأمر ذو علاقة بنظرية «العشير البدائي» التي اقتبسها فرويد من تأليف فرازر وروبيرتسون، ويعالجها في **الطوطم والتابو**.

---

(٤) ستُتاح لنا الفرصة لأن ندرس، في مجلد من المجلدات التالية في المجموعة، أسباب ظاهرة تسمى المقاومة وآليتها، ظاهرة تشرح ميل المرء إلى أن يحتفظ بالاستيهام الأوديبي خفياً، أي ميله إلى كبته.

وهذا الكبت سطحي في بعض الأحيان ويبرز مترافقاً مع التعبير عن الرغبة المكبوتة، وذلك أمر يحدث على الغالب كما يبيّن فرويد وهو يحلل بنية «النكتة» على سبيل المثال، أو بنية العرض المرضي. «ثمة شيء ليس بوسعي قبوله، إنه هذه القصة، قصة عقدة أوديب»، كان يقول لمحلل نفسي أحدُ أعضاء جماعة من الأطباء النفسيين، من وراء الستار الحديدي، يزورون مشفى سانت آن. واستطرد مباشرة في هذا الموضوع يقول: «إنني منزعج جداً، تدلّهت ابنتي بحب زميل لها من سني»، وتابع أحد زملائه يقول: «هذه القصة، قصة أوديب، إنكم لاتتكلمون إلا على ذلك... هيّا، إنكم تذكّرونني بأبي...».

كان الإنسان البدائي، بحسب هذه الفرضية، يعيش في عشير يقوده ذكر قوي، الأب، الذي كان يمتلك نساء العشير جميعهن؛ ويرغم الشباب على حياة العزوبة ويهددهم بالخصاء إذا تجاوزوها. وثار الأبناء في يوم من الأيام، وفق الفرضية الفرويدية، وقتلوا الأب حتى يدخلوا على هذا النحو بنساء القبيلة.

وبدا لهم بطلان مشروعهم، وذلك أمر أفضى إلى ضرب من الإثمية الجماعية وإلى تحريم غشيان المحارم (الزواج من خارج القبيلة). وهذا الوضع كلّه ولّد مثالاً أخلاقياً مبنياً على هذا التخلّي. وهذا، على الأقل، هو النحو الذي شرح عليه فرويد نشوء الأخلاق. ويطرح هذا البناء بالطبع ضرباً من المشكل، ذلك أنه كان على الأبناء أن يكون لديهم مسبقاً في أنفسهم هذا المرجع الناهي حتى يشعروا بالإثم. وبوسع المرء مع ذلك أن يستبعد هذه البيّنة، إذ يشرح الإثمية بإخفاق العدوان، إخفاقه ذاته، وهو استدلال يبدو لنا مقنعاً جداً في ضوء تجربتنا العيادية(٥).

ومهما يكن من أمر، فإن سيناريو «قتل الأب»، وهي حادثة تاريخية واقعية، ستتجدّد مرات لانعرف عددها. ومن المحتمل على هذا النحو أن يكون سيناريو قتل الأب قد غزا الذاكرة الجمعية بصورة كافية ليشكّل جزءاً من الإرث الإنساني إذا صح القول. فأن تكون الحادثة التي استخدمها فرويد أساساً لفرضيته واقعة تاريخية صحيحة أم لا (ويبدو أن الاختصاصيين

---

(٥) -ومن المحتمل، بالإضافة إلى ذلك، أن العلاقة بـ«صورة ذهنية مثالية» أبوية، أي بضرب من الأب الأسمى، تنطوي، بقوة فريدة، على النزاع الأوديبي وتتجاوزه. وسيكون ذلك بعداً خاصاً ينير العلاقة بالأب ويُظهر الحنين الى هذا الوجه الوصّي خلف العداوة الأوديبية. وسيلقي هذا البعد بعض الضوء على مايناسب أن نسميه «الرعب من غشيان المحارم».

إن فرويد يشرح المعتقدات بالحاجة الموجودة لدى الطفل العاجز إلى أن يعتمد على وجه أبوي قادر على حمايته. ولكن هذا الشرح لايبدو لنا كافياً. وسنكون أكثر نزوعاً الى أن نلجأ إلى نرجسية الطفل. فإسقاط هذه النرجسية الإجباري بعد الجرح النرجسي الناشيء من ولادة مولود جديد، جرح لايلبث أن يحدث، سيجد في هذا الوجه دعامة مناسبة أكثر من وجه صورة الأم.

يعتبرونها في أيامنا هذه بالية) أمر قليل الأهمية. ذلك أن الرغبة في قتل الأب، وامتلاك الأم، والإثمية، وعقدة الخصاء، والأنا العليا، تؤلّف وقائع نفسية تماماً.

وقبل أن نلقي نهائياً بالفرضية موضوع بحثنا في «سلة المهملات» الخاصة بنظرية التحليل النفسي، نذكّر بما يلي: الرغبة في الاستمتاع الجنسي المطلق بكل إناث القبيلة (التي حلّت «الأسرة» محلها) موجودة في اللاشعور تماماً، كما تبيّن مادة اللاشعور التي تتجلّى للتحليل؛ والاستيهام الملازم لهذه الرغبة، استيهام الحريم، أكثر تواتراً مما قد يعتقده المرء للوهلة الأولى.

والنزاع الداخلي لدى الطفل بين الدوافع من جهة، ومقاومتها من جهة أخرى، يفضي في رأي هارتمان كريس ولونشتاين إلى الحّل الأوديبي، أي الرغبة المرتبطة بالتحريم. وفي رأيي أن الجرح النرجسي لدى الطفل، الناجم عن عدم تكافؤ بين جهازه الجنسي والهدف الراشد الذي يفرض نفسه عليه في ذروة الرغبة الأوديبية، يجد نفسه، إذا صحّ القول، مندملاً، بالحري، بفعل التحريم الأوديبي وفق الصيغة التالية: لالستُ عاجزاً أو غير مرضٍ، ولكن المانع الخارجي (الأب من الجنس المقابل) هو الذي يمنعني من إشباع رغبتي».

ويتكلم فرويد على عقدة الخصاء بوصفها ردّ فعل على التخويف الجنسي «الذي يُعزى إلى الأب» (إنني الذي أضع الكلمة بالحرف البارز). فالطفل هو الذي يُلصق بالأب على هذا النحو تهمة التهديد بالخصاء، لأنه بحاجة إلى أن يموّه بهذا الأسلوب عدم تلاؤمه الجنسي أو عدم نضجه الجنسي، وذلك لدواعٍ نرجسية. وواقع التهديد بالخصاء لم يعد قط موجوداًفي أيامنا هذه، وإذا صادفه الطفل مع ذلك في بعض الحالات، فإنه يصدر عن الأم أو عن بديلتها (على سبيل التخويف مثلاً ضد الاستمناء). فمصطلح «الخصاء» خاطىء بهذا المعنى من جهة أخرى.

ويتكلّم بعض المؤلفين في الواقع على «تهديد بالحرمان من صفات الرجولة يصدر عن الأب»، وذلك أمر غير صحيح من جانبين: فالأب ينطق نادراً جداً بهذا التهديد كما ذكرت للتوّ. يضاف إلى ذلك أننا إذا وجدنا، في بعض أحلام الخصاء، أمثله على فقدان صفات الرجولة وعلى جروح وإذلال، فإن العضو الجنسي الوحيد المنشود هو عضو الذكر دائماً (أو القضيب، «شعار الكمال النرجسي»)، ومن النادر جداً أن تكون الخصيتان منشودتين. فالتهديد ذو علاقة بعضو الولوج أكثر مما هو ذو علاقة بعضوي الإخصاب بوصفهما كذلك.

ويسبق تاريخ الأوديب ضربٌ من ما قبل التاريخ، أي الطور «قبل الأوديبي» المختلف لدى البنت والصبي كما بيّن المحللون النفسيون، الذين حاولوا أن يوضّحوا إلى أي حدّ كان هذا الفارق يشرط صيرورة العقدة لدى الجنسين، ويشرط على وجه الخصوص «تصفيتها»، تصفية أضعها بين قوسين، ذلك أنها تطرح شتى المشكلات كما سيكون بوسع القارىء أن يرى ذلك. يقول فرويد: «كل موجود إنساني يرى أنه يفرض على نفسه مهمة السيادة على عقدة أوديب».

والواقع أن من المفروض أن تفضي العقدة، بالنسبة للصبي، الى التخلّي عن رغبته بسبب التهديد بالخصاء. وللبنت، التي يعتبرها فرويد إذا جاز القول صبياً خائباً، موضوعٌ أول هو الأم، وهي تنجز أول الأمر أوديباً معكوساً. إنها، على خلاف الصبي، تستقرّ في الأوديب و«خصاؤها» يشقّ لها الدرب صوب موضوعها الثاني، الأب، أي صوب الأنوثة. وستستمرّ على الرغم من كل شيء في الرغبة في عضو ذكر، ولكنها ستستبدل بهذه الرغبة رغبة في طفل من الأب.

ولن تكون العقدة الأوديبية الأنثوية «محلولة» إذن في الاتجاه الذي تتّخذه العقدة لدى الصبي، وهو اتجاه سيتردّد فرويد بصدده أيضاً، لكي يفضي في نهاية المطاف الى ضرب من البقيّة، معتبراً أن كل تصرّف جنسي

لاحق لن يكون ـ لدى الجنسين ـ سوى إشباع بديل لأوديب، منحرف الاتجاه.

وعلينا أن نشير هنا إلى سمة العطوبة الكبيرة التي تتسم بها نظرية فرويد حول الجنسية الأنثوية التي سماها هو ذاته «القارة السوداء» كما نعلم. وكان فرويد يقول أيضاً: «ينبغي الاعتراف، على وجه العموم، بأن فهمنا سيرورة النمو لدى البنت غير مرض، تكتنفه الثغرات وتملأه الظلال». وبوسع القارىء أن يطّلع على النقد الذي أخضع إليه أحد مديري هذه المجموعة، جانين شاسوغه-سميرجل، نظرية فرويد الكلاسيكية حول هذه المسألة.

وتلخّص جانين في الوقت نفسه انتقادات محلّلين نفسيين آخرين كإرنست جونز أو كارن هورنه؛ فالقضايا الأكثر إثارة للخلاف كانت جهل البنت الصغيرة عضوها الأنثوي، وهو جهل تكذّبه الملاحظة العيادية، ولاسيما أن هذا الجهل يشرط جهل الأب بوصفه موضوعاً جنسياً، أي «مجرد مؤاكل» وفق تعبير جان لاميل دوغروت. وهذه المحلّلة النفسية، وهي تلميذة من تلاميذ المعلم، كارن هورنه، دفعت النظرية الكلاسيكية إلى أقصى نتيجة لها. وأصبح النقاش بين الفرويديين، ذوي الانتماء الدقيق الى فرويد، والمعارضين الذين يرأس رتلهم إرنست جونز، نقاشاً حامي الوطيس، وكاد أن يفضي إلى شقاق في قلب حركة التحليل النفسي.

وفيما يخصّ فترة التطور النفسي الجنسي التي تحدث خلالها عقدة أوديب، فإن الآراء حولها مختلفة أيضاً: فالمدرسة الكلاينية على وجه الخصوص تحدّد فجر الأوديب في عمر مبكّر جداً، في حين أن فرويد كان يتكلّم على عمر الأربع سنوات. ويبدو في الواقع تماماً أن المؤلفين، فرويد وميلاني كلاين، لايتكلّمان على شيء واحد. والحقيقة أن ميلاني كلاين أغنت التحليل النفسي ببعد إضافي حين اكتشفت عالماً استيهامياً عميقاً، عتيقاً جداً، بل فطرياً على وجه الاحتمال. ولكن هذا العالم ذو علاقة بالراة، قبل الأوديبي؛ ذلك أن توظيف عضو الذكر الأبوي الذي يقع تحت سلطة

الأم، والتثليث المتكوّن بفعل انزياح الثدي على عضو الذكر، ليس لهما السمات التي لعقدة أوديب ولا تحدثان المفعولات التي تحدثها عقدة أوديب، بالمعنى الفرويدي للمصطلح. فهذه الصور وهذه الموضوعات البدئية ينبغي أن تكون متميّزة من الأبوين الواقعيين، التاريخيين، اللذين هما نفساهما، يفتحان الباب لأوديب الذي يضفي البنية، أي الأنا.

أوديب التراجيديا اليونانية كان ذا بعد فرويدي

لم يخرج حديثنا عن المجال النفسي الجنسي بدقيق العبارة. ونحن نعلم الآن أن عقدة أوديب تحتوي على عناصر من سجلّ آخر تجعلها تنفذ إلى بعد اجتماعي وثقافي.

والواقع أن المفهوم الفرويدي لأوديب هو المفتاح الذي يوصل إلى اتجاه إجمالي كامل للفكر الإنساني: اتجاهنا. ومع ذلك، فإن المواجهة النكوصية للمفهوم «قبل الأوديبي» تهاجمه بعنف وتنزع إلى أن تغمره.

ونحن نستشعر أن هذا الاتجاه يباشر عمله في دراما سوفوكلوس التي اختارها فرويد اختياراً حدسياً ليستوحي منها. ويبدو جيداً، والحال هذه، أن علينا، لنشرح الأهمية الثقافية إذا صحّ القول لعقدة أوديب، أن نغوص مجدّداً في السرد الذي قدّمه إلينا عن هذه الدراما معاصر بيريكلس. ونحن نكتشف فيها، حين نحلّلها بوصفها «استيهاماً» على وجه التقريب أو حلماً من أحلام سوفوكلوس، عناصر مماثلة لتلك التي يكشف عنها الحجاب مفهوم فرويد.

وتبدأ المسرحية بالشقاء الذي يحلّ بمدينة طيبة: الطاعون يعيث فساداً فيها والبؤس كبير. ويضع الشعب أمله في أوديب: إنه أنقذ المدينة من قبلُ خلال المحن التي أخضعها إليها السفنكس، «المغنّية الطاغية» (والغول مذكور في فقرة أخرى أنه شاعر: «كيف لم تقل كلمة إنقاذ لهؤلاء الطيبيين حين كانت الكلبة تنشدك هنا أشعارها؟»)، ويحاول أوديب أن يساعد مواطنيه؛ وكريون، أخ زوجة أوديب، ذهب إلى دلف يستشير كاهنة الوحي.

وتروي كاهنة الوحي حكمة أبولون: تنزل العقوبة بالمدينة بسبب اغتيال لايوس، الملك السابق الذي لم يكن قد ثأر لموته أحد بعدُ. وكان القتلة، كما تقول كاهنة الوحي، موجودين دائماً داخل المدينة. ولم يكن ممكناً، في ذلك الوقت، لاغتيال لايوس، المقتول وهو ماضٍ لاستشارة أبولون، أن يبين، ذلك أن السفنكس كان قد أبقى المدينة في حالة الإنذار بغنائه السحري. ويباشر أوديب استقصاءً ولكنه يتخلّى عن استجواب كاهنة الوحي. ويقترح رئيس الجوقة عندئذ استدعاء تيريزياس، عرّافٍ شيخٍ أعمى، كان لابدّ له من أن يعرف الأمر أكثر ما تعرفه نبيّة دلف ذاتها.

ويرفض تيريزياس أن يتكلم في بادىء الأمر، ولذلك يتّهمه أوديب بأنه متواطىء في الجريمة. ولكن العرّاف يشير إليه بأنه هو المجرم. وعندئذ يتّهمه أوديب بأنه تآمر عليه مع كريون. ويكرّر تيريزياس أن أوديب يجد نفسه هذه المرة -مع أنه حَلّ فيما مضى لغز السفنكس- أنه يجهل الشؤم الذي أصاب حياته، لأنه لايعرف موطنه ولا والديه. ويتنبأ له العرّاف بفقدان بصره في المستقبل. ويضيف أن القاتل المنشود يُعتبر أجنبياً، فيما أنه مولود في طيبة وأنه في الوقت نفسه الأب والأخ لأطفاله، وابن المرأة التي ولدته وزوجها، وأن الرجل الذي اغتاله كان أباه.

واندلعت في أثناء ذلك خصومة بين أوديب وكريون، ولكن جوكاست تهدّىء من روع أوديب: إن كاهنة الوحي تنبّأت بأن لايوس كان قد مات على يدي ابنه. والحال أن لايوس كان قد قتله، كما يعلم كل فرد، قطّاع طرق، والطفل الذي كان لجوكاست ولايوس معاً أُلقي على جبل يعسر الوصول إليه، وقدماه مقيدتان مثقوبتان. ولكن هذه الشروح تقلق أوديب، ذلك أن جوكاست تتابع سردها: إن الاغتيال حدث في مفترق معيّن من الدروب قبل أن يصبح أوديب ملكاً بزمن قصير. وكان لايوس مصحوباً بأربعة رجال استطاع واحد منهم أن يفلت من الموت. وتوسّل هذا الرجل

الى جوكاست، عندما رأى أوديب يصبح ملكاً في غضون ذلك، أن ترسله خارج المدينة ليستأنف مهنته، مهنة الراعي.

ويزداد قلق أوديب. فأبوه هو بوليب، ملك كورنث، ويتذكّر مع ذلك أنه سمع رجلاً ثملاً يقول إنه طفل لقيط. وسأل من قبلُ أبويه، بوليب وميروب، عن هذا الموضوع، ولكنهما تجنّبا الإجابة. ولم تقدّم إليه أيضاً إلهة دلف، التي سألها، أية توضيحات. واقتصرت على أنها تنبّأت له بقدر رهيب: سيتزوّج أمه ويقتل أباه. ودون أن يتجرّأ على العودة الى كورنث، فإنه تاه في البلاد. وكان إذن قد وصل إلى مفترق الطرق حيث لايوس قد قُتل، وفقاً لرواية جوكاست. وكان قد لمح، حين اقترب من المفترق، رجلاً شبيهاً بذلك الذي وصفته جوكاست. وكان سائق العربة، في بادىء الأمر، يريد أن يدفع أوديب الى حافة الطريق، ثم إن الرجل الذي ظلّ في العربة رفع يده على أوديب. وكان أوديب قد ضرب هذا الرجل بدوره فقتله، وقتل رفيقه أيضاً. . .

ويسكّن رئيس الجوقة روع أوديب بقوله: ثمة عصابة من قطّاع الطرق كانت، وفق أقوال الخادم الذي نجا من المذبحة، قد قتلت لايوس. ولكن أوديب يأمر أن يُؤتى بالشاهد. ويعلن في هذه اللحظة رسول يصل من كورنث موت بوليب ورغبة الشعب في هذه المدينة أن يتوّج أوديب ملكاً. وهدّأ الخبر من روع أوديب وجوكاست: فكاهنة الوحي تنبّأت أن أوديب سيقتل أباه، والحال أن هذا الأب نفسه مات في كورنث.

ولايزال أوديب مع ذلك غير مطمئن: إنه يخشى أن يكون قد تزوج أمه. وتهدّىء جوكاست خشيته: «. . . ثمة كثير من الناس الذين شاركوا أمهاتهم من قبل مضاجعهن خلال أحلامهم. ومن يحتقر هذه الضروب إياها من الرعب يحتمل الحياة بيسر». وبوسع الرسول أيضاً أن يهدّىء أوديب: إنه ليس ابن بوليب وميروب. والرسول هو الذي نقله، وقد وجده

في جبل سيترون وقدماه مثقوبتان، إلى بوليب. ويضيف الرسول بأنه تلقّى الطفل من خادم لايوس. وتتيح الجوقة للمشاهد أن يسمع بأن هذا الخادم هو الوحيد الذي بقي حيّاً من الكارثة التي هلك خلالها لايوس. وتبدو جوكاست مشغولة البال وتحاول أن تجعل أوديب يتخلّى عن بحثه. ويرفض: إنه يريد بأي ثمن معرفة أصوله: ألا يعتقد بأن جوكاست تظنّه ابن عبد؟ وتشير الجوقة إلى أحشاء سيترون على أنها مكان ولادة أوديب. إنها هي أمه. وسيكون أوديب إذن مولوداً من اتحاد الآلهة والحوريات.

ويُقاد عندئذ خادم لايوس إلى جوار أوديب الذي يرغمه على الكلام. ويروي الخادم أنه، في الماضي البعيد، ألقى الطفل، أوديباً، ابن لايوس وجوكاست، بين يديّ الرسول الكورنثي. وكانت جوكاست ذاتها قد عهدت إليه بالطفل ليموت، ذلك أن كاهنة الوحي كانت قد تنبّأت بأنه سيقتل أبويه. ولكن الراعي لم يستطيع أن يقرّر ذلك، وعهد بالطفل الى الرسول الكورنثي الذي حمله فيما بعدُ إلى بوليب وميروب.

«يا للأسف! يا للأسف! صاح أوديب، لقد اتّضح كل شيء، يا أيها النور، بوسعي أن أراك للمرة الأخيرة! فكل فرد يعلم من الآن فصاعداً: كان محرّماً عليّ أن أولد من تلك التي ولدتني، وأعيش مع تلك التي أعيش معها، وقتلت من كان عليّ ألا أقتله».

ويسرع أوديب الى داخل القصر. ويخرج خادم منه ويعلن أن جاكوست شنقت نفسها. ويطلب أوديب أن يُعطى حساماً؛ فيكسر الأبواب المزدوجة، ويرى جوكاست ميتة. ويفكّ الحبل، ويقتلع المشابك التي تثبّت الثوب على جسمها ويستخدمها ليفقأ عينه.

إننا لانقصد الشروع هنا في أن نحلّل أسطورة أوديب، ففرويد كان قد أنجز التحليل، واستأنف هذه المحاولة كثير من المؤلفين الآخرين منذ ذلك الوقت. وبوسع كل فرد أن يلاحظ في الأسطورة وجود كل العناصر

الأساسية لعقدة أوديب كغشيان المحارم المنجز[٦]، وقتل الأب، والإثمية، والخصاء، وحتى الرواية الأسرية، أي استبدال ثنائي أبوي آخر بالثنائي الأبوي الحقيقي. وهذا الانتقال، في رأيي، لايساعد الطفل في الإنجاز النرجسي فحسب (والمقصود بصورة عامة إحلال أسرة أخرى أكثر بريقاً من الناحية الاجتماعية محلّ الأسرة الواقعية؛ والبطل، في حالة أوديب، ينتقل مع ذلك من أسرة ملكية الى أخرى)، ولكنه يساعده أيضاً في رفع الإثمية عن الجريمة الأوديبية. فما نريد أبرازه هنا هو إضفاء السافات على الأسطورة (وعلى عقدة أوديب) المرتبط بكل أطوار التطور النفسي الجنسي، ووظيفتها التي تمنح البنية والنضج، وإبراز دلالتها أخيراً من حيث هي ملتقى طرق اجتماعي ثقافي.

ويبدأ تاريخ أوديب كما يبدأ تاريخ الأبطال جميعهم بصورة عامة، أي بضربٍ من الأزمة الحيوية الأولية، وهي في حال أوديب التخلّي عنه، بل نبذه في الواقع. إنه مطرود بصورة مفاجئة من فردوسه قبل الولادي، وذلك هو قدر أبناء البشر جميعهم. ولكن قدر أوديب أن يموت وعمره ثلاثة أيام، وأمه لاتعدّ له عشاً ولادياً جديداً يحل محلّ الغبطة الضائعة: يبرهن فورنزي في الواقع أن هدف العناية التي نغدقها على الرضيع يكمن في أن ننتج الوسط الذي كان وسطه قبل الولادة إنتاجاً جديداً. بل الأمر أسوأ من ذلك أيضاً: إن جوكاست هي ذاتها سبب نفيه. (هارولد ستيوارت، مقال في **الصحيفة**

---

(٦) «يا أيها الدرب المثلث، والوادي الصغير الظليل، وخشب السنديان، ياأيها الدرب الضيق في الطرق الثلاث، أنت الذي تخثّر دمي الذي ينصبّ من يديّ، يديّ أنا، دم أبي، هل تتذكّر الجرائم التي دنستك بها، ثم هل تتذكر، بعد أن أتيتُ إلى هنا، تلك الجرائم التي ارتكبتها أيضاً؟» أوديب الملك، ١٣٩٨-١٤٠٣.

ويبين جورج دوفورو («كيف قتل أوديب لايوس»؟، الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي، المجلد ٣٤)، أن معركة في مفترق الطرق دارت بحضور جوكاست، واقترفت جريمة غشيان المحارم في الموقع ذاته بعد القتل مباشرة.

العالمية لعلم النفس التحليلي، ١٩٦١، المجلدان الرابع والخامس، عنوانه «جرائم جوكاست»).

وفي رأى جورج دوفورو، تصرّفت جوكاست وهي على معرفة بالوقائع. يُضاف الى هذا أنها أغوت أب أوديب اذ أسكرته. وكان لايوس، الجنسي المثلي الذي أنذرته كاهنة الوحي، قد رفض أن يكون له نسل. ولكن امرأته قادته إليه. وتشرح هذه الجريمة المزدوجة أن عقوبتها، أي الانتحار، كانت أشدّ جسامة بكثير من العقوبة التي أصابت أوديب.

ونحن نمسّ هنا مستوى يرتسم فيه النزاع الأمومي بالنسبة للدراما الأوديبية بمعناها الحقيقي. فالدراما الأوديبية تموّه النزاع الأمومي إذا صحّ القول، نزاعاً سيكشف مع ذلك عن العنصر الأساسي في الوضع الأوديبي المنجز، كما سنرى ذلك فيما بعد. أما عن تعاقب الفصول الدرامية، فإنها تطابق الوضع النزاعي بين الدوافع، الذي لايتميّز من سيرورة النضج. وهذه السيرورة تقتضي المرور بكل أطوار النمو الليبيدي، وبالطور السادي الشرجي على وجه الخصوص. وعلى هذا النحو، فإن عناصر الحلقة الأخيرة من دراما أوديب، كما يبيّن دريك فان شيرّين على سبيل المثال، تضاعف، إذا جاز القول، على النمط السادي الشرجي، فعل الغشيان المحارمي بمعناه الحقيقي. فخلع باب القصر، ومسك السيف، واقتلاع المشبك، وانتحار جوكاست، هي تعبير عن مضاجعة عدوانية (سادية شرجية).

ومن خلال دمج العنصر السادي الشرجي يبلغ المرء نضجه، أي سن الرشد. وتمثّل هذه السن تلك السيادة على الواقعي، أي صورة من صور الصعود النرجسي بعملية النضج النفسي الجنسي.

ويرتفع على هذا النحو أوديب، ذو القدمين المثقوبتين، فوق الوضع الإنساني المثقل بالجرح النرجسي الأولي (Oïdipos معناها الزهو، ومعناها الانتصاب). والواقع أن سوفوكلوس يفرض في دراما **أوديب في كولون**،

نهايته على أنها معجزية. فالبطل يختفي في أحشاء الأرض، إذ يتّحد على هذا النحو بأمه؛ وذلك أسلوب في إنجاز الغشيان المحارمي على مستوى رمزي. والعنصر النرجسي -الفمي خلال المرحلة قبل التناسلية يمثّله في أسطورة أوديب مشهد السفنكس، وجه من وجوه الأم البدئية ذو الرمزية الغنيّة جداً. إنني أشرت في هذه المقدمة إلى أن سوفوكلوس يسمّيه مغنية الأوبرا في عدة مناسبات. ويدلّ إلحاح المؤلف على أنه يريد الإشارة بذلك الى شيء ذي أهمية. وفي رأيي أن القضية الأساسية (المحجوبة مع ذلك) في دراما سوفوكلوس-السفنكس الذي يطرح أسئلة ينبغي الإجابة عنها- هي الأم التي تعلّم طفلها اللغة. وهي تغوي الطفل بفعل التوظيف النرجسي الكثيف لهذه الفاعلية، التي تُنجز خلال الطور قبل التناسلي الذي ينتمي إليه الكلام، وتثبّته فيه وفق الصيغة المنحرفة. فيجد تطور الطفل نحو التناسلية نفسه على هذا النحو وقد توقّف. وينتصر أوديب عليها هنا أيضاً. ويتحرّر من هذا التثبيت، ويضع حداً لتبعيته إلى **كاهنة الوحي** (Oracle من اللاتينية Oris,Os، أي Bouche، فم) التي كان حتى ذلك الحين ضحيتها: إنه ينتقل من الكلام إلى الفعل. ونحن نصل إلى الأساسي، أي إلى دلالة الطور الأوديبي بالنسبة للعالم قبل التناسلي الذي يرعب السفنكس فيه الطفل، رعباً وسيلته اللغة. وأشرت في مكان آخر إلى ما أراد سوفوكلوس أن يبيّن بتاريخ السفنكس: نزاعاً حقيقياً بين ثقافتين. ويلاحظ هارولد ستيورات أيضاً في مصدر ذكرته سابقاً: «تاريخ أوديب يمثّل الانتقال من المجتمع ذي النسب الأمومي الى المجتمع ذي النسب الأبوي، مجتمع سلالة الأب». ويؤكد باشوفين أيضاً، في مؤلفه الشهير عن نظام الأمومة، أهمية هذه الفترة الرئيسة لنشوء حضارتنا. ذلك أن قرن سوفوكلوس هو قرن «المعجزة اليونانية». فكاهنة الوحي العجيبة والغامضة هي التي انتصر عليها الرجل ذو القدمين المثقوبتين. إنه دخل مسرعاً في العدم، والظلامية، والخرافة، وعبادة الأصنام، حتى يجعل العقل والوضوح منتصرين.

فأوديب أشاد حكم الواقعي حين عارض اللفظية التي وظّفتها الأم وأضفت عليها القداسة. ومن يتجاوز هذا الطور النكوصي يبلغ الأوديب، ومن ينتصر على السفنكس يتزوّج الملكة. وبيّن فرويد أن الأب يعني الواقعي، أعني المانع أمام الرغبة الأوديبية، ويمكننا اعتبار التحليل النفسي، في هذا المنظور، ارتقاء طويلاً وعسيراً إلى المعرفة والسيادة على الواقعي.

وهذه الرؤية التي ننظر من خلالها إلى أوديب تجعلنا نفهم لماذا يوجّه ضرب من التحليل النفسي، التحليل النفسي الخاص بجماعة «ضد أوديب»، هجماته الكثيفة على أوديب بالدقة، فهدفه أن يبلغ الرطانات المقدسة لـ «العذراء ذات المخالب المتثنية»، وذات الغناء اللغزي. وبالتبادل مع الأم على المستوى الشفوي ينكسف كل الواقع العميق للنزاع الأوديبي.

ويرى المرء إذن أن سوفوكلوس عرض سير التطور النفسي الجنسي حين استخدم أسطورة أوديب. والمادة الدافعية التي تكوّن محتوى مسرحيته(٧) صالحة لاندماج الأطوار المتتالية في سيرورة النضج، وتمثّل الاستيهامات المقابلة التي يعيشها المريض كما في الوضع التحليلي. ذلك أن فن المسرحة الكلاسيكي الذي يستخدمه المؤلف، مع الجوقة ووجه تيريزياس، يتيح للمرء إجراء مقارنات مع هذا الوجه. ولم يفت بعضهم مع ذلك أن يبيّنوا أن مفعول التنفيس يمكن اعتباره محلّ التحويل. ويتجلّى النضج الحاصل بتحرير البطل من التثبيت على الأم وبإضفاء الداخلية على أنا عليا (توحّد بالأب المثالي=الألوهية). وتقتضي الأنا العليا مواجهة الواقع والبحث العنيد عن الموضوعية، أي عن الحقيقة.

* * *

---

(٧) إننا أخذنا الجزء الرئيسي من اللوحة الثلاثية «أوديبوس الطاغية» بالحسبان على وجه الخصوص.

الباب الأول

أوديـــب والحضـــارة



«فرويد عام ١٨٩٧»

الفصل الأول

اكتشاف العقدة الأوديبية

سيغموند فرويد، المولود في ٦أيار ١٨٥٦ في فريبر بمورافيا، هو الابن الأول لجاكوب وأماليا فرويد. وعندما تزوّج جاكوب، تاجر الصوف والباقي عازباً مع ابنين كبيرين، للمرة الثانية[١] أماليا ناتانسون التي لم تبلغ ربيعها العشرين، كان عمره نحواً من أربعين عاماً. فكان فرويد، منذ ولادته، عمّ صبي من الصبيان، ابن أخيه غير الشقيق. فمفارقات النسب تشغل إذن باله منذ السنين الأولى من حياته. وهذا ولاريب عامل من العوامل التي وجّهت اكتشافه الرئيس الذي سيحقّقه في هذا الشهر، شهر تشرين الأول من عام ١٨٩٧.

ولنعد، على الرغم من كل شيء، إلى الوراء بعض السنين لنفهم ما الذي وضع فرويد على هذا الدرب. أصبح سيغموند عام ١٨٨١ طبيباً في فيينا. ثم صمّم بعد سنتين على التخصّص في ميدان علم الأعصاب. وتعرّف بعد ذلك على اختصاصي في الأنف والأذن والحنجرة، ولهلم فليس، المقيم في برلين. ويمارس ولهلم، الفاتن الآسر المحدّث، جاذبية على فرويد ليست موضع خلاف، ولاسيمّا أنه بدا منفتحاً على النظريات التي شرع فرويد يضعها حول الأصل الجنسي للعصاب. وعلينا ألاننسى أن نزعة طهرية مؤكدة كانت أيضاً تسود هذا العصر في الأوساط العلمية. ويتبادل الرجلان مراسلة كاملة ستتّخذ أهمية فريدة.

(١) بعض المعطيات الحديثة تتيح الافتراض مع ذلك بأن زواجه هذا كان زواجاً ثالثاً.

ومايطلبه فرويد من فليس هو أن يبدي رأيه فيما يعرضه عليه. ولكن الرسائل تصبح شخصية أكثر بكثير عندما يشرع في تحليل ذاتي لحالته. ذلك أنه يعاني، خلال نحو من عشر سنين، عصاباً (عصاب هستيريا الحصر على وجه الاحتمال). إنه يحلّل أحلامه كما يفعل مرضاه ويجد نفسه مثلهم واقعاً في علاقة من علاقات التبعية: يصبح فليس بديل الأب.

مات أبوه في ٢٣ تشرين الأول ١٨٩٦. وسنرى مع ديديه أنزيو أهمية هذا الحدث في اكتشاف العقدة الأوديبية المقترنة بالتحويل الذي أنجزه على صديقه، بعد سنة من موت أبيه على وجه الدقة. وإلى فليس أولاً إنما أعلن سيغموند فرويد اكتشافه في رسالة تاريخها ١٥ تشرين الأول ١٨٩٧.

وتبيّن هذه الوثيقة أن فرويد يضفي على اكتشافه دفعة واحدة قيمة كلية. فأسطورته الشخصية تجد انعكاسها الصحيح في مسرحية سوفوكلوس، **أوديب الملك**، التي تعبّر هي ذاتها عن أسطورة. ويجد في هاملت إشكالية مشابهة، والفاصل الزمني بينهما قرون عديدة. وسيضيف سيغموند فرويد، فيما بعد، إلى الكلية في الزمان تلك الكلية في المكان، وسيكون ذلك في كتابه الطوطم والتابو.

النص الأول: ديديه أنزيو

١- رسالة فرويد التاريخية الى صديقه ولهلم فليس

١٥-١٠-١٨٩٧

IX. بورغاس ١٩.

عزيزي ولهلم،

الأمر الأكثر اتصافاً بأنه أساسي لديّ حالياً هو في الواقع تحليلي الذاتي، ويَعِد أن يكون بالنسبة لي ماله الأهمية الكبرى إذا أفلحت في إنجازه. وطرأ عليه بصورة مفاجئة توقّف دام ثلاثة أيام شعرت خلالها بهذا

الانطباع من الإكراه الداخلي الذي يشكو منه مرضاي شكوى مُرّة، وكنت حائراً. . .

ولم يخطر ببالي أن لفكرة واحدة قيمة عامة. ووجدت في نفسي، كما يوجد في كل نفس، عواطف حب لأمي وغيرة من أبي، وهي عواطف مشتركة بين جميع الأطفال الصغار كما أعتقد، حتى عندما لا يكون ظهورها مبكّراً مثلما هي لدى الأطفال الذين أصبحوا هستيريين. وإذا كان الأمر على هذا النحو تماماً، فإن المرء يفهم المفعول المؤثر لمسرحية **أوديب الملك**، على الرغم من كل الاعتراضات العقلية التي تعارض فرضية قدر لايرحم. ويفهم المرء أيضاً لماذا كان أمراً لامفرّ منه أن تخفق كل الدرامات الأحدث عن المصير إخفاقاً على نحو يُرثى له. فعواطفنا تتمرّد على كل قدر عبثي كما يوجد معروضاً في **الجدّة**. ولكن الأسطورة اليونانية أدركت قسراً يعترف به الجميع لأن الجميع أحسّوا به. فكل مستمع كان يوماً من الأيام، في أصله أو خياله، أوديباً، ويرتعب أمام حلمه المنقول إلى الواقع، ويرتعش وفقاً لمقدار الكبت، مقداره كله، الذي يفصل حالة الطفولة لديه عن حالته الراهنة.

ولكن ثمة فكرة خطرت ببالي: ألا يجد المرء في قصة **هملت** وقائع مماثلة؟ إنني أفرض، دون أن أفكر بمقاصد شكسبير الشعورية، أن حدثاً واقعياً دفع الشاعر إلى أن يكتب هذه الدراما، إذ أتاح له لاشعوره الخاص أن يفهم لاشعور بطله. فكيف يشرح المرء هذه الجملة التي قالها هملت الهستيري: «ألا يجعلنا الوعي على هذا النحو جميعنا جبناء؟». وكيف يفهم المرء تردّده في أن يثأر لأبيه بقتل عمه، هو الذي لم يكن لديه وازع من ضمير في إرسال ندمائه إلى الموت ولايتردّد ثانية واحدة في قتل لايرت؟ فكل شيء يتّضح على نحو أفضل عندما يفكّر المرء بالعذاب الذي تثيره في نفسه تلك الذكرى المبهمة، ذكرى أنه تمنّى، تحت تأثير شغفه بأمه، أن يقترف الجرم نفسه بحق أبيه. «لو أننا كنا نعامَل وفق ما نستحق، فمن بوسعه أن يفلت من الجلد؟».

٢- شروط اكتشاف

كان التحليل الذاتي لفرويد، حتى ذلك الحين، عرَضياً ومجزأ. ويشرع فرويد، بين شهر حزيران وآب ١٨٩٧، بجعله تحليلاً منهجياً. ونابت هذه الفاعلية لديه مناب مشروع كتاب عن الأحلام، مشروع لم يكد يولد. ولكن هذه الفاعلية ترتبط بالمشروع ارتباطاً وثيقاً: إنها تمثّل «جزءاً وسيطاً لاغنى عنه» (فرويد، ١٤آب ١٨٩٧) صوب هذا المؤلف، مؤلف هو نفسه مدخل الى «السيكولوجيا الكاملة لضروب العصاب» التي يحتويها الحلم «بصورة جنينية» (فرويد، ٧تموز ١٨٩٧). فهل يعني أن يكون المحرّض على التحليل الذاتي لفرويد مجرد باعث فكري وعلمي؟ كان انطلاقه بحاجة إلى سبب آخر سمّاه إديث بوكسبوم (١٩٥١) «عصاب التحويل» لفرويد[٢]، عصاباً جديراً ببعض الشروح.

الشهور الثلاثة لصيف ١٨٩٧ موسومة بتفاقم الصعوبات الشخصية لدى فرويد. وتحدّد ما يحتويه أعمق أعماقه من الأفكار المرهقة، والميول الاكتئابية، وعواطف العجز والإخفاق والإثمية. ويمكننا وصف هذه الصعوبات، التي يبدو أنها لم تتجاوز أبداً ذلك المستوى المألوف الخاص بالإنسان السوي، بأنها صعوبات عصابية من حيث أن لدى الإنسان المسمى سوياً صعوبات منها دائماً، ولكنها لاتكشف أبداً عن بنية نفسية مرضية حقيقية. وإذا كان شارحو فرويد قد مضوا إلى حدّ الكلام على عصاب لديه، فإنهم تكلموا على غرار ما كان يتكلم. ويكتب في ١٢ حزيران يقول: «عانيت ضرباً من العصاب» (فرويد)، ١٢حزيران ١٨٩٧). وفي ٧تموز: «أستمرّ على جهلي ماحدث لي. فثمة شيء قادم من الأعماق السحيقة لعصابي الخاص عارض أن أتقدّم أيضاً في فهم الأعصبة لديّ وكنتَ أنت متورطاً في ذلك، وأنا أجهل السبب» (فرويد، ٧تموز ١٨٩٧). وفي ١٤آب: «إنني الآن، بعد فترة من الابتهاج، فريسة أزمة من الكآبة. و

(٢) انظر، فيما يخصّ عصاب التحويل، علاج التحليل النفسي، في المجموعة نفسها.

يشغل بالي أكثر ما يشغله مرضاي هو أنا نفسي. وعصابي الهستيري، الضعيف الذي تفاقم جداً بالعمل، خفّت حدّته قليلاً. والباقي لايزال مستمراً» (فرويد، ٤آب ١٨٩٧). ومثل هذه المشاهد النفسية المرضية الحادّة وذات المدة الزمنية القصيرة نسبياً، التي تموّه نكوصاً شديداً وتعديلات كبيرة في الاقتصاد الدافعي، تطرأ على الأغلب خلال مرحلة حضانة لاكتشاف أو لإنتاج فكري: إن إلّنبرجر وصف هذه المشاهد بعبارة «المرض الخلاّق». ولفت الانتباه لين وحركة ضد الطب النفسي، على وجه والعموم، الى السمة العلاجية الذاتية التي يمكن أن يتّسم بها لدى بعض الأفراد مشهدٌ ذهاني.

ويبدو أن فرويد لم يستخدم قطّ، باستثناء صيف ١٨٩٧، مصطلح العصاب في موضوعه الخاص. فالظاهرة موضوع البحث ذات علاقة بالظروف على نحو وثيق. ولم يكن فرويد حتى هنا يولي صعوباته الشخصية، شأنه شأن كل شخص سوي، سوى اهتمام معتدل. والتحليل الذاتي لبعض الأحلام، ذو الهدف التجريبي على وجه الخصوص، نشّط هذه الصعوبات الشخصية: والتفاقم ذاته، تفاقم الأعراض، يوجد على الغالب مجدّداً خلال ضرب من التحليل النفسي. وعمل الحداد حرّك ميوله الاكتئابية. ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك. فلا يتوصّل فرويد إلى إنجاز علاج بالتحليل النفسي. ولايفلح في أن يضع نظرية صحيحة. وعليه أن يستسلم للبداهة: فليست العقبة، وفق التعبير الأخّاذ الذي أطلقه باشيلار، عقبة إبستيمولوجية فحسب، ولكنها تكمن في نفسه. وحين يوجّه إليها الانتباه، فإنها تجتاح الشخص كله. ويتجلّى «عصاب» فرويد بضرب من معاودة الآلام واشتدادها ومن كفّ العمل بصورة تامة. «لم يسبق لي أن كنت مصاباً بشلل فكري شبيه بالشلل الحالي. فكتابة أوهى سطر من السطور عذابٌ بالنسبة لي» (فرويد، ١٢ حزيران ١٨٩٧). وكل اكتشاف من الاكتشافات الكبرى التي ستؤرّف التحليل الذاتي لفرويد وتكوّن الجزء الرئيس من المفهومات الأساسية في التحليل سيكون مسبوقاً على نحو مماثل

بمرحلة من الشلل. وآخر اكتشاف في هذه المجموعة سيستشعره فقط وهو ينهي تحرير كتابه تفسير الأحلام: إنه اكتشاف الاستيهام الكامن تحت هذا الشلل، استيهام الخصاء.

٣- صعوبات شخصية تعلن عن إبداع

والحال أن التوقّف الراهن ذو علاقة وثيقة بفليس: «يبدو أن الهدف من تعذّر الكتابة الذي أصابني هو أن يعوق علاقاتنا. وليس لديّ أي دليل على كل ذلك، والأمر مقتصر على انطباعات غامضة كل الغموض» (فرويد، ٧تموز ١٨٩٧). وسيرى فرويد في منتصف تموز أخت زوجته ميناً في سالزبورغ وحماته في ريخنهال. ثم يعود إلى فيينا لترتيبات خاصة بقبر أبيه. ويلحق أخيراً بأسرته التي تقضي أيام الإجازة الصيفية في أوسّي، أواخر شهر تموز. وهنا في أوسّي، إنما يبدو أنه يبدأ تحليله الذاتي المنهجي. وتصبح الرسائل الى فليس أكثر ندرة وأكثر فراغاً. واللقاء بينهما في شهر آب، المنتظر جداً مع ذلك، مطلوب إلغاؤه: «إنني مرغم على أن أكرّر لنفسي أنني حسناً فعلت إذ أرسلت إليك أمس طلب إلغاء اللقاء، وإلا فإنني سأشعر بأنني مكروب جداً. . . إنني مصاب بخدر فكري وليس بوسعي هنا أن أفلح في أهدّىء هياج أفكاري وعواطفي. . . وهذا التحليل أعسر من أي تحليل آخر وهو أيضاً يشلّ قدرتي على عرض المفهومات المكتسبة سابقاً وعلى نقلها. وأعتقد على الرغم من كل شيء بوجوب الاستمرار فيه وأنه يكوّن جزءاً وسيطاً لاغنى عنه في عملي (فرويد، ١٤آب ١٨٩٧).

وتتيح مجموعة هذه الحوادث دعم الفرضية التي قال بها إديث بوكسبوم، فرضية «عصاب التحويل». ففرويد دلف في حوار مع فليس الذي يتوقّع منه فرويد أن يعترف اعترافاً تاماً به وبعمله. ويقوده هذا الحوار إلى أن يطرح مسألة معنى الحياة ومعنى أعماله، في وقت واحد. وتتطلّب فرضية بوكسبوم مع ذلك أن يعبّر عنها المرء تعبيراً أكثر دقة: «عصاب التحويل» هذا لم يستقّر على فليس في زمن غير معيّن، بل إنه ذو علاقة

بالعمل الكثيف للحداد، عمل أثاره لدى فرويد موت أبيه. والاكتشافات الرئيسة التي سينجزها في هذا الشهر القادم، شهر تشرين الأول عام ١٨٩٧، لن تحدث كذلك في زمن غير محدّد: إنه الشهر الأول من مرور عام على هذه الوفاة، وفاة أبيه.

٤- أسطورة أوديب

كيف سينظّم فرويد اكتشافاته الخاصة بماضيه وكيف سيفهمها؟ إنه سينظمها ويفهمها بإضفاء الكلية عليها وإبراز بنيتها الرمزية. فلم تعد الكيمياء، ولا علم الآثار أو اللسانيات، هي التي ستقدّم هذه البنية إلى فرويد، بل الأسطورة المتجسّدة في التراجيديا. وبعد أن اقتبس أمثلته من القواعد التي تنظّم تناسق الأجسام أو الكلمات، فإن الوظيفة الرمزية التي يستشعرها فرويد في الحلم موجودة في الأسطورة، هذه المجموعة من القواعد التي كانت تنظّم المصير الإنساني بالنسبة للقدماء. وتجد الوظيفة الرمزية في الأسطورة تلك المادة التي يُصنع منها مجرى تحليل نفسي. ولاينفكّ فرويد، في كتابه **تفسير الأحلام**، في باب معنون بحياء «حلم موت الأشخاص الأعزاء»، يستعيد محتوى هذه الرسالة بتاريخ ١٥ تشرين الأول ويفصّل فيه. فالأسطورة هي على هذا النحو، شأنها شأن الحلم والاستيهام، إنجاز رغبة. وبعض المحلّلين النفسيين السويسريين المجتمعين حول يونغ هم الذين سيبتكرون، قبل الانشقاق، مصطلح **العقدة**، ولن يلجأ فرويد، قبل عام ١٩١٠، إلى مصطلح **عقدة أوديب** التي ستظهر في المساهمة الأولى من **المساهمات في سيكولوجيا الحياة الغرامية** (١٩١٠). فمصدر الإلهام لدى فرويد هو أسطورة **أوديب**. وما أدخله فرويد في العلوم الإنسانية، كما رآه توماس مان جيداً (١٩٣٦)، هو الأسطورة بوصفها مقولة تتيح فهم الحوادث بصورة نوعية.

وفي اكتشاف هذه الأسطورة، أسطورة أوديب، ينجز فرويد إنجازاً تاماً هذه الحركة الثلاثية، الذاتية، الموضوعية، التشخيصية الذاتية، منذ بداية

تحليله الذاتي: اكتشاف حقيقة كلية، واكتشاف نفسه، واكتشاف الاكتشاف نفسه. ونحن نقصد أن نقول بهذا التعبير الأخير: اكتشافاً ملحقاً بالسيرورة التي بها، هي ذاتها، يتمّ الاكتشاف الرئيس. ويحقّق فرويد تحقيقاً رمزياً عقدة أوديب الخاصة به حينما يبتدع عقدة أوديب. ويشخّص الحلم بالنسبة له، ولكل تحليل نفسي، وربما لكل العالم، جسم الأم، محل الإنجاز الأصلي لرغبة الطفل. ففهم الأحلام، أي فهم أحلامه الخاصة، هو امتلاك هذا الجسم المفقود امتلاكاً جديداً. وهذا الامتلاك الجديد يتحدّد ويُعمّم في تشرين الأول ١٨٩٧. وفرويد أوديبٌ جديد يغزو اللاشعور، إذ يدركه في بنية من بنياته الأساسية. ويمثّل كل اكتشاف كبير، ولاريب، شكلاً من الأشكال المتنوّعة إلى حد كبير للفتح الأوديبي الجديد.

٥- ظروف تشرح الإبداع الأدبي والاكتشاف العلمي

كان فرويد ذاته أوديباً بعواطفه إزاء الثنائي الأبوي. إنه أيضاً أوديب لأنه حلّ لغز العصاب، وهو في الحقيقة لغز كل إنسان. ويكشف الآن فكره الخصب عن الجذور اللاشعورية نفسها، العاملة في تراجيديا **هملت**: رغبة في غشيان موجّهة صوب الأم، ورغبة في القتل موجّهة صوب بديل للأب. ولكن الفارق يكمن في أن هملت مثال الإنسان الذي صنعته هذه العقدة وتسكنه عاطفة لاشعورية من الإثمية جرّاء هاتين الرغبتين، وتشلّه هذه العاطفة في أعماله وعواطفه وحياته، في حين أن أوديب الأسطورة كان دون عقدة (إنه يحقق رغباته بصورة طبيعية وبريئة إذا صح القول، والمشكلات لاتأتي إليه إلا فيما بعد). يقول فرويد: «الوجدان الأخلاقي يجعلنا رعاديد». إن هملت لايفلح في أن يستجيب لحب أوفيلي ولا أن ينجز الثأر الذي أوقعه شبح أبيه على عمه، عشيق أمه. وهو لايبدو في الجوانب الأخرى جميعها من حياته، عندما لايتعلّق الأمر بمسائل تحرّك في نفسه هذه العقدة، وجلاً ولامتردداً، بل على العكس عازماً ومندفعاً، «هو الذي، كتب فرويد يقول في الرسالة نفسها الى فليس، ليس لديه وازع من ضمير

يمنعه من إرسال ندمائه الى الموت، ولا يتردّد ثانية واحدة في قتل لايرت». إنه خطأ غريب مع ذلك ارتكبه فرويد في رسالته الي فليس: خطأ إضافي ذو علاقة مرة أخرى بـ «تحويله» على فليس. وسترابنسكي هو الذي كشف عنه: «يجهل هملت أن سيف تعليم المبارزة قد أُزيلت عن رأسه الحدبة التي تمنع نفوذه وأنه مسموم. وهملت يقتل لايرت دون أن يعلم أنه يريد ذلك. فلأي دواعٍ، وهو يكتب الى فليس، يعزو فرويد إلى هملت تلك النية المتعمّدة لضرب من قتل الأخ؟ أم هل انزلق اسم لايرت هنا، بفعل هفوة فريدة، محل اسم بولونيوس؟». ولنعد الى رسالة فرويد إلى فليس: الخلاصة أن هملت يسلك سلوك «الهستيري»، ببرودته الجنسية، وبنقل الفعل الذي يخص ّأباه إلى شخص آخر (أوفيلي)، وبكونه يجتذب القصاص إلى نفسه في نهاية المطاف (فرويد، ١٥تشرين الأول ١٨٩٧). وسيستأنف الشرح نفسه في **تفسير الأحلام** مع إضافتين على الأقل. فالإضافة الأولى ذات علاقة بـ «ازدياد مطّرد قديم في الكبت»، سيقدّم موضوعاً من الموضوعات الرئيسية لكتابه **الطوطم والتابو** (١٩١٢-١٩١٣). والإضافة الثانية سترتبط تراجيديا **هملت** بشخصية فرضية لشكسبير: «إنني، من أعمال جورج براندس حول شكسبير، أقتبس التأكيد الذي مفاده أن تأليف الدراما كان قد تلا مباشرةً موت والد شكسبير (١٦١٠)، أي خلال فترة الحداد الذي أحاط بفقده الحديث وخلال الفترة التي انبعثت فيها، ونحن ميّالون لقبول ذلك، ذكريات الطفولة ذات العلاقة بأبيه. ومن المعلوم أيضاً أن ابن شكسبير الذي مات وهو صغير كان يسمى هملت (مماثل لاسم هملت الدراما). ويؤكد ستاروبنسكي تماماً توحّد فرويد بشكسبير، توحداً يتجلّى هنا بوضوح: «يقول لنا فرويد بكلمات مقنّعة، حين يلحّ على العلاقة الزمنية الوثيقة بين موت والد شكسبير وتأليف **هملت**، إن الإبداع الشعري، في هذه المناسبة، حدث في ظروف هي الظروف التي حدث فيها الاكتشاف الأوديبي نفسها، ذلك الاكتشاف الذي تلا تحليل الأحلام التي طرأت خلال الأشهر التي

أعقبت موت أبيه. ويقتضي كتاب **تفسير الأحلام**، على مستوى المعرفة، أن يكون المكافىء لما كانت دراما **هملت** في تطور التأليف المسرحي لدى شكسبير. إن فرويد هو شكسبير الذي حلّل نفسه».

٦- من التراجيديا القديمة إلى عقدة كلية

استخدام أسطورة أوديب في سيكولوجيا اللاشعور يتعثّر مع ذلك بصعوبة مارس فرويد تجربتها المعاشة: أوديب ضرب من تراجيديا القدر؛ والحال أن الإنسان الحديث لايمكنه أن يعتقد بحتمية خارجية. وثمة فعل ذو دلالة يحمل الجواب. ففرويد سيُعنى يومياً بالسيدة المسنّة المعروفة جيداً: بعض النقاط في العينين من قطرة عين وحقنة من المورفين. إنه ينجز هذه الحركات بصورة آلية. ويرتكب صباح أحد الأيام، بين ٤و١٥ تشرين الأول، خطأ من خطأين ممكنين، خطأ غير مؤذ من حسن الحظ: بدأ فرويد يقطر المورفين في العينين. وتبيّن له الأمر في الحال وصحّح خطأه. ولكنه فهم سريعاً، بالجملة التي خطرت على باله، جملة هي «انتهاك حرمة العجوز»، أنه كان يوشك أن يساعد القدر.

وشرح فرويد عاطفة القدر شرحاً قدّمه الى فليس، في رسالة ١٥ تشرين الأول ذاتها دائماً. «كل مستمع كان في يوم من الأيام، في أصله أو بالخيال، أوديباً، ويرتعب أمام تحقيق حلمه المنقول الى الواقع». ولكن شرح الفعل موجود فقط في كتابه **علم الأمراض النفسي للحياة اليومية**: «كنت تحت تأثير حلم كان قد رواه لي أمس أحد الشباب وكنت أعتقد أن بوسعي تفسيره على أنه ذو صلة بعلاقات جنسية خاصة بهذا الشاب مع أمه.

ووصلت الى منزل مريضتي التسعينية وقد استغرقت في هذه الأفكار، وكنت ولاريب على وشك أن أدرك السمة الانسانية بصورة عامة لأسطورة أوديب بوصفها ذات ارتباط بالقدرية التي تعبّر عن نفسها في كاهنات الوحي، لأنني ارتكبت بعد ذلك مباشرة ضرباً من الخطأ الذي كانت السيدة المسنة ضحيته».

ويخبرنا هذا النص عن أصل الاكتشاف الفرويدي. ففرويد يجد في تحليله النفسي الذاتي رواسب أوديبية في طفولته. ولكن البداهة الأوديبية فرضها عليه التحليل النفسي لمرضاه. فثمة ارتباط بين تحليله النفسي الذاتي وتحليل مرضاه النفسي: إن تحليله النفسي الذاتي يكوّن، بالنسبة لممارسة العلاج النفسي لديه، ضرباً من التمرين لإقامة البيّنة؛ ومعارفه المكتسبة في ممارسته تفيده في تحليله النفسي الذاتي بالمقابل. والمريض موضوع البحث هو بالتأكيد شاب مصاب بالوسواس يعاني أفكار قتل منذ موت أبيه، ونحن نعتقد بأنه كان قد وضع فرويد على درب اكتشاف الرغبة في موت الأب من الجنس نفسه، اكتشاف أنجزه فرويد أواخر شهر أيار ١٨٩٧ . ويتنبأ المرء بما أوحته إلى فرويد تلك الجلسة التي روى فيها المريض له أنه ارتكب فعل غشيان المحارم مع أمه في الحلم (إنه سيتكلّم على هذا المريض في **تفسير الأحلام**، تماماً قبل أن يعرض اكتشافه «أسطورة أوديب»). ونحن، من وجهة نظر إيبستمولوجيا الاكتشاف الفرويدي، أمام معطى رئيس: إن الذين أتاحوا لفرويد أن يكتشف معنى الأحلام هم فتيات وصبايا هستيريات؛ وعلى العكس، إن شاباً مصاباً بالوسواس هو الذي قاد فرويد إلى اكتشاف عقدة أوديب. وليس التحليل النفسي، المحدوس انطلاقاً من تأمل نظري تجديدي حول الهستيريا، مؤسساً في نهاية المطاف إلا بدءاً من اللحظة التي أتاح خلالها لفرويد أن يفهم العصاب الوسواسي.

٧- من هو أبي؟

مشكل أوديب هو مشكل النسب. إنه يتساءل ممن وُلد. وكاهنة الوحي، تجسيد مادي للصوت الداخلي، جعلته يطرح على نفسه السؤال. وفي ذلك يكمن جانب من المشكل الذي يلاحق الأطفال جميعهم: من أين يأتي الأطفال؟ ويجد المرء مجدّداً صدى هذا المشكل في المشكلات الفلسفية: من أنا؟ من أين يأتي الإنسان؟ الإنسان ابن من؟ والجواب يفترض الاعتراف بفارقين، فارق الجنس وفارق الأجيال. ولكل مجتمع منظومة تحدّد علاقات القرابة. والإنسان موجود متحضّر في جزء كبير منه لأنه

يفلت، وهو قادم إلى العالم، من النظام الطبيعي، وأنه يدخل، بفعل هذه المنظومة، في النظام الإنساني الذي يتصف أنه بالتأكيد على قدر كبير من الرمزية بحيث أنه كان على ليفي شتراوس (١٩٤٩) أن يلجأ الى اختصاصي في الجبر حتى يمثّله. إنه السؤال الذي طرحه فرويد على نفسه وهو صغير جداً، والدافعية الأولى لفضوله العلمي. والحقيقة أن اللغز بالنسبة له معقّد على وجه الخصوص. فزواج أبيه مرتين (أو ثلاث) ينضاف إلى التشابكات الأسرية المألوفة لدى اليهود. وكان على سيغموند، الطفل في فريبرغ، أن يصنّف محيطه تصنيفاً عفوياً زوجين زوجين وفق الأعمار.

ولاريب في أن موجوداً يواجه مثل هذه الصعوبات كان بوسعه وحده أن يكتشف عقدة أوديب. وحين يلوم بعضهم فرويد لأنه وضع الجنسية في قلب المآسي الإنسانية جميعها ويتّهمونه بسبب ذلك أنه يهتّم اهتماماً منحرفاً بلذائذ المضجع وأسراره، فإنهم يجهلون هذا الإنسان واكتشافه. إن فرويد استطاع أن يفلح فيما لم يكن أي شخص من الأشخاص قد أفلح فيه بعدُ، وآخرهم بروير. إنه يدرس الانعكاسات السيكولوجية للمشكلات الجنسية بوصفه عالماً بالتشريح وهو يحتفظ بهدوئه في جميع الظروف. ولايهتمّ فرويد بفيزيولوجيا اللذة ولا بفن الأعمال العاطفية والغرامية. وتعني الجنسية بالنسبة له نموذجاً من العلاقات الإنسانية يستخدم نظام الجنسين ونظام الأجيال ويتطوّر وفقاً لبعض البنيات الد قيقة. فالإنسان ابن أبيه وأمه: وفي ذلك يكمن القدر الذي لايفلت منه أي شخص والذي تنقله إلينا كاهنة الوحي دونما شفقة. وموت جاكوب فرويد أثار في نفس ابنه العودة إلى الألغاز وفتح الدرب الى حلّها في الوقت نفسه. فالمرء يفلت من القدر حين ينجزه. ويفلت المرء من الطفولة حين يصبح شخصاً كبيراً. وبوسعه أن يصبح أباً بدوره بعد أن يقتل أباه قتلاً رمزياً. ثم يتمنّى بدوره، شأنه شأن موقف لايوس من أوديب، موت أطفاله، وتجد الدارة نفسها عندئذ مغلقة.

٨- المفعولات المذهلة لضرب من التحليل الذاتي

رؤى التحليل الذاتي تركت فليس لامبالياً إلى حدّ كاف، ويتذمّر فرويد من هذا الوضع. «إنك لا تحدّثني عن شرحي **أوديب الملك وهملت**. إنني لما أعرضه على أي شخص آخر غيرك لأنني أتخيّل بسهولة ذلك الاستقبال العدواني الذي سيلاقيه» (فرويد، ٥ تشرين الثاني ١٨٩٧. ويعزّي فرويد نفسه حين يقرأ الكتاب الأخير الذي ألّفه بالدوين، **النمو العقلي لدى الطفل والعرق** (١٨٩٥)، حيث يجد بعض وجهات النظر القريبة جداً من وجهات نظره، وحين يقضي سهرة نابضة بالحياة مع صديقه إيمانويل ملوي، أستاذ علم الآثار في روما، الذي يؤجّج حنينه إلى المدينة الأبدية.

ويتّسم التحليل الذاتي المنهجي لفرويد، في شهري أيلول وتشرين الأول ١٨٩٧، بأربع خصائص ذات أهمية:

١- إنه يندرج في حركة من البحث عن الحقيقة ومعرفة الذات، ظلّت فلسفية حتى ذلك الحين. «إنه لتمرين جيد أن يكون المرء مخلصاً لذاته كل الإخلاص» (فرويد، ١٥ تشرين الأول). ويكتشف فرويد هنا ماهية العصاب: الحقيقة المجهولة؛ وحقيقة التحليل النفسي: الحقيقة المرمّمة.

٢- وهذا البعث، بعث الحقيقة، لا يوظّف النفس برمتها فحسب، وفق تعبير أفلاطون، ولكنه بالإضافة إلى ذلك يوظّف الجسم الذي ينجز فرويد اكتشاف قدرة التعبير الرمزية لديه، قدرة تنبّأ بها سابقاً مع التحوّل الهستيري. يقول فرويد: «تحلّ حالياً محلّ اضطراباتي القلبية على الغالب ضروب من عسر الهضم تحت تأثير التحليل» (فرويد، ٣١ تشرين والأول ١٨٩٧). ولن يتكلّم فرويد فيما بعد أبداً عن اضطراباته القلبية التي بوسع المرء إذن أن يعتبرها محلولة. والمشكلات الهضمية، المذكورة، حينما ذُكر حلم التأنيب بسبب القذارة، تعلن الطور التالي، أي النكوص إلى المرحلة الشرجية[٣].

---

(٣) انظر مراحل الليبيدو، في المجموعة نفسها.

٣- التحليل النفسي الذاتي يشيد الحقيقة حين يبعث الماضي الشخصي . وبذلك تتّضح صلة القربى بين التحليل النفسي والشعر . ويذكر فرويد كلمة الإهداء بمناسبة فوست غوته : «وتنبعث الظلال الغالية، وينبعث معها الحب الأول والصداقة الأولى وكأنهما أسطورة قديمة منسيّة» . ويضيف فرويد : «يحدث الأمر نفسه للرعب الأول ،والخلاف الأول . وثمة سر حزين من الأسرار يلغي نفسه مردوداً إلى مصدره الأول، ويبين للمرء عندئذ ذلك الأصل المتواضع لبعض ضروب الزهو وبعض المزايا» (فرويد، ٢٧ تشرين الأول ١٨٩٧) . ويستأنف فرويد الاستشهاد بكلمة الإهداء في كلمته القصيرة التي ألقاها في بيت الشاعر ويقول: «يمكن لهذا الاستشهاد أن يتكرّر في كل تحليل من تحليلاتنا» . ويشرح فرويد، في الرسالة نفسها الى فليس بتاريخ ٢٧ تشرين الأول، الفارق بين الشاعر الذي «يستخدم امتيازه في إضفاء النبل على الأشياء جميعها» والمحلّل النفسي الذي يستخدم «التصعيد»، وهو مفهوم مصيره أن يخضع إلى تفصيل كبير لاحق . وسيعبّر فرويد في كتاباته غالباً عن أسفه لأنه لم يكن قطّ شاعراً : لدى الشاعر معرفة مباشرة للفؤاد الانساني، في حين أن المحلّل النفسي لايتوصّل إليها إلا بوساطة عمل طويل شاقّ .

٤- وإذا كان التحليل النفسي الذاتي الذي أنجزه فرويد لم يتقدّم إلا في ضوء المعارف الموضوعية المكتسبة مباشرة خلال تحليلاته، فإن هذا التحليل النفسي الذاتي، على العكس، يكوّن قلباً مثمراً في الأدوار . يقول فرويد : «رأيت أنا نفسي في نفسي كل ما استطعت أن ألاحظه لدى مرضاي بوصفي مستمعاً» (فرويد، ٢٧ تشرين الأول ١٨٩٧)، فالاكتشاف الأوديبي ناجم عن السيرورة الأولى . وهناك، على العكس ، ثلاثة اكتشافات أخرى هي الثمرة المباشرة للتحليل النفسي الذاتي الكثيف في شهر تشرين الأول : المزيّة الثانوية للمرض، وتحليل المقاومات، ومراحل النمو الجنسي .

آ- «إنني مقتنع اقتناعاً متعاظماً أن جميع الصعوبات التي تعترض

العلاج مصدرها أننا نحرّر ميول المريض السيئة في نهاية المطاف، أي رغبته في أن يظلّ مريضاً» (فرويد، ٣ تشرين الأول ١٨٩٧). ويقول: «أشعر هذا الصباح بابتهاج كبير...». وهذا الشعور المستساغ يرتبط إذا صحّ القول بفكرة مفادها أنه كان سيبدأ تحليل ضرب من الهستيريا، إذ يوضّح الأسباب التي كانت تدفع المرضى إلى قبول مرضهم (فرويد، ١٨ تشرين الأول ١٨٩٧).

ب- لم يعد فرويد يعتبر المقاومة(٤) مانعاً للعلاج، إذ يجعلها مندمجة بالعلاج. ويرى في المقاومة تجلياً إيجابياً لـ«سمة الفرد الطفلية». ويقول: «أنبش عنها بفضل عملي، وهي تقاوم، ويصبح الفرد، الطيب جداً حتى الآن والصادق جداً، فظاً، مزيّفاً أو متمرّداً، ومتصنّعاً إلى أن تحلّ الفترة التي أريه خلالها هذه السمة الطفلية، وأفلح خلالها على هذا النحو في أن أجعلها تتراجع. فالمقاومة تصبح عندئذ أمراً موضوعياً بالنسبة لي ومحسوساً» (فرويد، ٢٧ تشرين الأول ١٨٩٧). ويبيّن هذا النص في الوقت نفسه عكس التحويل الفعّال، والمسيطر لدى فرويد، الذي ما انفكّت ممارسة عكس الإيحاءفي التنويم المغناطيسي تعززّه ولن يكفّ، مع أنه هدأ في الوقت نفسه، عن التجلّي طوال دربه، درب التحليل النفسي.

جـ- وثمة رسالة طويلة، تاريخها ١٤ تشرين الثاني ١٨٩٧، مخصّصة برمتها لنمو الليبيدو، ولفكرة المناطق الجنسية قبل التناسلية، «الشرجية والفمية والبلعومية»، التي تُرفع عنها الصفة الجنسية خلال التطور السوي ولكن العصابي ينكص إليها (فرويد، ١٤ تشرين الثاني ١٨٩٧). ويميّز فرويد بين الكبت السوي والكبت العصابي(٤)، ويتكلم على «منطقة تناسلية مذكرة» (أي بظرية) لدى المرأة ويربط اختيار العصاب بمرحلة التطور الذي تمّ فيها الكبت.

والخلاصة المباشرة لكل هذا الغليان من الأفكار موجودة في مقال عنوانه «الجنسية في مبحث أسباب العصاب» (١٨٩٨)، مقال يبدو أن أهم

---

(٤) انظر نموذج الدفاعات، في المجموعة نفسها.

لم يدركها فليس ولا غالبية القرّاء: يتخلّى فرويد تخلياً نهائياً عن كل بقية من الإيحاء في التنويم المغناطيسي وعن كل تقنية من تقنيات التركيز في علاجه. فطريقة التحليل النفسي كما نعرفها في أيامنا هذه قد تكوّنت.

ديديه أنزيو

النص الثاني: فرويد

١- أسطورة أوديب: تاريخٌ معاش

يؤدي الآباء، حسب ملاحظاتي العديدة جداً منذ هذه اللحظة، دوراً أساسياً في الحياة النفسية لجميع الأطفال الذين سيصابون فيما بعد بالنُّفاس(*). (انظر معجم المصطلحات في آخر الكتاب) فالحب الموجّه إلى أحد الأبوين والكره للآخر ينتميان إلى المخزون الثابت من الدوافع التي تتكوّن في هذا العمر و التي ستحتلّ مكاناً بارزاً جداً في مبحث أعراض العصاب اللاحق. ولكنني لاأعتقد أن المصابين بالعصاب يتميّزون بذلك عن الأفراد الأسوياء، وليس ثمة في ذلك أي تكوين جديد، ولا أي شيء يكون خاصاً بهم. ويبدو جيداً بالحري، وملاحظة الأطفال تتجلّى أنها البرهان على ما نقول، أن هذه الرغبات، رغبات الحب والكره إزاء الأبوين، ليست سوى تضخيم لما يخطر ببال الغالبية من الأطفال على نحو أقل وضوحاً وأقل حدّة. والعصور القديمة تركت لنا، لتأكيد هذا الاكتشاف، أسطورة ليس بوسع المرء أن يفهم نجاحها الكامل والشامل إذا لم يسلّم بالوجود الكلي لميول مماثلة في نفس الطفل.

وأودّ أن أتكلّم على أسطورة أوديب الملك ودراما سوفوكلوس. فأوديب ابن لايوس، ملك طيبة، وابن جوكاست، تخلّى عنه أبواه منذ المهد لأن كاهنة الوحي حذّرت أباه، منذ ما قبل ولادته، أن هذا الابن سيقتله. وأُنقذ أوديب، وترعرع في بلاط أجنبي بوصفه ابن الملك. ولكنه يسأل كاهنة من كاهنات الوحي حين يجهل ولادته. وتنصحه هذه الكاهنة بهجر وطنه لأنه سيكون فيه قاتل أبيه وزوج أمه. وبما أنه هرب من وطنه المفترض،

(*) انظر معجم المصطلحات في نهاية الكتاب «م».

فإنه يلتقي لايوس ويقتله خلال شجار اندلع بغتة. ثم يصل إلى طيبة التي يحلّ فيه لغز السفنكس الذي كان يسدّ الطريق، ويتلقّى من سكان طيبة لقب الملك ويدجوكاست شكراً لصنيعه. ويحكم زمناً طويلاً في ظلّ السلام وينجب من أمه ابنين وبنتين. ويتفشّى الطاعون فجأة ويسأل سكان طيبة مجدّداً كاهنة الوحي. وهنا تبدأ تراجيديا سوفوكلوس. ويحمل الرسول جواب كاهنة الوحي: سيتوقّف الطاعون عندما تطردون قاتل لايوس من البلاد. ولكن أين يوجد؟

«أين سنكتشف هذا الدرب العسير، درب جريمة قديمة؟»

وليست المسرحية سوى كشف تدريجي، حُسب مقداره بمهارة حساباً دقيقاً، - شبيه بالتحليل النفسي - عن واقعٍ مفاده أن أوديب ذاته قاتل لايوس، ولكنه هو أيضاً ابن الضحية وابن جوكاست. ويفقأ أوديب عينيه، وقد روّعته الجرائم التي ارتكبها، ويغادر وطنه. فالوحي الإلهي تحقّق.

ومسرحية **أوديب الملك** هي ما نسّميه تراجيديا القدر. ومفعولها المأساوي ناجم عن التباين بين إرادة الآلهة، الإرادة ذات القوة الكلية، والجهود العبثية للإنسان الذي يلاحقه الشقاء. وعلى المشاهد الذي يتأثر تأثراً عميقاً بهاأن يتعلّم فيها الخضوع إلى الإرادة الإلهية ويتعلّم عجزه الخاص. وهناك شعراء حديثون سعوا جهدهم لبلوغ مفعول مأساوي مشابه حين عرضوا التباين ذاته، بواسطة موضوع تخيّلوه هم أنفسهم. وشهد المشاهدون دون أي انفعال صراع الناس الأبرياء ضد لعنة أو وحي إلهي كان ينتهي إلى أن يتحقّق. ولكن التراجيديات الحديثة لم تلاق أي نجاح.

وإذا كان الناس الحاليون يتأثرون بمسرحية **أوديب الملك** تأثر معاصري سوفوكلوس، فذلك منشأه طبيعة المادة التي تُستخدم في توضيح التباين بين المصير والإرادة الإنسانية وليس التباين. ولابد من أن يكون في أنفسنا صوت يجعلنا نتعرّف على قدرة المصير القسرية في أوديب. ونحن نستبعد بسهولة وجود هذا الصوت في **الجدة** أو في كثير من تراجيديات القدر الأخرى.

وهذا العامل موجود بالفعل في قصة أوديب الملك. ومصيره يحرّك مشاعرنا لأنه كان ممكناً أن يكون مصيرنا ولأن كاهنة الوحي لفظت هذه اللعنة ذاتها ضدنا. وقد يحدث أن نكون جميعاً قد أحسسنا إزاء أمنا باندفاعنا الجنسي الأول وبكرهنا الأول لأبينا. وتشهد على ذلك أحلامنا. ولم يفعل أوديب الذي قتل أباه وتزوّج أمه سوى أنه حقّق رغبة من رغبات طفولتنا. ولكننا استطعنا منذ ذلك الحين، بوصفنا أكثر حظاً منه، أن نفصل رغباتنا الجنسية عن أمنا وننسى غيرتنا من أبينا، من حيث أننا لم نصبح مرضى بالعصاب. ونحن نرتعب عند رؤية من حقّق أمنية طفولتنا، ولرعبنا كل قوة والكبت التي مورست منذ ذلك الحين على رغباتنا هذه. ويرغمنا الشاعر، حين يكشف عن خطيئة أوديب، على أن نلاحظ في أنفسنا وأن نتعرّف فيها على هذه الاندفاعات الموجودة دائماً على الرغم من أنها مقموعة. والتباين الذي تتركنا جوقة الغناء بمناسبته هو التالي: «انظر إلى هذا الأوديب الذي حزر الألغاز الشهيرة. هذا الرجل القوي جداً، أي مواطن لم يكن ينظر إلى رفاهيته دون حسد؟ فأي سيل من الشقاء ألقي فيه الآن!».

هذا التنبيه يصيبنا نحن أنفسنا ويجرح كبرياءنا واعتقادنا بأننا أصبحنا حكماء جداً وأقوياء جداً منذ طفولتنا. ونحن نعيش كأوديب غير شاعرين برغباتنا التي تجرح الأخلاق والتي ألزمتنا الطبيعة بها. وعندما يكشفها لنا أحدهم، فإننا نفضّل أن نشيح بوجهنا عن مشاهد طفولتنا(٥).

وأسطورة أوديب نشأت من مادة من الأحلام العتيقة التي مضمونها

(٥) لم يسبق للبحث في التحليل النفسي أن لاقى تناقضات بهذا المقدار من المرارة ولا تمرّدات بهذه الدرجة من السخط، ولاضيقاً في الفكر مسلّياً بهذا القدر، مثلما لاقى حول هذه المسألة. بل ثمة من حاول، في هذه الأزمنة الأخيرة، أن يبيّن، على الرغم من التجارب كلها، أنه كان لابدّ لغشيان المحارم من أن يُدرك على نحو رمزي حصراً. ويقدّم فورنزي (الصور الذهنية المثالية، أ، ١٩١٢) تفسيراً بارعاً بالاعتماد على رسالة من رسائل شوبنهور. فعقدة أوديب، التي ذُكرت للمرة الأولى في هذا الكتاب، اتّخذت أهمية غير موضع ظن حتى هنا في فهم تاريخ الإنسانية وتطور المعتقدات والأخلاق. انظر الطوطم والتابو، ١٩١٣، دار نثر جيزل ويرك، المجلد التاسع.

الاضطراب العسير في العلاقات مع الأبوين، اضطراب ناجم عن الاندفاعات الجنسية الأولى. ويبرهن على ذلك برهاناً لايحتمل الشك نص تراجيديا سوفوكلوس، نصها نفسه. فجوكاست تعزّي أوديباً، الذي أقلقته كاهنة الوحي من قبل، إذ تذكّره بحلم رآه جميع الناس على وجه التقريب في نومهم، حلم لايمكنه في اعتقادها أن يكون له أية دلالة:

«ثمة الآن كثير من الناس شاركوا أمهاتهم مضاجعهن. فمن يحتقر هذه الضروب إياها من الرعب يحتمل الحياة بسهولة».

ويحلم كثير من الرجال، في أيامنا هذه وفي العصور السالفة على حدّ سواء، بأنهم يقيمون علاقات جنسية مع أمهاتهم. وذلك أمر يغيظهم ويروون هذا الحلم بذهول. إنه، كما يرى المرء، مفتاح تراجيديا سوفوكلوس، ويكمل حلم موت الأب. وأسطورة أوديب هي ارتكاس خيالنا على هذين الحلمين النموذجيين، وبما أن هذين الحلمين ترافقهما، لدى الراشد، عواطف النفور، فلابدّ للأسطورة من أن تدمج الرعب والقصاص الذاتي في محتواها ذاته.

٢- هملت ومشاعر الإثمية

لرائعة أخرى من روائعنا التراجيدية العظيمة، هملت شكسبير، جذور أوديب الملك نفسها. ولكن استخدام مادة مماثلة، وهو استخدام يختلف اختلافاً كبيراً، يبيّن أي الفوارق في الحياة الفكرية موجودة بين هذين العصرين، وأي تقدّم أحرزه الكبت في الحياة الانفعالية للإنسانية. فالاستيهامات - الرغبات الخفيّة لدى الطفل تبرز، في مسرحية أوديب، وتتحقّق كما في الحلم. أما في هملت، فإنها تظلّ مكبوتة ولانعلم وجودها -تماماً كما في العصاب- إلا بمفعول الكفّ الذي تثيره. ويوجد واقع فريد مفاده أننا لم نستطيع قطّ أن نرى الأمور بوضوح فيما يخصّ طبع البطل، في حين أن هذه الدراما مارست على الدوام تأثيراً كبيراً على الناس. فالمسرحية قائمة على ضروب التردّد لدى هملت في أن ينجز الثأر الذي وقع عليه عبئه. ولايقول النصّ ما الأسباب أو البواعث التي دفعته الى هذه

الضروب من التردّد. ولم يكن بوسع المحاولات الكثيرة في التفسير أن تكشفها. وفي رأي غوته أن هملت كان يمثّل الإنسان الذي يشلّ قدرته على التصرف المباشر ضربٌ مغالٍ من نمو الفكر («إنه يحسّ بشحوب الفكر»)، وذلك هو التصوّر السائد في أيامنا هذه. والشاعر، في رأي آخرين، كان يريد أن يمثّل طبعاً مرضياً، غير حازم ومصاب بالإنهاك العصبي. ولكننا نرى في موضوع مسرحية هملت أنه ينبغي ألا يبدو لنا على الإطلاق عاجزاً عن التصرّف. إنه يتصرف مرتين: الأولى عندما يقتل بحركة من الانفعال العنيف ذلك الرجل الذي يتنصّت وراء سجّاد الجدار. والثانية عندما يرسل نديمين من ندمائه إلى الموت، الذي كان بعضهم قد فوّض أمره إليه، إرسالاً على نحو رزين، بل ماكر، وبلامبالاة كلية خاصة بأمير من أمراء عصر النهضة. فما الذي يمنعه من إنجاز المهمة التي أوكلها إليه شبح أبيه؟ لابدّ إذن من الاعتراف تماماً بأن طبيعة المهمة هي التي تمنعه. فبوسع هملت أن يتصرّف، ولكنه لايمكنه أن يثأر من الرجل الذي أبعد أباه واحتلّ مكانه بجوار أمه، من رجل حقّق الرغبات المكبوتة لطفولته. والرعب الذي ينبغي أن يدفعه إلى الانتقام حلّ محله تبكيت الضمير وشكوك الوجدان، وبدا له أنه ليس أفضل من الخاطىء الذي يريد أن يعاقبه لو أنه نظر في الأمر عن كثب. إنني عبّرت للتوّ بعبارات شعورية عما ينبغي أن يظلّ لاشعورياً في نفس البطل. وإذا قيل بعد ذلك إن هملت كان هستيرياً، فإن القول لن يكون سوى نتيجة من نتائج تفسيري. ويتّفق النفور من الجنسية، الذي تفضحه المحادثات مع أوفيلي، مع هذا الفرض. وكان محتّماً أن يتعاظم النفور لدى الشاعر دائماً في السنوات التي تلي إلى أن يبلغ ذروته في **تيمون أثينا**. ولم يكن الشاعر قادراً على أن يعبّر في **هملت** إلاّ عن عواطفه الخاصة به. ويشير جورج براندس في كتابه **شكسبير** (١٨٩٦) إلى أن هذه الدراما كُتبت في أعقاب موت الأب، أب شكسبير (١٦٠١)، في غمرة الحداد إذ؛ وبوسعنا أن نسلّم أن انطباعات الطفولة ذات العلاقة بأبيه كانت يقظة على

نحـو خـاص في هذه الفـتـرة إياها. ومن المعلوم من جـهـة أخـرى أن ابن شكسبير، الذي مات في سن مبكّرة جداً، كان يسمّى همنت (اسم هملت نفسه). وكما أن **هملت** يعالج علاقات الابن بأبويه، فإن موضوع **مكبث**، والمكتوب في الزمن نفسه على وجه التقريب، يدور حول عدم إنجاب طفل. فكل إبداع شعري، شأنه شأن الأعراض العصابية جميعها والحلم ذاته(٦) الذي يمكن أن نفسره تفسيراً إضافياً وينبغي له أن يُفسّر، يستجيب لأكثر من باعث ولأكثر من انفعال في نفس الشاعر ويمكنه أن يكون له أكثر من تفسير. وحاولت هنا أن أقتصر على تفسير الميول الأكثر عمقاً في نفس الشاعر(٧).

٣- الرغبات المكبوتة تعبّر عن نفسها في الأحلام

ليس بوسعي أن أترك الأحلام النمطية الخاصة بموت الآباء المحبوبين دون أن أقول ما هي أهميتها بالنسبة لنظرية الأحلام بصورة عامة. فهذه الأحلام تعرض لنا حالة ليست مألوفة إلا قليلاً: إن أفكار الحلم التي تكوّنها الرغبة المكبوتة تفلت من كل رقابة وتبدو دون تغيير. لذلك ينبغي أن تكون الشروط من نوع خاص كل الخصوصية. ويبدو لي أن هذه الأحلام تشجّعها الواقعتان التاليتان: يظهر أولاً أن أمنية من الأمنيات بالموت ليست بعيدة كل البعد عنا؛ ونحن نعتقد «بأنه ليس بوسعنا، حتى في الحلم، أن يكون لدينا فكرة شبيهة»، بحيث أن رقابة الحلم عزلاء أمام هذه الشناعات، وهي شبيهة على وجه التقريب بقانون سولون الذي لم يكن قد توقّع عقوبات لقتل الآباء. ويبدو أن ثمة بقايا في النهار تظهر على الأغلب، أمام هذه الرغبة المكبوتة التي لانحدس وجودها، على شكل هاجس توحيه إلينا حياة شخص محبوب. وهذا الهاجس لايمكنه أن يظهر في الحلم إلا باستخدام الرغبة.

(٦) انظر الدرب الملكي للاشعور، في المجموعة ذاتها.

(٧) أكمل جونز هذه الملاحظات ودافع عنها في مواجهة تفسيرات أخرى في (مشكل هملت وعقدة أوديب، ١٩١١). وأشير إلى أنني في هذا الزمن إياه كففت عن الاعتقاد بأن مؤلف رائعة شكسبير كان رجل ستراتفورد.

وبوسع هذه الرغبة بالمقابل أن تحتجب خلف الهاجس المتيقّظ في أثناء النهار. ويمكننا الاعتقاد بأن الأمور أكثر بساطة وبأننا لانفكّ نكمل خلال الليل، في الحلم، ما بدأناه خلال النهار. ولكننا عندئذ نهمل الأحلام الخاصة بموت الأشخاص الأعزّاء دون أن نربطها بالتفسير العام للحلم، ونبقي دون جدوى على لغز يسهل حلّه.

ومن المفيد أيضاً أن نرى أية علاقة موجودة بين هذه الأحلام والكوابيس. فالرغبة المكبوتة، في الأحلام الخاصة بموت الأشخاص الأعزاء، وجدت وسيلة للإفلات من الرقابة ومن التشويه الذي تقتضيه الرقابة. وهناك امتثال ملحق لايغيب أبداً في هذه الحالة: يشعر المرء في الحلم بانطباعات مؤلمة. ولايظهر الكابوس أيضاً إلا عندما تنهزم الرقابة جزئياً أو كلياً. ووجود ضرب من الحصر، بوصفه إحساساً راهناً ذا مصدر جسمي، يجعل هذه السيرورة أكثر يسراً. ويرى المرء جيداً في أي اتجاه تتجلّى الرقابة وتشوّه الحلم: والمقصود تجنّب نمو الحصر أو الأشكال الأخرى من الحالات الانفعالية الشاقة الأخرى.



الفصل الثاني
في
أصول التاريخ

اكتشاف عقدة أوديب لم يكتمل. وإذا كانت كليتها أمراً واقعياً، فإنه لابدّ من إيجاد أثرها لدى الشعوب التي تختلف منظومة القرابة لديها عن منظومة القرابة عندنا.

ديانة هذه الشعوب هي الطوطمية، وقانونها الأساسي هو الزواج من خارج القبيلة، أي تحريم العلاقات الجنسية بين أعضاء القبيلة الواحدة الذين يحملون الأسم الطوطمي نفسه. والحال أن الحيوان الطوطم يمثّل الأب في رأي فرويد. وليس بوسعهم قتله وأكله إلا خلال بعض الأعياد. ويعبّر الزواج من خارج القبيلة، هو نفسه، عن تحريم غشيان المحارم. وهكذا يتوطّد مجدّداً مكان الأوديب، مكانه الرئيس، ويُبنى على معطيات إتنولوجية.

ولكن ثمة أمراً آخر. إن فرويد يطلق بهذه المناسبة ضربة من ضربات المسبر العجيبة في تاريخ الإنسانية: إنه يجعل بداياتها تعود الى حادثة قتل، قتل الأب. وتلك هي فرضية العشير البدائي، التي سنكتشفها الآن.

والعشير البدائي، كما يؤكد فرويد مع ذلك، «أسطورة علمية». والحقيقة مع ذلك أن كتاب الطوطم والتابو يتّخذ بالنسبة له أهمية فريدة. وقتل الأب البدائي موجود أيضاً في أصل الأخلاق والفن والتطور الإجتماعي. وسيعود فرويد إلى فرضية العشير البدائي مطوّلاً عندما يكتب فيما بعد دراسته حول التحليل النفسي للجماهير.

وسنرى أن فرويد يقيم أيضاً ضرباً من التماثل بين الشعوب المسماة بدائية والأطفال والعصابيين. وليس في هذا شيء من التحقير، ذلك أن التحليل النفسي لايطلق حكماً. ولكن هذه الموازاة تسوّغ الفكرة التي مفادها أن التاريخ الشخصي ضرب من التلخيص المتسارع للتاريخ الإنساني: فكتاب الطوطم والتابو يكوّن إذن شرحاً حقيقياً للعالم من وجهات النظر جميعها.

النص الأول: فرويد

لنتصور مشهداً لوجبة طوطمية، مضيفين إليه بعض السمات التي يمكننا اعتبارها حقيقية. ففي مناسبة رسمية، تقتل القبيلة حيوانها الطوطمي بقسوة وتأكله نيّئاً ـ دماً ولحماً وعظماً. ويرتدي أفراد القبيلة لباساً على نحو يجعلهم شبيهين بالطوطم الذي يقلّدون أصواته وحركاته، كما لو أنهم كانوا يريدون أن يبرزوا تماثلهم معه. ومعلومٌ أنهم ينجزون عملاً ممنوعاً على كلٍ منهم بصورة فردية، ولكنه عمل مسوَّغ منذ أن يشاركوا جميعهم فيه. وليس لأي شخص مع ذلك الحق في أن يتهرّب من المشاركة. وما أن ينجزوا العمل حتى يبكوا الحيوان المقتول ويأسفوا عليه. والنواح الذي يثيره هذا الموت تمليه الخشية من العقاب وتفرضه، وهدفه على وجه الخصوص تجنيب القبيلة مسؤولية القتل المنجز، وفق الملاحظة التي أبداها روبرستون سميث الخاصة بمناسبة مماثلة[1].

ولكن هذا الحداد يعقبه العيد الأكثر صخباً والأكثر سروراً، يرافقه انفلات الغرائز جميعها وقبول كل ضرب من ضروب الإشباع. ونحن نلمح هنا، دون صعوبة، طبيعة **العيد** وماهيته ذاتها.

والعيد مغالاة مسموحة، بل مأمور بها، وضرب من انتهاك حرمة المحرّم رسمياً. والناس لايرتكبون ضروب المغالاة لأنهم يلفون أنفسهم

(١) ديانة الساميين، الطبعة الثانية، ص ٤١٢.

مستعدّين استعداد الفرح بفضل أمر صادر: إن المغالاة تشكّل جزءاً من طبيعة العيد نفسها. واستعداد الفرح نتاج السماح الممنوح لفعل ما يُحرَّم فعله في زمن عادي.

ولكن ماذا يعني الحداد الذي يعانونه في أعقاب موت الحيوان الطوطمي، ويستخدمونه مدخلاً للعيد السعيد؟ وإذا كانوا يستمتعون بقتل الطوطم، وهو فعل محرَّم في العادة، فلماذا يبكونه أيضاً؟

وأعضاء القبيلة يضفون القدسية على أنفسهم بابتلاع الطوطم ويعزّزون على هذا النحو ذلك التماثل الموجود بينهم وتماثلهم مع الطوطم. والاستعداد للفرح وكل ما ينجم عنه قد يشرحهما واقع مفاده أن الناس ابتلعوا الحياة المقدّسة التي كانت مادة الطوطم تجسيدها أو وسيلة نقلها بالحري.

ويكشف لنا التحليل النفسي أن الحيوان الطوطمي يقوم مقام بديل الأب في الواقع، وهذا أمر يشرح لنا ضرباً من التناقض: حظر قتل الحيوان من جهة؛ والعيد، من جهة ثانية، الذي يعقب موته، عيد يسبقه تفجّر الحزن. والموقف الانفعالي ذو المشاعر الثنائية، الذي يسم بسمته، وفي أيامنا هذه أيضاً، العقدة الأبوية لدى أطفالنا ويمتّد في بعض الأحيان حتى في حياة الرشد، يشمل الحيوان الطوطمي أيضاً، حيواناً يقوم مقام بديل الأب.

وإذا قارنا بين مفهوم الطوطم الذي اقترحه التحليل النفسي وبين واقع الوجبة الطوطمية والفرضية الداروينية الخاصة بالحالة البدائية للمجتمع الإنساني، فإن بوسعنا أن نكتسب فهماً أكثر عمقاً، ونلمح منظور فرضية قد تبدو من فعل المخيّلة، ولكنها تنطوي على فائدة مفادها أنها تحقّق ضرباً من الوحدة التي لم تخطر على بال حتى ذلك الحين بين مجموعات من الظاهرات المعزولة والمنفصّلة.

١- فرضية العشير البدائي

ليس ثمة شك في أن النظرية الداروينية تمنح البدايات الطموطية بعضاً من الأهمية. فهناك أب عنيف، حسود، يحتفظ لنفسه بكل الإناث ويطرد أبناءه منذ أن يكبروا: ذلك كل ما تفرضه النظرية الداروينية. ولم تكن هذه الحالة البدائية موضوعاً لملاحظة أحد في أي مكان. والتنظيم الأكثر بدائية، ذلك التنظيم الذي كنا نعرفه ولايزال موجوداً في الوقت الراهن لدى بعض القبائل، يتألف من تجمّعات من الناس يتمتّعون بحقوق متساوية ويخضعون إلى تحديدات النظام الطوطمي بما في ذلك الوراثة وفق سلالة الأم. فهل التنظيم يمكنه أن يكون ناجماً عن التنظيم الذي صادرت عليه الفرضية الداروينية؟ وبأي وسيلة كان هذا التنظيم قد حقّق الفوز؟ وبوسعنا، إذا اعتمدنا على عيد الوجبة الطوطمية، أن نجيب عن هذا السؤال بالجواب التالي: اجتمع الأخوة المطرودون، يوماً من الأيام[٢]، فقتلوا الأب وأكلوه، وذلك أمر وضع نهاية لوجود العشير الأبوي. وأصبحوا، ما إن تجمعوا، مغامرين، واستطاعوا أن يحققّوا ما كان عاجزاً عن أن يحقّقه كل منهم، إذا نظرنا إليه بصورة فردية. ومن الممكن أن يكون قد حدث تقدّم في الحضارة، فاختراع سلاح جديد أمّن لهم شعوراً بتفوّقهم. فأن يكونوا قد أكلوا جثة أبيهم، أمر ليس فيه مايدهش، بالنظر إلى أنهم من البدائيين آكلي لحوم البشر. وكان الجد العنيف بالتأكيد هو النموذج الذي يحسده ويرهبه كل عضو من إعضاء هذا التجمّع الأخوي. والحال أنهم يحققّون بفعل الابتلاع توحّدهم به، ويمتلك كل منهم جزءاً من قوته. فالوجبة الطوطمية، التي قد تكون عيد الإنسانية الأول هي، شأن العيد التذكاري، إعادة إنتاج لهذا الفعل

(٢) ستتيح الجمل الأخيرة من الملاحظة التي تلي، للقارىء، أن يفهم العرض الذي سنقدّمه وسيكون، دون هذا التلطيف، ذا طبيعة تدهشه.

الجدير بالذكر والإجرامي الذي قام مقام نقطة الانطلاق لكثير من الأمور: التنظيمات الاجتماعية، والتقييدات الأخلاقية، والمعتقدات(٣).

٢- أصول الندم

ولكي يجد المرء هذه النتائج محتملة، بصرف النظر عن مقدّمتها الأولى، حسبه التسليم بأن ثمة عواطف متناقضة كانت تحرّض عصبة الأخوة

---

(٣) الفرضية التي تبدو عجيبة في الظاهر، فرضية الإطاحة بالأب الطاغي وقتله بفعل تجمّع الأبناء المطرودين هي، في رأي أتكنسون، نتيجة مباشرة لشروط العشير البدائي كما يتصوره داروين. «عصبة من الأخوة الشباب الذين يعيشون سوية في ظلّ نظام من حياة العزوبة الإجبارية أو، على الأكثر، من العلاقات المتعدّدة الأزواج بأنثى واحدة أسيرة. إنه عشير ضعيف أيضاً بسبب عدم النضج لدى أعضائه ولكنه سينتهي، عندما يكتسب مع الزمن قوة كافية والأمر لامفرّ منه، إلى أن ينتزع من الأب الطاغي امرأته وحياته في وقت واحد بفضل هجمات منسّقة ومتجدّدة باستمرار (القانون الأولي، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١). ويذكّر أتكنسون، الذي قضى من جهة أخرى حياته كلها في كاليدونيا الجديدة حيث استطاع أن يدرس كما يحلو له تماماً سكان البلاد الأصليين، بواقع مفاده أن شروط العشير البدائي، كما يفترضها داروين، تُلاحظ بصورة منتظمة لدى قطعان الثيران والأحصنة البريّة، وتفضي دائماً إلى موت الأب. ويسلّم أيضاً بأن قتل الأب يعقبه تفكّك العشير جرّاء الصراعات الحامية الوطيس التي تنبعث بين الأبناء الظافرين. فلم يكن قط بوسع أي تنظيم جديد أن يتحقّق في هذه الشروط: «إن الأبناء يخلفون الطاغية الأبوي المنعزل ويحولّون للتوّ عنفهم إلى بعضهم بعض، فيصيبهم الإنهاك في صراعاتهم الأخوية» (ص٢٢٨). ويجد أتكنسون، الذي لم تكن معطيات التحليل النفسي مألوفة بالنسبة له ولم يكن يعرف دراسات روبرتسون سميث، طور انتقال أقل عنفاً بين العشير البدائي والمرحلة الاجتماعية التالية التي تمثّلها جماعة يعيش فيها معاً عدد كبير من الناس حياة سلام. وفي رأيه أن حب الأم هو الذي أفلح في أن يظلّ الأبناء الأصغر عمراً أولاً، ثم الأبناء الآخرون، في عشير حيث لم يكن مسموحاً لهم بالبقاء إلا بمقدار ما كانوا يعترفون بالامتياز الجنسي للأب، إذ يتخلّون عن كل اشتهاء للأم والأخوات.

تلك هي نظرية أتكنسون الجديرة بالملاحظة، التي لخّصناها تلخيصاً شديداً. ونحن نرى أنها تتّفق حول مسائل أساسية مع النظرية التي ننادي بها نحن. ولكننا نرى أيضاً تلك المسائل التي تبتعد فيها عن نظريتنا، إذ تتخلّى على هذا النحو عن استخدام كثير من المعطيات الأخرى.

وكانت طبيعة الموضوع ذاتها قد فرضت عليّ اختصار المعطيات المذكورة أعلاه وإيجازها وقد يكون من العبث أن نبحث عن الصحة في هذه الميادين التي يتصف اقتضاء اليقين فيها بأنه ضرب من الجور.

العاصية إزاء الأب، عواطف تكوّن، وفق مانعلم، محتوى العقدة الأبوية، ذا المشاعر الثنائية، لدى كل طفل من أطفالنا ولدى المصابين بالعصاب عندنا. إنهم كانوا يكرهون الأب الذي كان يعارض معارضة شديدة جداً حاجتهم إلى القوة ومتطلّباتهم الجنسية، ولكنهم كانوا يحبونه ويُعجبون به وهم يكرهونه في الوقت نفسه. وكان لابد لهم، بعد أن قتلوه وانتقموا منه وحقّقوا توحّدهم به، من أن يستسلموا لبعض المظاهر الانفعالية ذات الحب المغالي(٤). وهم فعلوا ذلك في ظلّ حالة الندم. إنهم عانوا مشاعر الإثمية التي تختلط بمشاعر الندم التي يعانونها جماعياً. وكان الميت قد أصبح ذا قوة بلغ مقدارها حداً لم يكن قط قد توصّل إليه وهو حيّ؛ وكان قد أصبح كل شيء لانزال نلاحظه خلال أيامنا هذه في المصائر الإنسانية. فما كان الأب يمنعه فيما مضى بفعل مجرد وجوده، كان الأبناء يحرّمونه في زمنهم هم أنفسهم بمقتضى هذه «الطاعة ذات العلاقة بالماضي» التي تميّز وضعاً نفسياً جعله التحليل النفسي مألوفاً لدينا. إنهم كانوا يستهجنون فعلهم محرّمين قتل الطوطم، بديل الأب، ويتخلّون عن أن يقطفوا ثمار أفعالهم رافضين إقامة علاقات جنسية مع النساء اللواتي كانوا قد حرّروهن. فولّدت **مشاعر الإثمية** لدى الابن، على هذا النحو، هذين التحريمين الأساسيين في الطوطمية اللذين كان لابد لهما، لهذا السبب، من ألايتميّزا من الرغبتين المقموعتين في **عقدة أوديب**. فمن كان يتصرف تصرفاً يخالف هذين التحريمين يجعل نفسه مجرماً بالجريمتين الوحيدتين اللتين كانتا تعنيان المجتمع البدائي(٥).

---

(٤) ما استطاع أن يشجّع هذا الموقف الانفعالي هو أن فعل القتل لم يكن بوسعه أن يرضي إرضاء تاماً أحداً من الشركاء في الجرم. إنه فعل غير ذي جدوى من عدة نواح. فأي من الأبناء لم يكن بوسعه أن يحقّق رغبته الأولية في أن يحتلّ مكان الأب. والحال أننا نعلم أن الإخفاق يشجّع ردّ الفعل الأخلاقي أكثر مما يشجعه النجاح بكثير.

(٥) «قتل وغشيان محارم أوانتهاكات أخرى من النوع نفسه للقانون المقدس، قانون الدم: إنهما، في المجتمعات البدائية، الجريمتان الوحيدتان اللتان تعيهما الجماعة بوصفها كذلك» (**ديانة الساميين**، ص ٩١٩).

وليس للتحريمين في الطوطمية، اللذين بدأت بهما الأخلاق لدى البشرية، قيمة سيكولوجية واحدة. فموقف الاحترام من الحيوان الطوطمي يرتكز وحده على دوافع انفعالية: الأب ميت، ولم يعد ثمة شيء ينبغي فعله من الناحية العملية ما دام الأمر كذلك. ولكن التحريم الثاني، أي منع غشيان المحاوم، كان له أيضاً أهمية عملية كبرى. فالحاجة الجنسية لاتوحّد الناس، بل، على العكس، تفرّقهم. وإذا كان الأخوة مجتمعين ما دام الأمر ذا علاقة بقتل الأب، فإنهم كانوا قد أصبحوا خصوماً منذ أن كان الأمر خاصاً بالاستيلاء على النساء. فكل فرد منهم كان يريد أن يمتلكهن جميعهن على غرار الأب، والصراع العام الناجم عن ذلك كان يؤدّي إلى خراب المجتمع. ولم يعد أي رجل بوسعه، وقد تجاوز بقوته الآخرين جميعهم، أن يضطلع بدور الأب. ولهذا السبب لم يكن على الأخوة، إذا كانوا يريدون أن يعيشوا سويّة، سوى اتّخاذ قرار واحد: بعد التغلّب، ربما، على خلافات خطيرة، تأسيس تحريم الغشيان المحارمي، تأسيس تخلّوا بفعله جميعهم عن امتلاك النساء المرغوبات، في حين أنهم كانوا قد قتلوا الأب ليؤمّنوا على وجه الخصوص هذه الملكية. فأنقذوا على هذا النحو ذلك التنظيم الذي كان قد جعلهم أقوياء وكان يرتكز على وجه الاحتمال على عواطف الجنسية المثلية وممارساتها، عواطف وممارسات كانت قد استقرّت لديهم في زمن نفيهم. وربما من هذا الوضع إنما وُلد حق الأم الذي وصفه باشوفين، واستمرّ إلى أن أقبل اليوم الذي كان قد حلّ محلّه تنظيم الأسرة البطريركية.

٣- الديانة الطوطمية والتنظيم الاجتماعي: نتائج القتل الأصلي

هناك سمات بدت عندئذ وستبقى من الآن فصاعداً مرتبطة بكل المعتقدات أياً كانت. فالديانة الطوطمية ناجمة عن الشعور بالإثم الذي كان لدى الأبناء، بوصفها محاولة مصيرها أن تكتم هذا الشعور وتبلغ المصالحة مع الأب المهان بفعل طاعة ذات علاقة بالماضي. وليست المعتقدات اللاحقة سوى محاولات تبتغي كل منها حلّ المشكل نفسه، محاولات تختلف وفق

حالة الحضارة التي رأتها تنشأ ولا يختلف بعضها عن بعضها الآخر إلا بالاتجاه الذي سلكته لإيجاد هذا الحلّ: ولكنها جميعها تمثّل ارتكاسات على الحدث الكبير الذي بدأت الحضارة بواسطته وما انفكّ منذ ذلك الحين يعذّب البشرية.

ولكن الطوطمية تنطوي، في هذا العصر السالف، على سمة احتفظت بها المعتقدات احتفاظاً أميناً منذ ذلك الحين. فالتوتر ذو المشاعر الثنائية كان من القوة بحيث لم يستطع الناس أن يؤمّنوا توازنه بتنظيم من التنظيمات، وبعبارة أخرى لم تكن الشروط السيكولوجية على الإطلاق مؤاتية لإلغاء هذه التناقضات الانفعالية. ومن الملاحظ على أي حال أن ثنائية المشاعر الملازمة للعقدة الأبوية باقية في الطوطمية. ولا تشتمل ديانة الطوطم على مظاهر الندم وعلى محاولات المصالحة فحسب، بل إنها تُستخدم أيضاً لرعاية ذكرى الانتصار الذي أحرزه الأبناء على الأب. ولتحقيق هذا الهدف إنما كان تأسيس العيد التذكاري للوجبة الطوطمية التي تُهمل فيه كل التقييدات التي تفرضها الطاعة ذات العلاقة بالماضي. فالواجب قوامه عندئذ أن يعيد إنتاج الجريمة المرتكبة في شخص الأب بالتضحية بالحيوان الطوطمي، وذلك كلما أوشك المغنم المكتسب جرّاء الجريمة، أي تمثّل صفات الأب وامتلاكها، على الزوال والتلاشي تحت تأثير شروط جديدة تطرأ في الحياة. ولن نكون في حالة من الدهشة عندما نكتشف درجة معيّنة من الإثارة ومن التمرّد لدى الأبناء، تتخذ على الغالب أشكالاً محجوبة في حقيقة الأمر.

وأوقف هنا فحص النتائج التي أحدثها موقف الحب من الأب، موقف اتّخذ فيما بعدُ شكل الندم، في المعتقد وفي القانون الأخلاقي اللذين لايزالان غير متمايزين كثيراً في الطوطمية. وأودّ أن ألفت الانتباه إلى واقع مفاده أن النصر، إذا أخذنا بالحسبان كل شيء، ظلّ نصراً على الميول التي كانت قد دفعت إلى قتل الأب. وستمارس الميول الأخوية الاجتماعية، بدءاً

من هذه الفترة، تأثيراً كبيراً على تطور المجتمع خلال زمن طويل. وستعبّر هذه الميول عن نفسها بإضفاء القداسة على الدم المشترك، وبتأكيد التضامن بين جميع الحيوات التي تتألف منها عشيرة من العشائر. ويلتزم الأخوة، حين يضمنون الحياة بالتبادل على هذا النحو، بألا يعامل بعضهم بعضاً كما عاملوا الأب جميعهم. ويستبعد بعضهم في سبيل بعضهم الآخر إمكان المصير الذي كان قد أصاب الأب. ويضاف من الآن فصاعداً تحريم (ذو سمة اجتماعية) قتل الأخ إلى تحريم قتل الطوطم (تحريم ذي طبيعة دينية). وسينقضي أيضاً كثير من الزمن قبل أن يصبح هذا التحريم، حين يتجاوز حدود العشيرة، هذا الأمر المختصر والواضح: أنت لن تقتل على الإطلاق. وكانت العشيرة الأخوية القائمة على روابط الدم قد حلّت محل العشير البدائي. ويرتكز المجتمع من الآن فصاعداً على خطيئة مشتركة، على جريمة مرتكبة بصورة مشتركة؛ والأخلاق على ضرورات هذا المجتمع من جهة، وعلى الحاجة إلى التكفير الذي يولّده الشعور بالإثم، من جهة أخرى.

ويكشف لنا التحليل النفسي، على خلافٍ مع أحدث مفهومات الطوطمية وعلى وفاق مع أقدمها، ترابطاً وثيقاً بين الطوطمية والزواج من خارج العشيرة ويعزو إليهما أصلاً مشتركاً ومتزامناً.

٤- مثال مصنوع من الحب والقوة الكلية

هذه التغيرات يسهل ملاحظتها حتى لو صرفنا النظر عن الابتعاد النفسي الذي حدث إزاء الحيوان وإزاء تفسّخ الطوطمية بتأثير التأهيل. وكان ثمة، في الوضع الذي نشأ بفعل قتل الأب، عنصر لابدّ من أن يكون له مع الزمن مفعول مفاده أن يعزّز حب الأب تعزيزاً غير مألوف. فلابد لكل أخ من الأخوة الذين اجتمعوا لإنجاز قتل الأب من أن يكون لديه الرغبة في أن يكون مساوياً للأب، وكانوا يسعون لإشباع هذه الرغبة إذ يندمجون خلال الوجبة الطوطمية بأجزاء الحيوان التي كانت تُستخدم بديلاً للأب. ولكن هذه الرغبة كان لابد لها من أن تظلّ غير مشبعة نظراً للضغط الذي كانت روابط

العشيرة الأخوية تمارسه على كل عضو من أعضائها. فلم يكن بوسع أحد، وليس على أحد أبداً، أن يبلغ القوة الكلية للأب التي كانت الهدف لرغبات كل فرد منهم. وعلى هذا النحو كان بوسع الضغينة على الأب، التي كانت تدفع لقتله، أن تنطفىء خلال تطور طويل لتخلي المكان للحب ولتولّد مثالاً من الخضوع المطلق لهذه الأب البدائي نفسه الذي كانوا يكافحونه، ولكنه الذي كانوا يتصورونه في هذا الزمن إياه أنه استعاد قوته اللامحدودة التي كانت له في الزمن الغابر. ولم يكن بالوسع التمسك بعد ذلك بالمساواة البدائية الديموقراطية بين أعضاء العشيرة جميعهم مع مرور الزمن، بسبب التغيرات العميقة الطارئة في حالة الحضارة. واقتضى الأمر عندئذ ظهور الاتجاه صوب بعث المثال القديم للأب، إذ رفعوا إلى مستوى الآلهة أفراداً كانوا متفوّقين على الآخرين ببعض من صفاتهم. فأن يكون بوسع إنسان من الناس أن يصبح إلهاً أو أن يكون بوسع إله أن يموت، ذلكم أمران يبدوان لنا جارحين، ولكنهما أمران كانت العصور القديمة لاتزال تعتبرهما ممكنين وطبيعيين تماماً(٦). وكان مع ذلك رفع الأب الذي قُتل في الزمن الماضي إلى مستوى إله، أب تعيد إليه القبيلة أصولها من الآن فصاعداً، محاولة من محاولات التكفير أكثر جدّية بكثير مما كان عليه الميثاق المعقود مع الطوطم سابقاً.

أين يوجد في هذا التطور مكان الآلهات الأمهات اللواتي ربما سبقن الآلهة الآباء في كل مكان؟ ليس بوسعي أن أقول شيئاً عن ذلك. ولكن ما يبدو مؤكداً هو أن التغيّر في الموقف من الأب لم يبق محدوداً في المجال

---

(٦) مثل هذه المحاكاة قد تبدو لنا، نحن الناس الحديثين الآخرين الذين حفرنا حفرة لايمكن تجاوزها بين الإنساني والإلهي، زندقة، ولكنها كانت شيئاً مختلفاً في أعين القدماء. فكان ثمة، بالنسبة لهم، قرابة بين الآلهة والناس، ذلك أن كثيراً من الأسر كانت ترجع بأصولها إلى إله، وتأليه إنسان كان يبدو لهم دون شك غير غريب كإعلان قداسة قديس بالنسبة لكاثوليكي حديث (فرازر، الغصن الذهبي، I، الفن الساحر وتطور الملوك، II، ص١٧٧.

الديني، بل إنه يتجلّى أيضاً في التنظيم الاجتماعي الذي كان، هو نفسه، قد طرأت عليه آنفاً مفعولات قتل الأب. وتحولّ المجتمع، المحروم من الأب، تحولاً تدريجياً الى مجتمع بطريركي مع إقامة الآلهة الآبوية. وأصبحت الأسرة ضرباً من إعادة التكوين للعشير البدائي الذي كان سائداً في الزمن الغابر، عشير بدائي استعاد فيه الآباء جزءاً كبيراً من الحقوق التي كانوا يتمتعون بها في هذا العشير. وساد فيه آباء جددُ، ولكن الإنجازات الاجتماعية التي حققّتها العشيرة الأخوية لم تضمحلّ، والفسحة الزمنية التي كانت موجودة بين أب الأسرة الجديد والأب، العاهل المطلق للعشير البدائي، كانت طويلة طولاً يكفي لتؤمّن استمرار الحاجة الدينية القديمة، أي حب الأب، الحب المتيقّظ دائماً.

٥- ملكية الحق الإلهي: بديل آخر للأب

وعلى هذا النحو فإن الأب حاضر فعلاً بصفتين في مشهد التضحية الذي يقدّم لإله القبيلة بصفته إلهاً وبصفته حيوان التضحية. ولكن علينا، في الجهود التي نبذلها لفهم هذا الوضع، أن نحذر من التفسيرات التي يمثل فيها هذا الوضع بوصفه قصة رمزية على سبيل الحصر، دون أن يؤخذ بالحسبان إضفاء السافات التاريخي. فالحضور المزدوج للأب يقابل دلالتين متتاليتين للمشهد الذي وجد فيه الموقفُ الثنائي المشاعر من الأب، وانتصار عواطف الحب لدى الابن على العواطف العدائية، ضرباً من التعبير المرن. وقدّمت هزيمة الأب ومهانته العميقة مواد لتمثيل انتصاره الأقصى. وتكمن الدلالة التي اكتسبتها التضحية على نحو عام في أن الفعل ذاته، الذي كان قد استُخدم لإذلال الأب، يُستخدم الآن لمنحه ارتياحاً مقابل هذا الإذلال، إذ حوفظ مع ذلك على ذكرى هذا الإذلال.

ويفقد الحيوان فيما بعد سمته المقدّسة وتختفي العلاقات بين التضحية والعيد الطوطمي. وتصبح التضحية مجرّد ولاء للإله، وفعلاً من أفعال النزاهة وإيثاره. والإله موجود من الآن فصاعداً فوق الناس إلى حدّ لم يعد

بوسعهم التواصل معه إلا بواسطة الكهّان. ويسود التنظيم الاجتماعي عندئذ ملوكٌ لهم سمة إلهية ويمدّون النظام البطريركي على الدولة. وينبغي القول إن الأب، الذي استعاد حقوقه بعد أن كان قد أُطيح به، يثأر بقسوة لهزيمته في الزمن السالف ويمارس سلطة لايجرؤ أحد على مناقشتها. ويستخدم الأبناء الخاضعون تلك الشروط الجديدة ليتبرّؤوا أيضاً، تبرؤاً أكبر، من مسؤوليتهم في الجريمة المرتكبة. إنهم لم يعودوا بالفعل هم المسؤولون عن التضحية من الآن فصاعداً. إنه الإله ذاته هو الذي يقتضيها ويأمر بها. وإلى هذا الطور تنتمي أساطير تقول إن الإله هو الذي يذبح الحيوان المنذور له وهو ليس شيئاً آخر سواه. إن النفي المطلق للجريمة الكبيرة هو الذي حدّد بدايات المجتمع ونشوء عاطفة المسؤولية. وتنطوي هذه الطريقة في تصور التضحية أيضاً على معنى آخر يسهل إدراكه: معنى الارتياح الذي يشعر به الإنسان لأنه أهمل عبادة الطوطم في سبيل عبادة الإله، أي أهمل إنابة دنيا للأب في سبيل إنابة عليا. والتعبير صراحة بالقصة الرمزية عن المشهد يتطابق هنا مع تفسير التحليل النفسي. ويقول لنا هذا التعبير إن مهمة المشهد موضوع البحث تكمن في أن يبيّن أن الإله تجاوز الجزء الحيواني من وجوده[7].

وقد يكون من الخطأ الاعتقاد بأن تكوّن الاستعدادات المعادية للأب، استعدادات تشكّل جزءاً من العقدة، قد انطفأت انطفاء كلياً من الآن فصاعداً. بل، على العكس، إن في الأطوار الأولى لوجود تكوينين بديلين جديدين للأب، أي الألهة والملوك، إنما نجد التجلّيات البارزة لهذه الثنائية، ثنائية المشاعر، التي تظلّ ميّزة الديانة القديمة.

---

(٧) قلب جيل من الألهة بواسطة جيل آخر، قلب تتكلّم عليه المجموعات الأسطورية كلها، يعني بالتأكيد تلك السيرورة التاريخية لإحلال منظومة دينية محل منظومة أخرى، إما في أعقاب غزو يقوم به شعب غريب، وإما نتيجة النمو السيكولوجي. والأسطورة، في هذه الحالة الأخيرة، كانت تشبه ما يسميه سيلبيرر «الظاهرات الوظيفية». وتأكيد يونغ أن الإله الذي يذبح الحيوان هو رمز لليبيدي يفترض تصوراً آخر لليبيدو يختلف عن ذلك الذ ي كان ساري المفعول حتى الوقت الراهن، ويبدو لي بصورة عامة أنه موضع شك.

٧- ولادة البطل في التراجيديا

لابد لفعل كفعل قتل الأب بجهود الأخوة المتضافرة من أن يترك في التاريخ آثاراً يتعذّر أن تُمحى وأن يعبّر عن نفسه في تكوينات بديلة تزداد عدداً بقدر ما يتراخى تمسك الناس بأن يحتفظوا بذكرى مباشرة عن فعل القتل(٨).

وثمة، في الفن الأغريقي، وضع ينطوي على ضروب التشابه المثيرة مع مشهد الوجبة الطوطمية الذي وصفه روبرتسون سميث، وعلى فوارق عميقة في الوقت نفسه. ونودّ أن نتكلّم على أقدم شكل من أشكال التراجيديا الإغريقية. هناك جمهور من الأشخاص يحملون جميعهم الاسم نفسه ويرتدون ثياباً متماثلة ويقفون حول رجل واحل، وكل منهم تابع لكلماته وحركاته: إنها الجوقة المصطفّة حول من كان الوحيد، في الأصل، الذي يمثّل البطل. وكان ممثّل ثان ثم ثالث قد أُدخلا فيما بعد في التراجيديا، ليقوما مقام شريكي البطل الرئيس أو ليمثّلا هذه السمة أو تلك من سماته التي تميّزه. ولكن طبع البطل وعلاقاته مع الجوقة يظلان دون تغيير.

وكان مفروضاً على بطل التراجيديا أن يتألم: وتلك أيضاً هي الميزة الرئيسية في أيامنا هذه لمسرحية تراجيدية. وكان يوكل إليه ما نسمّيه «الخطيئة التراجيدية» التي ليس بوسع المرء دائماً أن يفهم أسبابها. وليس لهذه الخطيئة، في الأغلب، أي شيء مشترك مع ما نعتبره خطيئة في الحياة الجارية. إنها كانت ترتكز في الأغلب على عصيان سلطة إلهية أو إنسانية، وكانت الجوقة ترافق البطل وتحميه من عواطفه المنحازة وتسعى إلى منعه وتحذيره وإلى جعله يعتدل، وكانت تأسف عليه عندما يجد العقاب الذي يستحقّه على مشروعه الجريء المنجز.

---

(٨) انظر عاصفة شكسبير (الفصل الأول، المشهد الثاني): آريل تغني «دفن أبوك تحت خمسة باعات من المياه. صُنع المرجان من عظامه؛ وما كان عينيه أصبح لآليء، لاشيء منه اختفى، ولكن كل شيء كان قد حوّله البحر - إلى شيء ثمين وغريب».

ولكن لماذا ينبغي للبطل التراجيدي أن يتألم وماذا تعني خطيئته «التراجيدية»؟ سنحسم المناقشة بجواب سريع. إن عليه أن يتألم لأنه الأب البدائي، بطل التراجيديا البدائية الكبرى التي تكلّمنا عليها وتجد هنا تمثيلاً مغرضاً؛ أما الخطيئة التراجيدية، فإنها تلك التي ينبغي أن يلتزم بها حتى ينقذ الجوقة منها. والعناصر التي تُعرض على المسرح تمثّل تشويهاً، يمكن القول عنه إنه ماكر وفيه تفنّن، لأحداث تاريخية في حقيقة الأمر. إن أعضاء الجوقة هم الذين كانوا على وجه الدقة، في كل واقع قديم، سبب الآلام لدى البطل. ولكنهم هنا، على العكس، يصيبهم الإنهاك من النحيب ومظاهر التعاطف، كما لو أن البطل ذاته كان سبب آلامه. والجريمة التي تُعزى إليه، أي السفاهة والتمرد على سلطة كبرى، هي على وجه الدقة هذه الجريمة التي تضغط في الواقع على أعضاء الجوقة، على عصبة الأخوة. وعلى هذا النحو أيضاً، تتمّ ترقية البطل التراجيدي، عكس ما يريد، الى مروّض الجوقة.

وإذا كانت آلام الكبش الإلهي ديونيزوس، في التراجيديا اليونانية، وشكاوى جوقة الأكباش وضروب نوحها، الجوقة الطامحة إلى التوحّد به، تكوّن محتوى التمثيل، فإننا نفهم بسهولة أن الدراما المنطفئة وجدت مجدّداً تجديداً في حيويتها خلال العصور الوسطى حين استحوذت على آلام المسيح.

وبوسعي إذن أن أنهي وألخّص هذا البحث السريع قائلاً إن المرء يكتشف معاً في عقدة أوديب بدايات المعتقدات والأخلاق والمجتمع والفن، وذلك يتطابق تطابقاً تاماً مع معطيات التحليل النفسي الذي يرى في هذه العقدة نواة الأعصبة جميعها، وذلك بمقدار ما أفلحنا حتى الوقت الراهن في النفوذ الى طبيعتها. أليس أمراً مدهشاً أن يكون ممكناً أن تُحلّ حتى هذه المشكلات الخاصة بالحياة النفسية للشعوب انطلاقاً من مسألة شخّصة واحدة: مسألة الموقف من الأب؟ ومن الممكن أن نكون قادرين على ا،

نشرح بالطريقة نفسها شكلاً سيكولوجياً آخر. فالفرصة سنحت لنا على الغالب لنبيّن أن ثنائية المشاعر الانفعالية، بالمعنى الحقيقي للكلمة، وأعني مزيجاً من الكره والحب الموجّهين الى موضوع واحد، موجودة في أصل عدد كبير من التكوينات الاجتماعية. ونحن نجهل جهلاً كلياً أصول هذه الثنائية، ثنائية المشاعر. وبوسعنا أن نفرض أنها تكوّن الظاهرة الأساسية في حياتنا الانفعالية. ولكن من الممكن أيضاً ألاتكون الإنسانية قد اكتسبتها، بوصفها غريبة عن بداية الحياة الانفعالية، إلا بواسطة العقدة الأبوية [9] التي تجد فيها ثنائية المشاعر في أيامنا هذه أيضاً، حسبما يعلّمكم التحليل النفسي، تعبيرها الأسمى [10].

٧- البطل الذي يقتل الأب ليحلّ محلّه

لنعد بسرعة إلى الأسطورة العلمية الخاصة بأب العشير البدائي. كان هذا الأب قد رُفع إلى منصب خالق العالم، وهو أمر صائب، ذلك أنه هو الذي أنجب جميع الأبناء الذين كان الجمهور الأول يتألف منهم. إنه المثال بالنسبة لكل منهم، المرهوب والمعبود معاً، ومصدر المفهوم اللاحق، مفهوم **التحريم**. واجتمعت في يوم من الأيام هذه الغالبية العظمى وقتلت الأب وقطّعته. ولم يستطع أحد من أعضاء الجمهور الظافر أن يحتّل مكانه أو كان هذا العضو يرى، إذا فعل ذلك، أن العداوة ذاتها، التي تليها الصراعات وضروب القتل، تنتصب ضده. وفهم الجميع أخيراً أنه كان عليهم أن يتخلّوا

---

(٩) وعقدة القرابة بصورة عامة.

(١٠) في سبيل أن تتجنّب ضروباً من سوء الفهم، أعتقد أن من المفيد أن نذكّر صراحة، حين نحدّد هذه العلاقات، بأنني لا أنسى مطلقاً تلك الطبيعة المعقّدة للظاهرات التي ينبغي استخلاصها وأن قصدي الوحيد يكمن في أن أضيف، إلى الأسباب المعروفة أو التي لاتزال غير معترف بها للمعتقدات والأخلاق والمجتمع، عاملاً جديداً يبرز في بحوث التحليل النفسي. وعليّ أن أترك إلى آخرين جهد إجراء التأليف بين هذه العوامل. ولكن طبيعة العامل الجديد الذي نشير إليه هي ما هي عليه بحيث لن يكون بوسعه أن يؤدي في التأليف المستقبلي سوى الدور الرئيس، في حين أنه ينبغي التغلّب على مقاومات انفعالية شديدة حتى يُعزى إليه هذا الدور.

عن أن يرثوا الأب. وعندئذ كوّنوا الجماعة الأخوية الطوطمية التي يتمتّع فيها جميع الأعضاء بالحقوق نفسها، وكانوا مرتبطين بالتحريم الطوطمي ذاته، وعليهم أن يحتفظوا بذكرى القتل والتكفير عن الجريمة. ولكن الاستياء من نظام الأمور المنجز استمرّ وأصبح مصدر تطورات جديدة. فكان أعضاء الجمهور الأخوي مسوقين بالتدريج إلى إعادة النظام القديم وفق مخطّط جديد: أصبح الرجل ذلك الزعيم الجديد، ولكنه زعيم أسرة، وحطّم امتيازات النظام الأمومي للعشيرة الذي كان قد تأسّس بعد قتل الأب. واستطاع هذا الزعيم عندئذ أن يعترف، على سبيل التعويض، بإلهات أمومية يخدمها الكهنة الذين تعرّضوا للخصاء، على غرار المثال الذي كان أب العشير البدائي قد ضربه. ولم تكن الأسرة الجديدة مع ذلك سوى ظلّ الأسرة القديمة، فكان الآباء عديدين، وكل منهم محدود في حقوقه بحقوق الآخرين.

واستطاعت عندئذ ضروب الحرمان المحتملة بنفاد صبر أن تجعل فرداً من الأفراد ينفصل عن الجمهور ويضطلع بدور الأب. ومن فعل ذلك كان الشاعر الملحمي الأول، والتقدم موضوع البحث لم ينجز في البداية إلا في خياله. وهذا الشاعر حوّل الواقع باتجاه رغباته. فاخترع الأسطورة البطولية. وكان بطلاً من كان الوحيد الذي قتل الأب، الأب الذي كان لايزال يبدو في الأسطورة مسخاً طوطمياً. وإذا كان الأب هو المثال الأول للصبي الصغير، فإن البطل أصبح، كما كان خيال الشاعر قد خلقه، ذلك المثال الأول للأنا[١١] التوّاقة إلى أن تخلف الأب. وترتبط فكرة البطل على وجه الاحتمال بأصغر الأبناء، بتأثير الأم التي كانت قد صانته من غيرة الأب الذي كان هذا الابن قد أصبح خلفه خلال عصور العشير البدائي. والمرأة، التي لم

(١١) انظر كتاب النرجسية في هذه المجموعة. (كتاب ترجمناه ونشرته وزارة الثقافة في دمشق «م»).

تكن في الإعداد الشعري لوقائع هذه العصور سوى رهان القتل بوصفها مصدر الإغراء وموضوع الاشتهاء، كانت قد وجدت نفسها متحوّلة إلى محرّضة ومتواطئة نشيطة في هذا الإثم.

٨- الشاعر الملحمي، البطل الأول

تعزو الأسطورة إلى البطل وحده تلك المأثرة التي لم يكن ممكناً بالتأكيد أن تكون إلا عمل العشير البدائي برمته. ولكننا نكتشف في الأسطورة، وفق الملاحظة التي أبداها أوتو رانك، آثاراً بارزة جداً من الوضع الواقعي الذي تشوّهه. ويجري الحديث فيها على الغالب عن بطل هو الابن الأصغر في معظم الأوقات، ابن أفلت من قسوة الأب بسبب البلاهة التي جعلته يُعتبر غير خطر. ولهذا البطل مهمة شاقة عليه أن يؤدّيها، ولكنه ليس بوسعه أن يقودها إلى النجاح إلا بمساعدة جمهور من الحيوانات الصغيرة (نحل، نمل). ولن تكون هذه الحيوانات سوى التمثيل الرمزي لأخوة العشير البدائي، مثلما أن الحشرات والديدان، في رمزية الحلم، تشخّص الأخوة والأخوات (المعتبرين أطفالاً صغاراً مع ظلال من الاحتقار). يضاف إلى هذا أن المرء يتعرّف بسهولة، في كل مهمة من المهمات التي تتكلّم عليه الأسطورة والقصة، على تمثيل ينوب رمزياً مناب العمل البطولي.

فبالأسطورة إذن يتحرّر الفرد من السيكولوجيا الجماعية. والأسطورة الأولى كانت بالتأكيد من النسق السيكولوجي: إنها كانت أسطورة البطل. ولن تظهر الأسطورة التي تشرح الطبيعة إلا فيما بعد. والشاعر، الذي خطا هذه الخطوة ليتحرّر بالخيال من الجمهور، يتقن مع ذلك، وفق ملاحظة أخرى أبداها أوتو رانك، أن يعود إليه في حياته الواقعية. ذلك أنه يمضي يميناً ويساراً ليقصّ على الجمهور تلك المآثر التي يعزوها خياله إلى البطل. وليس هذا البطل في حقيقة الأمر سوى الشاعر نفسه. وعلى هذا النحو يغوص مجدّداً في الواقع وهو يرفع سامعيه في الوقت نفسه إلى مستوى

خياله. ولكن السامعين الذين يعرفون الشاعر يتقنون التوحّد بالبطل الذي يشاطرونه الموقف، المفعم بالرغبات غير المنجزة، من الأب البدائي[١٢].

ويصل كذب الأسطورة ذروته في تأليه البطل. ومن الممكن أن يكون البطل المؤله سابقاً على الإله - الأب، وأن يعلن عودة الأب البدائي في ظلّ تحوّل طرأ على الألوهية ويكون التتابع الزمني هو التالي: إلهة - أم، بطل - إله - أب. ولكن ذلك فقط مع رفع الأب البدائي، الذي لم يكن قد نُسي أبداً، الى المنصب الإلهي[١٣].

سيغموند فرويد

(١٢) انظر هانز ساش: تقرير عن مداخلة أُلقيت في المؤتمر السادس للتحليل النفسي في لاهاي، ١٩٢٠، «الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي»، المجلد السادس، ١٩٢٠.

(١٣) كنا مرغمين في هذا العرض المختصر على أن نتخلى عن الدعم الذي كان ممكناً أن تقدمه لنا المواد التي تؤمّنها الخرافة والأسطورة والقصة وتاريخ العادات الإجتماعية، الخ.

الفصل الثالث
حـــق الأم

كان فرويد يتوقّع أن يستقبل الناس كتاب الطوطم والتابو استقبالاً غير حفيّ. وانصبّ النقد بالفعل على فرضية العشير البدائي، وعارض بعضهم السمة الكلية للتكوين الأوديبي.

والناطق الرئيس بلسان خصوم أوديب هو أنتروبولوجي، برونيسلو مالينوسكي الذي يحيّيه إرنست جونز في هذا الفصل مستبعداً فرضياته في الوقت نفسه.

وكان مالينوسكي قد درس دراسة مفصّلة جداً التروبريانده، شعباً يحتلّ أرخبيلاً في عرض البحر قرب غينيا الجديدة. ولايدو أنهم، شأنهم شأن العديد من البدائيين الآخرين، يعون الدور الذي يقوم به الرجل في الإنجاب.

وفي رأي مالينوسكي أن انتقال الاسم أو الإرث في نظام النسب إلى سلالة الأم ناشيءمن هذا الجهل، وناشيء منه أيضاً واقع مفاده أن الخال هو الذي يضطلع بتربية الطفل. ويصبح الأب الحقيقي، المعفى من هذا الشاغل، رفيق ابنه. وهكذا تتفقد إحدى سمتي الوضع الأوديبي، أي العداوة للأب.

ويضع جونز الأمور في نصابها بحزم، مستخدماً معطيات مالينوسكي الإنتوغرافية: إن مالينوسكي يهمل اللاشعور بكل بساطة. فالبدائيون يكبتون ما لديهم من المعرفة عن الرابطة بين الفعل الجنسي والإخصاب. وتتيح لهم هذه الآلية أن يدافعوا عن أنفسهم ضد الرغبات الأوديبية: إنهم ينقلون العداوة المحتومة للأب إلى الخال الذي يحمل كل

عبئها. وبوسعهم على هذا النحو أن يحبوا أباهم البيولوجي دون تحفّظ: فهم يتجنّبون الإثمية الناشئة من النزاع الذي تسبّبه الثنائية في العواطف إزاءه.

ولنشر مع ذلك إلى أن مفهوم ثنائية المشاعر، أي النزاع بين عاطفتين متعارضتين من الحب والكره، يمثّل في رأي فرويد علامة تقدّم في الحضارة.

والتقدّم الآخر هو الاعتراف الواعي بالأبوة: إن الإنسانية انتقلت به من نظام النسب الأمومي الى مجتمع النسب الأبوي. إنه، مع بعض التغييرات، هو المجتمع الذي لانزال نعيش فيه.

منذ ظهور الكتاب الشهير لباشوفين عام ١٨٦١، **حق الأم**، الذي كان يستند على وجه الخصوص إلى دراسة الأدب الكلاسيكي، تعاظم الاهتمام بالصورة التي كانت تُعرَض فيه للإنسان الأول. وتمثّل هذه الصورة، حتى أيامنا هذه، موضوعاً من الموضوعات الأساسية لمكتشفات الأنتروبولوجيا. ويوسعنا القول إن البحوث التي تلت أكّدت، مع أنها قلبت رأساً على عقب بعض نتائج باشوفين، كثيراً من النتائج الأخرى مع ذلك، وامتدّت هذه البحوث على ميدان أوسع، بما لايقارن، من الميدان الذي كان بها في العصر الخاص بالمؤلف.

والفرد يمكنه مع ذلك، لأسباب سأشير إليها فيما بعد، أن يكون مركز استجابات انفعالية حادّة. ومن هنا منشأ واقع مفاده أن أي انحراف يؤثّر على الأغلب في النتائج أو حتى في نمط البحث. وقد يجد المرء دون أي شك عناصر من صنع المخيّلة وحدها في اللوحة المزعومة لحالة «النظام الاجتماعي الأمومي» الأصيل. ولدينا على سبيل المثال، في مؤلف فيرتنغ، **الجنس السائد**، وصفٌ لهذه الحالة يثير الإعجاب، حيث نرى عكساً إلى الحد الأقصى في العلاقة بين الجنسين. ونتعلّم في هذا الكتاب، على وجه

الخصوص، أن الأطفال لاينتمون إلا إلى الأم فحسب - بالنظر إلى أن الأب لاتربطه بهم أي رابطة من القرابة سواء أكانت هذه الرابطة رابطة إرث أم رابطة تربية - بل إن النساء هنّ اللواتي يعود إليهن حق الملكية. وللمرأة دور العاشق، وبوسعها أن يكون لها من الأزواج والعشّاق بقدر ما يروق لها، وللمدة الزمنية التي تريدها. وبوسعها أن تطلّق زوجها في أي لحظة، وذلك أمر ليس بمقدور الزوج أن يفعله، فهو في كنف زوجته بوصفه مدعواً. وليس للزوج وجود إلا للذّة الجنسية التي يؤمّنهالزوجته، وكذلك للعمل الذي ينجزه في ظلّ أوامرها. أما عن الجوانب الأخرى من دوره، فإنها تذكّرنا بالجوانب التي يتحمّلها مربو النحل من زنبور خلية النحل. إن للمرأة وضعاً سائداً شبيهاً بالإدارات والحكومة في كنف المجتمع.

١- نظام الأمومة لاينطوي بالضرورة على سيادة النساء

ليس من الضروري أن يعرف المرء كثيراً عن علم النفس الجنسي أو بيولوجيا الثدييات ليرتاب في صحة هذا الوصف، ويكاد الواقع الانتروبولوجي الصارم يشرع في كبح حدّته. وتولد الريبية مباشرة من الفكرة التي مفادها أن الرجال كانوا في الزمن الغابر أطوع مما هم عليه في أيامنا هذه وأن تطوّر الحضارة رافقته إذن اندفاعة كبيرة من الشراسة إزاء النساء قام بها الذكور الشرسون. ولكننا، على العكس، إذا نظرنا بانتباه إلى مؤسسات الشعوب البدائية الحالية، وإذا أخضعناها بالإضافة إلى ذلك أيضاً لفحص تحليلي دقيق، فإننا ملزمون بأن نستنتج أن على هذه الشعوب أن تصون أنظمة أكثر إعداداً وإثارة للخوف من أنظمتنا بكثير، حتى تحتفظ بشيء من الرقابة على غرائزها العنيفة والسادية، وبخاصة على الغرائز المعادية للنساء. وبوسعنا أن نرجع على سبيل المثال إلى أعمال ديك التي انصبّت على السيادة المزعومة للأم(١) أو على تجربة الروّاد الشائعة. وبوسعنا في الواقع أن نذكرهنا مستخلصاً من كتاب فرازر(٢) **فرع من الذهب**: «قد يكون

---

(١) ريك، مشكلات سيكولوجيا الديانات، ١٩١٩، الفصل الثاني.

(٢) فرازر، أدونيس، أتيس، أو زيريس، المجلد الثاني، ص٢٠٨ - ٢٠٩.

مفيداً، لتبديد الضروب من سوء الفهم التي يبدو أنها انتشرت عن الموضوع، أن نذكّر القارىء أو نعلمه أن العادة القديمة المنتشرة انتشاراً واسعاً، عادة أن نرسم شجرة النسب وفقاً لسلالة الأم أو عادة الإرث من الأم وحدها، لا تعني على الإطلاق أن حكومة القبيلة التي تراعي هذه العادة هي في أيدي النساء. والخلاصة أن على المرء دائماً أن يكون ماثلاً في ذهنه أن نظام الأمومة لا يعني بالضرورة سيادة الأم. بل، على العكس، تسود تقاليد نظام الأمومة لدى المتوحشين الأقل تطوراً، الذين تتصف المرأة عندهم بأنها كبش المحرقة دائماً للرجل بدلاً من أن تحكمه، وهي على الغالب لا تكاد تكون أكثر من عبدة له. والواقع أن هذا النظام الاجتماعي هو من البعد عن أن ينطوي على تفوّق اجتماعي للنساء بحيث أنه نشأ على وجه الاحتمال ما ينبغي أن نعتبره نحن الانحطاط الأعمق، أي حالة اجتماعية كانت العلاقات بين الجنسين فيها قد وصلت جداً من التراخي والغموض بحيث لم يكن بوسع أي رجل أن يطالب بأبوّة طفل من الأطفال. ونجد من الطبيعي، حين انتقال المجتمعات من مرحلة التوحش الصرف إلى مرحلة ثقافية أسمى أصبح فيها تراكم الملكية ـ والملكية العقارية على وجه الخصوص ـ أداة قوية للنفوذ الاجتماعي والسياسي، أن احتفاظ الناس، في أي مجتمع كان، بالأفضلية القديمة للفرع الأنثوي في الذرية، وضع نزّاع إلى أن تتعاظم فيه أهمية المرأة وإلى الإعلاء من كرامتها. ويُلاحظ بصورة خاصة تنامي قوتها في أسر الأمراء حيث تقبض هي ذاتها على السلطان الملكي والملكية الخاصة على حدّ سواء، أو تنقلهما على الأقل الى زوجها أو أطفالها. ولكن هذا العلوّ الاجتماعي للنساء لم يكن قط قد دُفع إلى حدّ بعيد يكفي ليكون بوسعهن أن يضعن الرجال كلياً في موقع من الخضوع السياسي لهن. وحتى عندما ساد النظام الاجتماعي الأمومي ـ ذو العلاقة بالنسب والملكية ـ سيادة أكثر كلية، فإن السلطة ظلّت على وجه العموم، إن لم يكن على وجه لا تغيّر فيه، في أيدي الرجال. وثمة استثناءات بدت دون أدنى ريب: إن بعض النساء أثّرن فترة من الزمن في مصير رعاياهن بفعل قوة طبع حقيقية. ولكن

مثل هذه الاستثناءات نادرة ومفعولاتها عابرة. وهي لا تصيب بالبطلان صحة القاعدة العامة التي تقضي بأن المجتمع الإنساني كان على وجه الخصوص محكوماً في الماضي، وسيكون محكوماً على وجه الاحتمال في المستقبل، لأن الطبيعة البشرية لاتتغيّر، بقوة الذكور وذكائهم.

وهناك القليل من الأفراد، إذا وجدوا، الذين أثاروا كثيراً من الآراء المسبقة الانفعالية كالمقارنة بين الرجل والمرأة، وعلى الأخص إذا أدرجنا في هذه المقارنة مسألة الأدوار التي يؤدّيها كل من الأب والأم في الحياة. والأمل في أن يبلغ النزاهة امرؤٌ من الناس بلوغاً جدّياً، دون المعرفة التي اكتسبناها بالتحليل النفسي حول الخصائص النوعية للرجال والنساء، سيكون أملاً لا يُرتجى من الناحية العملية. ولن نسير أبداً، حتى مع كل المعرفة الموجودة تحت تصرفنا، سيراً حذراً بكفاية في هذا الدرب الحسّاس».

٢ ـ حق الأم في المجتمعات المسماة بدائية

والصعوبة الثانية هي من نسق أكثر مادية بكثير. إنها تكمن في التعقيد الهائل للظاهرات ذاتها وفي تغيّرها المستمرّ على وجه التقريب. وبوسعنا أن نقدّم لمحة صغيرة عن ذلك بالملاحظات التالية: يتّفق علماء الأنتروبولوجيا على أن الظاهرة الرئيسة، وربما هي الوحيدة الأساسية بين الظاهرات التي يجمعها مصطلح «حق الأم»، هي ظاهرة النظام الاجتماعي الأمومي، أي عادة الاعتراف بالنسب عبر الأم وحدها. فثمة نسب بسلالة الأم كما يقال، وليس ثمة نسب بسلالة الأب أو العصبَة[٣]. ويرافق هذه الخاصة الرئيسة عادةً

(٣) يستخدم ريفر (موسوعة الدين والأخلاق الفلسفية لها ستينغ، مقال: «حق الأم») تعبير «حق الأم» بمعنى مختلف وأكثر تعقيداً، إذ يميّزه من النسب المباشر إلى الأم. والتربية، في رأيه، تشبه «القرابة» شبهاً غريباً عندما يؤخذ هذا المصطلح بمعناه النسبي، على الرغم من أن الفكرة الراهنة عن رابطة الدم قد لا تكون دائماً أساسية في ذهن المتوحشين. والنظام الاجتماعي الأمومي، بمعناه الدقيق، لا يوجد على وجه الاحتمال أبداً بصورة كلية، بحيث أن بوسعنا أن نهمله في حديثنا. وأعني أنه ليس ثمة شعب لا يعترف الناس فيه بأية رابطة ـ أياً كانت ـ بين الطفل والأب (وأقرباء الأب). ويقصدون بالنسب، سواء أكان أمومياً أم أبوياً، أصل الطفل الذي يحدد إلى أية جماعة اجتماعية (فخذ أو عشيرة) سينتمي. وإذا كان هذا الأصل يحدّده وضع الأم، فإن لدينا النسب الأمومي ـ الذي يصفه مؤلفون آخرون بمصطلح «النظام الاجتماعي الأمومي» ـ وتلك خاصة من الخصائص الأكثر أساسية من حق الأم.

عددٌ كبير من الخصائص الأخرى (التي سنذكر الأساسية منها للتو)، ولكن الرابطة الحقيقية التي توحّد بين شتى هذه الخصائص هي من عدم الانتظام على نحو غريب بحيث تخيّب أمل من يبحث عن ضربٍ من النظام. وتبدأ الصعوبة مع ما سمّيناه الخاصة الرئيسة، لأن الطفل لا ينتمي بالضرورة إلى عشيرة الأم ولو أن نسبه محسوب وفق المرأة. فالطوطم الذي انتهى إلى إخصاب أمه، التي ينتمي الطفل إلى عشيرتها عندئذ، قد يكون مختلفاً عن طوطم الأم وعشيرتها. فالنسب يمكنه أن يكون بالتأكيد إلى الأم أو إلى الأب أو إلى الاثنين معاً. ويزداد التعقيد منذ أن ننظر في بعضٍ من العلاقات بين النظام الاجتماعي الأمومي والخصائص التي ترافقه.

١ ـ **السلطان**: مصطلح «النظام الاجتماعي الأمومي» ينبغي أن يكون مقصوراً على الحالات التي توجد فيها حقاً سيطرة للأم، أي عندما تكون الأم رئيسة الأسرة وفي يدها السلطان النهائي على الأطفال. وذلك أمر نادر إلى الحد الأقصى، ولكن الحالة تكوّن، عندما تتبدّى، ذلك التعبير الأنقى عن حق الأم. وقد يحدث على الغالب أن يكون الأب رئيس الأسرة ويمارس السلطة عندئذ ـ لكي نستخدم المصطلح الحقوقي ـ كما يفعل عندما يسود النسب حسب سلالة الأب. ومع ذلك فإن الحالة الأكثر تواتراً هي من الخصوصية بحيث أن وجودها، ولو بصورة ملطّفة، يجعل دائماً وجود حق الأم موضع الظن (سواء أكان هذا الوجود في الماضي أم في الحاضر). وأخ الأم، أي خال الطفل، هو الذي بيده **السلطة**: إنه التنظيم القائم على الخال. وثمة تنوّعات أخرى عندما يتقاسم **السلطة** أب الطفل وخاله وفق المسائل التي تُمارس فيها هذه السلطة، أو عندما يكون سلطان الخال على الابن وسلطان الأب على البنت، أو عندما يمارس الأب سلطانه على الطفل حتى سنّ معيّنة ثم يليه الخال.

٢ ـ الإرث والخلافة: مع حق الأم، تنتقل أيلولة الرتبة (ملكية، دور الرئيس، إلخ)، على وجه الخصوص وليس دائماً، من رجل إلى ابن اخته، لا إلى ابن زوجته. وبعبارة أخرى، تؤول الرتبة على الغالب، سواء أكان بوسع المرأة أن تتولاّها أم لا، إلى جهة المرأة بدلاً من الرجل. ولكنه، ونقول مرة أخرى، لا وجود للقاعدة العامة. ففي ميلانيزيا، على سبيل المثال، حيث يسود النسب حسب سلالة الأم، تتمّ الخلافة عادة بالأب.

والقوانين حول الإرث (إرث الملكية) تختلف كذلك اختلافاً كبيراً. والملكية يمكنها، وهو أمر نادر جداً، أن تكون في يد المرأة فقط. وتؤول الملكية بصورة عامة إلى ابن الأخت، ولكن ثمة أمثلة من حق الأم (كما هو الأمر لدى شعب ماله موررونغ) حيث يرث الصبي من أبيه مع ذلك.

وليس علينا أن ننسى أنه لا توجد رابطة وثيقة بين السمات الفردية التي ذكرناها سابقاً. وبوسعنا أن نشير إلى سمة واحدة بين عدد لامتناهٍ من السمات: السلطة في مضيق تورّه هي سلطة الخال، ولكن النسب والإرث والخلافة تتمّ جميعها وفق السلالة الأبوية.

٣ ـ **السكنى**: الزوج وحده، في الأشكال القصوى من حق الأم، يزور زوجته، أو يزور كل شخص يعيش معها ومع أسرتها (الزواج في مسكن الزوجة)، وهو يخضع في هذه الحالة، على وجه العموم، إلى رئيس المنزل، أخيها أوخالها. ويرافق الزواج في مسكن الزوجة دائماً على وجه التقريب نسبٌ وفق سلالة الأم على الرغم من وجود استثناءين معروفين على القاعدة. ويستتبع النسب وفق السلالة الأبوية دائماً على وجه التقريب زواجاً في مسكن الزوج، ولكن العكس غير صحيح لأن الزواج في مسكن الزوج موجود على الغالب مترافقاً مع النظام الاجتماعي الأمومي. فالزواج الأوسترالي على سبيل المثال زواج في مسكن الزوج في غالبيته العظمى، في حين أن النظام الاجتماعي الأمومي شائع لديهم بقدر شيوع النظام الاجتماعي الأبوي على وجه التقريب.

٣ ـ الرابطة الاجتماعية بين الأم والطفل: هل ثمة تجاهل للأبوة؟

بوسعنا أن ننتهي إلى النظر في المشكلات الرئيسة الخاصة بحق الأم، بدلالته العامة وأسباب نشوئه والتخلّي عنه. وسنرى، ونحن نتصرّف على هذا النحو، أننا نصطدم على الفور ببعضٍ من المشكلات الأنتروبولوجية الأكثر أساسية ـ تلك المشكلات ذات العلاقة بتطور الطوطمية والزواج والأسرة، أو بتطور المؤسسات الاجتماعية الأخرى. وفي رأينا أن فكرة أسرة يؤدي فيها الأب دوراً هو من الضعف بحيث يمكن حتى أن يحلّ محلّه خال من الأخوال تبدو بالتأكيد غريبة وتقتضي ضرباً من الشرح.

والفرضية الأوضح لوجود حق الأم، التي صاغها أول الأمر شوتين عام ١٧٥٧ وكرّرها منذ ذلك الحين مسافرون عديدون، هي الفرضية التالية: هذا الحق ناجم عن الريبية التي تناولت شخص الأب. فالأمومة، كما كان بعضهم قد لاحظ بصورة وقحة، مسألة واقع، والأبوة مسألة رأي. ويبيّن البحث السطحي مع ذلك أن وجهة النظر هذه على خلاف كامل مع الوقائع. فلا وجود لأية صلة بين حق الأب والأمانة الزوجية أو بين حق الأم وفقدان الأمانة الزوجية[٤]. فحق الأم، من جهة، السائد على سبيل المثال في الشاطىء الغربي من أفريقية وفي أثيوبية الشمالية، حيث الزوجة تراعي الأمانة الزوجية مراعاة دقيقة جداً، يجعل الخيانة الزوجية نادرة إلى حدّ المبالغة وعقوبتها الموت على الغالب. وثمة، من جهة أخرى، ذلك الوضع الأكثر شيوعاً حيث الأخلاقية الزوجية رخوة مع أن حق الأب هو الغالب. وعلى هذا النحو يوازن هارتلاند بينه وبين كفير الهندوس كوش حيث يسود لديهم حق الأب الأكثر صرامة: «الكفير الذي يغامر بالشك في صحة نسب

(٤) انظر، في سبيل مناقشة للموضوع أكثر شمولاً، كتاب هارتلاند، المجتمع البدائي، ١٩٢١، ص١٢ـ١٧.

طفل من الأطفال إليه، طفل هو أبوه من الناحية القانونية، سيكون من طينة جريئة»[٥]. بل ثمة ما هو أكثر من ذلك: يبدو الرجال، في العديد من الشعوب ذات النسب حسب السلالة الأبوية، أنهم يظهرون أكبر لامبالاة حول قرابة الدم الحقيقية بابنهم من الناحية القانونيةما دام لهم ابن لإنجاز مطالبهم الطقسية والاقتصادية حيث تتجلّى الحاجة الى الابن. ولكن ابناً بالتبنّي، أو الابن الذي تلده نساؤهم من رجل آخر، يخدم الأهداف التي يخدمها الطفل الذي يولد من صلبهم.

وهناك وجهة نظر أكثر براعة وإثارة للاهتمام طرحها ماك لينان منذ نحوٍ من نصف قرن في كتابه **الزواج البدائي** وطوّرها هارتلاند عام ١٨٩٥ في كتابه **أسطورة بيرسوس**، هي الفكرة التي تقضي بأن حق الأم يمثّل بقيّة من بقايا عصر كان الناس يجهلون وقائع الإنجاب خلاله. وإذا كان الناس لا يعتقدون بأن الأب يؤدي دوراً ضرورياً في الإنجاب، فإنه يبدو عندئذ أن وضع الطفل لا يمكنه أن يتحدّد إلا بالأم، وأعني وجود حق الأم. وذلك هو المفترض المسبق الأساسي من الفرضية التي تقتضي بأن حق الأم سبق حق الأب بالضرورة عبر العالم. والحقيقة أن المرء يجد على الغالب حق الأم حيث يكون دور الأب في الإنجاب مفهوماً كل الفهم. بل ثمة بالإضافة إلى ذلك أيضاً، كما يبيّن وستير مارك[٦]، عشائر أوسترالية ذات نسب وفق سلالة الأم مع أنها تعتقد بأن الطفل ينجبه الأب وحده وتغذّيه الأم فقط. وقد توجد مع ذلك أسباب سيكولوجية وسوسيولوجية لاستمرار تنظيم معيّن بعد أن يكون العامل الأصلي قد كفّ عن العمل، على الرغم من أن الملاحظات التي أبديناها لن تدحض بالضرورة فرضيتي ماك لينان وهارتلاند. ونحن مدفوعون عندئذ إلى أن نفحص موضوع الجهل الجنسي لدى المتوحشين، الذي يكتنفه الخلاف الشديد، بوصفه المقدّمة الأساسية لبحثنا.

---

(٥) هارتلاند، **الأبوة البدائية**، ١٩٠٩، المجلد الأول، ص ١٠١.

(٦) ويستير مارك، **تاريخ الزواج البشري**، الطبعة الخامسة، ١٩٢١، المجلد الأول، ص ٢٩٤.

٤ ـ خلاصات مالينوسكي

ليست المسألة سهلة الحلّ. والحقيقة في هذا المجال، شأن جميع البحوث في مجال الجنسية، يصعب على وجه الخصوص إيضاحها، وتبدو الأخطاء بعدد غير متوقّع. والباحث الوحيد الذي يبدو أنه أجرى دراسة خاصة لهذه الأخطاء وأبدى نفاذ بصيرة في دراستها هو مالينوسكس. والسرد الذي رواه عن حياة شعب التروبريانده الجنسية، وهم عرق من البابو المالينيزي الذي يسكن أرخبيلاً في عرض الشاطىء بغينيا الجديد، هو السرد الأكمل حالياً بالتأكيد. ونوعية هذا السرد هي من الجودة بحيث توحي بثقة كبيرة في صحة ملاحظاته[٧]. وينتهي، بعد أن يفحص المعطيات المفيدة فحصاً منتبهاً، إلى النتيجة الواضحة التي مفادها أن هؤلاء السكان الأصليين ليس لديهم أدنى معرفة بالدور الذي يؤدّيه السائل المنوي في الإنجاب. وليس لديه أدنى شك في صحة ملاحظاته. ويخلص إلى القول: «اعتقادي الحاسم أن جهل الأبوّة خاصة أصيلة من خصائص علم النفس البدائي وأن علينا أن نحتفظ في ذهننا بهذا الجهل الأساسي في كل الملاحظات الخاصة بأصول الزواج وتطور الأعراف الجنسية»[٨].

وإذا قبلنا هذه الملاحظات على أنها صحيحة، وعلى وجه الخصوص بحوث مالينوسكي التي يبدو أننا مرتبطون بها[٩]، فإن المسألة ستظهر عندئذ أنها محلولة. ولكن صوت الريبية يرفض أن يهدأ. وثمة عدد من الملاحظات الأخرى تتيح للمرء أن يلمح بقوة أن الموضوع لا يزال غير مستنفد.

وهناك الواقع الذي لا مجال لمناقشته، بادىء ذي بدء، واقع مفاده أن غالبية المتوحشين في العالم ـ بمن فيهم أولئك الذين يراعون حق الأم ـ مطّلعون

---

(٧) مالينوسكي، «بالوما: أرواح الموتى في جزر تروبريان»، صحيفة المعهد الملكي للأنتروبولوجيا، ١٩١٦، «سيكولوجيا الجنس وأساس القرابة في المجتمعات البدائية» و«علم النفس التحليلي والأنتروبولوجيا»، مقالان في مجلة النفس، المجلد الرابع.

(٨) مجلة النفس، المجلد الرابع، ص١٢٨.

(٩) أسمح لنفسي أن أشير مع ذلك إلى أن الأستاذ مالينوسكي عبّر لي عن أسفه الأكثر شدة لأنه لم يعرف شيئاً عن التحليل النفسي قبل إجراء هذه البحوث.

كل الاطلاع على الدور الذي يؤديه الرجل في الإنجاب. وذلك أمر لا يبرهن عليه سردهم المباشر فحسب، ولكن تبرهن عليه أيضاً عادات عديدة مبنيّة على هذه المعرفة[10]. يضاف إلى ذلك أن المتوحشين الذين يبدو أنهم يجهلون مسائل الإنجاب الأبوي يظهرون هم أيضاً أنهم يظنون على الأقل بشيء من الأشياء في المجالات الفكرية الأخرى.

٥ ـ جواب بعض المحلّلين النفسيين

تثير الملاحظات السابقة مشكلاً مفاده أن نعرف هل الجهل الموجود لدى المتوحشين هو، في نهاية المطاف، واقعي وكلي بقدر ما يتوخّى الظهور. والاقتران الغريب، اقتران الجهل (حيث المرء يمكنه بصورة معقولة أن يتوقّع المعرفة) ونصف المعرفة، ظاهرة مألوفة لدينا في مجالات فكرية أخرى.

والكتّاب الذين يرتابون في طبيعة هذا الجهل المعيّنة مالوا إلى اعتبارها شيئاً ثانوياً أو مصطنعاً، وقليل منهم شرحوا أسباب ظهوره شرحاً تاماً.

ويخطو الأنتروبولوجي كارفث ريد خطوة إلى الأمام حين يصوغ الفكرة التي مفادها أن المعرفة، الموجودة فعلاً، معرفة لاشعورية على سبيل الحصر من جرّاء ضرب من «الكبت». ويقول إن هذه المعرفة «كبتتها الفلسفة الإحيائية وطردتها من الشعور». ويعتقد مالينوسكي مع ذلك أن أية بنية فوقية إحيائية لا يمكنها أن تمحو هذه المعرفة لأن المتوحشين لا يولون قرابة الدم أي أهمية حين يحدّدون «النسب».

وحين انبعث السؤال الذي مفاده أن نعرف هل الأفكار موجودة في حالة من الكبت وما كانت، إذا الأمر على هذا النحو، أسباب هذا الكبت على وجه الاحتمال، فإن من المؤكد عندئذ أن للمحلّل النفسي كلمة يقولها في هذا الموضوع. ولهذا السبب، فإنني، في هذه المرحلة، أقترح تقديم

(١٠) انظر ويستيرمارك، مصدر مذكور سابقاً، ص ٢٨٧, ٢٨٨.

فرضيات وفق دروب التحليل النفسي، إحداها، إذا كانت صحيحة، تشير إلى القرابة غير المباشرة الأوثق بين الجهل بالإنجاب الأبوي من جهة، ومؤسسة حق الأم من جهة أخرى.

ووجهة نظري هي أن هاتين الظاهرتين سبّبتهما الدافعية نفسها. أما عن توافقهما بفعل أية علاقة زمنية، فتلك مسألة أخرى في ذاتها. وفي رأيي مع ذلك أن الدافعية في الحالتين تكمن في **تفادي العداوة للأب التي يستشعرها الصبي وهو يترعرع.**

وبوسعنا أن ندلي بالملاحظات التالية دعماً لهذه الفرضية. من المعروف، أولاً، أن عنصراً من عنصري عقدة أوديب الأولية - حب الأم وكره الأب - أي كره الأب، أدّى الدور الأكثر أهمية من العنصر الآخر بكثير، إذ ساق العقدة إلى الكبت وولّد شتى المقاصد المعقّدة التي أثير هذا الكبت بواسطتها وحوفظ عليه. والسبب واضح: المنافسة الخطرة بين الذكرين العنيفين مع كل النتائج المترتّبة عليها. وتوجد كثير من الأسباب التي تدعو إلى الاعتقاد بأن النزاع الثنائي المشاعر بين الحب والكره أكثر حدة لدى الشعوب المتوحّشة منه لدينا[11]. ونحن عندئذ نساق بصورة طبيعية إلى الاعتقاد بأنه كان لا بدّ لهذه الشعوب من أن تملك مؤسسات أكثر إعداداً، تعمل بوصفها حماية من اندفاعاتها المكبوتة. وكل شيء يحدث كما لو أنه كان لدى هذه الشعوب من الأسباب ما يدعو إلى خشيتها أكثر مما لدينا، أو لديهم من القدرات لصدّها أقل مما لدينا. وبوسع المرء أن يشير إلى أمثلة على هذه المؤسسات، كالطوطمية والزواج من خارج العشيرة[12] من جهة، والحفلات العديدة الخاصة بالمسارّة من جهة أخرى[13].

---

(١١) ثمة مثال يتّضح في التفسير الذي يقدّمه ريك عن الوضع الجنيني بوصفه وسيلة لمواجهة السادية التي تثيرها رؤية آلام الزوجة.

(١٢) انظر فرويد، الطوطم والتابو، ١٩١٣.

(١٣) انظر ريك، مشكل سيكولوجيا الديانات، ١٩١٩، الفصل الثالث.

ويبدو شائعاً بين علماء الأنتربولوجيا في أيامنا هذه اعتبار التربية و«النسب» أنهما لا تربطهما بالضرورة أية رابطة وثيقة بقرابة الدم. وأنا ميّال إلى الاعتقاد بأنهم، إذ يفكرون على هذا النحو، يتابعون صراعاً مغرضاً يمكننا الكشف عنه لدى المتوحشين أنفسهم. ذلك أنه يبدو واضحاً أن المتوحشين يحاولون بكل ضرب من الوسائل أن يفصلوا بين الموضوعين[١٤]، مع أن ثمة كثيراً من الأسباب التي تدعو إلى الاستنتاج بأنهم يولون قرابة الدم، من الناحية الأساسية، أهمية عظيمة (بل مغالية في بعض الأحيان). فليست الولادة هي التي تحدّد الوضع الاجتماعي للطفل إلى حدّ أكبر بكثير مما هو لدينا فحسب، بل إن الأهمية الرئيسة للولادة في فكر المتوحش (ذات العلاقة بعقدة أوديب) كانت أعمال ريك الباهرة حول طقوس البلوغ[١٥] قد جعلتها محتملة كل الاحتمال. ويبيّن ريك في أعماله أن الدلالة الحقيقية لهذه الطقوس دلالة هدفها أن تلغي، بضربٍ من الخصاء المعقّد والولادة الرمزية، تلك الولادة الأصلية التي تقوم بها الأم، وتحلّ محلّها ولادة أخرى جنسية مثلية ومتخيّلة. والفكرة واضحة: بالنظر إلى أن التعلّق بالأم ناجم على سبيل الحصر عن واقع مفاده أن الصبي متحدّر منها، فإن السبيل الوحيدة لتحييد الميول إلى غشيان المحارم، التي نجدها في علاقات الصداقة بأناس آخرين، تكمن في إلغاء سببها المفترض (الولادة) بضرب من البعث الرمزي. وإذا كان النصف الأمومي من عقدة أوديب (التعلّق بالأم) منوطاً، وفق نظرية التوحّش، بواقع أن الصبي متحدّر منها، فالافتراض بأن الأمر نفسه، **إذا أجرينا التغيرات الضرورية**، صحيح أيضاً عن النصف الأبوي، أي الكره للأب، افتراض معقول. ويبدو، على أي حال، أن المتوحشين يتصرّفون وفق هذا الافتراض كما سنرى.

---

(١٤) ربما هذا هو أحد الأسباب لاستمرار حق الأم على الأغلب، حتى عندما يُعترف بوقائع الأبوة اعترافاً كاملاً.

(١٥) ريك، مصدر مذكور سابقاً.

٦ ـ هناك تماثل بين الشعوب البدائية والأطفال والعصابيين

يبدو أن المتوحشين يجدون، من خلال شرحهم اللاشعوري ميول غشيان المحارم بفعل الولادة، لذة في «الخيال الارتجاعي» كالعصابيين الذين يسلكون على هذا النحو تماماً. ونحن نعرف الدافعية لهذا الموقف: الإفلات من إثمية الجنسية في الطفولة بإحلال أفكار غير مؤذية محل فكرة الولادة: الاتصال بالأجزاء التناسلية للأم لم تحدث إلا بالولادة لا بالجماع. وإذا كان الدليل قد أُقيم على صحة الفرضية الفرويدية حول وراثة الاندفاعات التي يعود تأريخها إلى العشير البدائي، فإن بوسع المتوحشين والعصابيين على الأقل أن يزعموا بأن بعضاً من الحق في جانبهم، على الرغم من أنه بصورة غير مباشرة، ذلك أن ثمة، في هذا الاحتمال، رابطة سببية بين الولادة (أي الوراثة) وعقدة أوديب.

ومن الواضح، مهما يكن الأمر، أن كل ميل يستوجب اللوم، مصدره منسوب إلى فعل الولادة، يمكن معارضته، على النحو الأكثر جذرية، بمجرد نفيٍ لهذا الفعل، كما في طقوس البلوغ على سبيل المثال. ونحن الآن، في تحليل الأعصبة لدينا، قد ألفنا كثيراً تلك الرغبة الاستيهامية التي يحدث ذلك فيها إزاء الأب. فكثير من العصابيين يتعلّقون، بصورة شعورية أو لاشعورية، بفكرة أن «أباهم» لم يكن له أية علاقة بحمل أمهم بهم ولا بولادتهم، بالنظر إلى أن ذلك أمر يخصّهم هم وأمهاتهم على سبيل الحصر. والامتداد العجيب الذي عرفته في العالم برمته أسطورة الأم العذارء أمر معروف جداً. ولدينا كل الأسباب التي تدعونا إلى الاعتقاد أن لذلك، بصورة عامة، تلك الدلالة التي نجدها في تحليل الأفراد[١٦]. والاعتقاد العام، أيّ اعتقاد، أكثر دلالة بصورة واضحة من ميل متجذّر بعمق. فرفض دور الأب في الجماع والإنجاب، وبالتالي تلطيف كره الصبي له وإضعافه هي

---

(١٦) انظر إرنست جونز، التحليل النفسي، والفولكلور، والديانة، الفصل الثالث عشر.

أهداف يرغب فيها الابن والأب على السواء. وذلك هو ما يحدث، حيث ترتبط مؤسسة حق الأم برفض الإنجاب الأبوي. وبوسع المرء أن يقول: كما أن الوضع الجنيني موجود لحماية المرأة والطفل معاً من عدوان الأب[١٧]، كذلك فإن حق الأم والجهل الجنسي يحميان الأب والابن معاً من منافستهما وعدواتهما المتبادلتين.

إنني نزّاع إلى أن أجعل هذا الرفض المغرض للإنجاب الأبوي ذا علاقة بالاكتشاف الغريب وغير المتوقّع الذي ساهم به مالينوسكي[١٨]، أي أن موضوع العلاقات الجنسية بين المرأة والرجل يعتبره شعب التروبريان فاحشاً بصراحة على الرغم من أنه شعب حرّ إلى الحد الأقصى فيما يخصّ الموضوعات الجنسية بصورة عامة. وذلك أمر يبدو أنه يمثّل الحدّ الأعلى من درجة الكره المشترك الموجود لدى غالبية الناس لفكرة الجماع الأبوي ويخدم الوظيفة نفسها، وظيفة الاحتفاظ بعيداً بإمكان الغيرة الأوديبية.

ولكن المرء لا يتصرّف بالأب على هذا النحو من السهولة، وذلك واقع يمكن استخدامه دعماً لاقتراح فرويد الذي مفاده أن فكرة الأب البدائي لا تزال حيّة في لاشعورنا حياة نشيطة. ولا يختفي الأب من المسرح إلا ليبدو مجدّداً بشكل مقنّع. وفكرة الأب القوي المكروه يُضحّى بها لمصلحة روح الأسلاف التي تخصب المرأة على نحوٍ فوق طبيعي. ذلك أن الراتاباس Ratapas الأوستراليين والويويا Waiwaias من شعب التروبريان ينجبهم الأسلاف. ومن سنحت له الفرصة أن يحلّل عضواً من أسرة انغليزية قديمة أو امريكياً شغوفاً بشجرة النسب لايفوته أن يكتشف أن الأسلاف ليسوا من الناحية السيكولوجية سوى آباء بعيدين بعض البعد. ولهذا السبب، فإن هذا الأب، أب الأسلاف، هو الأب القوي، الأصيل، في ظلّ مظهر آخر. والفكرة ذات صلة بالاعتقاد العميق أن الجد هو وحده الذي يستطيع، بعد

(١٧) ريك، مصدر مذكور سابقاً.

(١٨) مالينوسكي، النفس، المجلد الخامس، ص٢٠٧.

كل شيء، أن ينجب (أو يسمح بالإنجاب إذ يقدّم موافقته عليه)، بالإضافة إلى الأمنية التي تصدر عن النساء، أمنية مفادها أن يصبحن حبلى من الأب كالعذراء مريم.

٧- أبٌ محبوب جداً وخالٌ مبعد

هذا الأسلوب في معاملة الأب يبدو أنه يبلغ هدفه في الحياة اليومية: إقامة قرابة بين الأب والطفل أكثر صميمية ووداً مما هو مألوف في المجتمعات ذات النسب إلى سلالة الأب. فالأب يوصف، لدى شعب التروبريان حيث ليس له بالتأكيد أي سلطان على الأطفال، أياً كان هذا السلطان ـ بالنظر إلى أن المجتمع مجتمع فيه النسب الى سلالة الأم والسلطة تعود إلى الخال ـ، بأنه «صديق محبوب جداً وعطوف»[١٩]. ويروي مالينوسكي[٢٠]: «الأبوة لدى الميلانيزيين، كما نعلم، علاقة اجتماعية خالصة. ويكمن جزء من هذه العلاقة في الواجب الأبوي إزاء الأطفال من زوجته. إنه موجود «ليستقبلهم في أحضانه»، وتلك جملة أشرنا إليها من قبلُ. وعليه أن يحملهم عندما تتعب الأم خلال السير، وأن يساعد على التربية في البيت. ويسهر على حاجاتهم الطبيعية وينظّفهم. وثمة كثير من التعبيرات ذات القوالب الثابتة في لغة البلاد خاصةٌ بالأبوة ومتاعبها، وبواجب عرفان الأبناء بجميل أبيهم. والأب النموذج من شعب التروبريان مربية أطفال، صلب في العمل وصاحب وجدان. إنه يلبّي على هذا النحو دعوة الواجب الذي يعبّر عنه التقليد الاجتماعي. والواقع أن الأب مع ذلك يهتّم دائماً بأطفاله اهتماماً على نحوٍ مشبوب العاطفة في بعض الأحيان، ويقوم بواجباته جميعها بصورة نشيطة وبحنان».

ولم يكن حلّ عقدة الأب قط سهلاً بهذا القدر مع ذلك وكان الأمر

---

(١٩) مالينوسكي، النفس، المجلد الرابع، ص ٢٩٨.

(٢٠) مالينوسكي، المصدر نفسه.

يقتضي، بسبب السمة الثنائية المشاعر والوسواسية لدى المتوحشين، تهيئة مكان لموضوع كان بالوسع إرجاع المواقف غير الودية إليه، مواقف الخوف، والرعب، والاحترام، والعدوانية المكبوتة، وجميعها لاتنفصل عن صورة الأب. وسيتذكّر المرء أن انقضاء قرون كثيرة من الزمن كان ضرورياً قبل أن يكون بوسع اللاهوت المسيحي أن يستغني عن الشيطان (بيّنت في مكان آخر أنه كان المقابل التكويني للإله) وأن يتيح لنفسه مواجهة الإله الذي سيكون من يحمل مسؤولية الخير والشر معاً. ولابدّ للمتوحش، على النحو نفسه، من أن تكون لديه صورة تجمع الصفات المكروهة والمرهوبة من صورة الأب. والخال هو الذي يؤدي هذا الدور في المجتمعات التي تأخذ بالنسب إلى سلالة الأم، جميعها على وجه التقريب، وفي المجتمعات التي تجاوزت الشكل الأبوي في النسب تجاوزاً جزئياً. والخال هو الذي يملك السلطة المباشرة على الأطفال، وهو المصدر الرئيس للسلطان والانضباط؛ ومنه يرثون خيراتهم ويكتسبون شتى المواهب، وهو في الغالب المسؤول عن غذائهم ونفقتهم. ومع ذلك، فهو لايسكن مع أطفاله في الغالبية العظمى من الحالات ولاحتى في قريتهم غالباً، في حين أن علاقاتهم بأمهم علاقات متصنّعة تكتنفها المحرّمات إلى أبعد حد. ويضع مالينوسكي[٢١] موضع التباين وضع رجلين: «لايتوقّع الأطفال من أبيهم، لهذا السبب، سوى اهتمام ودي ورفقة عذبة. ويمثّل خالهم مبدأ الانضباط والسلطان والسلطة التنفيذية في الأسرة». فليس الودّ هو السمة الأكثر بروزاً في علاقات الخال والصبي كما كان بوسع المرء أن يتوقّع.

وفكرتي مفادها أن هذا الوضع مثال على السيرورة التي اعتدنا أن نصادفها في الدراسات الميثولوجية باسم «التفكّك»، وتلك ظاهرة شائعة جداً في النفاس (انظر معجم المصطلحات في آخر الكتاب «م») أيضاً. إنها سيرورة قد تنفصل بوساطتها شتى الصفات عن شكل أصلي وتندمج في

(٢١) مصدر مذكور سابقاً.

شكل آخر يشخّص هذه الصفات عندئذ. وفائدة النسيرورة، في الحالة الحاضرة كما في حالات كثيرة أخرى، أن تخلّص الظاهرة الانفعالية من علاقة قد يكون لهذه الظاهرة فيها نتائج محزنة، وأن تضعها على بعد أكثر أمناً. والدستور البريطاني أعدّ اتفاقاً مماثلاً. قيل فيه إن أب البلاد، الملك، لايمكنه أن يتصرف تصرفاً غير لائق، ويجد نفسه على هذا النحو في مأمن من كل نقد حين يحتفظ فقط بحب رعاياه واحترامهم. وبعد رفض الشعب أن يتسامح مع الملكية المطلقة، أصبح ذلك ممكناً بتسمية ضرب من الندّ، الوزير الأول، كان بوسع الشعب أن يوجّه ضده كل الشكاوى والمآخذ والأحقاد. واتساع هذه المعارضة يتكدّس دورياً إلى أن يكون عليه أن يترك مكانه لخلَف.

٨- التابو تعبير عن ميول مكبوتة

ليس من قبيل المصادفة، في هذا التطور للأب البدائي إلى أب طيّب رؤوف من جهة، وخال قاس وأخلاقي من جهة أخرى، أن يكون الخال مختاراً للاضطلاع بهذا الدور. وسأرسم هنا على نحو مبسّط نظام التطور. فإذا بدأنا بالثالوث البدائي، الأب والأم والابن، وإذا بحثنا عندئذ عن بديل يمكن أن يتحولّ إليه الكره الغيور الذي يعانيه الابن إزاء أبيه، فإن شخصين يخطران للذهن بصورة طبيعية هما أب الأم وأخوها. والسبب في ذلك يعود إلى تعلّقات الابن بالأم، تعلّقات لها صفة غشيان المحارم. فأبوها وأخوتها منافسون للابن بمعنى من المعاني، على الرغم من أنهم أكثر بعداً عنه من زوجها.

ونحن نعلم، بعمل التحليل النفسي، أن تعلّق البنت بأبيها ينتقل بصورة عامة إلى أخيها في الفترة التي يوجّه الابن خلالها إلى أخته تعلّقه الذي كان موجها إلى الأم. والنزوع نحو غشيان المحارم البنوي والأبوي يحلّ محلّه عندئذ غشيان المحارم بين الأخ والأخت، وهو موضوع أقل حدة

في التحريم من الأول ويتحقّق على الغالب في الواقع. فالزواج الملكي بين الأخ والأخت، كما هو معروف جيداً، كان مألوفاً في مصر القديمة وفي هاواي[٢٢] خلال أيامنا هذه، مع أنه ممنوع بين أفراد الشعب. والتنافس الغيور الذي ينصبّ على المرأة ويجعل ابن الأخت والخال في ضرب من المواجهة يكرّر التنافس بين الابن والأب، والوضع السيكولوجي الأول يمكن أن يحلّ محل الوضع الثاني، وذلكم أمران يمكننا فهمهما عندئذ على نحوٍ كاف.

وبوسعنا الآن أن نعود إلى شعب التروبريان. فلدى هذا الشعب، كما هو الأمر لدى غالبية المجتمعات ذات النسب إلى سلالة الأم، تابو قاس إلى حدّ غريب إزاء العلاقات الجنسية بين الأخ والأخت، في حين أن الجنسية تبدأ في عمر مبكر جداً. ولم يكن ممكناً لبصيرة مالينوسكني أن يفوتها أن هذا التابو لابدّ له من أن يكون التعبير عن ميول مكبوتة إلى غشيان المحارم، مع أنه لا يبدو أنه عرف العلاقة بين هذا الأمر ووجود تنظيم قائم على الخال؛ وأعني أن الخال، بوصفه عشيق الأم اللاشعوري، هو إذن الأب المتخيّل لأطفال هذه الأم ويمارس **السلطة** عليهم ممارسة منطقية. ويرى مالينوسكي مع ذلك أن الخال يؤدي الدور السلبي للأب في حضارتنا، ويصوغ مالينوسكي للموضوع[٢٣] كله وجهة النظر التالية صوغاً واضحاً: «لتطبيق صيغة وجيزة على كل مجتمع من المجتمعات مع أنها فجّة إلى حدّ كاف، نقول: ثمة في مجتمعنا تلك الرغبة المكبوتة «في قتل الأب والزواج بالأم»، في حين أن الرغبة، في عقدة النسب إلى سلالة الأم لدى شعب ميلانيزيا، تكمن في «الزواج بالأخت وقتل الخال».

ونتيجة مالينوسكي نتيجة صحيحة ولا ريب على مستوى مجرد الوصف، ولكنه يستخدمها قاعدة لفرضية موضع ريب إلى الحدّ الأقصى،

(٢٢) ريفر، التنظيم الاجتماعي، ١٩٢٤، ص ٣٩.

(٢٣) مالينوسكي، النفس، المجلد الخامس، ص١٩٥.

يحاول بها أن يعدّل نظرية فرويد حول العقدة النووية الأسرية. فالقرابة بين الأب والأم والابن هي بالنسبة لفرويد، كما هو معروف جيداً، ذلك النموذج الأصلي الذي تتحدّر منه قرابات أخرى أكثر تعقيداً. أما مالينوسكي، فإنه، على العكس، يضع موضع الصدارة تلك الفكرة التي مفادها أن العقدة النووية الأسرية تختلف وفق البنية الأسرية الخاصة الموجودة في كل جماعة. وفي رأيه أن النظام الأسري في النسب إلى سلالة الأم ينشأ لأسباب اجتماعية واقتصادية مجهولة، وعندئذ تكمن العقدة المكبوتة في انجذاب الأخ والأخت، أحدهما إلى الآخر، وفي الكره المتبادل بين الخال وابن الأخت. وعندما يحلّ نظام النسب إلى سلالة الأب محل هذا النظام، تصبح العقدة النووية عندئذ عقدة أوديب.

ويبدو، في رأيي، أكثر احتمالاً أن ينشأ نظام النسب إلى سلالة الأم مع عقدته الخاليّة - على النحو الموصوف أعلاه - وكأنه نمط من الدفاع ضد الميول الأوديبية الأولية وليس لأسباب سوسيولوجية مجهولة، إذ أن عقدة أوديب لا تظهر عندئذ إلا عندما يكون نظام النسب إلى سلالة الأب قد أُدخل في المجتمع لاحقاً. فالأخت، المحرّمة والمحبوبة لاشعورياً، ليست سوى بديل الأم كما هو أمر الخال بالنسبة للأب على نحو واضح. ولن تكون عقدة أوديب، حسب فرضية مالينوسكي، سوى نتاج متأخر؛ أما بالنسبة للمحلّل النفسي، فهي المصدر والأصل.

٩ - الصلات بين حق الأم وحق الأب

في ١٨٦١، العام الذي ظهر خلاله الكتاب الشهير لباشوفين، **في حق الأم**، كان السيد هنري مين قد نشر كتاباً شهيراً أيضاً بعنوان **القانون الأولي**. وأعلن فيه، بصورة خاصة على قاعدة الدراسات الحقوقية في الهند، أن حالة المجتمع البدائية كانت حالة بطريركية بالضرورة. وفي السنين التي انصرمت منذ هذه اللحظة، تراكمت لمصلحة قضايا باشوفين أدلة

وبراهين أكثر اتصافاً بأنها تاريخية وإتنوغرافية ـ عرضها على وجه الخصوص ماك لينان، ولويس مورغان، ولوبوك، وهارتلاند. والنتيجة هي أن النظام الاجتماعي البدائي (مع مرحلة سابقة أيضاً من الشيوعية الجنسية أو بدونها) بدا بوضوح أنه نظام الانتساب إلى سلالة الأم وقد يكون معظم الأنتروبولوجيين في أيامنا هذه نزّاعين إلى دعم الرأي نفسه. ومن المؤكد، مهما يكن من أمر، أن حق الأم ينتشر انتشاراً واسعاً جداً لدى البدائيين، وهناك أسباب كثيرة تدعو الى الاعتقاد بأن هذه الحالة هي الحالة التي كانت أيضاً أكثر شيوعاً منذ خمسة آلاف عام.

وحصل خلاف حاد فيما يخصّ مسألة مفادها أن نعرف أي الحقين أقدم: حق الأب كما نعرفه، أو حق الأم كما نجده لدى المتوحشين. والرأي الذي نعبّر عنه هنا يختلف عن الفرضيتين. والسبب أن المسألة لم تكن قد طُرحت طرحاً صحيحاً، لأن الخيار بين أحد الأمرين، المذكور في الجملة السابقة، لا يستنفد كل الإمكانات. ونحن نعلم، بعمل التحليل النفسي، أن ثمة على الغالب ثلاثة راقات ذهنية حيث لا يبدو منها سوى راقين. فالادّعاء المتعجرف، على سبيل المثال، هو في العادة ارتكاس تعويضي لعاطفة الدونية، العاطفة العميقة، ولكن التحليل يبيّن أن ذلك يرتكز بدوره على نرجسية مكبوتة. والراق الأول والثالث متشابهان بالمحتوى ولكنه لا ينبغي أن نوحّد بينهما في هذه الحال. والمشكل الحالي يمكنه تماماً أن يبين أنه من الطبيعة نفسها.

وعلينا، قبل أن نبسط هذه الفكرة، أن نذكّر موجزين بالنظريات التي كان باحثون آخرون قد عرضوها. فأولئك الذين يؤثرون المنظور القائل إن نظام سلطة الأب هو النظام البدائي ينبغي لهم أن يشرحوا السبب الذي دعا حق الأم إلى أن ينتهي إلى الظهور، في حين أن المسألة بالنسبة لأولئك الذين يؤثرون المنظور المقابل تكمن بالحري في أن نعرف السبب الذي دعا حق الأب إلى أن ينتهي إلى أن يحلّ محل حق الأم. وتميل الفئة الأولى إلى

اعتبار حق الأم طوراً مؤقتاً وعابراً بالضرورة، بالنظر إلى أن الشرح الرئيس الذي يسوّغ وجوده يبدو أنه منوط بنمو الزراعة حيث كان عمل المرأة معترفاً بأنه قيمة خاصة. ومع ذلك، ليس الارتباط بين الزارعة وحق الأم ارتباطاً وثيقاً إلى حدّ يكفي لتأسيس العلاقة[٢٤]. والفئة الثانية من الباحثين، الذين يبدون متحمسيّن للوضع الفردوسي السائد في ظلّ حق الأم، ميّالون إلى اعتبار هذا الحق حالة واقعٍ طبيعي وإلى إيثار الفكرة التي مفادها أن النساء كنّ قد طردن من هذا الفردوس بفعل إكراه عنيف[٢٥]. ويقول هارتلاند الذي يرى أن حق الأب ليس سوى نظام اصطناعي[٢٦]: «يبدو محتماً أن نستنتج أن حق الأب لا يعود إلى ضرب من التغيّر في أفكار المتوحشين أو البرابرة عن القرابة بالدم، بل إلى أسباب اجتماعية أو اقتصادية»[٢٧]. ويعزو هارتلاند[٢٧] وريفر[٢٩]، اللذين، ولنقل عابرين، لا يعبّران عن أي رأي في القدم النسبي لحق الأم وحق الأب، يعزوان، كلاهما، أهمية كبيرة، من هذه الزاوية، إلى الهجرات بالإكراه في الأزمنة القديمة، حيث كانت إرادة الفاتح مفروضة على الأضعف.

ورأيي، فيما يخصني، قائم على اعتراف التحليل النفسي بالأهمية الأساسية لعقدة أوديب الرئيسة. وليس ذلك على وفاق مع فكرة الشيوعية الجنسية البدائية، ولا مع فكرة الحق البدائي للأم، ولا حتى مع فكرة النظام البطريركي كما نتصوره خلال أيامنا هذه في شكل الزواج الأحادي. ويبدو

---

(٢٤) انظر وستمارك، مصدر مذكور سابقاً.

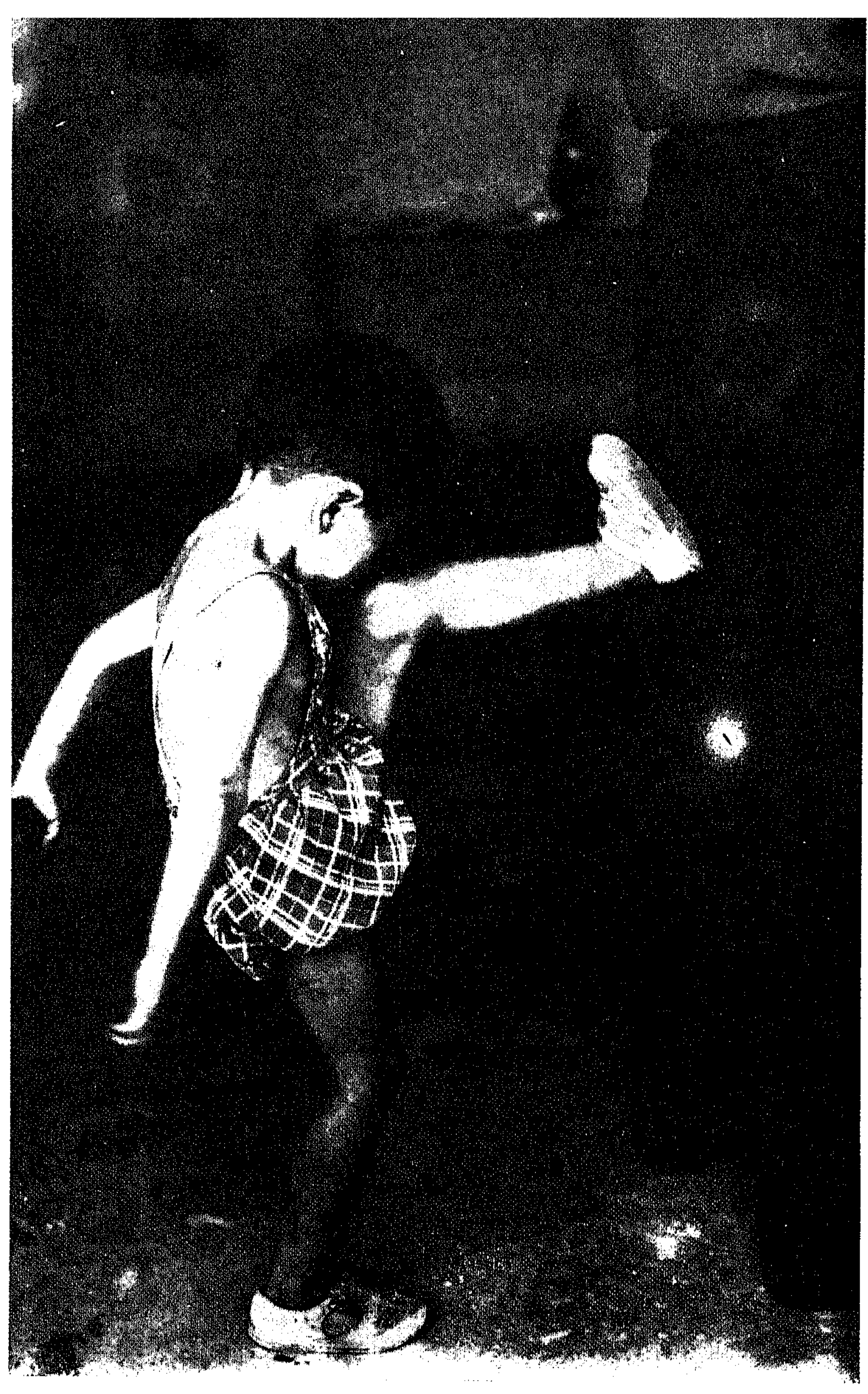
(٢٥) ليس بوسع المرء أن يمنع نفسه من التساؤل عن أي دور أدّاه «التصور السادي الطفالي للجماع» في الفكرة التي تقضي بأن الرجال فرضوا بالإكراه الوحشي «حق الأب» على «حق الأم».

(٢٦) هارتلاند»، مصدر مذكور سابقاً، المجلد الثاني، ص ٢٤٨.

(٢٧) المصدر نفسه، ص١٠٠.

(٢٨) هارتلاند، المجتمع البدائي، ١٩٢١، ص١٦١.

(٢٩) ريفر، مصدر مذكور سابقاً.



«كره الأب من الجنس المقابل أحد منحدري أوديب»

لي على العكس، وأنا لا تقودني دراسة الموضوع، كما كان الأمر بالنسبة لمالينوسكي، إلى أن أهمل تصور فرويد عن «العشير البدائي» («أسرة العمالقة» لأتكنسون) ولا أن أعيد النظر فيه، أن هذه الفكرة تقدّم الشرح الأكثر اتصافاً بأنه مرضٍ للمشكلات المعقّدة التي ناقشناها. فنظام حق الأم مع عقدته الخاليّة يمثّل على هذا النحو نمطاً من الدفاع، بين الأنماط الأخرى المتبنّاة، للوقاية من الدوافع الأوديبية. ولا يسعنا بالتأكيد أن نقول إن هذا الحق، حق الأم، يمثّل طوراً ضرورياً في تطور النظام البطريركي الراهن. ولا أرى سبباً يدعو إلى أن يكون الأمر على هذا النحو، وكون بعض المتوحشين الأوستراليين من النموذج الأقل تطوراً - غرائزهم البدائية يصعب قمعها جداً - يفلحون في تحاشي الغرائز بطريقة بديلة (طريقة التابو والنظام الطوطمي)، يمكننا بيانه دعماً لهذا الشك. ولم يعد ثمة أسباب تدعو للافتراض بأن جهل المتوحشين وقائع الإنجاب الأبوي أو بالحري كبتها يرافق بالضرورة حق الأم، مع أنه يكون واضحاً أن هذا الجهل دعم ثمين للدافعيات التي ناقشناها من قبلُ والتي تقود إلى تأسيس حق الأم.

ويعبّر النظام البطريركي، كما نعرفه، عن الاعتراف بسيادة الأب وحتى عن القدرة على قبولها بحنان دون وجوب اللجوء إما إلى نظام حق الأم وإما إلى نظام التابو المعقّد. وهذا يعني تدجين الرجل والتمثّل التدريجي لعقدة أوديب. وبوسع فرويد عندئذ أن يقول إن الاعتراف بدور الأب في الأسرة دلّ على أكثر التقدّم أهمية في التطور الثقافي.

والأسلوب الذي كان به، بمقدار ما نعلم، هذا التطور الثقافي قد أُنجز - على الأقل جزئياً - كان إحلال الجنسية المثلية المصعدّة محلّ الكره، وأفكار الخصاء محل أفكار القتل. والإنسان المتمدّن دفع الثمن الضروري: نقصاً في قوته الجنسية مع كل النتائج المعقّدة الناجمه عنه.

إرنست جونز

الفصل الرابع

هل عقدة أوديب عقدة كلية؟

فرضية العشير البدائي عرضة لنقاش بالتأكيد من وجهة النظر التاريخية. وفي هذا النطاق، لم يخطىء مالينوسكي ومناصروه إذن في أن يلوموا فرويد على «أسطورته العلمية». ذلك أن المجادلة تعود أشد قوة مما كانت عليه من قبل: وسنجد هنا صدى منها. ولنقل على الفور إنها لاتزال متلاحقة، ولكن في حقل آخر.

وينبغي مع ذلك أن نفهم أمراً مفاده أن ردّ العقدة الأوديبية إلى وضع واقعي يكافىء تزييف معناها. إن التعبير عنها يجري بمصطلح الواقع النفسي لابمصطلح الواقع المادي. وإذا نظرنا إلى الموضوع عن كثب، فإننا نرى أن الدليل الإساسي الذي ساقه مالينوسكي، واستأنفه ولهلم رايخ فيما بعد، ناشىء عن واقع مفاده أن الأخوة الذين قتلوا الأب ليس بوسعهم الندم، لأن الإثمية تفترض مسبقاً وجود الأخلاق. وبوسع المرء أن يجيب إجابة قاطعة على السواء: لابدَّ للإثمية من أن تكون قد انبعثت عندما بان، بعد الجريمة، للأخوة الذين تحالفوا ضد الأب أن المنفعة المأمولة كانت عدماً. ذلك أن الأب الميت كان قد تركهم يواجهون خياراً بين أمرين: إما إعادة النظام، الذي كانوا قد أتوا على تدميره، بتنصيب رئيس يسود الآخرين، وإما أن يقرّروا أن أي أحد منهم لايحلّ محله.

واختيارهم معروف: حرّموا التقاتل بينهم ومسّ الإناث. فتحريم غشيان المحارم كان قد نشأ من ضرب من الإخفاق.

وساهم الأنتروبولوجيون مع ذلك في جلب الماء الى طاحون

التحليل النفسي. فالهنغاري جيزا روهايم سيستند إلى الوقائع الإتنوغرافية، وسيتعرّف فيما بعد ليفي شتراوس، العالم الإتنولوجي، في الزواج من خارج القبيلة على القانون الكلي الذي لاتنطلق من الطبيعة بدونه أي ثقافة.

النص الأول: مالينوسكي

ينبغي البحث عن مفتاح الصعوبة في أن عقدة أوديب تمثّل، في رأي الدكتور جونز ومحلّلين نفسيين آخرين، شيئاً يتصف بأنه مطلق، والمصدر الأولي، أو مصدر الأشياء جميعها وأصلها ،لكي نستخدم تعبيره. وفيما يخصني، أرى في العقدة الرئيسة للأسرة، على العكس، تكويناً وظيفياً تابعاً لبنية مجتمع معيّن ولثقافته. فنظام التقييدات المرعي"الإجراء في المجتمع ونمط توزيع السلطان هما اللذان يحدّدانها بالضرورة. ومن المتعذّر علي" أن أرى في العقدة ذلك السبب الأولي للأشياء جميعها، والمصدر الوحيد للثقافة، والتنظيم الاجتماعي والمعتقدات؛ وأن أرى فيها كياناً ميتافيزيائياً، خلاقاً، ولكنه غير مخلوق، سابقاً على كل شيء، ولكنه غير مشروط بأي شيء...

وعقدة أوديب موجودة بالمقابل، بالنسبة للمحلّلين النفسيين، في أساس كل حضارةوذلك يعني في رأيهم أن هذه العقدة لاتسود جميع مظاهر الحياةالمتمدنّة فحسب، ولكنها أيضاً أسبق من هذه المظاهر زمنياً. إنها تكوّن المصدر الأصل اللذين انبعث منهما النظام الطوطمي، وعناصر القانون الأولى، والطقوس الأولى، ومؤسسة حق الأم؛ والواقع أنها تكوّن كل ما يعتبره المحلّل النفسي وعالم الأنتروبوجيا تلك العناصر الأولى في الحياة المتمدنّة. وإذا كان الدكتور جونز يقاوم محاولتي أن أعزو إلى عقدة أوديب أسباباً مستمدّة من الحياة المتمدنّة، فذلك لأنه على وجه الدقة، يعتبر هذه العقدة سابقة على كل حضارة. ولكن من الواضح أن الأمر لو كان على هذا

النحو، لوجب بالحري أن تكون الجريمة الطوطمية، التي هي سبب العقدة، أقدم من العقدة أيضاً.

فالعقدة إذن نشأت قبل كل حضارة. ولكننا عندئذ نواجه الخيار الآخر من مشكلنا: هل كان ممكناً للجريمة الطوطمية أن تحدث لدى موجودات حيّة في حالة الطبيعة؟ أبوسعها أن تترك آثاراً في التقليد والثقافة اللذين لم يكونا، بالفرض، موجودين بعدُ؟ والإجابة عن هذه الأسئلة بالإيجاب يعني بالتأكيد في الوقت نفسه أن الفرد دخل في الحياة المتمدّنة وأصبح إنساناً في أعقاب القتل الجماعي للأب. أو أنه أيضاً، في أعقاب الفعل نفسه، اكتسب ذاكرة عرقية، وهي ضرب جديد من الهبة فوق الحيوانية.

فلنفحص هذه الأمور عن كثب أكبر بعض الشيء. إن كل حلقة من حلقات الغرائز تنفصل، في الحياة الأسرية لأنواع القردة السابقة على الإنسان، منذ أن تكفّ عن أن تكون مفيدة. ولاتترك الاتجاهات الغريزية الماضية أي أثر نشيط، وذلك أمر يستبعد كل إمكان من إمكانات النزاع والعقد. وأعترف أن هذه الأقوال ستكون بحاجة إلى أن تؤيدّها بحوث تنصّب على علم النفس الحيواني، ولكنها تنطوي، بوصفها كذلك، على كل ما نعرفه عن هذا الموضوع. ونحن على حق في أن نرفض، إذا كان الأمر على هذا النحو، مبادىء الفرضية الفرويدية الخاصة بأسرة العمالقة. فلماذا يطرد الأب أولئك الأبناء بالنظر إلى أنهم مدفوعون بصورة طبيعية وغريزية الى هجر الأسرة منذ أن يصبحوا في غير حاجة إلى آبائهم؟ ولماذا تنقصهم الإناث بالنظر إلى أن جماعتهم الخاصة والجماعات المجاورة تضمّ بين أفرادها أطفالاً من الجنس الآخر؟ ولماذا يظلّ الذكور الشباب متعلّقين بعشيرهم الأبوي تعلقاً يرافقه كره الأب والرغبة في الموت؟ ونحن نعلم سلفاً أنهم ليس لديهم أي رغبة في العودة إلى عشير آبائهم والسعادة العظيمة تغمرهم لشعورهم بأنه أحرار. وأخيراً لماذا ينجزون الفعل المرهق وغير المستساغ،

فعل قتل الأب الشيخ، في حين أن حسبهم بكل بساطة أن ينتظروا اعتزاله حتى تكون طريقهم إلى العشير حرة إذا رغبوا في ذلك؟

١- التناقض في فرضيات التحليل النفسي

حسبنا أن نصوغ هذه الأسئلة لنتبيّن على الفور وَهَن القضايا التأكيدية التي تنطوي عليها فرضية فرويد. والواقع أن فرويد يشحن أسرة العمالقة بعدد كبير من الميول والعادات والاتجاهات الذهنية التي ستكون بكل بساطة قدر أي نوع من الأنواع الحيوانية. والواضح أن مثل هذا التصور لا يمكننا الدفاع عنه من وجهة النظر البيولوجية. ويتعذّر التسليم بوجود نوع من الأنواع الشبيهة بالإنسان في حالة الطبيعة، وظيفته الأكثر أهمية، وظيفة التكاثر، يحكمها نظام من الغرائز يتعارض مع منافع هذا النوع كلها. ويسهل على المرء أن يرى أن فرويد أطلق العشير البدائي، بعد أن منحه جميع العيوب، وكل الانحرافات وضروب عدم التكيّف، التي تميّز أسرة أوروبية من الطبقات المتوسطة، في الدغل قبل التاريخي حيث تركه يطلق أهواءه، طبقاً لفرضية جذّابة جداً بالتأكيد، ولكنها من صنع المخيّلة تماماً.

ولنستسلم مع ذلك لغواية الأفكار الفرويدية النظرية المغرية ولنقبل، لحاجات برهنتنا، واقع الجريمة الأصلية. فالنتائج التي استطاعت هذه الجريمة أن تؤدي إليها تنطوي أيضاً على صعوبات لا يمكننا تجاوزها. إننا نتعلّم أن الجريمة الطوطمية كان قد تلاها شعور بالندم يتجلّى في سر الوجبة الطوطمية القائمة على أكل اللحم البشري داخل العشير البدائي وفي مؤسسة التابو الجنسي. وهذا ينطوي على أن الأبناء قتلة الأب مزوّدون بالوجدان. والحال أن الواجدن نتاج الحضارة، وأعني أن الواجدن نتاج طبيعي بأقل قدر ممكن. وتنطوي الفرضية أيضاً على أن الأبناء كان لديهم إمكان التشريع، وتحديد القيم الأخلاقية والحفلات الدينية؛ وتلك قضية تأكيدية محض عبثية تنص على وقائع يتعذّر على المرء أن يتخيّلها للسبب البسيط الذي مفاده أن

الأحداث موضوع البحث تجري، بحسب الفرضية نفسها، في وسط سابق على كل حضارة وأن أية حضارة لا تنشأ في لحظة واحدة وبفعل واحد. فجميع هذه التناقضات ترتبط، في رأيي، بالنظرية التي ترى في عقدة أوديب السبب الحقيقي للظاهرات الاجتماعية والثقافيـة لا مفعول هذه الظاهرات؛ والتي تعيد هذه العقدة إلى الجريمة الأصلية وتعلّم أنها استمرّت في الذاكرة العرقية على صورة منظومة من الميول الجماعية والموروثة.

وأحرص على أن أستخلص مسألة إضافية أخرى. كيف يكون على المرء أن يتخيّل عملية قتل الأب البدائية إذا كان ينظر إليها بوصفها حادثاً تاريخياً واقعياً، أعني أنها حدثت في المكان والزمان وفي ظروف مشخّصة؟ هل ينبغي لنا أن نسلّم بأن ثمة جريمة كانت قد ارتُكبت، خلال لحظة معيّنة من الزمن وبمكان معيّن، في عشير متفوّق؟ وأن من هذه الجريمة خرجت الحضارة التي امتدّت في الحال على العالم كله بمقتضى قوة من الانتشار محايثة، إذ حولّت القرود إلى أناس في أي مكان كانت هذه الحضارة؟ وحسبنا أن نصوغ هذه الافتراضات حتى تظهر للعيان على الفور أنها منافية للعقل. وليس الافتراض أن وباء من قتل الأب أصاب العالم برمته، إذ انتصب كل عشير يعارض لديه الاستبداد الخاص وانتهى إلى الجريمة مولّدة الحضارة، أقل منافاة للعقل. وكلما فحص المرء فرضية فرويد من وجهة نظر مشخّصة، وحاول أن يفصّل في نتائجها، شعر بأنه ميّال إلى ألا يرى فيها سوى «تاريخ اتّخذ شكل الرواية»، حتى نستخدم تعبير الأستاذ كروبر الذي لم يعتقد فرويد ذاته أن عليه أن يعترض عليه.

برونيسلو مالينوسكي

النص الثاني: روهايم

١ ـ ومع ذلك...

يصاب المرء بالدهشة حين يجد في أدب التحليل النفسي شروحاً تبرهن على أن الأطفال الذين يترعرعون في وسط ثقافي يتيح لهم حرية جنسية كاملة لا تتجلى لديهم عقدة أوديب. ويشارك في هذا الرأي المسبق كثير من علماء الأنتربولوجيا، وأنا واثق من ذلك.

ويصرّح ماك ف. جونسون، في أحد مقالاته[1]: «دافعنا عن القضية التي مفادها أن ترك الأطفال أحراراً في مباشرة النشاطات الجنسية اللعبية، وحدهم أو مع أطفال آخرين، لم يكن يُضعف بأي حال من الأحوال تلك الرغبة الجنسية التي لا يمكن تجنّبها إزاء الأبوين، وهي رغبة يحدّدها تكوين النوع وارتقاؤه. إن الأنتربولوجيا ساهمت مساهمة قليلة، أو لم تساهم، في البرهان على هذه القضية حتى الوقت الراهن». وهي مع ذلك تقدّم لنا شهادات ليست موضع شك، شهادات لم يعد بوسعنا أن نضرب صفحاً عنها.

٢ ـ بلاد أرنهيم Arenhem

«يلعب الأطفال والراشدون في بعض الأحيان بعضو الذكر للكلاب، عضو يثيرون قذف منيّه، في حين أن الأطفال يطلقون العنان لرغباتهم دون خوف من العقاب. إنهم يلفظون أسوأ الضروب من الفحش ضد أمهاتهم أو النساء الأخريات، وذلك لأوهى إثارة: كان يُسمع طوال الوقت في إيريلا على سبيل المثال: «فرج كبير، فرج كبير».

(١) ماك ف. جونسون: في بعض المظاهر السببية لكبت الإثمية والعدوانية، المجلة الفصلية لعلم النفس التحليلي، ١٩٥١، ص١٥٧.

«وليس من النادر أيضاً أن تدعو الأطفال أمُهم أو أختهم أو أخوهم البكر لإقامة علاقة جنسية مع راشد أو طفل من العمر نفسه موجود في المكان. إنهم يكشفون عن أعضائهم الجنسية ويلعبون بها، أو يناقش بعضهم إمكاناتهم الجنسية أمامهم»[٢].

«والأطفال من الجنسين، الذين ينامون في مخيّم آبائهم أو حراسهم، يمكنهم أن يلاحظوا الفعل الجنسي على هذا النحو منذ نعومة أظفارهم. إنهم يجعلون آباءهم أو أعضاء أسرتهم يعتقدون بأنهم نائمون، ولكنهم في الواقع يصغون وينظرون. أو يتبعون خفية أخاً أو أختاً بكرين ويشهدون، مختبئين وراء دغل، علاقة جنسية قبل الزواج أو علاقة جنسية بين متزوجين ليسا زوجين.

«وتنزع هذه الممارسة، لدى الأطفال الصغار جداً، إلى تحريض رغبتهم في أن يكرّروا نشاطات الراشدين الجنسية مع شركاء من سنهم. فهم يمارسون النشاط الجنسي جهاراً عندما يكونون صغاراً، أو خفية عندما يترعرعون ويصبحون محتشمين. ولا يفوت المشاهدون أن يعلّقوا بهذه المناسبة تعليقات بذيئة وغير محتشمة عندما يشهدون النشاطات الجنسية التي يباشرها الأطفال من كل الأعمار»[٣].

وراوة قبيلة آلاوا، في بلاد أرنهيم، يروون الأسطورة التالية:

كانت الكادجاري، أي الصورة الذهنية المثالية للأم، تعيش خلال فترة الحلم مع زوجها الأعمى الطاعن في السن وحفيدها.

وذهبت الكادجاري في أحد الأيام تبحث عن الغذاء، وأفلحت في إيجاد إغوانات، وهي عظايات ضخمة. فقتلتها وحملتها إلى المخيّم

(٢) برندت، السلوك الجنسي في الأرنهيم الشرقية، نيويورك، المنشورات الأنتروبولوجية لمؤسسة فيكنغ، XVI، ١٩٥١، ص٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٦-٨٧.

لتشويهـا. وقدّمت أضخمهـا إلى الرجل الشيخ وأصغرها إلى الصبي. ويطلب الطفل أضخمها له. ويشرح الراوة للدكتور بيرندت أن الإغوان يرمز إلى عضو الذكر، وأنه يُعطى الطفل إغواناً صغيراً آخذين بالحسبان حجم عضو الذكر لديه: والإغوان الضخم، بالمقابل، يخصّ الرجل الشيخ، لأن عضو الذكر لديه عضو راشد. ويريد الطفل أن يكون عضو الذكر لديه عضو راشـد حـتى يحـتلّ مكان الرجل الشـيخ ويمارس الحب مع الكادجـاري. وتصرخ الكادجاري عندئذ: «كلا، ليس بوسعي أن أمنحك أضخم العظاء؛ إنه للرجل الشيخ». ويصبح الصبي الصغير غاضباً. فيتناول الإغوان الضخم، ويقذفه على صخرة تفجّرت؛ ويتناثر اللحم على الحجر. وفي ذلك يكمن، حسبما يروون، أصل طقسيّ الختان.

وتقـول الكادجـاري: «من الأفضل للمـرء أن يذهب»، وتشـرع في التسلّق على شجرة من الأشجار لتصعد إلى السماء. ويرفع الطفل الذي يتبعها رأسه، فيرى عضوها الأنثوي. ويفكر: «ياله من فرج رائع، إنني أريده». ويتزلق الطفل، وهو في حالة الإثارة، ويسقط على الأرض. ويدلّ سقوط الصبي الصغير على أن عضو الذكر لديه عضو فجّ. ولهذا السبب سينزلق على النحو نفسه عن فرج امرأة راشدة في أثناء الجماع.

وتنزل الكادجاري عن الشجرة لترفعه عن الأرض، ولكنه غير جريح. فيقول لها: «أريد أن أمارس الحب معك قبل أن نعود إلى بيت الشيخ». وتجيبه الكادجاري: «لا أستطيع، عضوي الأنثوي ملك الرجل الشيخ وعضو الذكر لديك صغير». فيعضّ بظرها، وتسرع صوب زوجها وهي تصرخ. ويسرع الرجل الشيخ مسلّحاً بفأس حجرية ويقذفها على الطفل: فيتحولّ الطفل إلى صخرة.

وصعدت الكادجاري والطفل منذ ذلك الحين إلى السماء حيث يكون بوسع المرء أن يراهما على شكل كوكبة نجوم. والزوج، الذي قذف الفأس،

هو الصاعقة أو الأفعى قوس قزح (الصورة الذهنية المثالية للأب في هذه المنطقة). إنه يعاقب الصبي لأنه خالف تابو غشيان المحارم[٤].

ومن المعلوم أن أكبر حرية جنسية تسود لدى الأطفال في كل الثقافات البدائية الأوسترالية. وهذه المجتمعات تتنظّم مع ذلك انطلاقاً من ضروب من التابو والمخاوف المرضية المعقّدة جداً فيما يتعلّق بغشيان المحارم.

٣ ـ ليزو، Lesu في إيرلندا الجديدة

يروي بودر ميكر: «. . بوسع المرء أن يرى الأطفال، صبياناً وبنات، يلعبون على الشاطىء ويمارسون الرقص الطقسي، أو يقلّدون الراشدين وهم واقفون، يضمّ الواحد منهم الآخر إلى صدره، وتتلامس الأعضاء الجنسية دون ولوج. وهذا وضع يُمارس على وجه العموم جهاراً، ويبتسم الراشدون، ويعتبرون الأمر وكأنه شيء طبيعي تماماً. وذلك يبدأ نحو السنة الرابعة من العمر. ويذهب في بعض الأحيان صبي وبنت يتواريان في دغل . . . وهو أمر يقترب من سلوك الراشدين اقتراباً أشد»[٥].

و «أحلام غشيان المحارم شائعة مع ذلك. وقد يحدث على الغالب أن يحلم رجل بأنه يمارس الحب مع امرأة من أسرته، مع أمه أو أخته في بعض الأحيان. ولكنه يتجنّب أن يتكلم على ذلك عندما يحدث لأنه يخجل»[٦].

٤ ـ الهنود بيلاغا

يتبنّى الأطفال، لدى الهنود بيلاغا، نموذجاً من السلوك الجنسي يتعارض تعارضاً كلياً مع سلوكنا.

وفي حين نقتضي من أطفالنا ضرباً من التعفّف وهم أحرار عندما

(٤) ر. برندت: كوناليبي، ملبورن، شيشاير، ١٩٥١، ص ١٨٥ ـ ١٨٧.

(٥) بودر ميكر: الحياة في ليزو، نيويورك، نوتون وشركاه، ١٩٣٣، ص ٨٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

يصبحون راشدين يمنح الهنود بيلاغا أطفالهم حرية جنسية كاملة فيما أن على الراشدين أن يخضعوا إلى ضرب من العفّة النسبية.

وليست تجربة الأطفال الجنسية تجربة فردية، خفيّة وغير كاملة كما تميل إلى أن تكون في ثقافتنا، بل هي دائمة وتبدأ منذ أغضّ العمر بالنسبة لهم»[٧].

ويضع يدروديكوليك، صبي في الرابعة من عمره، لعبة تمثّله بين فخذي لعبة ترمز إلى أمه، ويقول إنهما «تمارسان الجنس». ثم يضعها على لعبة تمثّل الأخت وهو يكرّر «جماع». ثم يأخذ لعبة سلحفاة لتهاجم اللعبة الأخت، ولكنه يجعلها تعضّ بدلاً منها لعبة ذكر (عقاب). ويستبعد بيده كل اللعب الأخرى، ويطلق اللعبة السلحفاة في عدة مناسبات لمهاجمة اللعبة التي تمثّله[٨].

ويضع دارروتوي، صبي في الرابعة من عمره أيضاً، سلحفاة صغيرة على عضو الذكر للعبة أب. ويدفع السلحفاة الصغيرة حتى تصل إلى عينيّ اللعبة الأب وهو يقول: «انظر، إنها عضّت عينيك؛ وابتلعتهما الآن». ثم يجعلها تعضّ عضو الذكر للعبة تمثّل أخاه. وبعدئذ يضع اللعبة التي تمثّله على اللعبة الأم، ويضعها مرة أخرى على اللعبة الأخت. ولوّح أخيراً باللعبة الأخت. ويلوّح أخيراً باللعبة الأم وهو يقول: «هذه، إنها الغذاء للعلاجيم»[٩].

وليس بوسع أي شخص، إذ يستند إلى هذه المعطيات، أن يضع

---

(٧) جول هنري: «الوظيفة الاجتماعية لجنسية الطفولة في ثقافة الهنود بيلاغا»، النمو النفسي الجنسي في كتاب الصحة والمرض لمؤلفيه بول هوش وجوزيف زوبن، نيويورك، غرون وستاراتون، ١٩٤٩، ص ٩٤.

(٨) جول وزونيا هنري: اللعب بالدمى لدى أطفال الهنود بيلاغا، نيويورك، جمعية الطب النفسي التقويمي الأمريكي، دراسة أحادية رقم ٤، ١٩٤٤، ص ٩١.

(٩) المصدر نفسه، ص١١٣ - ١١٤.

موضع الشك الرغبة في العلاقات الجنسية مع الأم، ومشاعر الإثمية التي تتصف بأنها النتيجة الحتمية لهذه الرغبة.

٥- شعب الفان (les Fan) في أفريقية الغربية

يُفترض أن الأطفال لدى هذا الشعب يجهلون الجنسية بوصفهما كذلك. ويتركون لهم مع ذلك حرية جنسية كاملة. ويقلّد الأطفال في سن الخامسة جماع الأبوين. ويمارسون العلاقات الجنسية بين الثامنة والتاسعة. ولكن شعب الفان يستمرّ في تسمية هذه الممارسة لعباً.

ويروي (Trilles) الأسطورة التالية: «كان ثمة، في يوم من الأيام، زعيم كبير اسمه التمساح، ابن التمساح. وكانت القبيلة تعيش في هذا الزمن على ضفاف نهر عظيم يسكنه تمساح عملاق كان على القبيلة أن تضحّي بصبيّ أو بنت غذاء له. وكانوا يقدّمون له أيضاً، على سبيل الهديّة، صبيّة يتزوجها عندما يهلّ الهلال. وصمّموا في نهاية المطاف، وكانت مصادرهم قد أوشكت على النفاد، أن يتخلّوا عن استثماراتهم الزراعية ويهربوا. وحطّ بهم الرحال عند بحيرة أخرى، ولكن التمساح كان موجوداً هناك في ذلك الوقت. فالتهم زعيمهم على الفور، ثم فرض عليهم ضعفي الضحايا عقوبة لهم. ولكنه انتهى إلى أن وقع مغرماً بصبية من الضحايا حافظ عليها. وولدت الصبية بعد تسعة أشهر ابناً، تمساحاً، ابن التمساح. ونصحته الأم، وقد أصبح راشداً، أن يعدّ شراباً مسكراً ويقدّمه إلى التمساح الأب. ثم أمّن له سحر الأم تلك الصاعقة التي استخدمها ليقتل أباه».

«ولانجد جدوى في أن نصف الاحتفالات التي لاتزال هذه القبيلة تمارسها في أيامنا هذه لإحلال السكينة في روح التمساح الأب المرحوم»(١٠).

---

(١٠) تري: الطوطمية لدى شعب الفان، مكتبة أنتروبوس، ١٩١٢، المجلد الأول، ص ١٨٤-٢٠٥.

وهناك شهادات مقنعة أيضاً بالإضافة إلى المعطيات الحديثة المتعذّر دحضها التي نشرها هذا المؤلف في مجالات عديدة، تقودنا إلى أن نستخلص هذا الخيار بين ممكنين : إما أن الباحثين غير مطّلعين على هذه الكتابات، وإما أنهم ظلّوا، وقد قرأوها، ريبيين.

وتلّخص مارغاريت ميد وفرانس كوك ماك غريغور النظريات بهذا الصدد في بعض الجمل الحاسمة: «ثمة وسيلة جيّدة لتجنّب هذا النوع من سوء الفهم تكمن في إيلاء انتباه دقيق إلى الأسلوب الذي تكون الأفكار المقبولة عادة بحسبه منوطة لابحدّة الذهن لدى الاختصاصيين وبحوثهم فحسب، ولكنها منوطة أيضاً بالسياق الثقافي الذي تنشأ فيه هذه الأفكار. ومثال ذلك أن الأمريكيين يستخلصون نتائج متفائلة على وجه العموم؛ ويرفضون الفرضيات المحدودة جداً؛ وينزعون إلى رؤية الأمور من جانبها المظلم أو من جانبها المنير؛ ويقبلون العودة عن آرائهم المسبقة ليتوصلوا في نهاية المطاف إلى أعلى مستوى من التجريد. . . والتسليم بذلك كله يتيح لنا أن نخلق سياقاً جديداً بوسعنا أن ندمج فيه ثابت سيرورة التطوّر لدى الموجودات البشرية كلها، وظاهرات التطور الخاصة بكل ثقافة، وكذلك تطور كل فرد وفقاً لمواهبه، وثقافته، وسياقه التاريخي والاجتماعي»(١١).

وأخلص إلى الظن، أخيراً، بأن كل فرد من الأفراد، بما فيهم الباحث، لايعتقدون إلا بما يرغبون في أن يعتقدوا به.

جيزا روهايم

مقال ترجمه من اللغة الانغليزية الأمريكية

بيرّي هيوارد

---

(١١) مارغاريت، وماك غريغور، النمو والثقافة، نيويورك أبناء بوتنامز، ١٩٥١، ص ٢٢ - ٢٣.

الفصل الخامس

الأوديب موضع التساؤل

الخصومة حول أوديب تستولي على فكر المحلّلين النفسيين أنفسهم. إن ويلهلم رايخ هو الذي نال الأسبقية بالتأكيد في الشروع بحرب صليبية على الأوديب، أو بالحري بحملة تعارض كليّة.

ويستأنف رايخ دليل مالينوسكي الذي توجد بحسبه حضارات لايمارس فيها الأب أي قمع على الطفل. وتنشأ بدلاً من ذلك العقدة الرئيسة للأسرة التي لايكون فيها الأوديب سوى تحوّل يميّز علاقات الإنتاج الرأسمالية. وهكذا يجد فرويد وماركس نفسيهما متصالحين.

وذلك أمر يتّفق مع التصورات التي تبنّاها رايخ في نهاية حياته. وتحدّد العوائق التي توضع لتعوق دوران الطاقة الحر، وطاقة الانتعاظ على وجه الخصوص، ضرباً من الانحسار الطاقي الذي يقدم على أن يوظّف أوضاعاً قديمة جداً تجاوزها الزمن في العادة توظيفاً جديداً. وليس بوسع الفرد أن ينصهر في القوى الكونية.

وفي رأي ديلوز وفيلكس غاتّاري، يمثّل الأوديب أيضاً ضرباً من الاختراع القمعي في المجتمع الرأسمالي. فلا وجود للأوديب، بل ثمة إضفاء للأوديب يُحلّ «مسرحاً عتيقاً محلّ اللاشعور بوصفه معملاً». والإبانة الأوضح لما يمكن أن يكون عليه الإنسان دون أوديب هي المصاب بالفصام، رمز قوة لامتناهية: قوة الرغبة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النص الأول: رايخ

معظم أولئك الذين تفحّصوا التاريخ البدائي للمجتمع الإنساني فهموا أن الانقسام إلى عشائر وتحريم غشيان المحارم هما المسألتان الأساسيتان لبدايات التطور الاجتماعي. وأعدّ بعضهم عدداً معيّناً من الفرضيات المقبولة على وجه التقريب: وسنبحث على نحو أكثر تفصيلاً فرضيات فرويد. وتنزع هذه الفرضيات جميعها إلى شرح الشروط الاجتماعية للأزمنة البدائية إما بمعطيات اقتصادية غير مؤكدة معزوّة إلى عصر معيّن، وإما بحياة الإنسان الدافعية. وكان فرويد أول من رأى في تحريمات غشيان المحارم ضرباً من الارتكاس على الرغبات البدائية في غشيان المحارم. والحال أن الملاحظات الحديثة التي أبداها مالينوسكي حول الشروط الاجتماعية لدى شعب تروبريان تتيح، بفضل دقتها، وضع فرضية جديدة تجيب عن كثير من الأسئلة. وسنتخلّى عن كل فرضية جديدة إذا لم تكن بعض المؤسسات الحالية لشعب التروبريان تسمح بضربٍ من إعادة البناء، قائم على بقايا العصر البدائي.

وعلى كل فرضية قادرة على أن تشرح على نحوٍ مقبول أصل التحريم المنصبّ على غشيان المحارم أن تخضع لضرب من المنطق السوسيولوجي، أي أن عليها أن تجعل التحريم مشتقاً من بعض الضرورات الحياتية وعليها أن تحلّ دون إكراه عدداً معيّناً من المشكلات، وألا تكون متناقضة مع التنظيم الاجتماعي الراهن، بل، على العكس، أن تكشف له، فيما يتعلق بالأساسي، عن قواعداستطاعت أن تقوم مقام مرحلة أولية. وبعبارة أخرى، على العناصر الأساسية في الفرضية أن تكون موجودة في الوضع الراهن.

وفرضيتنا لايمكنها أن تُعتبر فرضية صحيحة على نحو كلي إلا إذا

أوضحت أيضاً مسائل أخرى لم نبرزها في مؤلّفنا. ونحن نجعل فرضيتنا مرتبطة بالمعطيات التالية التي لوحظت لدى شعب التروبريان:

١- أخ المرأة هو الشخص المكلّف بتوفير حاجاتها، وهو «الوصي» أيضاً على أطفالها؛ وإذا كان ثمة علاقات تناسلية بينهما، فإن بوسعنا أن نصفه بأنه الزوج الأصيل. إنه ينتمي إلى العشيرة التي تنتمي إليها. (ونجد هذه الظاهرة في كل تنظيم قائم على العشائر).

٢- أخ المرأة تابع لزوج الأخت، مع أن الزوج غريب في الواقع، يقيم علاقات تناسلية مع أخته.

٣- ينتمي الزوج إلى عشيرة غريبة ولايستمدّ منفعة سوى المنافع الناجمة عن صلاته الجنسية بأخت الأخ الذي يوفّر لها حاجاتها.

٤- مجتمع التروبرياندِه ينقسم إلى أربع عشائر يمكن التزاوج الخارجي بينها. وتراعي هذه العشائر بينها نظاماً تراتبياً. ففيها عشائر نبيلة وعشائر أقل نبلاً.

٥- الأم الأصلية خرجت من ثقب، وفق أسطورة من الأساطير. وولدت ولدين، أخاً وأختاً مارسا غشيان المحارم.

وتقدّم لنا هذه الأسطورة لوحة مجتمع بشري منظّم وفق تخطيطية شيوعية وقائمة على غشيان المحارم، متحدّرة من ثنائي واحد يتألف من أخ وأخت. وهذه الجماعة ستشكّل العشيرة فيما بعد. وعلى أخ الأخت، في الوقت الراهن، وهو لايزال في أيامنا هذه الزوج الأصيل لأخته - بصرف النظر عن العلاقات التناسلية - أن يقدّم لزوج أخته معونات اقتصادية.

١- صدام عشيرتين

من أين نشأ هذا الإلزام المزدوج، التخلّي عن كل اتصال تناسلي

بالأخت وواجب أن تدفع القبيلة معونات اقتصادية لزوجها؟ لنمض بتأملنا إلى ما هو أكثر بعداً بعض الشيء: يتحدّر الزوج من عشيرة غريبة تحمل - شأنها شأن عشيرة الأخ - علامة عشير مستقل من الناحية الأولية ومنظّم وفق حق الأم (النسب إلى سلالة الأم). ولنعرض العنصر الأول من فرضيتنا هنا، فرضية ليست العشيرة حسب نصوصها مآل تفجّر المجتمع البدائي جرّاء الزواج الخارجي كما يُعتقد على وجه العموم، **بل هي معطى أصلي متفرّع عن العشير البدائي المغلق الذي فرضت عليه عشيرة أخرى، مغلقة في البداية مثله، تحريم غشيان المحارم أو الأصح تحريم التزاوج داخل الجماعة** نفسها. فالعشائر التي اجتمعت فيما بعد كانت في الأصل إذن عشراء بدائية مستقلّة بعضها عن بعض. فلماذا فرضت عشيرة معيّنة من العشائر على عشيرة معيّنة أخرى تحريم غشيان المحارم؟

ولنفكّر أيضاً بواقع مفاده أن هذه العشراء البدائية لم تكن متحضّرة. إنها كانت تنتقل للصيد وتحيا بالضرورة حياة بدوية عندما كانت كارثة من الكوارث الطبيعية قد أرغمتها على المضي إلى مكان آخر. وكان على الشباب، في هذه الحال، أن يذهبوا للبحث عن الغنائم والتخلّي خلال أسابيع، وربما خلال أشهر، عن كل حياة جنسية. وعندما كان عشير من الشباب الباحثين عن الطريدة يصطدمون بقبيلة غريبة مسالمة، كان المرء يشهد ضربين من الظاهرات: كان الغرباء يستولون على غنائم الجماعة التي لاقوها بالمصادفة، ويقتلون على وجه الاحتمال بعض الرجال خلال المعركة ويسبون النساء، أي أخوات هؤلاء الرجال، حتى يمارسوا الجنس معهن، وذلك أمر يشرحه الامتناع عن ممارسة الجنس، امتناع كان قد وضعهم في حالٍ من الإثارة الخاصة. وإذا كانوا قد خرجوا من المعركة منتصرين، فإنه كان يسيراً عليهم أن يجعلوا من الذين ظلّوا أحياء عبيداً، وأن يمنعوا عليهم جماع أخواتهم الزوجات ويفرضوا عليهم ضروباً من السخرة.

وإذا استمرّ عدد الأفراد في الازدياد وأصبح الترحال متعاظم التواتر، خلال القرون وآلاف السنين، فإن هذا النوع من الكوارث كانت تحدث على الأغلب، مع أن اختطاف النساء وفرض قبيلة من القبائل نفسها على القبائل الأخرى تحوّلا بالتدريج إلى ضرب من **العرف**. وكان لابدّ للمعركة الدائرة بين العشراء البدائية المتنازع بعضها مع بعض من أن تتيح المجال أيضاً لتجدّد العنف. إن ثأر المغلوبين عندما كان المتصرون يستأنفون حياتهم البدوية («انتقام» أفراد العشيرة فيما بعد)، ومهاجمة عشير ثالث تلك العشيرة الظافرة مع ما يرافق ذلك من مفعولات مماثلة، اقتضيا أن تضطرب حياة العشراء البدائية، التي كانت في الزمن الغابرحياة وديعة، اضطراباً هو من القوة بحيث دفعها الخوف المتبادل إلى أن تجتمع في قبائل، محتفظة بالنسب إلى سلالة الأم (تقسيم القبائل إلى عشائر). **وهكذا سُوّي تسوية ودّية ما كان يُنال من قبلُ بالقوة، وأعني الزواج بين عشيرين. وتحوّل التحريم البدائي للتزاوج داخل العشيرة، وهو تحريم مفروض من الخارج في البداية، تحوّلاً بطيئاً إلى عرف داخلي**. وكان النظام الجديد قد توطّد مع ذلك في الاستعمال البدائي الذي كان الأخوة الأزواج وفق منطوقاته يوفّرون الحاجات المادية لأعضاء العشيرة الغريبة الذكور، وهو استعمال كان هؤلاء الأفراد قد حافظوا عليه على نحو أكثر سهولة بقدر ما كان يجلب لهم المنافع.

وبفضل اجتماع العشراء البدائية (العشائر) في قبائل، وإدخال الزواج من خارج العشيرة (الزواج الخارجي)، والمحافظة على التموين الاقتصادي للنساء في إطار **العشيرة نفسها**، استطاع السير الوديع للتنظيم البشري أن يعود إلى سابق عهده. وبما أن الضريبة الاقتصادية كانت تتحقّق على قاعدة المعاملة بالمثل، فإن هذا النظام لم يكن يؤدي إلى نتائج لو لم يكن ثمة في الأصل عشائر غالبة وعشائر مغلوبة. والحال أن العشيرة المنتصرة كانت تدأب على المحافظة على تفوّقها الأولي على صورة معيّنة: إنها كانت تعتبر

نفسها «عليا» وتجعل بعض الامتيازات الاقتصادية مشتقّة من هذا العلوّ في المنزلة. وكان بوسعها أن تقرّر أن يصبح عميدها «زعيم» العشيرتين أو قائدهما (زعيم القبيلة)، وأن يفيد من بعض الامتيازات كمساهمات البائنة أو ضرائب أشد ارتفاعاً. وربما لم يكن امتياز الزواج بأكثر من امرأة، امتياز كان يتمتّع به، موجوداً في الأصل. وقد حدث في الواقع أنه نجم عن تفوّق اقتصادي نتيجة مساهمات البائنة الأكبر حجماً. فمؤسسة «الزعيم» والنظام التراتبي لدى العشائر تشرحهما على هذا النحو تلك العلاقة بين الغالبين والمغلوبين شرحاً عضوياً.

٢- فرضيات ويلهلم رايخ

فلنلّخص الوضع:

أ- ثمة في البدء عشيران بدائيان يعيشان بسلام، على بعد من الأبعاد يفصل بينهما، في ظلّ نظام الديموقراطية في العمل وغشيان المحارم.

ب- بعض البواعث الاقتصادية أو الطبيعية (تغيّر في مجال الصيد) جعلتهما في حالٍ من المواجهة.

جـ- رجال العشير البدائي الذين يعيشون بالضرورة خلال ترحالهم، في حال الامتناع عن ممارسة الجنس، يهاجمون العشير الآخر: وينجم عن ذلك تحريم الجماع في العشير الذي وقع عليه الهجوم **(تحريم غشيان المحارم مبنّي على هذا النحو، في نهاية المطاف، على بواعث اقتصادية)**. ويفرضون ضريبة على الأخوة الأزواج القدماء.

د- انتقام الأخوة، وإفناء متبادل، **وتلك كارثة أصلية**: غزوة العنف في المجتمع البدائي الذي كان وديعاً حتى ذلك الحين، وخوف الناس المتبادل في العشراء البدائية الأعداء.

هـ- إعادة السلام بالإجماع والدعم «التعاقدي» للوضع كما هو عليه:

مؤسسة الزواج من خارج العشيرة (الزواج الخارجي) مع المحافظة على المنافع التي تنطوي عليها الرابطة الجنسية الدائمة (مؤسسة الزواج فيما بعد).

و- انتصار عشيرة على أخرى وجد نفسه وقد أُضفيت عليه صفة المؤسّسة بفعل إقامة تراتب بين العشيرتين وإيجاد زعيم مشترك للعشيرتين. وهذا هو المصدر الأصلي لتطورٍ سينتهي بأن يستبعد نظامُ الأبوة نظام الأمومة.

وعلى هذا النحو، فإننا نرى العشراء البدائية، لدى شعب التروبريان، مجتمعة بصورة وديعة في قبائل، ولكنها منقسمة إلى عشائر يسود الزواج الخارجي فيها، بالنظر إلى أن الأخوة ملزمون بتأدية مساهمات إلى أزواج أخواتهم، وأن للزعماء امتياز الزواج المتعدّد الزوجات، وتلك نتيجة نجمت متأخرة عن ضرب من فقدان التوازن في القوة لصالحهم: ويميّز المرء سلفاً تلك العناصر الأولى من النظام البطريركي إلى جانب الانتساب الأصلي إلى سلالة الأم. وقد رأينا كيف أدّى ذلك إلى أن ينشأ تقسيم المجتمع إلى طبقات وإلى أخلاق جنسية سلبية.

٣- ضرب من العقدة الأوديبية يلي بدايات الحضارة

على فرضية أساسية، أي قتل الأب البدائي، إنما بنى فرويد مجموعة من القضايا التأكيدية، وبُنيت أيضاً كل إتنولوجيا التحليل النفسي التي أعدّها منذ ذلك الزمن تلامذته، روهايم وريك وآخرون. وبما أن تصورنا الخاص لايتوافق مع هذه الأفكار، فإننا ملزمون تماماً أن نحلّل معطياتها الأساسية تحليلاً أكثر تفصيلاً.

وتبدو فرضية فرويد للوهلة الأولى وكأنها بناء متماسك قادر على أن يشرح تطور التاريخ الأول، من جرّاء كونها تطبّق على العصر البدائي معارف عيادية وضعتها الممارسة التحليلية موضع الاختبار مئة مرة، وأنها تجيب دون صعوبة ظاهرة عن مسألتين أساسيتين، مسألة الطوطمية ومسألة

أصل التحريم الذي انصبّ على غشيان المحارم. والحقيقة مع ذلك أن بعضاً من هذه الافتراضات خاطىء.

فانطلاق الفرضية يتمّ إذن من فكرة مسبقة مفادها أن العشير البدائي كان يتألف من رجل راشد، نشيط وقوي، أب الجماعة كلها، جماعة تتكوّن من عدّة نساء، زوجات له، ومن بنات وبنين. وإذا فرضنا وجود هذا الأب البدائي، وأنه طرد باستمرار الأبناء الذين بلغوا سن الرشد ـ وتلك عملية لم يكن ممكناً أن تحدث في مكان واحد، بل كانت تتكرّر بالضرورة خلال آلاف السنين على نحوٍ نموذجي ـ، فإننا لا نرى جيداً جداً كيف تكاثر العشير البدائي، وكيف صارع الطبيعة وأعدّ الحضارة. وتوحي مثل هذه الفرضية على الفور بسؤال ثان: في أية فترة طرد الأب الأول ذريته من الذكور؟ نحن نعلم أن الحياة التناسلية تبدأ بداية مبكّرة جداً لدى البدائيين، قبل سن البلوغ بزمن طويل. فهل كان الأطفال الذكور الذين فوجئوا وهم يمارسون الجماع موضع الطرد بصورة مطلقة؟ مثل وجهة النظر هذه لا تبدو أبداً محتملة.

وإذا اعتمدنا، كما فعل روهايم، على أساطير تعرض حالة سلَفٍ من الأسلاف اغتيل في العصر البدائي، فإن علينا ألا ننسى أن الجماعة الأبوية كانت تتألف في الأصل، وتلك واقعة يؤكدها على نحو بارز تشكل العشائر، من غرباء تنازعوا فيما بعدُ مع جماعة الأبناء، وهو نزاع غير ذي علاقة بالنبوّة بوصفها كذلك، بل نزاع مبنيّ على العداوة القديمة بين العشراء الغريبة. ولم يكن لغشيان المحارم علاقة بهذا النزاع. ولم يكن ممكناً لعقدة أوديب أن تنشأ إلا بعد اجتماع العشراء، أي بعد تكوّن الأسر التي تتبنين تبنيناً قوياً.

وتؤكد الفكرة المسبقة الثانية أن الأبناء تخلّوا عن الاتصال التناسلي بأمهاتهم وأخواتهم؛ وهكذا كان الرجال قد هجروهن كما كان الأمر تماماً قبل قتل الأب؛ وظلّ الأبناء، من جهتهم، دون نساء. فكيف حدث ألا

تكون الجماعة قد اندثرت؟ والزعم بأن الرجال كانوا يمضون للبحث عن النساء لدى جماعات أخرى يوصلنا، بالنظر إلى ضعف الكثافة السكانية لدى الشعوب البدائية، إلى بداية التطور لدى العرق البشري، بداية ترتكز على حقل التخمينات الضبابية. ومثل هذا الشرح يصبّ في العدم.

وثمة بعض الأفكار المسبقة الأخرى التي لا غنىً عنها لإضفاء قوامٍ على الفرضية الفرويدية: فالأولى هي غيرة الذكور **الطبيعية** والعنيفة، والثانية هي الثنائية البيولوجية في المشاعر. وحسبنا أن نوازن بين المهرجانات الجنسية التي تنتشر انتشاراً واسعاً لدى الشعوب البدائية، وبخاصة تلك المهرجانات التي لاحظها مالينوسكي لدى شعب التروبريان والتي كانت تستبعد كل غيرة، وبين واقع مفاده أن الغيرة العنيفة كما يمارسها مجتمعنا ليست سوى نتيجة الرابطة الزوجية التي حولّتها المنافع الاقتصادية إلى ملكية محروسة على نحوٍ تكتنفه الغيرة. وحسبنا، من جهة أخرى، أن نتذكّر أن الزواج الأحادي مكتسب المجتمع الإنساني في عصر متأخرّ، لنشكّ في وجود الغيرة كما صادر عليها فرويد لدى الإنسان في حالة الطبيعة. وعلينا أول الأمر فيما يخصّ ثنائية المشاعر، أن نحدّد الشروط الاجتماعية التي سبّبت نشوءها (تقليص الإشباعات التناسلية، وموقف الكره من العالم المحيط).

٤ ـ ثنائية الحب ـ الكره: مكتسب اجتماعي في زمن متأخر

تعلّمنا تجربة التحليل النفسي في مجال النُفاس(*)، على نحو واضح، أن ثنائية المشاعر ربما توجد في صفة من صفات الآلية الدافعية، ولكن ما نراه لدى المريض وضع ناجم عن **تطور تاريخي دافعه العميق إحباط حاجاته التناسلية، وهو إحباط لا وجود له في المجتمع البدائي على الإطلاق.** فالثنائية ذات أصل اجتماعي بصورة أساسية إذن، شكلها وحدّتها منوطان بأسلوب الإشباع للحاجات الليبيدية. وبما أنها ذات طبيعة اجتماعية، فغير

(*) ـ انظر معجم المصطلحات في آخر الكتاب «م».

ممكن لها أن تكون أساس الثقافة الإنسانية المطلق. وقد بيّنت لنا الطقوس الجنائزية لدى شعب التروبريان كيف أن علاقة إنتاج تاريخي معيّن قد تكون هي التي تولّد ثنائية المشاعر. فلو لم يكن أهل المرأة يدفعون جزية للزوج، لما كان هناك سبب لثنائية المشاعر لديهم ولحجب كرههم في ظلّ مظاهر من الطقوس الجنائزية الصارمة إلى الحد الأقصى. وإذا كان صحيحاً أن الثنائية تسود الحياة النفسية لدى إنسان القرن العشرين، فإن السؤال الذي يطرح نفسه يكمن في أن نعرف على أي معطيات اجتماعية تُبنى هذه الثنائية؛ وليس ثمة مجال لنقلها بكل بساطة إلى البدائيين الذين يعيشون ويترعرعون في شروط مختلفة كل الاختلاف. ويمكننا أن نعتبر مؤكداً أن الطفل الصغير في شعب التروبريان لا ينمّي أفكاراً جنسية خاطئة ما دام يعرف الحقيقة، ولا يكبت تناسليته - بغضّ النظر عن الرغبة في غشيان المحارم - لأن له الحق في إشباعها؛ وأن البنت الصغيرة في هذا الشعب تجهل الرغبة في عضو الذكر ولا ترسّخ في نفسها عقد الذكورة لأن المحيط الاجتماعي لا يمنح الصبي موقعاً ذا امتياز بالنسبة للبنت كما هي الحال لدينا. ومنشأ ذلك كله سلطة الأب والانتساب إلى سلالة الأب. فنحن لا نرفض كشوف التحليل النفسي، بل نرفض التفسير البيولوجي الذي يقترحه بعضهم لها ونعتبرها، على العكس، ثمار تطوّر تاريخي ونحاول أن نقيم علاقات بينها وبين تاريخ المجتمع.

والقضية القائلة إن الأبناء يتخلّون عن غشيان المحارم من جرّاء مشاعر الإثمية تستند إلى فرضية الثنائية **الطبيعية** في المشاعر. وهذه الثنائية هي التي ولّدت الأخلاق. إن في ذلك ضرباً من **المصادرة على المطلوب الأول**، لأن ثمة افتراضاً مسبقاً لما ينبغي شرحه على أنه معطى من المعطيات. فمشاعر الإثمية هي التعبير منذئذ عن ردّ فعل أخلاقي، ولا يمكنها إذن أن تشرح أصول الأخلاق.

ويتصور فرويد فكرة السقوط الدينية، التي كان المسيح يريد تحرير

العالم منها، على أنها التعبير عن جريمة قتل اتّخذت مكانها في أصول الإنسانية. وبناءً عليه تبدو الأسطورة التوارتية لآدم وحواء وكل الإيديولوجيا الكاثوليكية الخاصة بالخطيئة الأصلية بأنها، على نحو أساسي، أسطورة جريمة جنسية، وامتثال ضرب من الانتهاك لتحريمٍ جنسي. وذلك لا يستبعد بالتأكيد أن تكون هذه الجريمة قد ترافقت مع قتل إنسان. وشرحُنا تحريم المحارم يحتوي على نحوٍ ضمني ذلك القتل التاريخي الأول المرتكب عند الصدام بين العشراء البدائية الغريبة. ومن هنا أيضاً وُلدت التعاليم الأخلاقية الأولى. وأصل هذه التعاليم الأخلاقية الأولى مبنيّ على تحريمات جنسية دون أية علاقة بعقدة أوديب؛ ذلك أن عقدة أوديب أحدث من القمع الجنسي بكثير؛ والجماعة التي أصبحت الجماعة الأبوية فيما بعد كانت في الأصل - كما عرضنا ذلك - عشيراً من الناس الغرباء، علماً بأن مفهوم قتل الأب الأول مزيج من حالتين واقعيتين منفصلتين زمنياً: الصراع الدامي مع رجال لم يكونوا الآباء، ولكن عشيرتهم أنشأت آباء حقيقين لم يكونوا موضع الاغتيال.

وتستبعد فرضية فرويد إمكان غشيان المحارم خلال العصر البدائي. والحال أن غشيان المحارم تؤكّده الأساطير بأنه قاعدة السلوك خلال آلاف السنين، وكونّ موضوع ملاحظات مباشرة. وجهل دور الأب، دور ناجم بصورة طبيعية عن الحياة الجنسية لدى الشعوب البدائية، يتناقض أيضاً مع نواة المفهوم الفرويدي نفسها[1].

---

(١) بوسع المرء أن يعارض معارضة صائبة بعض الصواب أن جهل دور الأب يُفهم فهماً جيداً في مرحلة الشيوعية الجنسية ولكنه يُفهم فهماً أقلّ بكثير في مرحلة الزواج الأحادي بين رجل وامرأة. ولن يكون أيضاً من الصعوبة بمكان تفسير موقف التروبرياند إزاء الأبوّة بأنه ضرب من كبت المعرفة لدور الأب وفرضية هذا الكبت متلائمة مع جهل دور الأب في مرحلة الشيوعية الجنسية. وما يمكننا تصوره - ولكن هذه فرضية ينبغي للبراهين أن تدعمها - أن الرفض الانفعالي للرجال الغرباء في العشيرة بعد انصهار العشراء كان من العنف بحيث مضى بعضهم إلى حدٍّ أنكروا واقع الأبوة نفسه. ومن الممكن من جهة أخرى أن يكون الاعتراف بهذه الأبوة قد أوشك أن يوجّه ضربة قاسية لنظام الأمومة في أسرة العشير.

٥ ـ شهادة الواقع الاجتماعي

يتناقض مفهوم فرويد مع الأساطير النموذجية حول أصل العشائر، التي تجعلها دائماً متحدّرة من أمّين أو عدة أمهات أوائل، أو من ضروب أولى من الثنائي المؤلف من أخ وأخت. إنه مفهوم مبنيّ على فرضية غشيان المحارم بين الأم والابن. ولكن ما كان له الأهمية بالفعل هو غشيان المحارم بين الأخ والأخت. ويستند روهايم على وجود حيوان طوطمي ليستنتج منه وجود الأب الأول. ولكن علينا أن نبرهن أول الأمر على أن الحيوان الطوطمي كان يمثّل الأب الأول في الأصل خلال ذلك الزمن. والأدلة التي نقدّمها لمصلحة تفسير يقول إن الأم تحلّ محل الأخت، موضوع الرغبة في غشيان المحارم، وإن الطوطم هو الأب الأول، لا تفضي إلى الاقتناع دون براهين تاريخية.

ولتحريم غشيان المحارم أهمية أسرية في رأي فرويد. ولكن تحريم غشيان المحارم يسود العشيرة برمتها. وبما أن الأسرة تكوّنت خلال زمن متأخّر جداً، فإن تحديد الانتماء الأسري إلى جماعة الأب ـ الأم ـ الأطفال هو ضرب من التكوين المتأخر من الناحية الزمنية دون أن يكون له أي تأثير على ما قبل التاريخ.

ولنقل على سبيل الخلاصة إن فرضية فرويد تبتعد ابتعاداً كبيراً عن المؤسسات الأساسية في التنظيم البدائي (اثنتان من العشائر الأصلية التي تمارس غشيان المحارم، تحريم غشيان المحارم داخل التنظيم الاجتماعي القائم على الأم)، وتهمل التطور التاريخي للأسرة في علاقاتها بالاقتصاد الاجتماعي إهمالاً كبيراً بحيث يصعب الدفاع عنها.

وتشرح قضيتنا تحريم أكل الحيوان الطوطمي وممارسة غشيان المحارم بالحدث التاريخي الذي كان يكمن في تحريم صيد الحيوان الذي يميّز مجال صيد معيّن؛ ويرتبط تحريم غشيان المحارم، في نسق الأفكار ذاته، بتحريم

امتلاك النساء في العشيرة، تحريم لم ينبعث من الداخل بل فرضه عشير غالب على عشير مغلوب - ونحن نفسّر بعض مهرجانات البدائيين الذين يمارسون خلالها الحرية الجنسية الكاملة ويأكلون الحيوان الطوطمي، بأنها مكافأة على التخلّي عن طريقة قديمة في العيش لدى عشيرين، وبأنها التعبير عن الحنين إلى التنظيم الأكثر سكينة للعشير البدائي الذي يمارس غشيان المحارم، تنظيم خالٍ من كل إلزام، باستثناء إلزام واحد مفاده توفير المرء حاجات عشيرته الخاصة. وهذه المهرجانات تقوّض على وجه الخصوص حواجز الزواج الثنائي البدائي، وتقوّض في بعض الأحيان حواجز التحريم المنصبّ على غشيان المحارم، وتلك مكتساب حديثة نسبياً للمجتمع الإنساني. وفكرة فرويد القائلة إن مهرجانات الوجبة الطوطمية تمثّل قتل الأب الأول فكرة تناقض، حتى في منظوره الخاص، واقع انتهاك التحريم المنصبّ على غشيان المحارم، وهو انتهاك تتيحه هذه المهرجانات. فهل يسمح لأنفسهم الناس أولو المستوى التنظيمي الأكثر إعداداً بما يحرمون أنفسهم منه في حالة التوحّش وانعدام الحضارة؟ وهل كانت مشاعر الإثمية لديهم أكثر وضوحاً عندما كانوا متوحّشين؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فما السبب؟

٦ - الكوارث الطبيعية في أصل الديانات القديمة

من الممكن أن تنتهي بحوث لاحقة إلى أن تربط الأساطير حول قتل الأب الأول بصدام العشراء البدائية الغريبة. والوظيفة الرمزية للحيوان الطوطمي الذي يُفترض أنه يمثّل الأم الأولى، والأب الأول في التنظيم البطريركي فيما بعد، وظيفة ثانوية. ونحن نعتبر إذن أن فرويد مصيب في أنه يعزو إلى الطوطم بدايات المفهوم الديني القديم. ولا نرى فيه مع ذلك السبب التصوري للدين بوصفه كذلك، بل نرى فيه انعكاس الكوارث الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الإنساني، التي ولّدت المفاهيم الدينية القديمة بفضل ميل الإنسان إلى أن يشرح الظاهرات الطبيعية. وإذا كان صحيحاً أن الإنسان

خلق الإله في العصر البطريركي على صورة الأب، فإن كل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأنه تصوّره في الزمن الغابر على صورة طريدته التي كانت تشغله كثيراً، أو على صورة الأم الأولى. ويفهم المرء فهماً تاماً، حين يقرأ مالينوسكي بعناية، أن أهمية الطوطمية لا تكافىء، وهيهات، أهمية المؤسسات الجنسية والاقتصادية والمؤسسات الأخرى. والحال أنه يتعذّر على المرء أن يصرف النظر عن تثمين مؤسسة من المؤسسات حين يزعم بأنه يدرجها في فهم التنظيم البدائي. ومن الضروري من الآن فصاعداً أن نفحص الطوطمية برمتها فحصاً جديداً في ضوء نظرية النظام الأمومي. ونحن سنستند بالضرورة، حين نفعل ذلك، إلى الدلالات اللاشعورية المكتشفة لشتى الامتثالات والأعراف الدينية القديمة. وينصب نقدنا على الطريقة القديمة لبحث التحليل النفسي في ميدان الدين، طريقة تقوم على أن نستنتج أصل ظاهرة دينية من معناها الكامن، **وأن نضع التفسير والنشوء على مستوى واحد**. وكما أننا لا نفهم المعنى الحالي اللاعقلاني لعرض من الأعراض الهستيرية فهماً على نحوٍ تكويني إلا إذا أفلحنا في أن ندرجه في مكان تارخي واضح من تطور الأعراض، حيث أن ما يبدو لنا الآن لاعقلانيا كان في الواقع عقلانياً بصورة تامّة، كذلك فإن علينا أن ندرج المعنى الكامن لامتثال أسطوري أو ديني في السياق التارخي للسيرورة الاجتماعية، أي أن علينا أن ندرك إدراكاً ذهنياً معنى الفكرة الدينية القديمة بنشوئها ووظيفتها الاقتصادية والاجتماعية. ومعنى امتثال طوطمي موجود يمكنه أن يكون تماماً فكرة الأب في حين أن أصله حيوان صيد أصبح البديل الرمزي للأب أو الأم في أعقاب تطور ثانوي. وذلك أمر ينجم عن التحوّل التاريخي لوظيفة زعيم العشيرة.

٦ - مجتمع نظام أمومي مثالي

حين أكبّ فرويد على دراسة التاريخ البدائي البشري، فإنه لم يكن يرى، شأنه شأن معظم الإتنولوجيين، سوى الواقع المزعج في منظور نظرية

النظام الأمومي، واقع مفاده أن لجميع التنظيمات، حتى الأكثر بدائية، زعماء وأسر في ذلك الزمن. وهذا الواقع حجب واقعاً آخر: وأعني أن الزعيم ليس ملكاً ولا أباً بطريركاً بالمعنى الحديث، إلا إذا كنا إزاء تنظيم بطريركي بصورة بارزة وكانت الأسرة لاتعارض، في أزمنة التاريخ الأولى، تنظيم «الأقوام» المغلقة. وحوّل التنظيم الأسري داخل «القوم» أنظار كثير من الباحثين عن القوم، لأنهم كانوا عاجزين عن التخلص من فكرة مفادها أسبقية الأسرة كما نعرفها وعن التفكير بلغة التاريخ. وكما أن «زعيم العشيرة كان يقبل الخلافة في الزمن الغابر حسب سلالة الأم قبولاً عميقاً جداً ليعارضها فيما بعد وهو يتحوّل إلى بطريرك سلطوي، كذلك كان التنظيم الأسري من النموذج الأحادي في الزواج الذي نضج ببطء ينسجم مع تنظيم العشيرة لينتهي إلى معارضته وتدميره، وذلك تطور يرافق تحوّل الوظيفة التي يؤديها زعيم العشيرة. فأولئك الذين يتظاهرون بجهل نظرية مورغان وأنجلز، التي أكدتها ملاحظات مالينوسكي في نقاطها الأساسية تأكيداً قوياً جداً، يخضعون لدوافع سوسيولوجية راهنة: إن من يوثر أسبقية النظام البطريركي ومشكله الأسري يعتبر الأخلاق المفروضة ثابتة ومنقوشة في طبيعة الإنسان.

والحال أن كشوف مورغان تشهد أن كل شيء يتطور ويتغيّر. إن الأخلاق الجنسية القمعية غزت المجتمع الإنساني يوماً من الأيام وستغادره عاجلاً أو آجلاً. فما الذي سيحلّ محلها؟

ويلهلم رايخ

النص الثاني: جول دولوز وفيليكس غاتّاري

١- عقدة أوديب: اختراع قاسر

حتى فرويد لايخرج من هذه الوجهة النظر الضيقة في الأنا. وما كان

يمنعه عن ذلك هو صيغته الثالوثية الخاصة به - الأوديبية، العصابية: بابا - ماما - أنا. ولابدّ من أن نتساءل ألم تقد فرويد التسلطية التحليلية لعقدة أوديب إلى أن يكتشف المفهوم المزعج، مفهوم الانشغال بالذات، الذي طبّقه على الفصام، وإلى أن يضمنه بسلطانه؟ ذلك أن فرويد أخيراً، وعلينا ألا نخفي شيئاً، لايحب الفصاميين، ولايحب مقاومتهم لإضفاء الصفة الأوديبية، وهو يميل بالحري إلى معاملتهم وكأنهم حيوانات: إنهم يعتبرون الكلمات أشياء، يقول فرويد، إنهم خاملون، نرجسيون، منفصلون عن الواقعي، عاجزون عن التحويل، وهم يشبهون بعض الفلاسفة، «شبهاً غير مرغوب فيه». وتساءل بعضهم على الغالب عن الأسلوب الذي به يتصور التحليل النفسي علاقة الدوافع والأعراض، وعلاقة الرمز وما نعبّر عنه بالرمز. فهل هي علاقة سببية، أو تضمّن، أو علاقة تعبير؟ والسؤال مطروح جداً من الناحية النظرية. ذلك أننا، في الواقع، منذ أن نوضع في الأوديب، ومنذ أن نُقاس بقياس الأوديب، فان الخديعة تنطلي، وتُحذف العلاقة الوحيدة الحقيقية التي كانت علاقة الإنتاج. فالاكتشاف الكبير، اكتشاف التحليل النفسي، كان اكتشاف الإنتاج الراغب، إنتاجات الراغب، إنتاجات اللاشعور. ولكن مثالية جديدة كانت قد حجبت هذا الاكتشاف: أحلّ بعضهم مسرحاً عتيقاً محلّ اللاشعور بوصفه مصنعاً؛ والامتثال محلّ وحدات الإنتاج في اللاشعور؛ ولاشعوراً لم يكن بوسعه قطّ إلا التعبير (الأسطورة، والتراجيديا، والحلم) محلّ اللاشعور المنتج.

وعندما ينزلق أوديب في التأليفات المنفصلة لسجّل الرغبة، فإنه يفرض على هذه التأليفات مثالاً ذا استخدام معيّن، محدّداً أو مطلقاً، لايتميّز من شكل التثليث - أن يكون بابا أو ماما أو طفلاً. إنها سيادة **التفصيل** في وظيفة التحريم، تحريم غشيان المحارم، الوظيفة التي تضفي التمايز: هناك إنها ماما التي تبدأ، وهناك إنه بابا، وهناك إنه أنت. ابق في مكانك. وتعاسة أوديب تكمن على وجه الدقة في أنه لم يعد يعرف أين يبدأ

أحدهم، ولا واحداً من الآخر. و«كون المرء أباً أو طفلاً» أمر يترافق أيضاً مع تمايزين آخرين على رؤوس المثلث، «كون المرء رجلاً أو امرأة» و«كونه ميتاً أو حياً». ولم يعد على أوديب أن يعرف إن كان حياً أو ميتاً، رجلاً أو امرأة، وأن يعرف إن كان أباً أو طفلاً. وإن كنت ممن يغشون المحارم، فإنك ستكون شبحاً وخنثاوياً. وبهذا المعنى على وجه الدقّة يبدو أن الضروب الثلاثة من العصاب الأسري تستجيب لضروب القصور الأوديبي الثلاثة في وظيفة التمييز أو وظيفة التأليف الانفصالي: لم يعد الرهابي يعرف إن كان أباً أو طفلاً، ولا المصاب بالوسواس إن كان ميتاً أو حياً، ولاالهستيري إن كان رجلاً أو امرأة(٢). ونقول باختصار إن التثليث الأسري يمثّل الحدّ الأدنى من الشرط الذي تتلقّى «الأنا» في ظلّه تلك الإحداثيات التي تميّزها في وقت واحد من حيث الجيل والجنس والحالة. ويؤكد التثليث الديني هذه النتيجة في صيغة أخرى: وهكذا فإن امّحاء الصوروة الأنثوية في الثالوث لمصلحة رمز قضيبي بيّن أن المثلث ينزاح صوب سببه الخاص ويحاول دمجه. والمقصود في هذه المرة هو الحدّ الأقصى من الشروط التي يتمايز في ظلّها الأشخاص. ولهذا السبب فإن ما كان له الأهمية بالنسبة لنا هو التعريف الكانتي الذي يطرح الإله بوصفه مبدأ قبلياً للقياس الشرطي المنفصل، من حيث أن كل شيء مشتق منه بفعل تحديد واقع أكبر(Omnitud Realitatis): وتلك دعابة كانت الذي يجعل من الإله سيد ضرب من القياس.

٢- الفصامي يفلت من تحديدات أوديب

خاصةُ السجل الأوديبي هي إدخال استخدام تخارجي، ومحدود، وسلبي، للتأليف المنفصل. ونحن قد كوّنّا أوديب تكويناً كبيراً بحيث يصعب علينا أن نتصور استخداماً آخر. حتى الضروب الثلاثة من العصاب

(٢) حول «السؤال» الهستيري (أرجل أنا أم امرأة؟) و«السؤال» الوسواسي (أحي أنا أم ميت؟)، انظر سيرج لوكلير «الموت في حياة المصاب بالوسواس»، في مجلة التحليل النفسي، العدد رقم ٢، ص ١٢٩ - ١٢٠.

الأسري لاتتخلّص منها، على الرغم من أنها تعاني أنها ليست قادرة على تطبيقها. وقد رأينا أن هذا الميل الى الانفصالات التخارجية يُمارس في كل مكان من التحليل النفسي لدى فرويد. ويبدو مع ذلك أن الفصام يقدّم لنا أمثولة فريدة خارج أوديب، ويكشف لنا عن قوة مجهولة للتأليف الانفصالي، واستخداماً محايثاً لن يكون أبداً تخارجياً ولامحدوداً، بل إيجابياً دون تحفّظ، غير محدود، وتداخلي. إنه انفصال يظلّ انفصالياً، ويؤكد مع ذلك الحدود المنفصلة، ويؤكدها من خلال بعدها كله، دون أن يحدّد الواحد منها بالآخر ودون أن يستبعد من حدّ من الحدود حداً آخر، وهذه هي، ربما، الدرجة العليا من المفارقة. فـ «التعاقب» يحلّ محل «الانفصال». فالفصامي ليس رجلاً وامرأة. إنه رجل أو امرأة، ولكن من جانبين على وجه الدقة، رجل بجانب الرجال، وامرأة بجانب النساء.

والفصامي ميّت أو حيّ، ولا يتّصف بالحالتين معاً، بل إحدى الحالتين في نهاية فترة زمنية يحوم فوقها وهو ينزلق. إنه طفل أو أحد الأبوين، وليس هذا وذاك، بل أحدهما في نهاية الآخر كطرفي عصا في حيّز لا يمكن تفكيكه. وذلك هو معنى الانفصالات التي دوّن فيها بكيت Beckett شخوصه والأحداث التي حدثت لهذه الشخوص: **كل شيء ينقسم، ولكنه انقسام في الذات**. والأبعاد هي أيضاً إيجابية وكذلك الانفصالات المندرجة فيها في الوقت نفسه. وسيكون الأمر جهلاً تاماً بهذا النسق من الأفكار أن يتصرف المرء كما لو أن الفصامي كان ينيب تأليفات غامضة من توحيد المتناقضات، كما يفعل الأخير من الفلاسفة، الهيغليين، مناب الانفصالات. إنه لا ينيب تأليفات من المتناقضات مناب التأليفات الانفصالية، ولكنه ينيب استخداماً إيجابياً مناب الاستخدام التخارجي والمحدود للتأليف الانفصالي. إنه موجود في الانفصال ويظلّ فيه. إنه لا يلغي الانفصال إذ يوحّد المتناقضات بتعميقها، بل يؤكد الانفصال على العكس بالتحليق فوق بعد لا يقبل الانقسام. إنه ليس فقط ثنائي الجنسية،



من التمايز الجنسي إلى عقدة أوديب

ولا بين الجنسين، ولا داخل الجنسين، بل عبر الجنسين. إنه عبر الحياة والموت، عبر الأب والطفل. إنه لا يوحّد بين ضدّين في شيء واحد، بل يؤكد بعدهما بوصفه ما يجعل الواحد مرتبطاً بالآخر بوصفهما مختلفين. ولا يغلق نفسه على المتناقضات بل ينفتح على العكس ويطلقها، كما لو أنه كيس ينتفخ بغبار الطلع، بوصف كل منها خصوصية كان يحتجزها دون مسوّغ مشروع، خصوصيات كان يزعم أنه يستبعد بعضها ويحتفظ ببعضها الآخر، ولكنها تصبح الآن نقاطاً ـ علامات، يؤكدها، كلها، بعدها الجديد. والانفصال، بوصفه تداخلياً، لا ينغلق على حدوده، بل إنه، على العكس، غير محدود. «في حين أنني لم أكن قط هذه العلبة المغلقة التي كان عليّ أن أكون محفوظاً بها جيداً، بل إنني حاجز كان قد انهار»، حاجز يحرّر حيّزاً لا يدلّ فيه مولوا وموران على شخصين، بل على خصوصيات تهرع من كل جانب، أي عوامل إنتاج متلاشية. إنه الانفصال الحر. فالمواقف الفرقية تبقى بصورة تامة، بل تتّخذ قيمة حرّة، ولكنها جميعها مشغولة بموضوع لا وجه له وانتقالي. إن شريير رجل وامرأة، أب وطفل، حيّ وميت: وأعني بذلك أنه موجود حيث توجد خصوصية في كل المجموعات وكل التشعّبات الموسومة بنقطة خاصة، لأنه هو ذاته هذا البعد الذي يحوله إلى امرأة، بعد هو الآن، في نهايته، أمّ إنسانية جديدة ويمكنه أخيراً أن يموت.

جيل دولوز
فيليكس غاتّاري

الباب الثاني

من الطفولة
إلى
المراهقة



لو أن الصبيّ الصغير لم يكن يكره إلا أباه، لكان النزاع أقلّ تعقيداً

الفصل السادس

التحوّلات النفسية لدى الطفل

يعرض هنا هيرمان نُبرغ، أمين السر القديم لرابطة التحليل النفسي في فيينا، ملخّصاً عن التصورات المقبولة بصورة عامة حول عقدة أوديب.

ولكن فهم العقدة الأوديبية غير ممكن إذا صرفنا النظر عن المراحل التي تسبقها، وبخاصة عقدة الخصاء[1] التي تتداخل معها.

والعقدتان معاصرتان بالنسبة لنمو الطفل. ويُعاش الأدويب بحدّة، في رأي فرويد، بين الثالثة والخامسة من العمر. وتحدّد عقدة الخصاء أزمة الأوديب النهائية لدى الصبي، وتحدّد الدخول في الأوديب بالنسبة للبنت.

١ ـ تطور التنظيم الليبيدي

هناك عدة وقائع تتيح لنا أن نفرض أن الليبيدو يتكوّن تكوّناً مسبقاً قبل الولادة؛ والواقع أن الغدد الجنسية تنمو بدءاً من خلايا الإنتاش ويولد الإنسان موجوداً أُضفي عليه الجنس، متمايزاً وكاملاً؛ وتُناط سمة الجنسية، من جهة أخرى، ببنية الليبيدو. والليبيدو لا يزال في رحم الأم غير ذي موضوع. وينبغي لنا أن نفرض لهذا السبب أن ما بوسعنا تسميته بشيري الأنا والليبيدو ينجز ضرباً من الوحدة قبل الولادة، وذلك أمر تؤكده من جهة

(١) المجلد الثاني من هذه المجموعة مخصّص للخصاء على نحو أكثر وضوعاً.

أخرى ملاحظة الوليد. ويتحول الإنسان بعد الولادة، ذلك الإنسان الذي كان حتى ذلك الحين منغلقاً على ذاته، إلى موجود يقيم علاقات متنوّعة بالعالم. ويتبع ليبيده نمواً مماثلاً، فيبتعد عن الحالة النرجسية، أي عن التثبيت على الأنا، ليتّجه صوب الموضوعات. ولكن علينا أن نؤكّد هنا أن ثمة درجة معيّنة من النرجسية يُحتفظ بها بالضرورة خلال الحياة كلها وتُستخدم لحماية الفرد من صدمات عديدة.

ويكمن هدف الليبيدو النرجسي، بعد الولادة مباشرة، في الإشباع الغلمي الذاتي للدوافع الجزئية. ومع أن جميع الدوافع الجزئية تكون الآن، خلال المراحل الأولى من الحياة، في حال من مباشرة وظيفتها، فإنها مع ذلك تحكم الحياة الجنسية في الطفولة بنسب وأساليب مختلفة. وسيادة هذه الزمرة من الدوافع الجزئية أو تلك تميّز كل مرحلة من مراحل التطور الليبيدي. وقد أفلح بعضهم حتى الوقت الراهن في أن يميّز، انطلاقاً من هذه السيادة، طورين كبيرين من التطور في أولى السنين الأولى من الحياة: المرحلة الفمية والمرحلة السادية الشرجية.

المرحلة الفمية. ـ يستند الليبيدو، في المرحلة الفمية، إلى غريزة المحافظة على البقاء وعلى غريزة التغذية بصورة خاصة. وبما أن الغذاء غير موجود إلا في العالم الخارجي، فإنه لا بدّ من أن يكون بوسعنا أن نعزو إلى الليبيدو الفمي، منذ البداية، ميولاً متوجّهة إلى الموضوعات. ومن اليسير مع ذلك أن نلاحظ أن الرضيع يحسّ بإثارات في المنطقة الفمية بصورة مستقلة عن الحاجة إلى الغذاء. إنه يمصّ لسانه دون أن يكون جائعاً ويدخل في فمه كل ما بوسعه أن يمسكه (يديه، وإبهام رجله، إلخ). وإذا بكى جراء ضيق جسماني، فإنه يهدأ منذ أن نضع رضّاعة في فمه. يضاف إلى ذلك أن كل قابلة قانونية تعلم أنه ليس للرضيع إذا صحّ القول علاقات بالعا الخارجي خلال الأسابيع الأولى بعد الولادة. ولا يستمدّ منه على وجه

التقريب أي إدراك بل يعاني على العكس إحساسات في جسمه الخاص من اللذة ـ اللالذة، إحساسات يعبّر عنها بالبكاء والصراخ والابتسام، إلخ. وثدي الأم، شأنه شأن جسمه الخاص، مصدر اللذة بالنسبة له. ولكن الرضيع لا يزال غير قادر على تحديده في المكان. ولا يميّز الإثارات الخارجية من الإحساسات الداخلية. ولهذا السبب يشكل ثدي الأم، وهو موضوع من موضوعات العالم الخارجي، جزءاً من الأنا في الفترات الأولى من الحياة. وبما أن موضوع العالم الخارجي (ثدي الأم) يتطابق، خلال هذه المراحل الأولى من الحياة، مع الأنا إذا صحّ القول، فإن هذا الطور الأول من التنظيم الليبيدي غير ذي موضوع، وهو طور نرجسي. ولا يتمّ التمييز بين الداخل والخارج إلا عندما يختبر الطفل في عدة مناسبات أن اللالذة يمكن أن يلغيها موضوع من الموضوعات الخارجية (ثدي الأم) وأن تتحوّل إلى لذة. فغرائز المحافظة على الأنا هي التي تقيم على هذا النحو، بادىء ذي بدء، اتصالاً مشحوناً باللذة بين الإنسان والعالم الخارجي. وهذه الغرائز متأثرة تأثراً كبيراً، منذ الوهلة الأولى، بالطاقات الجنسية، من جرّاء التثبيت الأولي لليبيدو على الأنا. وإشباعها منوط بالعالم الخارجي وهي لهذا السبب تتجّه صوبه. ولكن الليبيدو يظلّ متعلّقاً بالأنا بما أن العالم الخارجي لا يزال غير موجود من الناحية الذاتية.

وسرعان ما يتعلّم الطفل مع ذلك، كما قلنا، معرفة الإحباط. ولن تمنحه أمه الثدي عند كل مظهر من مظاهر اللالذة. وثمة تراكمات من الليبيدو ستنشأ على هذا النحو مصحوبة بمشاعر التوتر واللالذة. وهذه المشاعر ستزيح الليبيدو عن موقفه النرجسي لتوجّهه إلى الموضوعات التي تحدّدها الحاجة إلى الغذاء. ولكن كل الليبيدو المتراكم في الأنا ليس بوسعه أن يكون مشبعاً بصورة تامة، والفائض من الليبيدو يصبح مستقلاً عن امتصاص الغذاء. يضاف إلى ذلك أن للرضيع حاجات ليبيدية أخرى غير حاجة التغذية، ومثال ذلك حاجات رؤية الأم، ولمسها، وسماعها. وبفعل ذلك

يجد التثبيت على الأنا نفسه وقد تراخى لمصلحة ميل يتوجّه إلى موضوع مستقلّ عن الحاجة إلى الغذاء. وهذه الميل يجد إنجازه في الاستحواذ على الموضوع عندما ينمو الجهاز العضلي نمواً يكفي ليتيح إنجاز حركات متناسقة. ويحدث فعل الرضاع منذ الآن بعضلات مخطّطة في الجهاز الفمي: يرضع الرضيع أول الأمر ثدي أمه، ويعضّ الثدي ويجرحه فيما بعد عندما يصبح له أسنان. فثمة على هذا النحو ميل إلى أن يدمج الثدي بنفسه، أن يأكله. ولهذا السبب يسمّي بعضهم **أكل لحم البشر** تلك المرحلة الفمية في التنظيم الليبيدي التي يدمّر الطفل فيها الموضوع المرغوب. والمظهر الأول للرغبة ينتهي على هذا النحو بـ «تدمير» الموضوع الذي يوزّع اللذة، تدمير يتصف بصفة **الواقع النفسي** على الرغم من أنه لا يتجلّى إلا على نحو يكتنفه الغموض. ولا يزال المرء يصادف آثاراً من هذه المرحلة في أعراف بعض الشعوب البدائية، ويكتشف أيضاً بقايا المرحلة الفمية للتنظيم الليبيدي في فكر الشعوب المتمدنة بعصرنا وفي انفعاليتها اللاشعورية، ومثال ذلك في التعبير التالي: «أحبك كثيراً بحيث أودّ لو أفترسك».

يضاف إلى ذلك أن الميل صوب موضوع من الموضوعات يشجّعه أيضاً عنصر آخر في بداية التطور. والواقع أن الطفل ضعيف وعاجز. ولا بدّ للأم أو لشخص آخر من الأشخاص أن يُعنى به حتى لا يهلك. وهذه العناية تجلب له إثارات شتى (القماط والحمام والغسيل، إلخ) ويدخل في اتصال مع موجود يظهر له الحب. ويستجيب الطفل لهذا الحب بأن يلصق جسده بأمه، وبالابتسام لها، إلخ. ويحقّق على هذا النحو تثبيتاً على الأم، ويقتضي حضورها. وإذا رفضت، فإنه يبكي، وإذا أتت، فإنه يبتهج.

وثمة على هذا النحو، منذ البداية، عنصران يوجّهان الليبيدو صوب الموضوعات: أولاً، الوظيفة المزدوجة لبعض الأعضاء، وظيفة قوامها إشباع متزامن لحاجة فيزيولوجية ولدافع جزئي يرتبط بالمنطقة المقابلة التي تثير

الغلمة؛ ثانياً، ضعف الطفل الذي يوقظ لديه الحاجة إلى التعلّق بالشخص الذي يُعنى به.

ومع أن الطفل لا يزال يدمج الموضوع في نفسه ويدمّره في المرحلة الفمية، فإن المرء يكتشف سلفاً، في الحالة الناشئة، تلك الشروط التي لا بدّ لها من أن تفضي، خلال التطور السوي، إلى اكتشاف الموضوع في العالم الخارجي.

المرحلة السادية الشرجية. ـ بعض عناصر المرحلة الفمية للتنظيم الليبيدي هي ضرب من العناصر الانتقالية صوب المرحلة التالية، المرحلة السادية الشرجية. فالرضيع يرضع الثدي بعضلات الجهاز الفمي، وهكذا يتمّ إشباع الحاجة الدافعية الأولى، في بداية الحياة خارج الرحم، بواسطة ارتكاسات عضلية موقعها منطقة الرأس. والواقع أن الغرائز تستخدم العضلات منذ البداية. فالرضيع يستخدم يديه، منذ المرحلة الفمية، عندما يرضع الثدي ويتمسّك به بواسطتهما. ومع النمو التدريجي للأطراف وللجهاز العضلي في الجذع ومع، بالإضافة إلى ذلك، واقع مفاده أن عمل الرضاع يكفّ عن أن يكون الوسيلة الوحيدة لامتصاص الغذاء، يأخذ الجهاز العضلي مكانه أيضاً في خدمة دوافع أخرى. والآن لايحاول الطفل فقط أن يمسّ جميع الأشياء الموجودة في متناول يديه، تلك الأشياء التي كان يضعها من قبلُ في فمه، ولكنه يحاول أيضاً أن يمسكها بيده ويحتفظ بها ويدمّرها. إنه ينمّي ميولاً لايكتنفها الشك إلى العدوان على العالم الخارجي. إنه «كان يدمّر» كل شيء مرغوب إذ يبتلعه؛ إنه الآن يمتلكه أو يدمره أيضاً بارتكاسات عضلية. ومع أن هذا العدوان لمّا يتصف بسمات السادية اللاحقة، فإنه سرعان ما يتحوّل إلى سادية مع ذلك، كما سنرى فيما بعد. وفي المرحلة نفسها، حيث تسود الميول العدوانية حياة الطفل النفسية، يطرأ على الوظيفة الشرجية تنامٍ حاد. فإثارة الغشاء المخاطي الشرجي والأجزاء المجاورة تؤمّن

اللذة للطفل. ووظيفة الجزء النهائي من الأمعاء ترافقها اللذة، كما كان الأمر بالنسبة لدخول المجرى الهضمي خلال المرحلة الفمية.

والغشاء المخاطي والمناطق الشرجية المحيطة يثيرها على السواء إمساك البراز والتغوّط المتكرّر ويُستخدمان على هذا النحو لتأمين اللذة. ونحن نسمّي مرحلة سادية شرجية تلك المرحلة من تطور الليبيدو التي تكون فيها وظائف التغوّط والميول العدوانية مختلطة بالميول الجنسية اختلاطاً قوياً. وتنتهي هذه المرحلة مع السنة الثانية أو الثالثة من عمر الطفل.

ولاتزال الأجزاء التناسلية لاتؤدي أي دور، من حيث هي عضو جنسي، في أثناء المرحلتين الفمية والسادية الشرجية من التطور الليبيدي. ولهذا السبب تُسمّى كل هذه الفترة من التطور المرحلة قبل التناسلية في التنظيم الليبيدي.

٢- التنظيم القضيبي

إنه لفي زمن مبكّر، عندما يكون الطفل لايزال على الثدي، تصبح الأعضاء التناسلية قابلة للإثارة من حيث هي مناطق تثير الغلمة. والطفل يؤمّن اللذة حين تُثار هذه الأعضاء. والمقصود استمناء الرضيع، الذي لاحظه من قبلُ العديد من أطباء الأطفال وبعض الممرضات ذوات البصيرة النافذة. ولكن الأعضاء التناسلية لاتكتسب دلالتها النوعية إلا خلال الفترة التي يتمّ فيها تجاوز الطورين الأولين على وجه التقريب وعندما تصبح هذه الأعضاء ذاتها هي المنطقة الجنسية السائدة. وتفقد المناطق الجزئية التي تثير الغلمة، كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدم أعلاه، قابليتها للإثارة الجنسية فقداناً تدريجياً وتتحوّل هذه القابلية إلى الأعضاء التناسلية في تطور سويّ. وفي هذه الأعضاء التناسلية إنما يتمّ امتصاص الدوافع الجزئية التي تذوب في وحدة عليا من الوظيفة التناسلية. وتعبّر رواسب الأطوار الأولى من النمو عن نفسها، بعد البلوغ، بأفعال تهيئة، كالنظر واللمس والعناق

والضمّ. وتُستعمل على سبيل الحصر لتحريض الميول التناسلية وتفلح في ضرب من الإشباع النهائي بتفريغ الشحنة التناسلية. فالأعضاء التناسلية هي، على هذا النحو، العضو التنفيذي الرئيس لكل الليبيدو. وليس بوسعنا الكلام على عضو لدى الطفل شبيه بعضو الراشد، ذلك أن إنتاج المنيّ والانتصاب، بالطبع أيضاً، لايزالان غير موجودين. وبالاستمناء إنما يتمّ إشباع الإثارة الجنسية التي تفضي إلى إفراز مخاطي في الغدد الإحليلية لدى الصبي وعند مدخل العضو التناسلي ولاريب لدى البنت.

ونحن نسمي مرحلة قضيبية تلك المرحلة من التنظيم الليبيدي الذي يجعل من الأجزاء التناسلية ذلك العضو الجنسي الرئيس، بامتصاص الدوافع الجزئية. وتبدأ هذه المرحلة نحو السنة الثالثة تقريباً وتدوم حتى الخامسة أو السادسة من العمر.

ونسمي هذه المرحلة قضيبية لأن عضو الذكر لدى الصبي هو الذي يصبح المنطقة الجنسية السائدة، والبظر لدى البنت الذي يشبه عضو الذكر من الناحية التكوينية. وخلال هذه المرحلة، لاوجود على هذا النحو إلا لعضو واحد، العضو المذكر، أي «عضو الذكر» بالنسبة للجنسين. ومن جهة أخرى، لايعرف الصبي للوهلة الأولى سوى عضو تناسلي واحد، عضوه التناسلي الذي يعتبره بفائق التقدير مصدر لذة سامية ويعزوه إلى الكائنات الحية الأخرى، وإلى النساء أيضاً، بل إلى الأشياء غير الحيّة كذلك. وفاعليته الجنسية تفرغ شحنتها خلال هذه المرحلة في الاستمناء الجنسي؛ ولميوله الجنسية الآن سمة فاعلية ذكرية بصورة بارزة. والعلاقات المقابلة لدى البنت أقل وضوحاً. فالبظر عضو مشابه لعضو الذكر من الناحية التكوينية. وبوسعنا التسليم إذن للوهلة الأولى أنه مركز إحساسات جنسية مماثلة. وتمارس البنت، خلال المرحلة التناسلية الطفلية، استمناء البظر بصورة فعلية وهي تتجاوز على هذا النحو مرحلة قضيبية لاتدوم إلا زمناً قصيراً.

وجنسيتها فاعلة في هذه الفترة كجنسية الصبي. ولكن الميول «المذكرة» لدى البنت لاتبلغ أبداً حدة الميول التي تبلغها لدى الصبي، بما أن عضوها «المذكر»، البظر، لايمثّل سوى عضو ذكر أولي. وثمة عامل آخر يتدخّل ليكفّ الميول «المذكرة». وهناك بنات صغيرات يستمنين عند مدخل العضو الأنثوي خلال مرحلة الطفولة الأولى، كما استطعت أن أعاين في أثناء التحليل؛ وكانت إحدى مريضاتي، وعمرها بين أربع وخمس سنوات، قد كوّنت استيهاماً مفاده أن ثمة من يدخل «زجاجة» في أعضائها التناسلية كما لو أنها مسمار لولبي، بالنظر إلى أن «الزجاجة» هنا هي رمز لعضو الذكر-ثدي(٢). ويبدو أن الإحساسات الجنسية المتموضعة في مدخل العضو الأنثوي تنافس الإحساسات البظرية وتكبح منذ البداية تلك الإحساسات المذكّرة (البظرية) لدى البنت. وعلينا مع ذلك أن نلحّ على واقع مفاده أن البنيّة لاتزال محرومة من امتثال واضح للفتحة التناسلية. وهي لاتميّزها من الفتحة الشرجية الفم. وكما أن اتجاه عضو ذكر في حال الانتصاب يكمن في أن يدخل فجوة من الفجوات-كالعضو الأنثوي والشرج والفم-كذلك فإن اتجاه الفجوة يكمن في أن تستقبل شيئاً من الأشياء فيها. فالهدف المذكر فاعل والهدف الأنثوي متلقّ. وهكذا تُناط الفاعلية والتلقّي أيضاً بالبنية التشريحية لأعضاء الجماع.

ولايعرف الصبي خلال فترة طويلة وجود فتحة تناسلية منفصلة عن الفتحة الشرجية لدى المرأة، وليس لدى كثير من الرجال الراشدين أيضاً امتثال واضح لذلك. ويبدو، فضلاً عن ذلك، أن الإحساسات التناسلية لدى الصبي تمتزج بإحساسات شرجية، أي إحساسات خاصة بفجوة. فحياته الجنسية هي، على هذا النحو، ممزوجة، خلال الطفولة، بانفعالات

---

(٢) من الممكن مع ذلك أن يكون هذا الاستيهام قد حدث بفعل تنبيه مصطنع. فالمريضة كانت قد أصيبت بالتهاب تناسلي وثمة طبيب كان قد عالجها بحقن في العضو الأنثوي خلال سنين.

دافعية ذات هدف متلقّ، شأنها شأن الحياة الجنسية لدى البنيّة، الممزوجة بالميول الفاعلة. والفارق الوحيد أن الانفعالات الأولى هي الغالبة لدى البنت، والميول الفاعلة هي الغالبة لدى الصبي. وبوسعنا أيضاً، على هذا النحو، أن نتعرّف تعرفاً واضحاً، خلال المرحلة القضيبية، على الاستعداد البيولوجي لدى الجنسين. ويبدو أن هذا التصور، الذي استنتجناه من السلوك النفسي، يتوافق مع البحوث الحديثة حول الإفرازات الداخلية التي أتاحت الكشف في مبيض المرأة عن هرمون مذكر، وعن هرمون مؤنث لدى الرجل.

وتستمرّ الثنائية الجنسية موجودة خلال الحياة كلها. إنها أكثر بروزاً في الطفولة والبلوغ؛ وغير مرئية في أثناء الفترات الأخرى من الحياة خلال تطور سوي. وهي تحتجب على الغالب خلف الصداقة، والعمل الاجتماعي، الخ. وعندما تكون فاعلية الجنسية المتجهة صوب الجنس الآخر معاقة لسبب من الأسباب، فإن ميول الجنسية المثلية تظهر بصورة آلية إذا جاز القول. ويقظة الجنسية المثلية في الثكنات العسكرية أو في السجون أمر معروف كلياً. ويجد المرء أيضاً عنصراً جنسياً مثلياً، دائماً على وجه التقريب، في الأعراض المرضية.

٣- عقدة أوديب

يختار الطفل للمرة الأولى، خلال الطور القضيبي، موضوعاً جنسياً محدّداً كل التحديد. وامتثال هذه الموضوع يرافق الآن إحساساته الجنسية، وثمة استيهامات ذات علاقة بهذا الموضوع ترتبط بالاستمناء. وبفعل ذلك، توجد النزاعات الأولى. ولاتندمج هذه النزاعات الأولى في النفس فجأة وليس في أثناء المرحلة القضيبية إنما تظهر للمرة الأولى. فالطفل يوضع منذ الآن أمام نزاع أول عندما يعيّن له الأشخاص الذين يعنون به حدوداً لـ «نهمه» حينما يربونه فيما بعد على النظافة ويعارضون ميوله العدوانية. وتكمن هذه

النزاعات في ضرب من معارضة العالم الخارجي، في حين أن النزاع «الجنسي» ينشأ خلال المرحلة القضيبية دون سبب خارجي كافٍ. إنه نزاع ينشأ من الداخل بصورة آلية إذا جاز القول، إنه وراثي. وهذا النزاع، الذي يكون في بداية الأمر خارجياً وواقعياً، تحوّل خلال أجيال لايُحصى عددها الى نزاع داخلي نفسي على مايبدو.

ويحدث هذا النزاع في مجال ما نسميه عقدة أوديب. وهذه التسمية مقتبسة من الأسطورة اليونانية المؤثّرة جداً التي قتل أوديب أباه حسب نصها وتزوج أمه وكان له أطفال منها. وعاقبته الآلهة على هذا العمل بقسوة. وكان موضوع هذه الأسطورة القديمة جداًواقعاً في يوم من الأيام؛ ولايزال الموضوع يتكرّر في أيامنا هذه بالخيال فقط، على صورة استعداد نفسي. وبين السنتين الثالثة والخامسة، يبلغ أوديب أوج تفتّحه. والشكل الأبسط والأكثر تبسيطاً لعقدة أوديب مفاده أن الصبي الصغير يحب أمه ويكره أباه. ولو أن الصبي كان يكره أباه فقط ولايحبه في الوقت نفسه، أي لو لم يكن الاستعداد الثنائي الجنسية موجوداً، لكان النزاع أقل تعقيداً، ذلك أن بإمكانه أن يتحوّل إلى عداوة مكشوفة للأب ويصبح على هذا النحو خارجياً بصورة خالصة. فليس الخوف أمام الأب هو الذي يفاقم النزاع على هذا النحو ويفاقم في الواقع أساس عقدة أوديب الأكثر أهمية فحسب، ولكن هذا الاستقرار الثنائي المشاعر إزاءه يفاقمه أيضاً.

وعقدة أوديب **تكوين نفسي** يظهر خلال مرحلة معيّنة من التطور ليتراجع فيما بعد. وستتحطّم على صخرة الوقائع كل المحاولات التي تنشد الإقلال من أهميتها أو إنكارها.

وهناك عدة أشكال من عقدة أوديب-ونحن نميّزبين **عقدة أوديبية كلية وعقدة أوديبية معكوسة**. وقد تكون العقدة الأولى إيجابية أو سلبية. فالصبي يحب أمه، في عقدة أوديب الكلية والإيجابية، ويتخلّص من أبيه

الذي يحتلّ مكانه في استيهاماته. والأم في عقدة أوديب المعكوسة، هي المكروهة والأب هو المحبوب. والشكل **البسيط الإيجابي** نادر. ونحن نجد التراكيب الأكثر تنوّعاً في الأعصبة[٣]. وتؤلف عقدة أوديب النواة اللاشعورية لكل الأعصبة؛ وتتجمّع حولها جميع العقد الأخرى والاستيهامات. وقد يكون مغرياً أن نضع ضرباً من الارتباط يربط كل شكل من أشكال العصاب بشكل مميّز من أشكال عقدة أوديب. ونحن لانزال بعيدين عن هذا الوضع، ذلك أن تطور العقدة في مختلف الحالات الخاصة، أولاً، لايزال غير واضح إلى حد كاف؛ ثم ليس بوسعنا دائماً أن نحدّد تحديداً دقيقاً شتى الأشكال بعضها بالنسبة لبعضها الآخر بسبب وجود الأشكال المزيج. ويبدو أن عقدة أوديب كانت، في بعض الحالات، سوية في بدايتها (شكل بسيط إيجابي)، ولكنها دلفت في درب آخر خلال زمن مبكّر جداً وأصبحت غير سوية، مع احتفاظها في الوقت نفسه ببعض الاستعدادات من مراحل التطور السابقة. وتمكّنتُ على النحو الأكثر وضوحاً أن أقوم بهذه الملاحظة في حالات تحوّل الحب للأم إلى كره عندما كان الصبي الصغير على سبيل المثال خائب الأمل من أمه. وحدث في هذه الحالة استعداد أوديبي معكوس ولّد، بالتالي، استعدادات سلبية إزاء المرأة، وإيجابية إزاء الرجل، أي أنه ولّد شكلاً من أشكال الجنسية المثلية. وبوسع الصبي أيضاً أن يتوحّد بالأم وأن يفلح على هذا النحو في حب أبيه. ولكن الصبيّ يتوحّد عادة بأبيه والبنت بأمها. ونتيجة ذلك تعزيز الرجولة لدى الصبي والأنوثة لدى البنت وغير واضح كل الوضوح لماذا يتّجه التوحّد إلى الجنس نفسه تارة، وإلى الجنس المقابل تارة أخرى. ويسلّم بعضهم بوجود عامل جبلّي يؤلف القاعدة البيولوجية للثنائية الجنسية ويدفع إلى التوحّد تارة في اتّجاه الميول المذكّرة وطوراً في اتجاه الميول الأنثوية. فشكل العقدة **الأوديبية يطبع بطابعه، في كل حالة، محتوى العصاب وشكله**. وبوسع

(٣) انظر، بالنسبة للعصاب، **الإنسان ونزاعاته**، في المجموعة نفسها.

بعض الأشخاص البدائل، كالممرضات والأخوات البكر، أن يحتلّوا مكان الأبوين في نسخة أخرى شائعة من هذه العقدة، وإلى هؤلاء الأشخاص تتوجّه عندئذ جميع ميول العقدة الأوديبية الأولية.

وبوسع المرء أن يبدي اعتراضاً مفاده أن عقدة أوديب ينبغي أن تكون غائبة لدى الأطفال الذين فقدوا أبويهم في زمن مبكّر جداً أو فقدوا أحدهما فقط. وفي ردّنا على هذا الاعتراض نقول إن التجربة تعلّمنا مع ذلك أن الطفل يخترع عندئذ أبوين له في استيهاماته، وبهذه الاستيهامات ينمّي استعداده لعقدة أوديب. ويخلق الطفل، عندما لايكون له أب على سبيل المثال، أباً في خياله ويعزو إليه سمات إلهية على وجه التقريب. وقد يحدث على الغالب، عندما يكون الأب حيّاً ولكنه موجود ضعيف، أن يبحث الطفل في الحياة عن رجل قاسٍ يحلّ بالنسبة له، في الخيال، محلّ أبيه الحقيقي الضعيف.

وتسكن عقدة أوديب على وجه التقريب، في المرحلة التالية من التطور الجنسي، أي مرحلة الكمون، لتستيقظ في البلوغ مع تعاظم الليبيدو. ويحدث عندئذ نزاع عنيف مع الميول الجنسية التي بلغت النضج. وتُناط الصحة أو المرض النفسي اللاحق بعاقبة هذا النزاع.

٤- عقدة الخصاء

يقدم عامل جديد أيضاً على تعقيد الحياة الدافعية خلال المرحلة القضيبية. فالخوف من فقدان عضو الذكر ينمو بوصفه ارتكاساً ضد الرغبات في غشيان المحارم، رغبات تنطوي عليها عقدة أوديب. ونسمي الامتثالات المتجّمعة حول هذه الخوف وكذلك الحالات الانفعالية المقابلة لها **عقدة الخصاء**. وبما أن بوسعنا أن نجد، إلى جانب هذه الخوف، رغبة في الحرمان من الأعضاء التناسلية، أو شعوراً بأن الطفل فقدها أيضاً، فإننا نميّز بين عقدة خصاء **إيجابية** وعقدة خصاء **سلبية**.

وبوسعنا اعتبار الفطام والتغوّط بشيري عقدة الخصاء. ويتذكر المرء أن ثدي الأم كان يبدو للرضيع، في المراحل الأولى من التطور، وكأنه جزء من جسمه الخاص. وسيكون يسيراً عندئذ أن نفهم أن الرضيع يحسّ بأن سحب الثدي خسارة جزء من أناه الخاصة. ويتأكّد هذا الافتراض عندما تُتاح لنا الفرصة لتحليل مرضى لم يكن فطامهم قد حدث إلا في زمن متأخر، أي بعد نحوٍ من سنتين من الولادة. فهؤلاء الأطفال يحّسون بسحب ثدي الأم وكأنه خسارة بالنسبة للأنا وتصغير دائم لها. والأمر نفسه ينطبق على التغوّط، فيما عدا أن محتوى الأمعاء لايشكّل جزءاً من الأنا على نحو نفسي كثدي الأم، بل على نحو واقعي. والتجربة المعيشة لهذه الخسارة والخسارات الأخرى جميعها تهيّء المجال لامتثال خسارة للأعضاء التناسلية، أي لعقدة الخصاء. وفي بعض الأحيان أيضاً يفسّر بعضهم الولادة والانفصال عن الأم تفسيراً استرجاعياً بأنهما «خصاء» في الاستيهامات.

ويجعل بعض المؤلفين جميع هذه الضروب من الخسارة الفعلية أو المتخيّلة مطابقة للخصاء بالمعنى الدقيق. وإذا كان المرء يرغب في أن يمدّ على هذا النحو مفهوم الخصاء، فإنه يفقد معناه المتواطىء فقداناً تاماً. والواقع أن تشابهاً واحداً يكفي، ولو كان صغيراً جداً، لتحلّ في اللاشعور مجموعة من الامتثالات محلّ مجموعة أخرى. وهكذا يمكن لفقدان شيء من الأشياء، لجرح بسيط، إلخ، أن يكون لهما في اللاشعور دلالة ضرب من الخصاء. ويستخدم اللاشعور جميع هذه التعدّيات التي تنصبّ على الأنا وحدها لـ تمثيل الخصاء. ولنتجنّب أن تصبح عقدة الخصاء مبهمة جداً، علينا أن نضفي عليها دلالة تناسلية، على الرغم من أن الخصاء يمكن التعبير عنه رمزياً بضروب عديدة من الخسارات والجروح، بقطع حبل السّرة على سبيل المثال.

ويفرّغ الطفل انفعالاته الجنسية المرافقة لعقدة أوديب في الاستمناء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتقود هذه الفاعلية على الغالب شخصاً من أشخاص بيئته إلى تهديده بفقدان أعضائه الجنسية. إن المرأة التي تهتمّ بالطفل هي التي، بصورة عامة، تهدّده بالخصاء، ومرجعها السلطان الأبوي. وربما لايُحدث هذا التهديد أو الأمر أي مفعول على الطفل. والتهديد القديم سيكون موضع التنشيط في زمن متأخر، أي بعد أن يلاحظ أن البنات لايملكن عضو ذكر بالفعل. بيد أنه يبدو أن هذه التجربة الفردية لن تكون ضرورية لتوليد عقدة الخصاء. ويبدو أن الخصاء يُمارس ممارسة رمزية، خلال مرحلة معيّنة من مراحل التطور الثقافي لدى بعض الشعوب في عصرنا أيضاً، بطقس ديني منذ الولادة أو في فترة البلوغ فيما بعد. فعقدة الخصاء هي إذن ظاهرة وراثية كعقدة أوديب.

واهتمام الطفل بالمسائل ذات العلاقة بالفارق بين الجنسين يفاقم عقدة الخصاء بصورة بارزة. فالطفل يعتقد أول الأمر أن كل موجود إنساني رجل، وكل موجود يملك عضو الذكر. وعلمه أن البنات ليس لديهن عضو الذكر خيبة كبيرة بالنسبة له. فهو يفرض عندئذ أنهن مخصيّات، وسيعتقد أن المصير نفسه ينتظره منذ أن تكون بعض الشروط المسبقة قد تحقّقت، كالتهديد الفعلي بالخصاء أو اليقظة العفوية لعقدة الخصاء. ولا يفلح في أن يألف الفكرة التي مفادها أن أمه لا تملك عضو الذكر أيضاً. فيتخيّل لهذا السبب، في استيهامه، أن النساء الراشدات أخفينه في داخل أجسامهن (استيهام «الأم القضيبية»). وإذا ظلّ متعلقاً بهذا التصور الخنثوي للمرأة، فإنه سيُصاب في زمن لاحق بخيبات أمل لدى النساء وسيرفضهن بوصفهن موضوعات جنسية. وتقود هذه المعاينة، معاينة النقص لعضو الذكر لدى المرأة، إلى نتيجة أخرى متواترة جداً هي احتقار المرأة. والصبي الصغير، الفخور بعضو الذكر لديه، يعتبر البنت الصغيرة مخلوقاً أدنى. ولكنه قد يحدث أن يقبل الصبي هذا الخصاء، من جرّاء الاستعداد الثنائي الجنسية، إذا كانت الميول الأنثوية السلبية هي السائدة. وينمّي في هذه الحال مشاعر الدونية التي تعوقه في رجولته إعاقة قوية. وقد يصبح أنثوياً، جنسياً مثلياً وسلبياً. (وليست

عقدة الخصاء بالتأكيد هي المصدر الوحيد لمشاعر الدونية). ولكن هذا الاستعداد الأساسي ذاته يمكنه أيضاً، من جهة أخرى، أن يولّد ضرباً من التعويض المغالي عن هذه الرجولة المضطربة. فيبسط الصبي ضرباً من سلوك الكبر والعناد المغاليين. وهو مع ذلك يحتجّ، غالباً، بجميع الوسائل التي يمكنه تخيّلها، على الخصاء الذي يهدّده.

وإذا قبل الصبي فكرة «الأم المخصيّة»، فإن بوسعه أن يظهر إزاءها الشفقة واللطف. وثمة مريضة روت لي حديثاً هذه الحكاية الرائعة: حاول ابنها، ذو السبع سنوات من العمر، أن يعزّيها عندما كانت، في أحد الأيام، مكتئبة بعض الاكتئاب، قائلاً: «لا تقلقي، سأمنحك عضو الذكر خاصتي».

وعقدة الخصاء لدى البنت تُسمّى **حسد عضو الذكر**. وهي تعزو إلى نفسها عضو ذكر متخيّلاً تعويضاً عن هذا النقص، أو تعتقد أن ثمة من قطع لها هذا العضو، ولكنها ستنبذ عضو الذكر هذا فيما بعد. وترى غالبية النساء في فقدان الدم أيام الحيض ضرباً من البرهان على الخصاء الماضي، وهذا الامتثال سبب لمعاناة كبيرة لديهن. وقبول الخصاء، لدى الصبي، هو المصدر الأكثر أهمية لمشاعر الدونية. وتشعر المرأة أيضاً بالدونية إذا لم تفلح في التخلّي عن حسد عضو الذكر. وإذا تمرّدت على هذا الخصاء المفترض، فإنها تنمّي ما نسمّيه عقدة الرجولة، أي أنها تتصرّف كما يتصرف الرجل في نواحٍ كثيرة. وكما أن الصبي يتخنّث بفعل قبول الخصاء، تسترجل البنت، هي ذاتها، بفعل التمرّد على الخصاء. وإذا تكيّفت مع هذا الغياب، غياب عضو الذكر، فإن الرغبة في أن يكون لها طفل يحلّ محل الرغبة في امتلاك عضو الذكر.

وسيمارس اضطراب من الاضطرابات خلال المرحلة القضيبية، على هذا النحو، تأثيراً حاسماً على موقف الطفل من أعضائه التناسلية. وإذا

كانت عقدة الخصاء لا تزال غير مستقرّة في هذه الفترة، فإنها ستكون عندئذ موضع تنشيط؛ وإذا كانت موجودة في هذه الفترة، فإن الطفل سيستجيب عندئذ بمواقف واستيهامات ناجمة عنها. وسيكون الأسلوب الذي ينجز به الطفل جنسيته خلال الطفولة، ويصفّي به عقدة الخصاء لديه، أسلوباً حاسماً لحالته الصحية وطبعه. وإذا لم تكن هذه العقدة متجاوزة، فإن بوسعها أن تفرض نفسها في العصاب. وعلى الرغم من أن هذه العقدة مختلفة حسب الأعصبة، فإن بإمكانها أن تكون موجودة في كل ضرب منها، ذلك أنها تساهم مساهمة كبيرة في تكوين الأعراض.

٥ ـ مرحلة الكمون

يطرأ على التطور الجنسي لدى الطفل انقطاع في بداية السنة الرابعة أو الخامسة. فيستقرّ طور من الراحة في الحياة الجنسية، نسميه **مرحلة الكمون**. والحقيقة أن لا وجود للكمون المطلق، ذلك أن «الطفولة الثانية» تشوّشها، حتى في تطورها السوي، انفعالات جنسية على نحو صرف. ولكنها بصورة عامة مرحلة من الخمود الجنسي، تُستخدم فيها الطاقات الدافعية لتكوين الأنا. وتتميّز هذه المرحلة بمقاومة الانفعالات الجنسية ومكافحة الاستمناء. ويقود في الوقت نفسه الحلّ الجزئي لعقدة أوديب إلى وظيفة المرجع النفسي الذي يُسمّى «الأنا العليا» وإلى إنشاء القواعد الجمالية والأخلاقية. يضاف إلى هذا أننا نجد في هذه المرحلة تلك المحاولات الأولى لا للخضوع إلى العالم الخارجي فحسب، ولكن للتكيّف معه أيضاً. وبعبارة أخرى نقول إن الطاقات الجنسية تنتقل في مرحلة الكمون إلى أهداف أخرى غير جنسية، إنها تتصعّد[٤].

وهكذا فإن مرحلة الكمون مرحلة «حيادية من الناحية الجنسية» من نواحٍ كثيرة. وليس لهذا الزمن من الخمود الجنسي سوى قيمة نسبية، كما

---

(٤) سنعالج التصعيد في كتاب دروب الإبداع (المجموعة نفسها).

أشرنا إلى ذلك فيما سبق، لدى بعض الأطفال. وتلك على وجه الخصوص حالة أطفال ذوي استعدادات عصابية مسبقة. ولهؤلاء الأطفال نضج جنسي مبكّر، إنهم «عصبيون» أو «خبثاء». فهم يحتفظون بجنسية الطفولة على شكل استمناء وأفعال مقابلة من التلصّص على المشاهد الغرامية، ومن نزعة الاستعراء، والبحث الجنسي المغالي. وتبدو هذه الاضطرابات أيضاً في التكوينات العكسية التي يعتبرها المربون بصورة عامة عادات سيئة، أو تبدو أخيراً في ظاهرات مرضية، كاضطرابات التغذية، وسلس البول، والحصر، والرعب الليلي، وفي الأعصبة الجليّة أيضاً. وبوسعنا أن نستخلص من كل ذلك أن **لكل عصاب لدى الراشد نمطاً طفلياً**. ويكوّن العصاب الطفلي، إذا جاز القول، رحم العصاب لدى الراشد.

فليست إذن ظاهرة سوية عندما يحدث الاضطراب لدى الطفل، على نحو مغالٍ، بفعل انفعالات جنسية خلال مرحلة الكمون. والواقع أن هذا الطفل خاضعٍ لإثارات مستمرّة خلال مرحلة يحتاج فيها إلى المراعاة، وهو عاجز عن تصفية هذه الإثارات بسبب حالة أناه، حالة غير مكتملة النمو. ونحن لا نقصد بذلك القول إن هؤلاء الأطفال سيصابون فيما بعد بالعصاب بصورة حتمية، ذلك أن بوسعهم على نحو يسير أن يصحّحوا هذا الانحراف في التطور الجنسي خلال البلوغ(٥).

٦ ـ البلوغ

تدوم مرحلة الكمون حتى السنة العاشرة أو الحادية عشرة على وجه

(٥) بوسع المرء أن يميّز بين مرحلتين على الأقل في فترة الكمون: ١) من ٥ ـ ٨ سنوات؛ ٢) من ٨ ـ ١٠ سنوات. وتتميّز المرحلة الأولى بمقاومة الدوافع التناسلية وقبل التناسلية ويضرب من ثنائية المشاعر المعزّزة، والتكوينات العكسية لمكافحة الدوافع قبل التناسلية تدخل بعض سمات الطبع. وتتعرّض الأنا، في المرحلة الثانية، إلى نزاعات أقل عدداً من نزاعات المرحلة الأولى. فهي تنذر نفسها إلى حدّ أكبر لمهمة مفادها مواجهة الواقع، وغواية الاستمناء أقل شدة.

التقريب. وتحلّ، في هذه الفترة، مرحلة ما قبل البلوغ. فالبلوغ لا يبدأ إلا حوالي الرابعة عشرة من العمر.

وفي بداية النضج الجنسي، أي خلال الفترة التي تبدأ فيها منتجات التكاثر بالتكوّن، يمرّ الطفل مروراً جديداً سريعاً في كل مراحل التطور الجنسي خلال الطفولة الأولى، وتنشط عقدة أوديب. ويتخلّى الطفل عن الأهداف الجنسية الطفلية ويتمايز الجنسان تمايزاً نهائياً إلى رجل وامرأة. وتتخلّى البنيّة عن الرجولة، ويفقد البظر قابليته للإثارة. ويصفّي الصبيّ تصفية نهائية حصر الخصاء لديه. ويبتعد الجنسان عن موضوعات العقدة الأوديبية ويجدان الدرب عندئذ سالكاً لاختيار موضوعات غير الموضوعات ذات العلاقة بغشيان المحارم. ولم تعد الدوافع الجزئية تسمح إلا ببلوغ اللذة التمهيدية التي تهيّئ الفعل الجنسي. ونقول بعبارة أخرى: **الأعضاء الجنسية تتّخذ الاتجاه الحصري (المرتبة الأولى) في الحياة الجنسية وتصبح في الوقت نفسه تلك الأعضاء التنفيذية لغرائز التكاثر**. وبما أن غريزة التكاثر تكوّن جزءاً لا يتجزأ من الغريزة الجنسية (الإيروس)، فإن المحافظة على النوع تبدو مضمونة. والحقيقة أن شروط التكاثر السيكولوجية موجودة لدى الجنسين قبل البلوغ بزمن طويل على شكل رغبة في أن يكون لهما طفل؛ وليس بوسعنا مع ذلك أن نتكلم على إنجاز لغرائز التكاثر قبل البلوغ، ذلك أن الشروط البيولوجية الأولية لا تزال معدومة. والدوافع الجنسية يمكنها مع ذلك أن تحقّق إشباعها على نحو مبكّر جداً (الاستمناء). ولا تبلغ هاتان الغريزتان نضجاً تاماً إلا في فترة البلوغ وهما تتّحدان عندئذ لتكوّنا ميلاً يتوجّه نحو هدف واحد.

وتختلف مدة البلوغ باختلاف العروق، والشروط الاجتماعية، والخصائص الفردية. ويمكنها أن تمتدّ على فسحة من الزمن إما قصيرة وإما طويلة. ونلاحظ بلوغاً مديداً جداً لدى أفراد يتكيّفون مع الواقع بصعوبة، ومثال ذلك لدى بعض الذين يعانون صعوبة في إقامة العلاقات الاجتماعية.

وإذا لم يفلح الفرد خلال البلوغ، لأسباب خارجية أو داخلية، في أن يخرج من استعداده الأوديبي، ويتخلّى عن دوافعه الجزئية، ويثق باتجاه «التناسلي» في حياته الجنسية، فإن الاضطرابات الأكثر تنوّعاً ستنشأ في حياته الغرامية. والانفعالات الدافعية الجنسية المثلية التي تبدو بصورة منتظمة على وجه التقريب خلال البلوغ يمكنها أن تثبت وتستمرّ خلال الحياة كلها. وإذا لم يطرأ على الدوافع الجزئية ضرب من التقليص، فإنها تستمرّ موجودة على شكل انحرافات. وتبدو جميع أشكال العجز بعد البلوغ مباشرة على الأغلب. وتبدأ الغالبية من ضروب العصاب والذهان خلال فترة البلوغ. وقد يحدث مع ذلك أيضاً أن يجد التطور في أثناء البلوغ مآلاً سعيداً على ما يبدو، ولكن المرض ينطلق في مرحلة لاحقة. وإذا فحصنا بانتباه سيرة المريض، فإننا نلاحظ عندئذ أن البلوغ لم ينقض، لأسباب داخلية، دون عثرات أو أن أسباباً خارجية كانت قد شوّشت التطور بقوة.

ومن الطبيعي أن يتجاوز الفتى مرحلة البلوغ على نحو أكثر سهولة بمقدار ما يكون التطور الجنسي السابق أكثر سواء. واستطاع بعضهم غالباً، مع ذلك، أن يلاحظ أن التطور المعيب خلال الطفولة يجد نفسه وقد عدّلته في مرحلة البلوغ دفعة قوية من الدوافع الجنسية.

ولا تمرّ يقظة الجنسية في مرحلتين إلا في مملكة الإنسان، ولهذا الحادث نتائج كبيرة لتطوره اللاحق. وقد رأينا أن الحياة الجنسية معلّقة على وجه التقريب في مرحلة الكمون. وتبدأ الأنا في أن تنتظم، وتبني حواجز لمقاومة الانفعالات الجنسية التي يمكنها أن تنبعث، وتعمل لحلّ عقدة أوديب. وتهدّد الدفعة القوية للجنسية خلال مرحلة البلوغ جميع هذه المكتسبات التي حقّقتها الأنا، تلك التي تصبح، هي ذاتها، غير متسامحة إزاء الانفعالات الجنسية الفظّة. وتقاوم الأنا هذه الهجمة، وتكافح

الاستمناء الذي يبدو الآن مجدّداً، وتكافح الاستيهامات ذات العلاقة به. ويخلق هذا كله نزاعاً عنيفاً إلى الحد الأقصى بين مقتضيات الأنا ومقتضيات الحياة الجنسية. وبنتيجة هذا النزاع إنما تُناط الصحة والمرض. يضاف إلى هذا أن صعوبات أخرى تنضاف، صعوبات يمكننا اعتبارها بقايا اضطرابات التطور، ومصدرها أطوار التنظيم الجنسي السابقة الثلاثة. وعندما تتجاوز الميول المتراكمة، الناجمة عن أطوار التنظيم الجنسي السابقة الثلاثة، شدّة معيّنة وتفلح في أن تتجلّى خلال البلوغ، فإنها تُطرد بعنف يماثل العنف الذي تُطرد به الدوافع التناسلية التي تبلغ النضج في هذه المرحلة.

هيــرمـان ننبرغ

* * *

الفصل السابع
من بداية الأوديب إلى انحساره

الحقيقة أن لأوديب جانبين. والجانب الأول معروف: رغبة في موت الأب ذي الجنس الذي يماثل جنس الطفل، ورغبة جنسية تتوجّه إلى الأب من الجنس المقابل. وهذا هو الشكل الإيجابي من العقدة الشهيرة، الشكل الذي نجده في مسرحية سوفوكلوس أوديب الملك. ولكن الرغبات تنعكس في ظلّ شكله السلبي. والشكلان موجودان لدى كل موجود إنساني.

فالأوديب الكامل إذن هو الذي سيصفه فرويد هنا. إنه يعزوه إلى الثنائية الجنسية الأصلية لدى الإنسان. وعلى هذا النحو تُفسَّر في رأيه ثنائية المشاعر التي تبدو في بعض الأحيان مفارقة جداً. وما كان يبدو في البداية بسيطاً جداً ـ حينما نقبلُ الأوديب ـ يتعقّد، من جراء ذلك، بآليات التوحّد بأب من الأبوين وبالآخر. ولكن هذا التعقّد يغني أيضاً حاتنا النفسية ويغني ديناميتها.

ولم يسبق لفرويد أن قدّم وصفاً لأوديب شاملاً بالفعل. فحركة الأفكار في شتى رابطات التحليل النفسي، وكثرة المرضى الذي يحملون المعلومات الجديدة، جعلتا من تاريخ أوديب تاريخ التحليل النفسي ذاته.

وسنجد مثالاً على ذلك فيما يلي. كان فرويد يؤكد من قبل أن النزاع الذي يتجاوزه المرء يستمرّ في لاشعوره على الأقل. وهو يتكلم حالياً على زوال حقيقي للعقدة، مضيفاً في الحقيقة أن المقصود بذلك زوال «مثالي». وهذا أمر يحدث لدى الصبي في الحالات الأكثر ملاءمة.

ومخاوف الخصاء ليست موجودة لدى البنيّة. وهذا النقص يفضي، بالإضافة إلى الشعور بالدونية، إلى انحسار لأوديب أكثر بطئاً بكثير - بل إلى استمرار غير محدّد لأوديب. وستكون «وريثة العقدة الأوديبية» لدى البنيّة، أي الأنا العليا، أقل قوة بكثير منها لدى الصبي وأقل استقلالاً.

وتعارض ميلاني كلاين، الوجه الأكثر بروزاً في التحليل النفسي بعد فرويد، هذه التصورات معارضة عنيفة جداً. وفي رأيها أن عقدة أوديب تظهر على نحو مبكّر أكثر بكثير، بين ستة أشهر وسنة من عمر الطفل. وتركّز، بصورة خاصة لدى البنت، على الأهمية التي تتّخذها مخاوف التدمير ذات العلاقة بداخل جسمها الخاص. وذلك أمر يقودها إلى أن تعزو إلى البنت، على خلاف فرويد، أنا عليا أكثر صرامة بصورة بارزة من الأنا العليا لدى الصبي.

النص الأول: فرويد

الحالة، فيما يخص الطفل من الجنس المذكّر، تبدو على النحو التالي إذا تقلّصت إلى أبسط تعبير لها: يركّز الطفل ليبيده على أمه مبكّراً، ومنطلق هذا التركيز ثدي الأم، ويمثّل هذا التركيز حاله نموذجية من حالات اختيار الموضوع بالاتصال الحميم؛ أما الأب، فإن الطفل يؤمّن لنفسه سيطرة عليه بالتوحّد[1]. وهذان الموقفان موجودان معاً خلال بعضٍ من الزمن إلى أن نرى، وقد طرأ تعزيز للرغبات الجنسية إزاء الأم وبان للطفل أن الأب يكوّن عائقاً يعوق تحقيق هذه الرغبات، ولادة عقدة أوديب. فيصبح التوحّد بالأب عندئذ سمة العداوة، ويولّد الرغبة بإقصاء الأب والحلول محلّه قرب الأم. ويصبح الموقف من الأب، منذ هذه اللحظة، موقفاً تسوده الازدواجية.

(١) فيما يتعلّق بالتوحّد وتكوين الطبع، انظر المجلد السابع من المجموعة نفسها.

ويُقال إن الازدواجية، التي كان التوحّد ينطوي عليها من الأصل، تصبح ظاهرة. وهذه الازدواجية إزاء الأب والميل الطافح بالمحبة الذي يكابده الصبي الصغير للموضوع الليبيدي الذي تمثّله الأم بالنسبة له يكوّنان لديه عناصر عقدة أوديب البسيطة والإيجابية.

والطفل الذكر مرغم على أن يتخلّى عن اتّخاذ الأم موضوعاً ليبيدياً حين تنحلّ عقدة أوديب. وثمة احتمالان يمكنهما عندئذ أن يحدثا: إما توحّد بالأم، وإما تعزيز التوحّد بالأب. وهذا الأخير هو الذي نعتبره على وجه العموم سوياً. ذلك أنه يتيح للطفل أن يحتفظ إلى درجة معيّنة بموقف المحبة من الأم. فالجزء الذكر من طبع الصبي الصغير يجد نفسه وقد توطّد على هذا النحو في أعقاب زوال القعدة الأوديبية. وكذلك قد تكون البنيّة مسوقة، في أعقاب زوال العقدة الأوديبية، إلى التوحّد بأمها (ويطرأ تعزيز على هذا التوحد إذا كان موجوداً من قبل)، وذلك أمر يترتّب عليه توطيد الجزء المؤنث من طبعها...

ونعلم على الغالب، خلال ضرب من التحليل، أن البنيّة ترفع ذكورتها إلى منزلة المثال، بعد أن تكون مرغمة على التخلّي عن الأب بوصفه موضوع ميل عاشق، وتتوحّد لا بالأم بل بالأب، أي بموضوع فقدته بالنسبة لحبها. وذلك أمر منوط على نحو مؤكد بدرجة النمو في استعداداتها الخاصة المذكرة، أياً كانت طبيعة هذه الاستعدادات مع ذلك.

هل تفسّر الثنائية الجنسية ثنائية المشاعر؟

يبدو إذن أن التوحّد بالأب أو بالأم، في أعقاب زوال العقدة الأوديبية، منوط لدى الجنسين بالقوة الخاصة للاستعدادات الجنسية عند هذا الجنس أو ذاك. وذلكم هو المظهر الأول الذي تتجلّى في ظلّه الثنائية الجنسية وتتدخّل في مصائر العقدة الأوديبية. ولكن الثنائية الجنسية تتجلّى في ظلّ مظهر آخر ذي دلالة أقوى بكثير. فلدى بعضهم على وجه الخصوص انطباع

مفاده أن العقدة الأوديبية البسيطة ليست العقدة التي تُلاحظ على الأغلب، بل هي تقابل ضرباً من التبسيط والتمثيل المبسّط المنشودين، الذي يجد مع ذلك، في كثير من الحالات، مسوّغه في أسباب من النسق العملي. ويتيح على الأغلب ضرب من البحث الأكثر تعمقاً أن نكتشف العقدة الأوديبية في ظلّ شكل أكثر كمالاً، في ظل شكل مضاعف، سلبي وإيجابي معاً، ذي علاقة بالجنسية الثنائية الأصلية لدى الطفل: ونقصد بذلك أن نقول إن الصبي الصغير لايمتثل فحسب لموقف ثنائي المشاعر من الأب وموقف المحبة الليبيدية من الأم، بل يسلك سلوك البنت الصغيرة في الوقت نفسه، إذ يمتثل لموقف من المحبة الأنثوية الكاملة إزاء الأب ولموقف مقابل من العدوانية الغيورة إزاء الأم. ومن شأن هذا التدخّل الذي تحققه الثنائية الجنسية أن تجعل المهمة، التي تكمن في أن نحدّد بوضوح تلك العلاقات الموجودة بين الاختيارات الأولى للموضوعات والتوحّدات الأولى، أمراً صعباً، وتجعل الوصف المشخّص الواضح لهذه العلاقات أمراً أكثر صعوبة أيضاً. وقد يكون ممكناً، على وجه العموم، أن تُشرح ثنائية المشاعر التي نلاحظها في العلاقات مع الأبوين بالثنائية الجنسية، بدلاً من أن تكون ناشئة، كما كنت قد فرضت مسبقاً، عن التوحّد في أعقاب موقف من مواقف المنافسة.

وأعتقد أن من الأفضل، على وجه العموم وبصورة خاصة فيما يتعلّق بالعصابيين، أن نسلّم بوجود العقدة الأوديبية الكاملة. وتبيّن التجربة التحليلية عندئذ أن هذا العنصر أو ذاك من العنصرين اللذين يكوّنان هذه العقدة يختفي في عدد كبير من الحالات، غير تارك إلا بعض الآثار التي لاتكاد تُدرك، بحيث أننا نحصل على سلسلة أحد طرفيها يمثّل العقدة الأوديبية السوية والإيجابية، والطرف الآخر يمثل العقدة العكسية، أي السلبية، في حين أن الحلقات الوسيطة في السلسلة تمثّل الشكل الكامل مع المشاركة غير المتساوية للعنصرين اللذين يكوّنان العقدة. وحين تزول عقدة أوديب، تتضامن الميول الأربعة التي تؤلّف محتواها لتولّد توحّداً بالأب

وتوحداً بالأم: ويقترن التوحّد الأول بدوره مع الميل الليبيدي للعقدة الإيجابية، أي مع الميل الذي موضوعه الأم؛ وهو صالح في الوقت نفسه ليحل محل الميل الليبيدي الى الأب الذي يشكّل جزءاً من العقدة العكسية. ويستقر وضع مماثل، إذا أجرينا التغييرات الضرورية، في أعقاب التوحّد بالأم. وتعكس الفوارق في الشدة، الفوارق التي يمثّلها هذان التوحدان، عدم المساواة بين ضربي الاستعدادت الجنسية.

وعلى هذا النحو فإن التغيّر الأكثر عمومية، الذي يرسّخه في الأنا ذلك الطور الجنسي الذي تسوده عقدة أوديب، يكمن بصورة أساسية في أنه يترك هذين التوحّدين موجودين فيها، إذ يرتبط الواحد منها بالآخر بعلاقات لانعرف شيئاً واضحاً عنها. ويتبوّأ هذا التغيّر، تغيّر الأنا، مكاناً منفصلاً ويضطلع بدور خاص ويتعارض مع المحتوى الآخر للأنا، بوصفه أنا مثالية أو أنا عليا.

سيغموند فرويد

النص الثاني: فرويد

١- زوال العقدة الأوديبية

رأينا عقدة أوديب تكشف عن أهميتها بوصفها ظاهرة رئيسة في المرحلة الجنسية من الطفولة الأولى. ثم تزول هذه العقدة. إنها تستسلم للكبت كما قلنا ويعقبها زمن الكمون. ولكننا لانعلم بعدُ بوضوح لأي سبب تتلاشى. ويبدو أن التحليل يعلّمنا أن ذلك يحدث بالمناسبة التي تطرأ خلالها خيبات أمل مؤلمة. فالبنت الصغيرة، التي تريد أن تعتبر نفسها أنها التي يحبها أبوها أكثر من أي موجود آخر، تعاني بصورة لامفرّ منها، أحد الأيام،

عقوبة قاسية من أبيها وترى نفسها مطرودة من جميع الجنّات. والصبي الذي يعتبر أمه ملكه يتحقّق من أنها تحوّل هذه الأيام حبها ورعايتها عنه لتوجّهها إلى قادم جديد. ويعمّق التفكير هذه التأثيرات من حيث أنه يؤكّد أن مثل هذه التجارب التي تعارض مضمون العقدة هي تجارب حتمية. وحتى لو أن أحداثاً كتلك التي ذكرناها على سبيل المثال لاتطرأ، فإن انعدام الإشباع المأمول والإحباط المستمر، لدى الطفل المحبوب، يقودان الصغير العاشق إلى أن ينصرف عن ميله الذي لاأمل يرجى منه. وهكذا تضمحل عقدة أوديب من جرّاء إخفاقها، وتلك حصيلة كونها متعذّرة من الناحية الداخلية.

وبوسع المرء أيضاً أن يتصوّر أن على عقدة أوديب أن تسقط لأن زمن انحلالها قد حان، شأنها في ذلك شأن الأسنان اللبنية التي تسقط عندما تنمو الأسنان النهائية. وحتى لو أن عقدة أوديب يعيشها أكبر عدد من الموجودات الإنسانية بصورة فردية، فالحقيقة مع ذلك أنها ظاهرة تحدّدها الوراثة وتوطّدها، وأن عليها أن تتلاشى طبقاً للبرنامج عندما يبدأ طور النمو ذو التحديد المسبق، الذي يليها. ويبدو عندئذ قليل الأهمية أن يحدث ذلك في هذه المناسبة أو تلك، أو ألا نفلح على الإطلاق في أن نكتشف أية مناسبة يحدث فيها.

وليس بوسع المرء أن يعارض مشروعية هذين التصورين. يضاف إلى ذلك أن الواحد منهما يغتني بالآخر. فالفرد بكليته صائر، هو أيضاً، إلى أن يموت منذ أن يولد، وجبلّته العضوية ربما تحتوي الآن على بيان السبب في موته. والحقيقة مع ذلك أن من المثير للاهتمام أن نفهم الأسلوب الذي يتحقّق به هذا البرنامج الفطري والنحو الذي تفيد عليه ضربات القدر من الاستعداد.

وقد أصبحنا حديثاً أفضل قدرة على إدراك مفاده أن النمو الجنسي

لدى الطفل يتـقـدّم نحو طور يتولّى فيه العضـو التناسلي الآن دور القيادة. ولكن هذا العضـو التناسـلي هو العضـو المذكر فقط، وعضو الذكر على وجه الدقـة، في حين أن العـضـو المؤنث لايزال غـيـر مكتشف. ولايستـمـرّ هذا الطور القضـيبي، وهو في الوقت نفسه طـور العقـدة الأوديبيـة، في النمو حتى التنظيم التناسلي النهـائي، بل يتـلعـه وينوب منـابه زمن الكمـون. واختـفـاؤه يحـدث مع ذلك على نحـو نموذجي ويسـتند إلى أحـداث تعـود بصورة منتظمة.

وعندما يوجّه الطفل (الذكر) اهتمامه إلى عضوه التناسلي، فإنه يشي عندئذ بهذا الاهتمام، إذ يعالج باليد هذا العضو معالجة كثيرة، وعليه بالتالي أن يتحقّق من أن الراشـدين لايوافقـون على هذه التصـرّفـات. ويطرأ تهـديد بوضوح على وجه التقريب وبقسوة شديدة أو ضعيفة، تهـديد مفاده أن ثمة من سيسرق منه هذا الجزء الذي يضفي عليه قيمة كبيرة. والنساء هن اللواتي يصدر منهن التهديد بالخصاء في غالبية الأوقات وهنّ يضفين في عدد معيّن من الحالات ضرباً من التلطيف الرمزي على التهديد، إذ يعلنّ قطع اليد التي تفرط في الإثم، لاقطع العضـو التناسلي المنفعل في حقيـقـة الأمر. وقـد يحدث على الأغلب أن التهديد بالخصاء لاينال الصبي الصغير لأنه يستخدم يده في اللعب بعضوه التناسلي، بل لأنه يبلّل سريره كل ليلة، ولأنه لايفلح في جـعله نظيـفـاً. ويسـلك الأشـخـاص الذيـن يعنون به كـمـا لو أن هذا السلس الليلي في البول حصيلة استعمال يده في اللعب بعضو الذكر لديه، لعب يدلّ على الرغبة الشديدة، وبرهان على هذا الاسـتعـمـال، وهم على حق كما يبدو.

وعلينا على أي حال أن نشبّه دوام هذه العـادة، عادة أن يبلّل الطفل سريره، بدنس الراشد، بوصفه تعبيراً عن الإثارة التناسلية نفسها، التي تدفع الطفل في هذه المرحلة الى الاستمناء.

٢- رؤية الأعضاء الأنثوية وحصر الخصاء لدى الصبي

نؤكد عندئذ أن التنظيم التناسلي القضيبي لدى الطفل يتدمّر حين يصدر هذا التهديد بالخصاء. ولا يضمحلّ هذا التنظيم مع ذلك مباشرة ودون أن تنضاف إلى التهديد مؤثرات أخرى. ذلك أن الطفل لايولي التهديد أول الأمر أي اقتناع ولا أية طاعة. فالتحليل النفسي أضفى قيمة كبيرة على ضربين من التجارب لايراعيان أي طفل ولابدّ لهما من تهيئته لفقدان بعض الأجزاء الجسمية الثمينة جداً: تهيئة لسحب ثدي الأم مؤقتاً في باديء الأمر ثم سحبه نهائياً في أحد الأيام، وللانفصال المقتضى يومياً عن محتوى الأمعاء. ولكن أي شيء لايتيح التأكيد أن هذه التجارب توضع موضع التنفيذ بمناسبة صدور التهديد بالخصاء. ولا يبدأ الطفل أن يحسب حساباً لإمكان ضرب من الخصاء إلا عندما يكون قد مارس تجربة جديدة، ولكنه يتردّد حتى في هذه الحال، ويحجم عن فعلته على الرغم منه إحجاماً يسبقه محاولة التقليل من أهمية ملاحظته الخاصة.

والملاحظة التي تنتهي إلى أن تحطّم عدم اقتناعه بالخصاء هي ملاحظة العضو التناسلي الأنثوي. ويقبل يوم من الأيام يكون فيه أمام ناظريّ الطفل، الفخور بملكيته عضو الذكر، تلك المنطقة التناسلية لبنت صغيرة، وهو مرغم على الاقتناع بنقص عضو الذكر لدى موجود شديد الشبه به. ويصبح فقدان عضو الذكر الخاص به من جرّاء ذلك، هو أيضاً، أمراً يمكنه تصوره، ويفلح التهديد بالخصاء في أن يحدث تأثيره بصورة بعدية.

وليس علينا أن نكون محدودين كالأشخاص الموكول إليهم أمر العناية بالطفل، الذين يهدّدونه بالخصاء، وعلينا أ لا يغيب عن بالنا أن حياة الطفل الجنسية، في هذه الفترة، لا يستنفدها الاستمناء على الإطلاق. ويمكن البرهان على أن هذه الحياة الجنسية تكمن في الموقف الأوديبي من الأبوين، وعلى أن الاستمناء ليس سوى تفريغ الشحنة التناسلية للإثارة الجنسية التي تنتمي إلى العقدة: إن الحياة الجنسية تدين لهذه العلاقة بالأهمية التي ستكون

لها خلال المراحل اللاحقة جميعها. وكانت عقدة أوديب تؤمّن للطفل ضربين من إمكان الإشباع، أحدهما إيجابي والآخر سلبي. فكان بوسعه، على النمط المذكّر، أن يضع نفسه مكان الأب وأن يعقد مثله صلات مع الأم، وهي حالة سرعان ما كان يستشعر فيها الأبَ مانعاً، أو أنه كان يريد أن يحلّ محل الأم ويجعل نفسه محبوباً من الأب، وهي حالة كانت الأم تصبح فيها غير ضرورية. وفيما يخصّ أن نعرف في أي شيء تكمن صلات الحب التي تؤدّي إلى الإشباع، فإنه لم يكن بوسع الطفل أن يكون لديه عنها سوى امتثالات غير واضحة جداً. ولكن ما كان مؤكداً هو أن عضو الذكر يؤدي دوراً في هذا الأمر كما كانت تشهد على ذلك إحساساته بالعضو. ولم تكن المناسبة قد أُتيحت له ليشكّ بوجود عضو الذكر لدى المرأة. فقبول إمكان الخصاء وفكرة أن المرأة مخصيّة كانا قد وضعا عندئذٍ حداً للضربين من إمكان الإشباع في إطار العقدة الأوديبية. ذلك أن كلا الضربين ينطويان بالفعل على فقدان عضو الذكر. فالضرب الأول، الضرب المذكر، ينطوي عليه بوصفه نتيجة من نتائج العقاب؛ والخصاء في الضرب الثاني، المؤنث، افتراض مسبق. وإذا كان الإشباع الغرامي، على تربة العقدة الأوديبية، ينبغي أن يكون ثمنه عضو الذكر، فلا بدّ عندئذ من أن يفضي ذلك إلى نزاع بين الأهمية النرجسية لهذا الجزء من الجسم والتوظيف الليبيدي للموضوعات الأبوية. والقوة الأولى من هاتين القوتين هي التي تتغلّب في هذا النزاع عادةً. فتنصرف أنا الطفل عن عقدة أوديب.

رأينا سابقاً أن توظيفات الموضوعات تُهمل ويحلّ محلها ضرب من التوحّد. فسلطة الأب أو الأبوين، التي تجتافها الأنا، تشكّل فيه نواة الأنا العليا[٢] التي تقتبس الصرامة من الأب، وترعى تحريمه غشيان المحارم، وتؤمّن الأنا على هذا النحو ضد عودة التوظيف الليبيدي للموضوع. وتتجرّد الميول الليبيدية ذات الصلة بعقدة أوديب، في جزء منها، من صفتها الجنسية

(٢) الشخصية ومراجعها، في المجموعة ذاتها.

وينالها التصعيد، وذلك ما يحدث على ما يبدو حينما يطرأ أي تحوّل إلى توحّد، وتكون في جزء منها مكفوفة الهدف ومتبدّلة إلى حوافز الحنان. فالسيرورة في مجموعها أنقذت عضو التناسل من جهة، إذ حوّلت عنه خطر الفقدان، وشلّته من جهة أخرى، إذ ألغت عمله الوظائفي. ويبدأ مع هذه السيرورة زمن الكمون الذي يقدم على قطع النمو الجنسي للطفل.

٣ ـ من المفترض عادة أن تزول عقدة أوديب

لا أرى أي سبب يدعو إلى أن نرفض اسم «الكبت» من جرّاء أن الأنا تنصرف عن عقدة أوديب، على الرغم من أن ضروباً من الكبت تحدث في غالبية الأوقات بمساعدة الأنا العليا التي ليست هنا إلا في طور التكوّن. ولكن السيرورة التي وصفناها هي أكثر من كبت، فهي تكافىء ضرباً من تدمير العقدة وإلغائها إذا سارت الأمور على نحو مثالي. ونحن ميّالون إلى التسليم بأننا نقع هنا على الخط الحدودي، الذي لم يسبق له أن كان حاسماً بصورة تامة، بين السويّ والمرضي. وإذا كانت الأنا حقاً لا تبلغ أكثر من كبت العقدة الأوديبية بكثير، فإن هذه العقدة ستستمرّ عندئذ لا شعورية في الهو وستُظهر فيما بعد مفعولها الذي يسبّب الأمراض.

وتتيح الملاحظة التحليلية أن نعرف أو نتنبّأ بمثل هذه الارتباطات بين التنظيم القضيبي، وعقدة أوديب، والتهديد بالخصاء، وتكوّن الأنا العليا، ومرحلة الكمون. وهذه الارتباطات تسوّغ القضية التي مفادها أن عقدة أوديب تضمحلّ من جرّاء التهديد بالخصاء. ولكن المشكل لم يُسوَّ مع ذلك؛ ولا يزال ثمة مكان لبحث نظري يقلب النتيجة أو يضعها تحت إضاءة جديدة. وعلينا مع ذلك، قبل أن ندلف في هذا الدرب، أن نتوجّه صوب مسألة كانت قد أُثيرت خلال مناقشاتنا السابقة وكانت قد ظلّت مهملة منذ الحين. والسيرورة التي وصفناها ذات علاقة على وجه الحصر بالطفل الذكر كما قلنا بصورة صريحة. فكيف يتمّ النمو المقابل لدى البنت الصغيرة؟

٤ ـ البنيّة لا تخرج في الحقيقة أبداً من عقدة أوديب

تصبح المادة التي نعتمد عليها في بحث هذا الموضوع ـ على نحو غير معقول ـ أكثر غموضاً واتّصافاً بالثغرات. والجنس المؤنث يعرف عقدة أوديب هو أيضاً، ويعرف الأنا العليا وزمن كمون. فهل بوسعنا أن نعزو إليه أيضاً تنظيماً قضيبياً وعقدة خصاء؟ والجواب إيجابي، ولكن ربما لا على النحو الذي يكون فيه الأمر لدى الصبي. وليس للمطالبة النسائية بالمساواة في الحقوق بين الجنسين أية أهمية هنا، إذ لا بدّ للفارق المورفولوجي من أن يتجلّى في فوارق في النمو النفسي. ونحن ننقل عبارة لنابليون تقول: التشريح، إنه القدر. فالبظر لدى البنت يسلك في بادى الأمر سلوك عضو الذكر تماماً، ولكن الطفل المؤنث يدرك، وهو يقارنه بعضو الذكر لدى رفيق في اللعب، كما لو أنه «قصير بعض الشيء» ويستشعر هذا الواقع وكأنه أذيّة وسبب الدونية. وتتعزّى البنيّة بعض الزمن أيضاً بأملها في الحصول فيما بعد، وهي تترعرع، على زائدة كبيرة، بحجم زائدة الصبي. ومن هنا تتفرّع عقدة الذكورة لدى المرأة. ولا تفهم البنيّة أن الغياب الحالي لعضو الذكر خاصة جنسية، ولكنها تفسّره بفرضية مفادها أنها امتلكت فيما مضى عضواً كبيراً بالقدر نفسه، وأنها فقدته بالخصاء. ولا يبدو أنها تمدّ هذه النتيجة على بنيّات أخريات، ولا على نساء راشدات، ولكنها تفرض بالحري أن هؤلاء يملكن عضواً تناسلياً كبيراً كاملاً، في اتجاه الطور القضيبي تماماً، ويملكن، خلاصة القول، عضواً ذكراً. وينجم عن ذلك إذن هذا الفارق الأساسي: البنت تقبل الخصاء بوصفه واقعاً إنجازه تمّ من قبل، في حين أن ما يسبّب خشية الصبي هو إمكان إنجازه.

ويتوقّف أيضاً، مع استئصال حصر الخصاء، حافز قوي لبناء الأنا العليا ولتدمير التنظيم التناسلي الطفلي. وتبدو هذه التغيّرات لدى البنت، أكثر مما تبدو لدى الصبي، بأنها حصيلة التربية، والتخويف الخارجي الذي يهدّد بفقدان واقعٍ مفاده أن تكون محبوبة. والعقدة الأوديبية لدى البنت

وحيدة الاتجاه أكثر بكثير مما هي لدى الصبي، حامل عضو الذكر. والعقدة لدى البنت لا تمضي إلا نادراً، حسب تجربتي، أبعد من الإنابة مناب الأم ومن الموقع الأنثوي إزاء الأب. وليس التخلّي عن عضو الذكر محتملاً دون محاولة التعويض. فالبنت تنزلق ـ وعلينا أن نقول: طوال معادلة رمزية ـ من عضو الذكر إلى الطفل، وتبلغ عقدتها الأوديبية ذروتها في الرغبة المكظومة منذ زمن طويل في أن تتلقّى هدية من الأب، طفلاً، وأن تلد طفلاً من أجله. ولدى المرء انطباع بأن العقدة الأوديبية تُهمل عندئذ ببطء لأن هذه الرغبة لن تكون أبداً موضع إنجاز. وتظلّ الرغبتان، اللتان تنشدان عضو الذكر وطفلاً في وقت واحد، موضع توظيف شديد في اللاشعور وتساعدان على تهيئة الموجود الأنثوي لدوره الجنسي المستقبلي. وتيسّر القوة المصغّرة للمساهمة السادية في الدافع الجنسي، التي يمكننا تماماً أن نوازنها بدسو(*) عضو الذكر، تحوّل الميول الجنسية بصورة مباشرة إلى ميول حنان مكفوفة من حيث هدفها. ولكن علينا على وجه العموم أن نعترف بأن فهمنا سيرورات النمو لدى البنت غير مرضٍ، ومفعم بالثغرات والظلال.

ولا أشك في أن العلاقات الزمنية والسببية التي نصفها هنا بين عقدة أوديب، والتخويف الجنسي (التهديد بالخصاء)، وتكوّن الأنا العليا، وظهور زمن الكمون، تكون من نوع نموذجي. ولكنني لا أريد التأكيد أن هذا النموذج هو الوحيد الممكن. فثمة تغيّرات في المآل الزمني وفي تسلسل هذه السيرورات ينبغي أن تكون مثقلة جداً بالدلالة فيما يتعلّق بنمو الفرد.

وليس بوسعنا، منذ أن نُشرت دراسة أوتو رانك المثيرة حول صدمة الولادة، حتى أن نقبل دون مناقشة أخرى نتيجة هذا البحث الصغير، أي أن عقدة أوديب لدى الصبي تزول من جرّاء حصر الخصاء. ولكنه يبدو لي أنه

(*) دَسْوٌ أو دَسْيٌ: تخلف في النمو «م».

أمر مبتسر أن ندخل الآن في هذه المناقشة، وربما كان الشروع هنا في نقد لتصوّر رانك أو في مدحه أمراً في غير أوانه.

سيغموند فرويد

النص الثالث: ميلاني كلاين

١ ـ المراحل المبكّرة للنزاع الأوديبي

تحليل الأطفال، والأطفال بين الثالثة والسادسة من العمر على وجه الخصوص، أتاح لي أن أصوغ عدداً معيّناً من النتائج التي سأعرض ملخصاً عنها هنا.

وبحسب ما استطعت أن ألاحظ، تدخل عقدة أوديب مجال التأثير أبكر مما يفترضه بعضهم عادة. والنتيجة التي أعرضها هي التالية: الميول الأوديبية تتحرّر في أعقاب الإحباط الذي يعانيه الطفل في مرحلة الفطام. إنها تظهر في نهاية السنة الأولى من العمر وبداية السنة الثانية، وتعزّزها الإحباطات الشرجية التي يعانيها الطفل في أثناء تعلّم النظافة. ويمارس الفارق التشريحي بين الجنسين، هو أيضاً، تأثيراً حاسماً في هذه السيرورات النفسية.

وعندما يجد الصبيّ نفسه مرغماً على التخلّي عن الوضعين الفمي والشرجي لمصلحة الوضع التناسلي، فإن الهدف الذي يحدّده لنفسه هو **الولوج** المرتبط بملكية عضو الذكر. فيغيّر على هذا النحو لا وضعه الليبيدي فحسب، ولكنه يغيّر أيضاً هدف هذا الوضع، وذلك أمر يتيح له أن يحتفظ بالموضوع الأول لحبه. أما لدى البنت، فالهدف المتلقّي يُنقل، على العكس، من الوضع الفمي إلى الوضع التناسلي: تغيّر البنت وضعها الليبيدي، ولكنها تحتفظ بهدفه الذي قادها من قبلُ، في العلاقة بالأم، إلى خيبة الأمل.

وهكذا يحدث ضرب من قابلية التلقّي إزاء عضو الذكر لدى البنت التي تتوجّه عندئذ صوب الأب بوصفه موضوع الحب.

وترتبط الرغبات الأوديبية مع ذلك، منذ ظهورها، ارتباطاً إلى درجة محسوسة، بالخوف من الخصاء، الخوف الناشىء، وبمشاعر الإثمية.

وتحليل الراشدين، ومثله تحليل الأطفال، جعلنا نألف واقعاً مفاده أن الميول الدافعية قبل التناسلية تسبّب مشاعر الإثمية. وقد ظنّ بعضهم في بادىء الأمر أن هذه المشاعر، مشاعر الإثمية، ذات تكوّن لاحق، وأنها انزاحت صوب هذه الميول إذ عادت إليها، على الرغم من أنها لم تكن مقترنه بها في الأصل. ويقبل فورنزي بـ «ضرب من البشير الفيزيولوجي بالأنا العليا» يرتبط بميول شرجية وإحليلية يسميها «أخلاق المصرة(*)». ويظهر الحصر، في رأي أبراهام خلال المرحلة الفمية الافتراسية، في حين أن مشاعر الإثمية تنبعث خلال الطور التالي، في المرحلة الأولى السادية الشرجية.

وتدفعني مشاهداتي إلى المضيّ إلى مدى أبعد. وتبيّن هذه المشاهدات أن مشاعر الإثمية المرتبطة بتثبيت قبل تناسلي تنجم مباشرة عن النزاع الأدويبي إلى درجة محسوسة. ويبدو ذلك أنه يشرح نشوء هذه المشاعر شرحاً على نحو مرضٍ. ونحن نعلم بالفعل أن مشاعر الإثمية محصلّة ضرب من الاجتياف (منجز من قبلُ، أو، سأضيف، في حالة الإنجاز) لموضوعات الحب الأوديبية؛ فمشاعر الإثمية هي، بعبارة أخرى، نتاج تكوّن الأنا العليا.

ويكشف تحليل الأطفال الصغار أن بنية الأنا العليا تتكوّن من توحّد يعود تأريخه إلى مراحل وراقات شديدة التباين من الحياة النفسية. وهذه التوحّدات متناقضة في طبيعتها بصورة مذهلة، إذ الطيبة المفرطة تجاور

(*) مصرة (Sphincter): اسم يطلق على العضلات الدائرية التي تستخدم لتراقب فتحة بعض الفوهات «م».

القسوة المفرطة جنباً إلى جنب. وتقدّم لنا هذه التوحّدات أيضاً شرحاً لقسوة الأنا اعليا، قسوة تتجلّى بوضوح خاص في تحليلات الأطفال هذه. ولا يفهم المرء لماذا يصنع لنفسه طفل في الرابعة من العمر، على سبيل المثال، صورة غير واقعية وخيالية عن الآباء الذين يفترسون ويقطعون ويعضّون. ولكنه يفهم لماذا يتّخذ الحصر الناشىء من النزاع الأوديبي، لدى طفل عمره نحو عام واحد، شكل خوف من الافتراس والتدمير. ويرغب الطفل نفسه في تدمير الموضوع الليبيدي، إذ يعضّه ويفترسه ويقطّعه، ومن هنا ينشأ الحصر. والواقع أن يقظة الميول الأوديبية يليها اجتياف الموضوع الذي يصبح عندئذ مرجعاً يعاقب. ويخشى الطفل عقوبة تقابل الأذية: فتصبح الأنا العليا شيئاً يعضّ ويفترس ويقطع.

٢ ـ النتائج العملية للمرحلة الأوديبية المبكّرة

للصلة بين تكوّن الأنا العليا والأطوار قبل التناسلية للنمو أهمية مضاعفة: فمن جهة، تجد مشاعر الإثمية نفسها مرتبطة بالطورين السادي الفمي والسادي الشرجي اللذين لا يزالان يسودان في هذه المرحلة؛ ومن جهة ثانية، تقع ولادة الأنا العليا في فترة زمنية يمضي هذان الطوران خلالها نحو تعاظم النفوذ وذلك أمر يشرح ساديتها وقسوتها.

وتفتح هذه المشاهدات منظورات جديدة. وليس بوسع الأنا، التي لا تزال ضعيفة، أن تقاوم الأنا العليا التي تهدّد بهذا القدر إلا بكبت قوي. وبالنظر إلى أن الميول الأوديبية تعبّر عن نفسها أول الأمر على نمط فمي وشرجي بصورة خاصة، فإن طبيعة التثبيتات السائدة في النمو الأوديبي ستكون منوطة على وجه الخصوص بقوة الكبت الذي يحدث خلال هذه المرحلة من الطفولة الأولى.

والصلة المباشرة بين الطور قبل التناسلي والإثمية ذات أهمية لسبب آخر أيضاً: فالإحباطات الفمية والشرجية، النموذج الأول لكل الإحباطات

اللاحقة، لها أيضاً دلالة العقاب وتولّد الحصر. وينجم عن ذلك أن الإحباط يستشعره الطفل بحدّة أكبر، وللمرارة التي يثيرها على هذا النحو نصيب كبير في الألم الذي تولّده جميع الإحباطات اللاحقة.

ونلاحظ أن نتائج ذات أهمية كبيرة تنجم عن واقع مفاده أن الأنا لا تزال ضعيفة النمو عندما يرهقها ظهور ميول أوديبية ويرهقها الفضول الجنسي الناشىء الذي يرافق هذه الميول. والطفل الصغير، الذي لم ينم نمواً كافياً من الناحية الفكرية، معرّض لهجوم عدد كبير من الأسئلة والمشكلات. وإحدى الشكاوى الأكثر مرارة، الشكاوى التي نكتشفها في اللاشعور، هي الشكوى التالية: هذه الأسئلة، العديدة والمرهقة، ظلّت دون إجابات لأنها، على ما يبدو، لم تكن شعورية إلا بصورة جزئية، ولأن الطفل، حتى ولو كانت شعورية، كان لا يزال عاجزاً عن أن يعبّر عنها باللغة. والشكوى الأخرى التي تلي الشكوى الأولى عن كثب تكمن في أن الطفل لم يكن يفهم الكلمات والكلام. فأسئلته الأولى سابقة إذن على بدايات فهمه اللغة.

وهاتان الشكويان تبدوان في التحليل بأنهما سبب مقدار كبير جداً من الحقد. وهما، منفصلين أو مجتمعين، سبب عدد من ضروب الكفّ، كالعجز عن تعلّم اللغات الأجنبية أو كالحقد الموجّه إلى أولئك الذين يتكلمون لغة أخرى. وهما مسؤولان أيضاً عن اضطرابات مباشرة في الكلام، إلخ. ولايدلّ الفضول الذي يتجلى فيما بعد بصورة جليّة، خلال السنة الرابعة والخامسة من العمر، على بداية هذه المرحلة، بل هو ذروتها ونهايتها، وهو أمر صحيح أيضاً بالنسبة للنزاع الأوديبي بصورة عامة كما استطعت أن ألاحظ ذلك.

وللشعور المبكّر بـ**الجهل** تشعّبات عديدة. إنه يشكلّ وحدة مع الشعور بالعجز، بالضعف، الذي سرعان ما ينجم عن الوضع الأوديبي. ويعاني الطفل هذا الإحباط بحدّة أقوى بمقدار مالا يعلم شيئاً محدّداً عن السيرورات الجنسية. وهذا الشعور بالجهل يفاقم عقدة الخصاء لدى الجنسين.

والصلة المبكّرة بين الرغبة في المعرفة والسادية ذات أهمية كبيرة في النمو النفسي بمجموعه. وهذا الدافع، الذي يحرّضه ظهور الميول الأوديبية، ذو علاقة أول الأمر، على وجه رئيس، بجسم الأم، الذي يتصوّره الطفل أنه مسرح السيرورات جميعها والأحداث الجنسية كلها. ولايزال الطفل تحت تأثير الوضع الليبيدي السادي الشرجي الذي يدفعه إلى إرادة مفادها أن يمتلك محتويات الجسم. ويستيقظ فضوله عندئذ. إنه فضول يُعنى بما يحتويه الجسم وبكفية صنعه، إلخ. وتصبح الرغبة في المعرفة والرغبة في الاكتساب على هذا النحو مرتبطتين الواحدة بالأخرى ارتباطاً وثيقاً بصورة مبكّرة، ومرتبطين أيضاً بالإثمية التي يوقظها ظهور النزاع الأوديبي. وتُدخل هذه الصلة ذات الدلالة الكبيرة، لدى الجنسين، طوراً من النمو ذا أهمية حيوية وغير معترف به حتى الآن اعترافاً كافياً. ويكمن هذا الطور في توحّد بالأم مبكّر جداً.

٣- ظهور الطور الأنثوي لدى الأطفال من الجنسين

ينبغي أن نفحص مسيرة هذا الطور من الأنوثة لدى الصبيان والبنات، كل على حدة، ولكنني سأبيّن، قبل أن أنكبّ على دراسة هذا الموضوع، تلك الصلات القائمة بين هذا الطور والطور السابق المشترك بين الجنسين.

ويعاني الطفل، خلال المرحلة السادية الشرجية الأولى، صدمته الثانية الخطيرة التي تعزّز ميله إلى أن ينصرف عن الأم. إنه ميل أحبط رغباته الفمية وهو يعارض في الوقت الراهن أيضاً لذائذه الشرجية. فكل شيء يحدث كما لو أن إحباطاته الشرجية كانت تدفع في هذه الفترة ميوله الشرجية إلى أن تندمج بميوله السادية. ويرغب الطفل في أن يمتلك غائط الأم، وهو ينفذ إلى جسمها، إذ يقطّع هذا الجسم إلى أجزاء ويفترسه ويدمّره. وتحت تأثير ميوله التناسلية، يبدأ الصبي في أن يتوجّه صوب الأم بوصفها موضوع الحب.

ولكن ميوله السادية في ذروة عملها وكرهه الناشىء من إحباطاته السابقة يعارض حبه على المستوى التناسلي معارضة قوية. وخوفه من أن يخصيه الأب، خوف يظهر مع الميول الأوديبية، يكوّن مانعاً لحبه، مانعاً يتّصف بأنه أكبر أيضاً. والمستوى الذي سيتوصّل في نطاقه إلى الوضع التناسلي سيكون منوطاً، على نحو جزئي، باستعداده لأن يتحمل هذا الحصر. وشدّة التثبيتات السادية الفمية والسادية الشرجية عامل ذو أهمية هنا. إنها تؤثّر على قوة الكره الذي يشعر به الصبي تجاه أمه. ويمنعه هذا الكره، بدوره، من أن يفلح في علاقة إيجابية بها، منعاً واسعاً على وجه التقريب. وتمارس التثبيتات السادية أيضاً تأثيراً حاسماً على تكوّن الأنا العليا التي تظهر خلال الفترة التي تكون فيها هذه الأطوار متعاظمة النفوذ. وكلما كانت الأنا العليا قاسية، كان الأب مرعباً بوصفه خصّاء، وكان الطفل يرتبط بعناد، في هروبه أمام ميوله التناسلية، بالمستويات السادية التي تلّون أيضاً، وفي المقام الأول، ميوله الأوديبية.

وكل أوضاع النمو الأوديبي موظّفة بعضها بعد بعضها الآخر، خلال هذه المراحل من الطفولة الأولى، في تعاقب سريع. وإذا كنا لانلاحظ ذلك، فالسبب أن الميول قبل التناسلية هي السائدة. يضاف إلى ذلك أنه ليس بوسعنا أن نرسم حداً واضحاً كل الوضوح بين الاتجاه الإيجابي الفاعل نحو الجنس الآخر، الذي يجد تعبيره على المستوى الشرجي، والمرحلة التالية، مرحلة التوحّد بالأم.

نحن قد بلغنا الآن هذا الطور من النمو الذي تكلمت عليه فيما تقدّم إذ أطلقت عليه عنوان «طور الأنوثة». ولهذا الطور أساس في المستوى السادي الشرجي الذي يمنحه محتوى جيداً: يمثّل البراز الآن مكافئاً للطفل المشتهى والرغبة في سلب الأم تبتغي الطفل بقدر ما تبتغي البراز. وبوسعنا

أن نميّز هنا بين هدفين يمتزج الواحد منهما بالآخر. فالأول، وهو هدف امتلاك الأطفال، مصدره الرغبة في الحصول عليهم، في حين أن الهدف الثاني، الذي يكمن في تدميرهم، مصدره الغيرة من الأخوة والأخوات المقبلين الذين يتوقّع الطفل قدومهم. (وثمة موضوع ثالث يمكن لميول الصبي السادية الشرجية أن تنشده داخل الأم: عضو الذكر الأبوي).

وفي عقدة الخصاء لدى البنات كما في عقدة الأنوثة لدى الصبيان، نجد في الأعماق تلك الرغبة المصابة بالإحباط في امتلاك عضو خاص. فالميول إلى السرقة والتدمير ذات صلة بأعضاء الإخصاب والحمل والمخاض التي يظنّ الصبيّ أنها موجودة لدى الأم، وكذلك بالعضو الأنثوي والثديين، نبعي الحليب، وهي أعضاء مشتهاة بوصفها أعضاء الاستقبال والكرم.

٤- الخوف من الوالدين وحصر الخصاء

يخشى الصبي عقاباً على تدمير جسم الأم، ولكن خوفه ذو طبيعة أكثر عمومية. ونحن نجد أنفسنا هنا أمام تماثل مع الحصر الذي يقترن، لدى البنت، بمخاوفها من الخصاء. ويخشى أن يُشوَّه جسمه ويُقطّع، ويعني هذا الخوف أيضاً خوفاً من الخصاء. وفي ذلك تكمن مصادر مباشرة لحصر الخصاء. والأم التي ترفع براز الطفل، في هذه المرحلة المبكّرة من النمو، هي أيضاً أم تقطّع جسمه وتخصيه. ولاتفتح الأم درب عقدة الخصاء بالإحباطات الشرجية التي تفرضها على الطفل فحسب، ولكنها، بلغة الواقع النفسي، هي الخصّاءة الآن أيضاً.

والخوف من الأم خوف مرهق على الإطلاق لأن خوفاً شديداً من الخصاء بفعل الأب يتّحد به. وتنشد الميول التدميرية التي موضوعها البطن، بعنفها السادي الفمي والشرجي الذي يبلغ ذروته، عضو الذكر الأبوي أيضاً، الذي ينبغي له أن يوجد في البطن وفق أفكار الطفل. وعلى هذا العضو، عضو الذكر، يتركّز في هذه الفترة خوف الطفل من أن يخصيه

الأب. ويتميّز طور الأنوثة إذن بحصر يرتبط ببطن الأم وعضو الذكر الأبوي، وهذا الحصر يجعل الصبي خاضعاً لاستبداد أنا عليا تفترس وتقطّع وتخصي، أنا عليا تكوّنت انطلاقاً من صورتي الأب والأم معاً.

فالأوضاع التناسلية الناشئة تنفذ إليها على هذا النحو، منذ ظهورها، تلك الميول العديدة قبل التناسلية الناشئة التي تتشابك معها. وكلما كانت الغلبة للتثبيتات السادية، انطوى توحّد الصبي بالأم على موقف المنافسة مع المرأة، منافسة تمتزج بالحسد والكره. والواقع أنه يحسّ، فيما يخصّ رغبته في أن يكون له طفل، أنه في وضع من الإجحاف والدونية بالقياس على الأم.

ولنفحص الآن لماذا كانت عقدة الأنوثة لدى الرجال تبدو أكثر غموضاً بكثير من عقدة الخصاء لدى النساء، التي تكافىء أهميتها أهمية عقدة الأنوثة.

والمزيج من رغبة الصبي في أن يكون له طفل والرغبة في المعرفة يتيح له أن يجري انزياحاً صوب المستوى الفكري. وعاطفة الإجحاف لديه تقنّعها وتعوّضها تعويضاً فائق الحد عاطفة التفوّق التي يستمدّها من ملكية عضو الذكر، وذلك تفوّق تعترف به البنات له أيضاً. ويفضي هذا الإضفاء المغالي، إضفاء قيمة كبيرة على الوضع المذكر، إلى ضروب من الإفراط في الاحتجاجات الرجولية. وترجع ماري شادويك أيضاً تلك المغالاة في التقدير النرجسي لعضو الذكر لدى الرجل وموقف المنافسة الفكرية من النساء إلى إحباط رغبة الذكر في أن يكون له طفل وإلى انزياح هذه الرغبة صوب المستوى الفكري.

٥- عقدة الأنوثة لدى الصبي سبب المنافسة مع النساء

ميل الصبي، المتواتر جداً، إلى أن يبدي، متباهياً، ضرباً من العدوانية المفرطة، منشأه عقدة الأنوثة. ويرافق هذا الميل موقفُ احتقار و«تفوّق في

المعرفة»، وهو ميل سادي إلى درجة كبيرة جداً ومعادٍ للمجتمع. إنه ميل ناجم بصورة جزئية عن الجهد في إخفاء الحصر والجهل. وهو يحجب الاحتجاج بصورة جزئية (الناشيء من الخوف من الخصاء) على الدور الأنثوي، ولكنه يستمدّ منشأه من الخوف الذي توحيه الأم إليه: فالصبي كان يريد أن يسرق منها عضو الذكر الأبوي وأطفالها وأعضاءها الأنثوية. وتتّحد هذه العدوانية المفرطة بلذة الهجوم، الخاصة بالوضع الأدويبي التناسلي بصورة مباشرة. والحال أن هذه العدوانية تمثّل هذا العنصر من الوضع، الذي يتصف بأنه العامل الأكثر معاداة للمجتمع في تكوّن الطبع. وهذا هو السبب في أن منافسة رجل من الرجال مع النساء ستكون أكثر معاداة للمجتمع بكثير من منافسته مع أمثاله من الرجال، منافسة يوحيها الوضع التناسلي إلى حدّ بعيد. وفي حالة المنافسة، ستكون علاقة رجل برجال آخرين منوطة أيضاً، بالطبع، بكمية التثبيتات السادية. وإذا كان التوحّد بالأم مبنيّاً على وضع تناسلي استقرّ استقراراً مؤكداً جداً، فإن لعلاقة رجل بالنساء، على العكس، سمة إيجابية وستجد، من جهة أخرى، رغبته في أن يكون له طفل والعنصر الأنثوي في شخصيته، الأساسيين في فاعلية الذكر، مناسبات أكثر ملاءمة للتصعيد بكثير.

وأحد الجذور الرئيسة في ضروب الكفّ في العمل، لدى الجنسين، هو الحصر والإثمية المرتبطان بالطور الأنثوي. وقد علّمتني التجربة أن تحليلاً معمّقاً يتناول هذا الطور ذو أهمية من وجهة النظر العلاجية، وأنه سيقدّم عوناً كبيراً في بعض الحالات الوسواسية التي يبدو أنها دلفت في درب مسدود، وسيكون هذا التحليل ذا أهمية لأسباب أخرى أيضاً.

والطور الأنثوي يعقبه، في نمو الصبي، صراع مديد بين الوضع قبل التناسلي لليبيدو والوضع التناسلي. ويبدو هذا الصراع بوضوح، في ذروته، بين سن الثالثة والخامسة من العمر، وكأنه عقدة أوديب. والحصر المرتبط بالطور الأنثوي يعيد الصبي إلى ضرب من التوحّد بالأب. ولكن هذا

المنبّه لا يمكنه أن يقدّم في ذاته قاعدة متينة للوضع التناسلي. والواقع أنه يقود على وجه الخصوص إلى كبت الدوافع السادية الشرجية والتعويض عنها تعويضاً مغالياً، لا إلى هزيمتها. وخوف الصبي من أن يخصيه الأب يعزّز التثبيت على المستويات السادية. يضاف إلى هذا أن القوة التي تتّصف بها تناسلية جبلّية تؤدي دوراً ذا أهمية في مخرج مناسب، أي في الارتقاء إلى المستوى التناسلي. وتظلّ نتيجة المعركة غير متعيّنة وتولّد أمراضاً عصابية أو اضطرابات في الاستطاعة[٣]. فالارتقاء إلى الاستطاعة الكاملة والرسوّ في الوضع التناسلي منوطان إذن، على نحو جزئي، بنتيجة مناسبة يبلغها الطور الأنثوي.

٦ ـ لدى البنيّة معرفة لاشعورية في زمن مبكّر جداً بتشريح جسمها

ولنفحص الآن نمو البنات. فالبنت تنصرف عن الأم في أعقاب الفطام. وكانت مرغمة أيضاً على هذا الانصراف على نحو أشدّ بفعل الإحباطات الشرجية التي عانتها. وتبدأ الميول التناسلية الآن في أن تؤثّر على نموها النفسي.

إنني على وفاق تام مع هيلين دوتش التي تعتقد بأن نمو المرأة الجنسي يجد إنجازه في الانزياح الناجح من الليبيدو الفمي إلى الليبيدو التناسلي. ولكن النتائج التي حصلتُ عليها تدفعني إلى الاعتقاد بأن هذا الانزياح يبدأ منذ الحركات الأولى للميول التناسلية وأن لهدف الأعضاء التناسلية الفمي المستقبل دوراً حاسماً في كون البنت **تتّجه صوب الأب**. وكنت مسوقة إلى أن أستنتج بالإضافة إلى ذلك أن معرفة لاشعورية بالعضو الأنثوي تستيقظ منذ ظهور الميول الأوديبية، ولكن لديها أيضاً إحساسات في هذا العضو وفي بقية الجهاز التناسلي. ولا يقدّم الاستمناء لدى البنات، مع ذلك، منفذاً

(٣) انظر رايخ: «وظيفة الانتعاظ»، أرش، باريس ١٩٥٢.

مناسباً، كما هو الأمر لدى الصبيان، لمثل هذه الكميات من الإثارة. وينجم عن ذلك أن الإحباطات المتراكمة على هذا النحو تقدّم سبباً إضافياً للتعقيد والاضطراب في النمو الجنسي الأنثوي. وربما كانت الصعوبة في بلوغ إشباع كامل بفعل الاستمناء سبباً، إلى جانب الأسباب الأخرى التي ذكرها فرويد، يدعو البنات إلى نبذ الاستمناء. وبوسع هذه الصعوبة أن تشرح شرحاً جزئياً لماذا يحلّ ضغط الساقين إحداهما على الأخرى، في الصراع للتخلّي عن الاستمناء، محلّ الاستمناء باليد.

وبمعزلٍ عن استقبالية العضو التناسلي، التي تستخدمها الرغبة الشديدة في الحصول على مصدر جديد من مصادر الإشباع، يبدو أن الحسد والكره، اللذين توحيهما الأم التي تملك عضو الذكر الأبوي، يكوّنان في الفترة التي تظهر خلالها الميول الأولى الأوديبية سبباً إضافياً لتتّجه البنت صوب أبيها. ولمداعبات الأب في هذه الفترة مفعول الإغراء وتشعر بها البنت أنها «جاذبية الجنس المقابل»[٥].

وينجم التوحّد بالأم، لدى البنت، عن الميول الأوديبية بصورة مباشرة: فالصراع الناشىء من حصر الخصاء، لدى الصبي، مفقود لديها. ويزامن هذا التوحّد، لدى الصبيان والبنات، تلك الميول السادية الشرجية إلى سرقة الأم وتدميرها. وإذا احتلّ التوحّد مكانه، على الخصوص في مرحلة تكون خلالها الميول السادية الفمية والسادية الشرجية قوية جداً، فإن الخوف من أنا عليا مصدرها الأم يؤدي إلى كبت هذا الطور والتثبيت عليه ويعوق النمو التناسلي اللاحق. ويرغم الخوف من الأم، هو أيضاً، بنتها الصغيرة على التخلّي عن التوحد بها ويبدأ التوحّد بالأب.

---

(٥) إننا نصادف بانتظام ذلك اللوم الموجّه إلى الأم على أنها أغوت الطفل إذ منحته العناية بالنظافة. ويعود هذا اللوم إلى المرحلة التي كانت الرغبات التناسلية فيها تأتي في المستوى الأول وكانت الميول الأوديبية تستيقظ فيها.

والرغبة في المعرفة توقظها، لدى البنت، عقدة أوديب أول الأمر. وينجم عن ذلك أنها تكتشف غياب عضو الذكر لديها. وتعاني هذا الغياب وكأنه سبب جديد يدعو لكره الأم، ولكن إثميتها تدفعها في الوقت نفسه إلى النظر إلى هذا الغياب وكأنه ضرب من العقاب. وهذه الظروف تجعل الإحباط الذي تستشعره البنت مريراً جداً، وتمارس بدورها تأثيراً عميقاً على عقدة الخصاء في مجموعها.

ويتفاقم هذا اللوم المبكّر على غياب عضو الذكر تفاقماً كبيراً فيما بعد، عندما يكون الطور القضيبي وعقدة الخصاء في أوج فاعليتهما. وصرّح فرويد أن اكتشاف غياب العضو المذكر، يدفع البنت الصغيرة إلى الابتعاد عن الأم والاتجاه صوب الأب. وتبيّن نتائج بحوثي مع ذلك أن هذه الاكتشاف لا يؤثّر هنا إلا على سبيل الدعم: إنه يحدث في زمن مبكّر جداً خلال المرحلة التي يشغلها النزاع الأوديبي، وحسد عضو الذكر يعقب الرغبة في الحصول على طفل، رغبة تحلّ مجدّداً محل حسد العضو، عضو الذكر، فيما بعد. وأعتبر أن الحرمان من الثدي هو السبب الأكثر أساسية في التحوّل إلى الأب.

٧ ـ ضرورة وجود علاقة إيجابية بالأم

التوحّد بالأب مشحون بالحصر أقل من التوحد بالأم. يضاف إلى هذا أن الإثمية إزاء الأم ترغم على ضرب من التعويض المغالي في علاقة جديدة من الحب تقام معها. وتؤثّر عقدة الخصاء التي تجعل موقف الذكر عسيراً، والكره للأم الذي يستمدّ منشأه من الأوضاع السابقة، كلاهما، تأثيراً عكسياً على هذه العلاقة الجديدة. ويقود الكره المرجّه إلى الأم والمنافسة معها، مجدّداً مع ذلك، إلى التخلّي عن التوحّد بالأب وإلى الاتجاه نحوه كما يتّجه المرء صوب الموضوع الذي يرغب في أن يحبه ويرغب في أن يكون محبوباً منه.

وتمنح علاقة البنت بالأم علاقتها بالأب اتجاهاً إيجابياً وسلبياً في وقت واحد. فللإحباط الذي تعانيه البنت بسبب الأب مصدر عميق جداً يكمن في خيبة الأمل التي عانتها البنت من قبلُ في علاقتها بأمها. والكره والحسد، اللذين توحيهما الأم، هما حافز قوي على الرغبة في امتلاكها. وإذا ظلّت التثبيتات السادية سائدة، فإن لهذا الكره وتعويضه المغالي، بالإضافة إلى ذلك، تأثيراً عميقاً على علاقة النساء بالرجال. وإذا كانت العلاقة بالأم، من جهة أخرى، أكثر إيجابية، وإذا كانت قائمة على الوضع التناسلي، فإن المرأة لن تكون أكثر تحرّراً من كل إثمية في علاقتها بأطفالها فحسب، بل سيكون حبها لزوجها حباً يعزّزه هذا الأمر إلى حدّ كبير، ذلك أن الزوج يمثّل دائماً، بالنسبة إلى المرأة، وفي الوقت ذاته، تلك الأم التي تمنح ما هو مرغوب، والطفل الحبيب. وعلى هذه القاعدة إنما ينبني الجزء من العلاقة المقصورة على الأب، علاقة تتمركز أول الأمر على فاعلية عضو الذكر خلال الجماع. وهذه الفاعلية التي تَعِد، هي أيضاً، بإشباع الرغبات، رغبات تنتقل إلى العضو التناسلي، تمثّل في ناظريّ البنت الصغيرة تلك المأثرة الأكثر كمالاً.

والحق أن إعجابها يزعزعه الإحباط الأوديبي ولكنه يكوّن، إلا إذا تحوّل إلى كره، مظهراً من المظاهر الأساسية في علاقة النساء بالرجال. وعندما يحصل الإشباع التام فيما بعد للميول الجنسية، فإن عرفاناً بالجميل، كبيراً بمقدار ما يكون الإحباط طويل المدة، ينضاف إلى الإعجاب. ويتجلّى هذا العرفان بالجميل بما لدى النساء من قابلية عظمى لينذرن أنفسهم، على نحو تام ودائم، لموضوع حب وحيد، ولـ «الحب الأول» على وجه الخصوص.

وليست البنت الصغيرة ذات حظوة في نموها، وإليكم السبب: ففي حين يمتلك الصبي عضو الذكر بالفعل وبسببه يدخل في منافسة مع الأب،

فإن لدى البنت الصغيرة رغبة في الأمومة غير مشبعة، وليس لديها عن ذلك أيضاً سوى عاطفة غامضة وغير محدّدة، مع أنها حادّة جداً.

وليس عدم التحديد هذا هو الذي يزرع وحده الاضطراب في أملها في أمومة المستقبل. بل إن الحصر والإثمية، بالإضافة إلى ذلك، هما اللذان يضعفان هذا الأمل، وبوسعهما أن ينالا من استعدادات الأمومة لدى المرأة بصورة خطيرة ونهائية. وبسبب ميول التدمير التي كانت ترعاها البنت ضد جسم أمها (أو ضد بعض الأعضاء في هذا الجسم) وضد الأطفال الذين كانوا موجودين في بطن الأم، فإنها تتوقّع عقوبة مفادها تدمير استعداداتها الخاصة للأمومة، وتدمير أعضائها التناسلية الخاصة وأطفالها الخاصين. ومن هذا المصدر أيضاً ينشأ انشغال البال الدائم (المغالي في بعض الأحيان) لدى النساء بموضوع جمالهن الشخصي: إنهن يخشين أن تدمّره الأم. وخلف الميل إلى الزينة والتجميل، يجد المرء دائماً تلك الرغبة في تجديد جمال تالف، رغبة تستمدّ مصدرها من الحصر والإثمية.

ومن المحتمل أن يكون الخوف العميق من تدمير الأعضاء الداخلية هو السبب النفسي لأعظم الاستعداد المسبق لدى النساء، بالقياس على الرجال، لهستيريا التحوّل والأمراض العضوية.

وهذ الحصر وهذه الإثمية هما السببان الرئيسان في كبت الأنفة والفرح اللذين يمنحهما الدور الأنثوي، وهما قويان جداً في الأصل. ويؤدي هذا الكبت إلى الغضّ من شأن الاستعداد للأمومة، وهو استعداد ذو تثمين عالي الدرجة جداً في بداية الحياة. وتكون البنت على هذا النحو محرومة من دعم قوي يجده الصبي في ملكية عضو الذكر، وبوسعها أن تجده، هي ذاتها، في الأمل بالأمومة.

٨ - شرح الغيرة والإخلاص لدى النساء

قلق البنت، الحادّ جداً، حول موضوع أنوثتها مماثل، بوسعنا القول، للخوف من الخصاء لدى الصبي، ذلك أنه يؤدي دوراً بالتأكيد في قمع ميولها الأوديبية. وتطوّر حصر الخصاء، لدى الصبي حول موضع العضو التناسلي، وهو حصر موجود على نحو مرئي، تطورٌ مختلف مع ذلك؛ وبوسعنا أن نصف هذا الحصر بأنه أشد حدّة من حصر البنت، الأكثر اتصافاً بأنه مزمن، حول موضوع أعضائها الداخلية التي تكون بالضرورة أقل ألفة لديه. وثمة فارق آخر مصدره أن حصر الصبي توقظه الأنا العليا الأبوية، في حين أن حصر البنت مصدرها الأنا العليا الأمومية.

قال فرويد إن الأنا العليا لدى البنت تنمو وفق خطوط تختلف عن خطوط نموها لدى الصبي. وتؤدي الغيرة، التي نجد تأكيداً لها باستمرار، دوراً أكبر في حياة النساء من دورها في حياة الرجال: إنها تتفاقم بحسد يتّجه صوب الذكر، موضوعه عضو الذكر. ولدى النساء من جهة أخرى، مع ذلك، - ولديهن على وجه الخصوص - استعداد عميق، ليس التعويض المغالي أساسه الوحيد، لألا يأخذن بالحسبان رغباتهن الخاصة ولأن ينذرن أنفسهن بتفان لمهمّات أخلاقية واجتماعية. وليس بوسع المزيج من السمات المذكرة والمؤنثة لدى الموجود الإنساني، التي تؤثر بسبب الجنسية الثنائية في الحالات الفردية على تكوين الطبع، أن يشرح هذه القدرة، ذلك أنها من طبيعة الأمومة بصورة واضحة. وعلينا، في اعتقادي، أن نفحص الشروط الخاصة بتكوّن الأنا العليا الأنثوية لنشرح التشكيلة الواسعة التي بوسع النساء أن يؤدينها، تشكيلة تمضي من الغيرة الأكثر دناءة إلى الحب الأكثر إخلاصاً. وتستمدّ البنت الصغيرة كرهاً وغيرة من التوحّد المبكّر بالأم، حيث المستوى السادي الشرجي هو الغالب إلى حدّ واسع جداً، وتكوّن أنا عليا قاسية وفق الصورة الذهنية المثالية الأمومية. والأنا العليا التي تتكوّن في هذه المرحلة انطلاقاً من التوحّد بالأب يمكنها أيضاً أن تكون مصدر تهديد وتسبّب

الحصر، ولكنها تبدو أنها لا تعادل في هذ المجال أبداً تلك التي تنشأ من التوحّد بالأم. ولكن التوحّد بالأم يتميّز بإخلاص أم مثالية وكريمة وبحنانها كلما قام على قاعدة تناسلية. فالموقف الانفعالي الإيجابي تابع إذن لنسبة السمات قبل التناسلية والتناسلية التي يتضمّنها مثال الأم الحنون. ويبدو مع ذلك أن مثال الأنا الأبوي هو الذي يعمل منذ أن يكون الأمر ذا علاقة بالتحوّل الإيجابي للموقف الانفعالي في النشاطات الاجتماعية أو النشاطات الأخرى. والإعجاب العميق الذي تشعر به البنت الصغيرة لفاعلية الأب التناسلية يؤدي إلى تكوّن أنا عليا أبوية تقترح لها أهدافاً إيجابيية ليس بوسعها أبداً أن تبلغها كلياً. وإذا كانت تملك، بفضل بعض العوامل في نموها، محرّضاً له من القوة ما يكفي لمتابعة هذه الأهداف، فإن تعذّر بلوغها، التعذّر ذاته، قد يمنح جهودها استطاعة تهب بعض النساء استعداداً لإنجاز الأفعال الاستثنائية على المستوى الحدسي أو في بعض المجالات النوعية، إذا انضافت هذه الاستطاعة متناسقة مع قدرتهن على التضحية التي تنتقل إليهن من الأنا العليا الأمومية.

٩ ـ الصبي مصنوع على صورة مثاله

يستمدّ الصبي من الطور الأنثوي، هو أيضاً، أنا عليا أمومية تدفعه كما تدفع البنت إلى توحّدات بدائية في قسوتها أو رحيمة. ولكنه يتجاوز هذا الطور ليستأنف (بدرجات شتى في الحقيقة) التوحّد بالأب، ومهما يكن تأثير جانب الأم في تكوين الأنا العليا قوياً، فإن الأنا العليا **الأبوية** هي التي تملك مع ذلك، لدى الرجل، قدرة حاسمة منذ البداية. وهذه الأنا العليا الأبوية تقترح عليه، هي أيضاً، نموذجاً هو صورة مثاله بالفعل. ويساهم هذا الظرف في جعل العمل الخلاق لدى الرجل أكثر دقة وموضوعية.

وخوف البنيّة من ضرر يجعلها أحدهم تعانيه في أنوثتها يمارس تأثيراً عميقاً على عقدة الخصاء لديها، ذلك أن هذا الخوف يدفعها إلى المغالاة في تقدير عضو الذكر المحرومة منه هي ذاتها. وهذا التثمين المغالي هو عندئذ

أكثر وضوحاً بكثير من الحصر أمام خطر تتعرّض إليه الأنوثة. ولنذكّر هنا بأعمال كارن هورنه التي كانت أول من درس مصادر عقدة الخصاء لدى المرأة، من حيث أن هذه المصادر موجودة في الوضع الأوديبي.

وعليّ أن أتكلم في هذه المناسبة على أهمية بعض التجارب المبكّرة في النمو الجنسي اللاحق. وكنت قد قلت، في التقرير الذي قرأته أمام مؤتمر سالزبورغ عام ١٩٢٤، إن مشاهدات الجماع كانت تتّخذ سمة الصدمة عندما كانت تحدث في مرحلة متأخرة جداً من النمو، في حين أنها تكون ثابتة وتشكّل جزءاً من النمو الجنسي إذا كانت قد حدثت في زمن مبكّر. وأضيف هنا أن مثل هذا التثبيت قد لا يبقي تحت سلطته هذه المرحلة الخاصة من التطور الفردي فحسب، ولكنه يبقي أيضاً تلك الأنا العليا التي تكون عندئذ في أوج تكوّنها، وأن بوسعه إذن أن ينال من نموّها. ذلك أن التوحّدات السادية تكون أقل وضوحاً في بنية الأنا العليا، والصحة النفسية تكون أكثر تحقّقاً، ونموّ شخصية على درجة كبيرة من الأخلاقية تكون أكثر احتمالاً، كلما كانت الأنا العليا أقرب إلى بلوغ أوجها في المرحلة التناسلية.

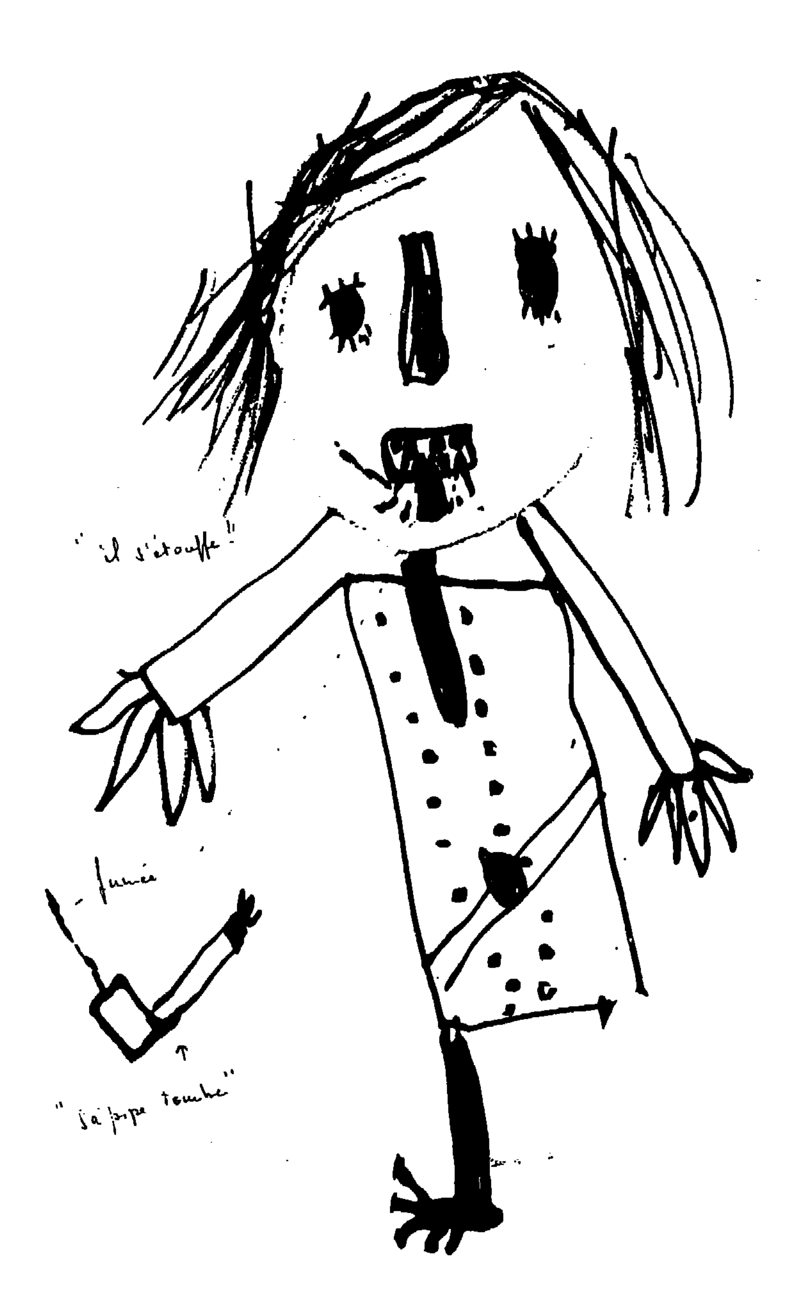
وثمة نوع آخر من التجربة يبدو لي نموذجياً وذا أهمية بالغة لدى الأطفال الصغار. وهذه التجارب تعقب على الغالب مباشرة ملاحظات الجماع وتثيرها التنبيهات الحاصلة على هذا النحو أو تشجّعها. والمقصود علاقات جنسية بين الأطفال الصغار، إخوة وأخوات أو رفاق اللعب، علاقات تنطوي على الأفعال الأكثر تنوعاً، تبادل النظرات، والملامسة، وإفراغ البراز سوية، وتحريض عضو الذكر بالمص، وتحريض البظر بالمص، ومحاولات مباشرة في بعض الأحيان لإنجاز الجماع. وهذه العلاقات تُكبت بقوة وترتبط بها إثمية عميقة أصلها هو التالي: يرى الطفل في موضوع الحب، الذي يختاره تحت ضغط إثارة ناجمة عن النزاع الأوديبي، بديل الأب أو الأم، أو الاثنين معاً. وهذه العلاقات، التي تبدو مبتذلة بهذا القدر

ولا يفلت منها على ما يظهر أي طفل يحرّضه النمو الأوديبي، تتّخذ سمة علاقة أوديبية متحقّقة بالفعل، وتمارس تأثيراً حاسماً على تكوّن عقدة أوديب، وعلى الزمن الذي ينفصل الفرد من خلاله عن هذه العقدة، وعلى علاقاته الجنسية اللاحقة. يضاف إلى أن تجربة من هذا النوع تكوّن نقطة تثبيت ذات أهمية في نمو الأنا العليا وهذه التجارب تدفع الطفل في الأغلب، بالنظر إلى الحاجة إلى العقاب وإلى قسر التكرار، إلى أن يخضع لصدمات جنسية. وأحيل في هذا الموضوع إلى أبراهام[٥] الذي بيّن أن تجربة الصدمات الجنسية كانت تشكّل جزءاً من نمو الأطفال الجنسي. والفحص التحليلي لهذه التجارب، سواء أكان هذا الفحص قد بوشر في تحليل الراشدين أم في تحليل الأطفال، ينير الوضع الأوديبي بالنسبة لتثبيتات الطفولة الأولى. فلهذا التحليل إذن أهمية علاجية كبيرة.

تلك هي خلاصة لنتائجي. وأريد أن أشير أول الأمر إلى أنها لاتناقض، في اعتقادي، أعمال الأستاذ فرويد. وأعتقد أن المسألة الرئيسة في هذه النتائج هي التالية: أضع هذه السيرورات في زمن مبكّر، وأسلّم بأن أضوارها المختلفة (وأطوار المراحل الأولية على وجه الخصوص) يمتزج الواحد منها بالآخر على نحو أكثر سهولة مما كان بعضهم يعتقد حتى الوقت الراهن.

والمراحل الأولية من النزاع تسودها الأطوار قبل التناسلية سيادة قوية جداً، ويظلّ الطور التناسلي أول الأمر، عندما يدخل مجال الفاعلية، محجوباً تحت حجاب كثيف. ولايتجلّى تجلياً واضحاً إلا فيما بعد بين الثالثة والخامسة من العمر. وفي هذا العمر إياه، تبلغ عقدة أوديب وتكوّن الأنا العليا ذروتهما. ولكن الظهور المبكّر للميول الأوديبية، وثقل الإثمية التي تسحق المراحل قبل التناسلية إذن، والتأثير الحاسم الذي يمارَس، على

(٥) أوراق منتقاة، المكتبة العالمية لعلم النفس التحليلي، رقم ١٣.



غليون التدخين الذي يسقط يوضّح بالمثال حصر الخصاء لدى الصبيّ الصغير ذي السبع سنوات من العمر.

هذا النحو وفي زمن مبكّر، على النمو الأوديبي من جهة وعلى نمو الأنا العليا من جهة أخرى - وبالتالي على تكوّن الطبع، والجنسية وكل النمو الفردي- كل ذلك يبدو لي، ذو وزن كبير، وذو أهمية لم تكن موضع الاعتراف حتى الوقت الراهن. وأتاح لي تحليل الأطفال أن أتحقّق بالتأكيد من القيمة العلاجية لهذه المعرفة، ولكنني أتوقّف عند هذا الحدّ. وفي تحليل الراشدين، وضعت النتائج التي كانت قد نجمت عنه موضع الاختبار وتمكّنت أن ألاحظ صحتها النظرية وأهميتها العلاجية على حدّ سواء.

ميلاني كلاين

الفصـــل الثـــامن

تحليلا طفلين

لا يرشح شيء في غالب الأوقات مما يدور بين المحلّل ومريض. ولكن المعلومات التي يدلي بها المريض ثمينة إلى الحدّ الأقصى: فالوقائع البارزة في حياة العصابيين النفسية أسهل منالاً بكثير.

نشر بعض المحلّلين – أولهم فرويد – قصة حالات تسجّل انعطافاً في تاريخ التحليل النفسي، أشهرها قصة أنّا O . . . واسمها الحقيقي بيرث بابنهايم. وكانت الفتاة الشابة تبدي كل الأعراض الخاصة بشلل هستيري خطير.

أما تحليل الأطفال، فإنه مختلف بعض الاختلاف. إن الأطفال يتنقّلون في العيادة بصورة حرة، إذ يعقدون بعضاً من الصلات معها ومع الأشياء التي تزيّنها. وتوضع تحت تصرّفهم ألعاب من كل نوع، وأوراق وأقلام ملوّنة. إنهم لمّا يكتسبوا المهارة التامة في الكلام: إن رسومهم تعبّر عن النزاعات تعبيراً على صورة رمزية، وهي تقدّم بالتالي بيانات مفيدة للمحلّل الذي يفسّرها.

وعلى هذا النحو، تمكّن ريشارد وريتا، اللذين تقصّ علينا ميلاني كلاين في هذا الفصل قصتهما، أن يخطوا خطوة في الأوديب، مزوّدين بالأسلحة الضرورية لمواجهته.

النـــص

المادة التي سأستخدمها لإيضاح أفكاري بالمثال عن نمو العقدة الأوديبية لدى الصبي مستمدّة من تحليل طفل في العاشرة من عمره. وكان والداه مرغمين على أن يوكلاه إلى محلّل نفسي ليعالجه: ذلك أن بعض أعراضه كانت قد بلغت من الخطورة حداً لم يكن بوسعه أن يذهب إلى المدرسة. وكان خوفه من الأطفال شديداً إلى درجة كان يتجنّب بصورة متزايدة أن يخرج وحده. يضاف إلى هذا أن كفاً متصاعداً لقدراته واهتماماته كان يقلق أبويه كثيراً منذ بضع سنين. وكانت تشغله إلى حد المبالغة، بالإضافة إلى هذه الأعراض التي تمنعه من الذهاب إلى المدرسة، صحته ويمرّ على الغالب في أطوار من الاكتئاب. وكانت هذه الصعوبات مقروءة في مظهره: كان يبدو عليه أنه مشغول البال جداً وتعس. ومن وقت إلى آخر، - وكان أمراً مدهشاً في أثناء جلسات التحليل-كان اكتئابه يزول ويلمع في عينيه بريق حياة مفاجىء يبدّل وجهه تبديلاً كلياً.

وكان ريشارد، من نواحٍ كثيرة، طفلاً ذا نضج مبكر وموهوباً. كان يتمتع بموهبة موسيقية كبيرة ويكشف عن مواهبه منذ نعومة أظفاره. وكان يحب الطبيعة حباً كبيراً، ولكنه حبّ يقتصر على مظاهرها الممتعة. وكانت مواهبه الموسيقية تتجلّى، على سبيل المثال، في الأسلوب الذي يختار به كلماته وفي حسّ المأساوي الذي كان يجعل حديثه مفعماً بالحياة. ولم يكن على وفاق مع الأطفال الآخرين وكان يبدو برفقة الراشدين في أفضل أجوائه، وبرفقة النساء على وجه الخصوص. وكان يحاول أن يدهشهم بمواهب المحدّث، وأن يجتذب لنفسه رعايتهم، وكان يبدو في ذلك ذا نضج مبكّر.

وكانت مرحلة الرضاع لريشارد قصيرة وغير مرْضية. إنه رضيع سريع العطب، أُصيب بالرشوحات والأمراض الأخرى منذ أصغر عمره. وكانت

قد أُجريت له عمليتان (الختان واستئصال اللوزتين) بين سن الثالثة والخامسة من عمره. وكانت الأسرة تعيش حياة متواضعة، ولكنها لاتعيش في العسر. ولم يكن جو المنزل سعيداً كل السعادة. فثمة، بين والديه، نقص معيّن من المودّة والاهتمامات المشتركة، ولكن ليس ثمة خصام صرّح به أحدهما. وكان ريشارد الثاني من طفليهما، وأخوه يكبره ببضع سنين. وكانت أمه من النموذج الاكتئابي مع أنها لم تكن مريضة بالمعنى العيادي للكلمة. إنها قلقة جداً منذ أن وقع ريشارد مريضاً، وموتنها ساهم بالتأكيد في توليد المخاوف، مخاوف توهّم المرض لدى الطفل. ولم تكن علاقتها بريشارد مرْضية من بعض النواحي، في حين أن ابنها البكر كان ينجح نجاحاً باهراً في المدرسة ويجتذب القسم الأعظم من قدرتها على الحب. وكان ريشارد قد خيّب أملها. إنه طفل عسير جداً على الرغم من أنها متعلّقة به كثيراً. فلم يكن يهتم بشيء ولا يعرف بماذا يشغل نفسه. وكان قلقه المفرط من موضوع أمه يتجلى على نحوٍ منهك مفاده أنه لم يفارقها قط قيد أنملة.

وكانت الأم بدورها تغدق عليه عنايتها إلى حدّ تفسده بالدلال، دون أن يكون لديها مع ذلك مفهوم واضح عن سمات طبعه، الأقل وضوحاً، كقابليته الأساسية للحب والطيبة. ولم تكن لديها المهارة لتفهم كيف كان ريشارد يحبها ولا تمنح تقدّمه سوى ثقة محدودة. ولكنها ظلّت صبورة. ومثال ذلك أنها لم تحاول أن تفرض عليه صحبة أطفال آخرين ولا أن ترغمه على ارتياد المدرسة.

وكان الأب يحب ابنه كثيراً ويعامله بلطف، ولكنه كان يتخلّى لامرأته عن المسؤلية الكاملة على وجه التقريب في تربيته. وكان لدى ريتشارد انطباع بأن أباه مبالغ في تسامحه معه ولم يمارس سلطته ممارسة كافية في الدائرة الأسرية. وكان أخوه البكر، على وجه العموم، لطيفاً وصبوراً، ولكن لم يكن لدى الصبيين كثير من الأمور المشتركة.

وتفاقمت صعوبات ريشارد عندما اندلعت الحرب تفاقماً كبيراً. فأجلي مع أمه التي أتت لتستقرّ، بسبب التحليل، في المدينة الصغيرة التي كنت أسكنها عندئذ، في حين أن ابنها الآخر كان قد ذهب مع مدرسته. وأحدثت لريشارد مغادرة المنزل انفعالاً شديداً. يضاف إلى هذا أن الحرب أقدمت على إيقاظ ضروب حصره كلها. وزرعت الهجمات الجوية والقصف بالقنابل رعباً في نفسه. وكان يتابع الأخبار عن كثب ويهتمّ اهتماماً كبيراً بتغيّرات الوضع. ولم يكفّ هذا الاهتمام عن التجلّي طوال فترة التحليل.

أولاً ـ تحليل طفل: ريشارد

الصعوبات التي تلازم وضع الطفل الأسري وقصة عمره الأول لا يمكنهما أن تشرحا وحدهما، في رأيي، خطورة مرضه. ومن المناسب أن نأخذ بالحسبان، في كل حالة، تلك السيرورات الداخلية الناشئة من العوامل الجبلّية أو الناجمة عن المحيط، وأن ندرس تفاعل هذه السيرورات وعواملها. ولكنه يتعذّر عليّ هنا أن أنجز هذا الأمر على نحو تفصيلي. فسأقتصر إذن على بيان التأثير الذي مارسه بعضٌ من ضروب الحصر في الطفولة الأولى على النمو التناسلي.

جرى التحليل في مدينة صغيرة قريبة من لندن، حيث كنت أشغل منزلاً كان مالكوه غائبين عنه غياباً مؤقتاً. ولم يكن لديّ في هذا المنزل غرفة للألعاب كما كنت أشتهي، ذلك أنه لم يكن بوسعي أن أرفع منه عدداً معيّناً من الكتب واللوحات والبطاقات، إلخ. وكان ريشارد يقيم علاقات خاصة، شخصية على وجه التقريب، مع هذه الغرفة ومع المنزل الذي كان ريشارد يوحّد بيني وبينه. ومثال ذلك أنه كان يحدث له على الغالب أن يتكلم عليه بمودّة، وأن يتوجّه إليه مودّعاً قبل أن يمضي في نهاية جلسة من

الجلسات. وكان يُعنى في بعض الأحيان عناية كبيرة بترتيب الأثاث على نحوٍ كان لا بدّ له، في اعتقاده، أن يجعل الغرفة «سعيدة».

ورسم ريشارد مجموعة من الرسوم خلال التحليل[1]. وأول شيء من الأشياء التي رسمها كان نجمة بحر تجوس تحت الماء حول نبتة من النباتات. وشرح لي أنها كانت رضيعاً جائعاً يرغب في أن يأكل النبتة. وظهر في رسومه خلال اليوم التالي أو بعده أخطبوط ذو وجه إنساني أكبر بكثير من نجمة البحر. وكان هذا الأخطبوط يمثّل أباه وأعضاء أبيه التناسلية في مظاهرها الخطرة. ثم كان الاخطبوط مماثلاً بصورة لاشعورية لـ«المسخ» الذي ستجعلنا المادة التحليلية نصادفه في الحال. وأفضى شكل نجمة البحر بسرعة إلى رسمٍ لبنية مصنوعة من مقاطع ملوّنة على نحو مختلف. والألوان الأربعة الرئيسة لهذا النوع من الرسم - الأسود والأزرق والبنفسجي والأحمر - كانت ترمز بالترتيب إلى أبيه وأمه وأخيه وإلى نفسه. ولم يستخدم، لينفّذ أحد رسومه الأولى التي استعمل فيها هذه الألوان الأربعة، لوني الأسود والأحمر إلا بعد أن جعل القلمين يسيران صوب الرسم والصوت يرافقهما. وشرح لي أن اللون الأسود كان أباه، ورافق هو حركات القلم بصوت يقلّد ضوضاء الجنود الذين يسيرون سيراً موقّعاً. ثم قال إن الأحمر كان هو نفسه، وغنّى نغماً فرحاً وهو يجعل القلم يتقدّم. وعندما أتى دور المقاطع الزرقاء، قال إن الأحمر كان أمه، وعندما استخدم البنفسجي قال إن أخاه كان لطيفاً وكان يساعده.

١ - الرسم مادة من مواد التحليل

كان الرسم يمثّل امبراطورية والمقاطع المختلفة تمثّل شتّى البلدان.

---

(١) النسخ الملحقة بهذا النص منسوخة عن الرسوم الأصلية ومصغّرة بعض التصغير. ورُسمت الرسوم الأصلية بقلم الرصاص ولُوّنت بأقلام التلوين. وكنا قد أشرنا، في نطاق الممكن، إلى هذه الألوان بحزوز مختلفة. ولكن الغواصات في الرسم الثالث ينبغي أن تكون سوداء، والأعلام حمراء، والسمك ونجمة البحر صفراء.

وعلينا أن نشير إلى أن اهتمام الطفل بأحداث الحرب كانت تؤدي دوراً كبيراً في تداعياته. وعلى الخريطة، كان ينظر غالباً إلى البلدان التي احتلّها هتلر، وكانت العلاقة واضحة بين بلدان الخريطة وبلدان امبراطوريته. وكانت امبراطورية رسومه تمثّل أمه وهي موضع هجوم وغزو. وكان أبوه هو العدو بصورة عامة. وكان له، هو نفسه، ولأخيه في الرسوم أدوار متنوّعة: كانا حليفي أمهما في بعض الأحيان وحليفي الأب أحياناً أخرى.

وكانت هذه البنيات تختلف اختلافاً كبيراً في التفصيلات على الرغم من أنها كانت متشابهة على ما يبدو. والواقع أنه ليس ثمة اثنتان بينها متطابقتين. فالأسلوب الذي كان يرسم به هذه الرسوم، وغالبية رسومه الأخرى فيما يتعلق بهذه النقطة الخاصة، له دلالة كبيرة. ولم يكن لديه مخطط مقصود عندما يبدأ الرسم، وكان يدهشه على الغالب مظهر الرسم المنتهي.

وكان يستخدم مواد مختلفة ليلعب. ومثال ذلك أن أقلام الرصاص التي يستخدمها تمثّل أيضاً شخوصاً في ألعابه. وكان معه بالإضافة إلى ذلك مجموعة من القوارب الصغيرة التي تخصّه. وثمة اثنان من هذه القوارب يمثّلان دائماً أبويه، وكانت القوارب الأخرى تجد نفسها وقد عُزيت إليها أدوار مختلفة.

وثمة بعضٌ من ضروب الحصر العابرة كانت قد تجلّت بقوة متعاظمة خلال ست جلسات خاصة. وذلك مصدره بصورة جزئية ظروف خارجية سأتكلم عليها فيما بعد. وقلّص التفسير هذه الضروب من الحصر، والتغيّرات التي تلت أوضحت تأثير ضروب الحصر المبكّرة على النمو التناسلي. وكان التحليل قد أتاح لي من قبل أن أتنبّأ بهذه التغيّرات التي تسجّل تقدّماً صوب تناسلية أكثر كمالاً وصوب استقرار أكبر.

وفيما يخصّ التفسيرات المعروضة هنا، فإنني لا أذكر إلا تلك التي

تتعلق بموضوعي، وهذا أمر بدهي. وسأشير إلى التفسيرات التي يعطيها المريض نفسه. ويضاف إلى تفسيراتي أيضاً عدد معيّن من النتائج المستمدّة من المواد بصورة عامة. ولن أميّز الواحدة من الأخرى كل مرة. ذلك أن تحديداً من هذا النوع قد ينطوي على العديد من تكرار القول ويجعل النتائج الرئيسة غامضة.

٢ ـ ضروب من الحصر كشف عنها التحليل

ستكون نقطة انطلاقي استئناف التحليل بعد انقطاع دام عشرة أيام. وكان التحليل قد دام قبل هذه الفترة ستة أسابيع. وكنت قد ذهبت إلى لندن خلال الانقطاع وذهب ريشارد في عطلة. ولم يكن قد شهد قط قصفاً بالقنابل، وخوفه منه كان متمحوراً حول لندن بوصفها المكان المهدّد أكثر من أي مكان آخر. وكان سفري إلى لندن يعني بالنسبة له رحيلاً صوب الدمار والموت. وألفى نفسه الحصر الذي أثاره انقطاع التحليل متعاظماً.

ووجدت ريشارد، حين عودتي، مهموماً ومكتئباً. ونظر إليّ قليلاً خلال الجلسة الأولى بكاملها، واكتفى بالبقاء جالساً على كرسيه مشدوداً وعيناه مطرقتان، وبالسير دون هدف في المطبخ المتاخم للعيادة وفي الحديقة. وطرح عليّ بعض الأسئلة على الرغم من مقاومة بارزة: هل كنت قد رأيت كثيراً من المنازل المهدّمة في لندن؟ هل ثمة إنذار بغارة كان قد حدث عندما كنت فيها؟ وهل كانت توجد عاصفة في لندن؟

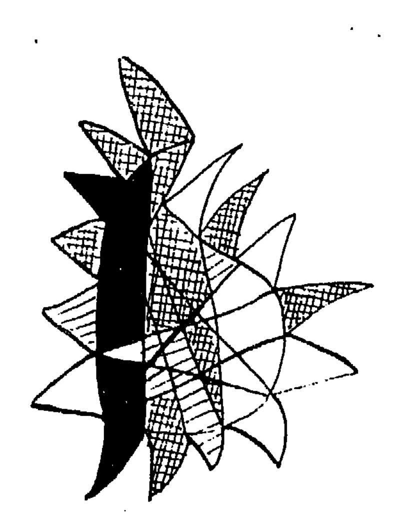
ومن الأمور الأولى التي صرّح بها كان الأمر التالي: لم يكن مسروراً على الإطلاق من العودة إلى المدينة التي كان التحليل يجري فيها؛ وقال إنها كانت ضرباً من «زريبة خنازير» و«كابوساً». وخرج عندها إلى الحديقة وبدا ينظر حوله على نحو أكثر حرية. ورأى فطوراً سمّاها لي وهو يرتعش ويقول إنها سامّة. وأخذ كتاباً من رفّ جداري عندما عاد إلى الغرفة وأراني، وهو يلحّ إلحاحاً شديداً، صورة رجل صغير كان يصارع «مسخاً مخيفاً».

وفي اليوم الذي تلا عودتي، تكلّم ريشارد إليّ، على الرغم من مقاومة شديدة، على محادثة كانت قد جرت بينه وبين أمه خلال غيابي. وكان قد قال لها إن الأمر الذي مفاده أن يكون لها رضّع فيما بعد يشغل باله كثيراً، وسألها إن كان ذلك يسبّب لها الألم كثيراً. وكانت قد شرحت له جواباً عن سؤاله، كما كانت قد فعلت عدة مرات من قبلُ، ذلك الدور الذي يؤديه الرجل في الإنجاب. و قال عندئذ إنه لن يحب وضع عضوه، عضو الذكر، في العضو التناسلي لأي شخص آخر: ذلك أمر كان يسبّب له الخوف، وكانت كل هذه القصة تقلقه كثيراً.

وربط تفسيري هذا الخوف بمدينة «زريبة الخنازير». وكانت هذه المدينة تمثّل في فكره داخل جسمي وجسم أمه، جسمين أصبحا رديئين بسبب الزوابع وقنابل هتلر. وكانت هذه الزوابع والقنابل تعني، بدورها، عضو الذكر «السيء» الأبوي، الذي يدخل في جسم أمه ويحوّله إلى مكان خطر ومهدَّد. أما الفطور السامة التي نمت في الحديقة خلال غيابي والمسخ الذي كان الرجل الصغير يصارعه، أي ريشارد نفسه، فإنهما يرمزان أيضاً إلى عضو الذكر «السيء» الذي يحتويه جسم أمه. وكان الاستيهام، الذي مفاده أن أمه تحتوي على عضو الذكر المخرّب، عضو أبيه، يشرح شرحاً جزئياً خوفه من العلاقات الجنسية. وكان حصره قد تيقّظ وتفاقم بفعل سفري إلى لندن. وكانت رغباته الخاصة العدوانية تجاه والديه اللذين يباشران الفعل الجنسي تفاقم حصره وإثميته إلى حد كبير.

وثمة صلة وثيقة بين خوف ريشارد من عضو الذكر «السيء» الأبوي، الذي يحتويه جسم أمه، وبين خوفه المرضي من الأطفال. وهذان الخوفان يرتبطان ارتباطاً صميمياً بالاستيهامات حول «داخل» أمه بوصفه محلاً مفعماً بالخطر. ويعتقد في الحقيقة أنه هاجم وجرح الأطفال المتخيّلين الذين يحتويهم بطن أمه، وأن هؤلاء كانوا قد أصبحوا أعداءه. وهناك جزء كبير من هذا الحصر كان قد نُقل إلى أطفال العالم الخارجي.

والأمر الأول الذي فعله ريشارد بأسطوله، خلال هذا العدد القليل من الجلسات، هو صدام بين مدمّرة كان قد سمّاها «مصّاص الدماء» والمدرّعة رودنه التي كانت تمثّل أمه دائماً. وثمة مقاومة سرعان ما ظهرت فأسرع في ترتيب أسطوله على نحو آخر. وأجابني مع ذلك، على الرغم من أنه أجاب على مضض عندما سألته من يمثّل «مصّاص الدماء»، وقال لي إنه كان يمثّله هو نفسه. وكانت المقاومة المفاجئة التي أرغمته على أن يقطع لعبه قد ألقت بعض الضوء على كبت رغباته التناسلية إزاء أمه. وصدام السفينتين كان يبدو في تحليله، خلال عدة مناسبات، رمزاً للعلاقات الجنسية. وكان أحد الأسباب الرئيسة لكبت رغباته الجنسية هو خوفه من قدرتها المدمّرة: إنه يعزو إليها في الحقيقة، كما يوحي إليه اسم «مصّاص الدماء» سمة سادية فمية.



الشكل رقم (١)

٣ ـ إيجاد المعنى الخفي لأحد الرسوم

أنوي حالياً أن أفسّر **الرسم الأول** الذي يوضّح بالمثال، هو ذاته، أوضاع الحصر التي كان ريشارد قد ألفى نفسه فيها خلال هذه المرحلة من التحليل، ففي هذه البنيات، ونحن نعرف ذلك من قبل، كان هذا اللون الأحمر يمثّل ريشارد دائماً، والأسود أباه، والبنفسجي أخاه، والأزرق الفاتح أمه. وصرّح ريشارد وهو يلوّن المقاطع بالأحمر: «إنهم الروس». وعلى الرغم من أن الروس كانوا حلفاءنا، فإنه يرتاب فيهم. وعندما أشار بالتالي إلى أن اللون الأحمر (هو ذاته) كان يمثّل الروس، المشبوهين في ناظريه، فإنه بيّن لي أنه يخاف من عدوانيته الخاصة. وهذا الخوف هو الذي كان قد أرغمه على أن يقطع لعبه حينما فهم أنه هو ذاته «مصّاص الدماء» في المقاربة الجنسية لأمه. وكان **الرسم الأول** يعبّر عن حصره إزاء موضوع جسم الأم، الذي هاجمه الأب ـ هتلر (القنابل والزوابع والفطور المسمومة». والامبراطورية بكاملها، وسنرى ذلك عندما نتكلّم على التداعيات التي أثارها **الرسم الثاني**، كانت تمثّل جسم الأم وكان قد اخترقه عضوه الخاص، عضو الذكر «السيء». ولكن ثمة، في **الرسم الأول**، ثلاثة أعضاء ذكر كانوا يخترقون الامبراطورية، ثلاثة تمثّل الثلاثة رجال في الأسرة: أبيه وأخيه وهو نفسه. ونحن نعلم أن ريشارد إنما كان قد عبّر عن رعبه من العلاقات الجنسية خلال هذه الجلسة. وإلى الاستيهام ذي العلاقة بتهديد التدمير، الذي كان الأب «السيء» يسبّب الإرهاق به لأم ريشارد، كان قد انضاف الخطر الذي تعرّضها إليه عدوانية ريشارد ذاته، ذلك أنه كان قد توحّد بالأب «السيء». وكان أخوه يبدو هو أيضاً عدوانياً. وكانت الأم (التي يمثّلها اللون الأزرق الفاتح)، في هذا الرسم، تحتوي على رجال سيئين، أو تحتوي بالحري على أعضاء الذكر السيئة، أعضائهم، فجسمها إذن كان محلاً مهدّداً وخطراً.

والحصر الذي كان يستشعره ريشارد أمام عدوانيته، وأمام ميوله

السادية الفمية على وجه الخصوص، كبير. إنه يدفعه إلى أن يقاوم بعنف هذه العدوانية. وكانت المعركة تبدو، من حين إلى آخر، واضحة كل الوضوح. وعلينا أن نلاحظ أن ريشارد كان يصرّ أسنانه ويحرك فكّه، كما لو أنه يقصد أن يعضّ، عندما يكون في حالة الغضب. وكانت قوة ميوله السادية الفمية تخيفه من أن يسبّب الألم لأمه. وكان يسأل على الغالب بعد أن يوجّه إلى أمه، أو إليّ، ملاحظة غير جارحة على الإطلاق: «هل جرحتك؟». فالخوف والإثمية اللذين كانت استيهاماته قد أيقظتهما كيّفا حياته الانفعالية بكاملها. وكان يحاول أن يقمع غيرته وشكاواه حتى يحتفظ بحبه لأمه: إنه يمضي إلى حدّ ينفي فيه بواعث هذه الغيرة والشكاوى الأكثر وضوحاً.

ولكن محاولات ريشارد ليقمع كرهه وعدوانيته ولينفي اعتراضاته كانت محاولات تؤول إلى الإخفاق. وتجلّى الغضب الذي سبّبته الإحباطات الماضية والراهنة في التحويل[٢] تجلياً بارزاً؛ ومثال ذلك جوابه عن الإحباط الذي عاناه بسبب انقطاع التحليل. ونحن نعلم أنني كنت قد أصبحت موضوعاً جريحاً في تفكيرها عندما ذهبت إلى لندن. ولم أكن جريحاً مع ذلك لأنني تعرّضت إلى خطر القنابل فحسب، بل لأنني أيضاً كنت قد أيقظت كرهه وأنا أجعله يعاني ضرباً من الإحباط. فكان لديه الانطباع إذن، بصورة لاشعورية، أنه هاجمني. وإذ كرّر ريشارد بعضاً من أوضاع الإحباط السابقة، فإنه كان يتوحّد في هجماته المستوهمة ضدي، بالأب هتلر، المهدّد وقاذف القنابل، ويخشى انتقامي. فكنت قد أصبحت إذن وجهاً معادياً، منتقماً.

٤- انفصال صور الأم

انشطار صورة الأم المبكّر إلى أم طيبة وإلى أم سيئة، «مرضعة»، وتلك وسيلة ليتكيّف مع ثنائية المشاعر، كان أمراً بارزاً لدى هذا الطفل. وتعدّل هذا

(٢) انظر علاج التحليل النفسي، في هذه المجموعة ذاتها.

الانقسام فيما بعد وأفضى إلى انقسام بين الأم «المرضعة» التي كانت طيبة والأم التناسلية التي كانت «خبيثة». وكانت الأم الفعلية تمثّل، في هذه المرحلة من التحليل، الأم «الطيّبة المرضعة»، في حين أنني كنت قد أصبحت، أنا ذاتي، «الأم الخبيثة» التناسلية وأنني إذن أيقظت في نفسه العدوانية والخوف المرتبطين بهذه الصورة. وكنت قد أصبحت الأم التي جرحها الأب خلال الفعل الجنسي أو أصبحت متّحدة بالأب - هتلر «الخبيث».

وكانت اهتمامات ريشارد الجنسية، في هذه الفترة إياها، متيقّظة إلى درجة محسوسة. وكان هذا الأمر يبدو على سبيل المثال في الحديث الذي له مع أمه عن الفعل الجنسي، على الرغم من أنه عبّر مباشرة، على وجه الخصوص، عن رعبه. ولكن الرعب ذاته هو الذي كان قد دفعه إلى أن يتحولّ عني بوصفي الأم «التناسلية» ويقترب من الأم الفعلية بوصفها الموضوع الطيّب. إنه توصّل إلى هذا الوضع بفعل نكوص إلى المرحلة الفمية. وكان ريشارد، خلال وجودي في لندن، أكثر التصاقاً بأمه من أي وقت مضى. قال لي، هو نفسه، إنه كان «صوص ماما»، والصيصان تركض دائماً خلف أمها. ولم يكن هذه الهروب صوب الأم المرضعة، وهو دفاع ضد الحصر أمام الأم التناسلية، ضرباً من النجاح. إن ريشارد أضاف في الحقيقة: «ولكن الصيصان مرغمة في نهاية الأمر على أن تتدبّر نفسها وحدها، تماماً، لأن الدجاجات لم تعد تهتّم بها ولم تعد تحبها».

وكان الإحباط الذي عاناه ريشارد في التحويل بسبب انقطاع التحليل قد بعث إحباطات وشكاوى أكثر قدماً، وأول الإحباطات كلها الإحباط الذي كان ذا علاقة بثدي أمه، ذلك الإحباط الراقد في أعمق أعماق هذه المطاعن والإحباطات. فالاعتقاد بالأم الطيّبة لم يكن بوسعه إذن أن يظلّ قائماً.

ورتّب ريشارد، مباشرة بعد الصدام الذي تكلمت عليه فيما سبق بين المدمّرة «مصّاص الدماء» (هو نفسه) والمدرّعة «رودنه» و«نلسون» (أمه وأباه) جنباً إلى جنب، ثم رتّب واحداً بعد الآخر، عدة قوارب كانت تمثّل أخاه ونفسه وكلبه، موضوعة، قال لي، بحسب ترتيب العمر. وكان لعبه يعبّر في هذه الفترة نفسها عن رغبته في الانسجام والسلم في الأسرة، إذ أتاح لوالديه أن يتقاربا واستسلم لسلطة أبيه وأخيه. وكانت هذه الرغبة تنطوي على ضرورة مفادها أن يقمع غيرته وكرهه، ذلك أنه كان بوسعه عندئذ فقط، يقول لنفسه، أن يتجنّب مصارعة أبيه لامتلاك أمه. فكان يستبعد على هذا النحو خوفه من الخصاء ويحتفظ فضلاً عن ذلك بالأب الطيّب والأخ الطيّب. ولكنه كان، على وجه الخصوص، يجنّب أمه الجراح في صراع يضع ريشارد في مواجهة مع أبيه.

فلم تكن حاجته وحدها إذن إلى أن يدافع عن نفسه ضد الخوف من هجوم خصميه، أبيه وأخيه، هي التي تسيطر عليه، ولكن قلقه على موضوعاته الطيّبة كان يسيطر عليه أيضاً. وتجلّى عندئذ حبه، والحاجة إلى أن يستدرك الأضرار الاستيهامية-أضراراً كان محتّماً أن تتكرّر لو كان قد أطلق العنان لكرهه وغيرته - تجلياً بقوة متعاظمة.

ولم يكن بالوسع نيل الانسجام والسلام الأسريين إذن، ولا قمع الغيرة والكره، ولا الاحتفاظ بموضوعات الحب، إلا إذا كان ريشارد يكبت رغباته الأوديبية. وكان الكبت ينطوي على نكوص جزئي صوب الطفولة الأولى، ولكن هذا النكوص كان يرتبط بـ**إضفاء المثالية** على العلاقة بين الأم والرضيع. والواقع أن ريشارد كان يريد أن يتحوّل إلى طفل صغير مجرّد من العدوانية، ومن الميول السادية الفمية على وجه الخصوص. وإضفاء المثالية على الرضيع تعني إضفاء المثالية المقابل على الأم وعلى ثدييها أول الأمر: ثديين مثاليين لا يسبّبان أبداً معاناة الإحباط، بالنظر الى أن العلاقة بين الأم

وطفلها علاقة حب على نحو صرف. فالأم السيئة والثدي السيّء كانا قد انفصلا في ذهنه عن الأم المثالية وابتعدا عنها ابتعاداً كبيراً.

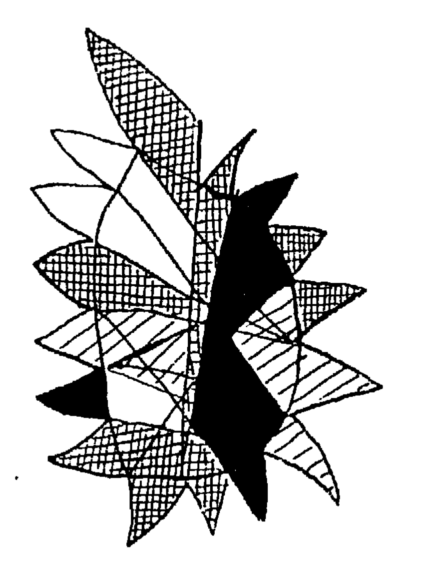
٥- امبراطورية الأم

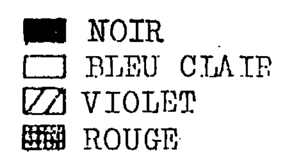
وكان الرسم الثاني يوضّح بالمثال بعضاً من مواقف ريشارد من ثنائية المشاعر الخاصة به ومن حصره وإثميته. وأراني المقطع الأحمر «الذي يجتاز امبراطورية ماما كلها»، ولكنه سرعان ما أصلح خطأه قائلاً: «إنها ليست امبراطورية ماما، إنها على وجه الدقة امبراطورية تحتوي جميع البلدان». وإليكم التفسير الذي اقترحته عليه: كان يخاف أن يتبيّن أنه يريد أن يرسم امبراطورية أمه، ذلك أن المقطع الأحمر كان عندئذ يخترق داخل جسم الأم. وحول هذا الأمر، نظر ريشارد إلى الرسم مرة إضافية أخرى فوجد أن المقطع الأحمر«كان يشبه عضو الذكر» وبيّن أن هذا العضو كان يقسم الامبراطورية إلى قسمين: في الغرب بلدان تنتمي إلى العالم كله، في حين أن الجزء الشرقي لم يكن يحتوي شيئاً ينتمي إلى الأم، بل إليه هو نفسه وإلى أبيه وأخيه فقط.

وكان الجانب الأيسر من الرسم يمثّل الأم الطيّبة المرتبطة بريشارد ارتباطاً صميمياً، ذلك أن ملكيات أبيه كانت قد تقلّصت فيه، وملكيات أخيه، هي أيضاً، هزيلة جداً. وعلى العكس، كان الرجال وحدهم يبدون من الجانب الأيمن (الشرق الخطر الذي كنت أصادفه سابقاً في تحليل هذا الطفل) في حالة صراع بعضهم مع بعض، أو بالحري أعضاؤهم التناسلية السيئة. وكانت أمه غائبة عن هذه الجهة إياها لأن الرجال السيئين كانوا قد سحقوها في اعتقاده. وكان هذا الرسم يعبّر عن الفصل بين الأم السيئة المهدَّدة (الأم التناسلية) والأم المحبوبة، غير المصابة بأذى (الأم المرضعة).

وفي الرسم الأول الذي استخدمته لأوضّح بالمثال بعض الحصر، نرى

II





الشكل رقم (٢)

الآن آليات الدفاع تعلن عن نفسها، وهي آليات تبدو على نحو أكثر وضوحاً في **الرسم الثاني**. وعلى الرغم من أن الأزرق الفاتح الذي يمثّل الأم موجود من أول **الرسم الأول** إلى آخره وأن الانشطار إلى أم «تناسلية» وأم «مرضعة» لم يكن واضحاً فيه مثلما كان واضحاً في **الرسم الثاني**، فإن بوسعنا أن نكتشف هذه المحاولة من القسمة إذا عزلنا المقطع الموجود في أقصى اليمين.

وكانت القسمة، في **الرسم الثاني**، ناجزة بمقطع محدّب جداً ومستطيل فسّره ريشارد على أنه عضو ذكر. وهذا أمر موضّح جداً: فالطفل كان يعتقد بأن عضو الذكر ثاقب وخطر. وكان هذا المقطع الأخير يشبه شبهاً كبيراً سناً محدّبة أو خنجراً، ويعبّر في رأيي عن هاتين الدلالتين معاً: الدلالة الأولى ترمز إلى الخطر الذي تعرّض الميول السادية الفمية إليه موضوع الحب، والثانية إلى الخطر الذي كان الطفل يعزوه إلى الوظيفة التناسلية بوصفها كذلك، بسبب الولوج الذي تفترضه هذه الوظيفة.

وكان هذا الخوف يدفعه باستمرار وعلى الدوام أن يهرب صوب الأم «المرضعة». ولم يكن بوسعه أن يجد استقراراً نسبياً إلا على المستوى ذي الهيمنة قبل التناسلية

. فالتقدم التدريجي لليبيدو كان مكبوحاً لأن الحصر والإثمية كانا حادّين جداً وكانت الأنا عاجزة عن أن تنشر دفاعاتها الضرورية. فلم يكن بوسع التنظيم التناسلي إذن أن يكون مستقراً على نحو كاف، وذلك أمر ينطوي على ميل قوي إلى النكوص. والتأثير المتبادل لظاهرتي التثبيت والنكوص كان بوسعنا ملاحظته في كل مرحلة من نموه.

٦- مفعولات التحليل الأولى

نجم عن تحليل أوضاع الحصر المختلفة التي وصفتها فيما سبق مفعولٌ مفاده أنه ساق رغبات ريشارد الأوديبية وضروب الحصر التي كانت توقظها إلى دائرة الضوء. ولكن أناه لم تكن قادرة على أن تحتوي هذه الرغبات إلا بالاستخدام المتعاظم لبعض الدفاعات التي سأتكلم عليها في الحال. ولم يكن بوسع هذه الدفاعات مع ذلك أن تكون ناجعة إلا لسبب مفاده أن التحليل أزال بعض ضروب الحصر. وذلك أمر كان ينطوي أيضاً على إزالة بعض التثبيتات.

وعندما استبعد التحليل كبت الرغبات التناسلية لدى ريشارد استبعاداً ضمن بعض الحدود، دخل خوفه من الخصاء، دخولاً دون تحفّظ، حقل التحليل وعبّر عن نفسه بشتى الوسائل. وطرأ على طرائق الدفاع لديه تحولاً مقابلاً. وخلال الجلسة الثالثة التي تلت عودة ريشارد، خرج ليذهب إلى الحديقة وتكلّم على رغبته في أن يتسلّق بعض الجبال، وعلى وجه خاص جبلاً ثلجياً يسمى Snowdon كان قد تكلم عليه سابقاً خلال تحليله. ولاحظ، وهو يتكلم، غيوماً في السماء وقال إن ثمة زوبعة ربما كانت تنذ، بالخطر. وتابع يقول إن أيام الإعصار أيام معاناة بالنسبة للجبال التي كانت

تقضي فترة قاسية عندما تقع عليها العواصف. وكان يعبّر على هذا النحو عن خوفه من أب سيء تمثّله القنابل والزوابع في المواد التي جمعناها خلال الجلسات السابقة. وكانت رغبته في تسلّق الجبل الثلجي، الذي يرمز إلى رغبته في إنجاز الفعل الجنسي مع أمه، قد أيقظت على الفور خوفه من أن يخصيه الأب السيء. فكان الإعصار الجاهز للانفجار يعني إذن خطراً على أمه وخطراً عليه في وقت واحد.

وقال لي ريشارد، خلال الجلسة نفسها، إنه سيرسم خمسة رسوم. وصرّح عَرَضاً بأنه كان قد رأى إوزّة مع أربع إوزات صغيرة «لطيفة». وحين استأنف لعبه بأسطوله، أعطاني سفينة وأخذ لنفسه سفينة أخرى. وكان عليّ أن أسافر في نزهة مستخدمةً سفينتي وهو ذاته يستخدم سفينته. وبدأ يبعد سفينته، ولكنه سرعان ما أعادها ووضعها قريبة جداً من سفينتي. وكان هذا التماس يرمز، في عدة مناسبات، إلى العلاقات الجنسية في المواد السابقة التي استخدمها وعلى وجه الخصوص عندما كان الأمر ذا علاقة بوالديه. فهذه اللعبة كانت تعبّر إذن عن رغباته التناسلية مثلما تعبّر عن أمله في القوة. وكانت الرسوم الخمسة، التي كان ينوي أن يقدّمها إلي، تمثّله هو ذاته (الإوزّة) وقد منحني، أو منح أمه بالحري، أربعة أطفال (الإوزات الصغيرات الأربع).

وقبل بضعة أيام، وقد رأينا ذلك، ثمة حادث مماثل كان قد وقع عندما كان ريشارد يلعب بأسطوله: كانت المدمّرة «مصّاص الدماء» (ريشارد) تدخل في صدام مع المدرّعة «رودنه» (أمه). وكان الطفل عندئذ ينتقل انتقالاً مفاجئاً إلى لعبة أخرى، مبدياً على هذه النحو خوفه من أن يرى رغباته التناسلية وقد سيطرت عليها ميوله السادية الفمية. ومع ذلك تناقص الحصر بعض التناقص خلال بضعة أيام تلت، وضعفت العدوانية، وتعززت في

الوقت نفسه بعض وسائل الدفاع. فهناك حادث مشابه (سفينته تمسّ سفينتي خلال رحلة نزهة) كان بوسعه إذن أن يحدث الآن دون أن يؤدي إلى الحصر وإلى كبت رغباته التناسلية.

٧ ـ البحث عن غزو أمه

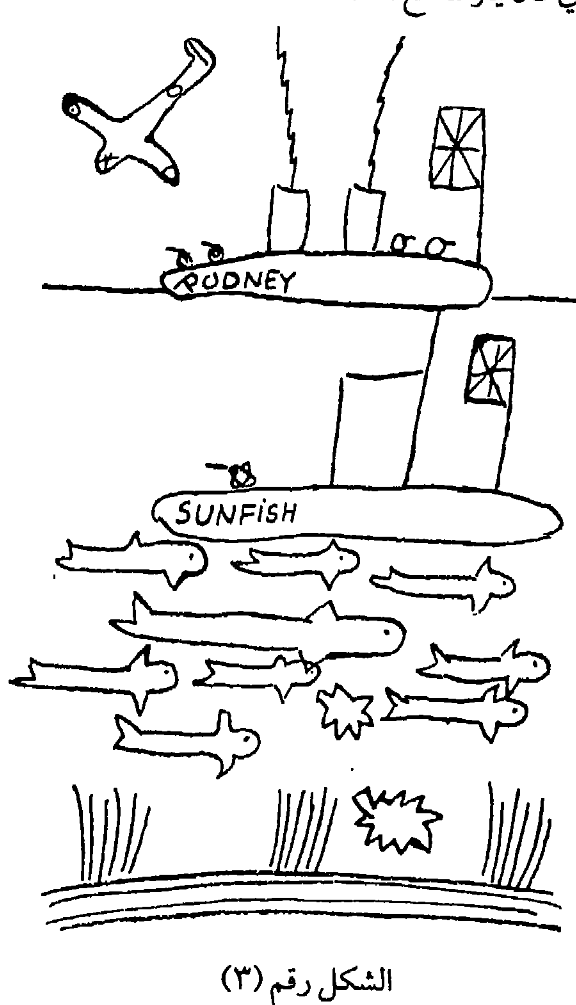
كان ريشارد يعتقد اعتقاداً يزداد رسوخاً أنه سيفلح في أن يكون قوياً. وكانت هذه الثقة صادرة عن أمله في أن أمه يمكنها أن تكون مصونة. وكان قادراً في المرحلة الحالية على أن يتيح لنفسه أن يتخيّل أنها تحبه كما تحب امرأة من النساء رجلاً وتسمح له أن يحتلّ مكان أبيه. فانتهى إذن إلى الأمل في أنها ستصبح حليفته وستحميه من خصومه جميعهم. إن ريشارد كان قد أخذ، على سبيل المثال، القلم الأزرق والقلم الأحمر (أمه وهو نفسه) ووضعهما واقفين على الطاولة جنباً إلى جنب. وكان القلم الأسود (أبوه) يسير نحوهما ويطرده القلم الأحمر، في حين أن القلم الأزرق يطرد البنفسجي (أخاه). وإليكم ما كانت هذه اللعبة تمثّل: تمثّل رغبة ريشارد في أن يرى أمه تطرد معه أباه وأخاه، عدويّن خطرين. وثمة ارتباط (تداع) بمناسبة الرسم الثاني كان يبيّن أيضاً أمه أنها شخصية مفعمة بالقوة تصارع الرجال الخبثاء وأعضاءهم التناسلية الخطرة: قال إن الأم الزرقاء في الغرب كانت تتهيأ للصراع مع الشرق ولاستعادة تلك التي من بلدانها كانت توجد فيها. ونحن نعلم الآن أن هجمات جنسية شنّها ثلاثة رجال، ريشارد وأبوه وأخوه، كانت، في الجزء الأيمن من الرسم الثاني، قد أرهقت الأم. وفي الرسم الرابع الذي سأصفه فيما بعد، نشر ريشارد اللون الأزرق على الرسم بكامله تقريباً، إذ عبّر بذلك عن أمله في أن يرى أمه تستعيد أراضيها المفقودة. وبوسعها عندئذ، وقد أُنقذت واستعادت قوتها، أن تساعده وتحميه. وكان يأمل أن يستعيد موضوعه الطيّب ويوقظ فيه النشاط، وكان ما يقصد قوله أنه يعتقد أن بوسعه مواجهة عدوانيته الخاصة بنجاح أكبر. وهذا

الأمل هو الذي كان يتيح لريشارد أن يكابد رغباته التناسلية بقوة أكبر. وبالنظر إلى أن حصره قد تناقص، فقد كان بوسعه فضلاً عن ذلك أن يوجّه عدوانيته صوب الخارج وأن يستأنف، في استيهاماته، ذلك الصراع مع أبيه وأخيه بغية امتلاك أمه. ورتّب سفنه رتَلاً، وهو يلعب بأسطوله، يتصدّرها أصغرها. وكانت دلالة هذه اللعبة ما يلي: إنه كان يربط الأعضاء التناسلية لأبيه ولأخيه ويضيفها إلى أعضائه التناسلية. وكان لديه الانطباع بأنه اكتسب القوة بهذا النصر الاستيهامي الذي حققّه على خصميه.

ويشكّل **الرسم الثالث** جزءاً من مجموعة كانت تنسّق النباتات ونجوم البحر والسفن والأسماك بكل ضرب من ضروب الأساليب. وظهر هذا الرسم على الغالب خلال التحليل. وهذه الرسوم، شأنها شأن كل الرسوم الأخرى التي كانت تمثّل امبراطورية الأم، كانت تبرهن على تنوّع كبير في التفصيلات، ولكن ثمة بعض العناصر التي تشخّص الموضوع نفسه دائماً أو الوضع نفسه. فالنباتات النامية تحت الماء كانت تمثّل الأعضاء التناسلية لأمه. وهناك نباتان كانا موجودين بصورة عامة، يفصلهما فراغ. إنهما كانا يدلاّن أيضاً على ثديي أمه، وعندما يكون أحد نجوم البحر موضوعاً بين نباتين، فإن ذلك كان يعني أن الطفل كان يمتلك ثدي أمه أو أنه كانت له علاقات جنسية مع هذه الأم. وكان محيط نجمة البحر المسنّن يمثّل أسنان الطفل ويرمز إلى ميوله السادية الفمية.

وعندما رسم ريشارد **رسمه الثالث**، بدأ يرسم السفينتين، ثم السمكة الكبيرة وبعض الأسماك الصغيرة التي كانت تحيط بالكبيرة. وحين كان يرسم الأسماك الصغيرة، بدا في حال من نفاد الصبر المتصاعد والنشاط، وملأ الحيّز الفارغ بالأسماك الرضّع. ولفت نظري إلى إحدى الأسماك الرضع التي كانت تحجبها جزئياً زعنفة السمكة الأم وقال: «إنها الأصغر». ويحمل الرسم على الاعتقاد بأن الأم كانت ترضع السمكة الرضيع. وسألت ريشارد إن كان هو ماثلاً بين الأسماك الصغيرة، ولكنه أجاب بالنفي.

وأضاف أن نجمة البحر الموجودة بين النباتات كانت شخصاً كبيراً وأن نجمة البحر الصغرى كانت شخصاً كبيراً على وجه التقريب: وشرح لي أنها كانت أخاه. وجعلني ألاحظ أيضاً أن للسفينة (السمكة الشمس Sungish) مشفاف كان يغوص في المدرعة «رودنه». وقلت له إن السفينة السمكة الشمس ربما كانت تمثله هو ذاته (كلمة «sun»، الشمس، حلت محل كلمة «son»، الابن) وإن المشفاف الذي يغوص في المدرعة «رودنه» (الأم) كانت تعنيالفعل الجنسي الذي كان يمارسه مع أمه.



الشكل رقم (٣)

٨ ـ الحلول محل الأب ولكن...

كان ريشارد يصرّح بأن نجمة البحر الموجودة بين النباتات شخص كبير. وذلك كان يعني أنها تشخّص أباه، في حين أن ريشارد تمثّله «السمكة الشمس» سفينة أكبر من «رودنه» (أمه). وكان يعبّر على هذا النحو عن قلب العلاقة بين الأب والابن، و يبدي في الوقت نفسه حبه لأبيه ورغبته في أن يصلح الأمور معه إذ رسم الأب ـ نجمة البحر بين النباتات. وكان يمنح أباه على هذا النحو مكان الطفل الراضي.

وتبيّن المواد التي قدّمتها هنا أن الوضع الأوديبي الإيجابي والوضع التناسلي كانا يتجلّيان بصورة أكثر بروزاً. وكان ريشارد قد توصّل إليهما، ورأينا ذلك، بعدة طرائق مختلفة، إحداهما تكمن في أن يجعل أباه الرضيع رضيعاً لم يكن محروماً من الإشباع وكان بالتالي «طيّباً»، في حين أنه هو ذاته كان يُلحق عضو الذكر الأبوي بعضو الذكر خاصته.

وكان ريشارد يعزو إلى نفسه، حتى الآن، أدواراً شتى في هذا النوع من الرسم ويتعرّف دائماً على نفسه أيضاً بسمات الطفل. وارتدّ ريشارد في الواقع، يدفعه الحصر، إلى دور أُضفيت عليه المثالية، دور الطفل الصغير الراضي والمحب. وكان قد صرّح للمرة الأولى في تلك اللحظة أنه غير موجود بين رضّع لوحته. وتلك كانت، على ما بدا لي، علاقة جديدة على تعزيز موقعه التناسلي. فكان يحسّ أن بوسعه أن يكبر ويصبح راشداً وقوياً من الناحية الجنسية. وكان يمكنه إذن، في استيهاماته، أن ينجب أطفالاً من أمه، ولم يكن بحاجة بعدُ إلى أن يمارس دور الرضيع.

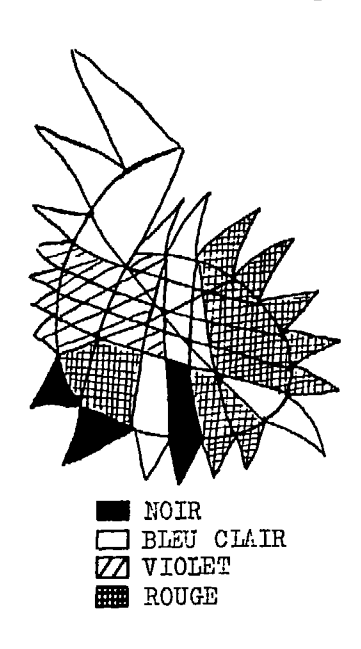
ولكن هذه الرغبات والاستيهامات التناسلية كانت تجرّ ضروباً شتى من الحصر، ولم يكن ريشارد يفلح إلا جزئياً في حلّ نزاعاته الأوديبية، إذ يحلّ محل أبيه دون أن يكون عليه أن يصارعه. وإلى جانب هذا الحلّ المريح نسبياً، كان الرسم يكشف عن احتمال آخر: يخشى ريشارد أن يرتاب أبوه

برغباته التناسلية التي كان يرعاها إزاء أمه، وأن يراقبها عن كثب، وأن يريد خصاءه. والواقع أن ريشارد قال لي، عندما كنت أفسّر له انعكاس العلاقة بين الأب والابن، إن الطائرة، التي في السماء، بريطانية، وهي تقوم بمهمة الدورية. وأذكّر بأن مشفاف الغواصة، المشفاف الغائص في «رودنه»، كان يمثّل رغبة ريشارد في أن يكون له علاقات جنسية مع أمه. وذلك يعني أنه يحاول أن يحلّ محل أبيه وأنه يتوقّع إذن ريبته. فاقترحت عليه التفسير التالي عندئذ: لم يكن أبوه قد تحوّل إلى طفل فحسب، ولكنه كان أيضاً حاضراً في دور الأنا العليا الأبوية، دور الأب الذي يراقبه، ويحاول أن يحول بينه وبين أن يقيم علاقات جنسية مع أمه، ويهدّده بالعقاب (الطائرة التي تقوم بمهمة الدورية).

وأكملت تفسيري قائلة إن ريشارد نفسه كان يقوم بمهمة الدورية حول أبويه، ذلك أنه لم يكتف بأن يكون شغوفاً بحياتهما الجنسية؛ إنه كان أيضاً يكابد الرغبة اللاشعورية القوية في أن يعوق هذه الحياة الجنسية وأن يفصل بين أبويه.

وكان الرسم الرابع يوضّح المادة نفسها بالمثال على نحو مختلف. فريشارد كان يغنّي النشيد الوطني، وهو يلوّن المقاطع باللون الأزرق، ويشرح لي أن أمه كانت الملكة وهو نفسه الملك. وكان قد أصبح الأب وفاز بالعضو التناسلي الأبوي القوي. وقال لي، عندما أنهى الرسم ونظر إليه، إن هذا الرسم نفسه «مليء بالماما» وبنفسه وبوسعهما، كلاهما، أن «يصرعا بابا نهائياً». وأراني أنه لم يكن في الرسم سوى مقاطع قليلة تعود ملكيتها إلى الأب الخبيث (المقاطع السوداء). وبما أن الأب كان قد تحوّل إلى طفل صغير غير مؤذ، فإن لم يكن يبدو له ضرورياً أن يصارعه. ولم يكن لدى

ريشارد مع ذلك ثقة كبيرة بهذا الحلّ الذي تقدّمه قوته المطلقة، كما كان ما قاله لي يبرهن على ذلك: إن بوسعهما، هو وأمه، أن يصرعا بابا معاً إذا كانت الضرورة تقتضي ذلك. وكان تناقص حصره قد أتاح له أن يواجه المنافسة، وحتى الصراع مع أبيه.



الشكل رقم (٤)

٩- ثمة تسويات ضرورية للنمو السوي

غنّى ريشارد نشيدي النرويج وبلجيكا الوطنيين وهو يلوّن المقاطع البنفسجية، وقال: «إنه لطيف». وكان ضيق المساحة المخصّصة للمقاطع البنفسجية، بالقياس على الزرقاء والحمراء، تبيّن أن أخاه كان قد تحوّل، هو أيضاً، إلى رضيع. وكان غناء نشيدي بلدين صغيرين حليفين يدلانني على أن الجملة التي لفظها ريشارد، «إنه لطيف»، كانت في وقت واحد ذات

علاقة بأبيه وأخيه اللذين أصبحا طفلين صغيرين غير مؤذيين. وبدأ الحب المكبوت الذي كان يكابده، حب أبيه، يتجلّى في هذه المرحلة من التحليل(٣). وكان ريشارد يحسّ بأنه ليس بوسعه أن يستبعد أباه بسبب مظاهره الخطرة. وبرازه الخاص - من حيث أنه كان يشبّهه لاشعورياً بأبيه الذي يمثّله اللون الأسود - يبدو له بالإضافة إلى ذلك مصدر الخطر ولم يكن بوسعه أن يستبعده أيضاً. إنه يعترف إذن بواقعه النفسي، وذلك أمر كان يبدو في أن اللون الأسود غير غائب في الرسم، مع أن ريشارد يتعزّى وهو يقول إنه لم يكن داخل الرسم سوى القليل من الأقاليم الخاصة بالأب هتلر.

وبوسعنا أن نرى، في مختلف الوسائل التي استخدمها ريشارد ليعزّز موقعه التناسلي، بعضاً من التسويات التي تبحث الأنا عن أن تقيمها بين مقتضيات الأنا العليا ومقتضيات الهو. وفي حين أن ميول الهو كان استيهام العلاقات الجنسية مع أمه يشبعها، فإن الميل إلى قتل أبيه لم يكن له مآل وكان لوم الأنا العليا بالتالي أقل عنفاً. ولم تكن مقتضيات هذه الأنا العليا مع ذلك مشبعة إلا بصورة جزئية، ذلك أن الأب كان مخلوعاً من المكان الذي يحتلّه قرب الأم وإن كان مراعى.

وتكوّن مثل هذه التسويات ذلك الجزء الأساس من كل مرحلة سوية من مراحل نمو الطفل. ففي كل مرة يحدث تذبذب كبير بين وضعين ليبيديين، يحدث اضطراب في الدفاعات ولابدّ لتسويات جديدة من أن توجد. وبيّنتُ على سبيل المثال، في الفصل السابق، أن ريشارد كان

(٣) لنشر إلى واقعة ذات مدلول كبير: الرغبة الليبيدية في عضو الذكر الأبوي، المكبوتة بقوة، كانت قد برزت إلى النور هي أيضاً، وبشكلها الأكثر بدائية. قال ريشارد عندما كان يلاحظ مجدّداً صورة المسخ الذي كان الرجل الصغير يصارعه: «المسخ مرعب للنظر، ولكن لحمه يمكنه أن يكون لذيذاً للأكل».

يحاول، حينما تتناقص ضروب حصره الفمية، أن يواجه النزاع الذي كان يجعل مخاوفه ورغباته متعارضة، إذ يؤدي في استيهاماته دور الرضيع الثاني الذي لم يزرع الاضطراب في السلام الأسري. ولكن ثمة تسوية أُقيمت عندما تعزّز الموقع التناسلي واستطاع ريشارد أن يواجه خوفه من الخصاء مواجهة في أوسع مدى. فاحتفظ ريشارد برغباته التناسلية، ولكنه تجنّب الإثمية حين حوّل أباه وأخاه إلى رضيعين ينجبهما من أمه. والتسويات من هذا النوع، أياً كانت مرحلة النمو، لايمكنها أن توجد إلا الاستقرار النسبي. ولابدّ مع ذلك من أن تكون كمية الحصر والإثمية غير مفرطة بالقياس على قوة الأنا.

وإذا كنت قد بحثت أثر الحصر والدفاعات على النمو التناسلي بمثل هذه الدقّة، فالسبب أنه يبدو لي متعذّراً أن نفهم النمو الجنسي فهماً تاماً دون أن نأخذ بالحسبان تذبذبات بين شتّى مراحل التنظيم الليبيدي وبين ضروب الحصر والدفاعات الخاصة التي تميّز كل مرحلة من هذه المراحل.

١٠- الخوف من أن يسمّمه الأبوان

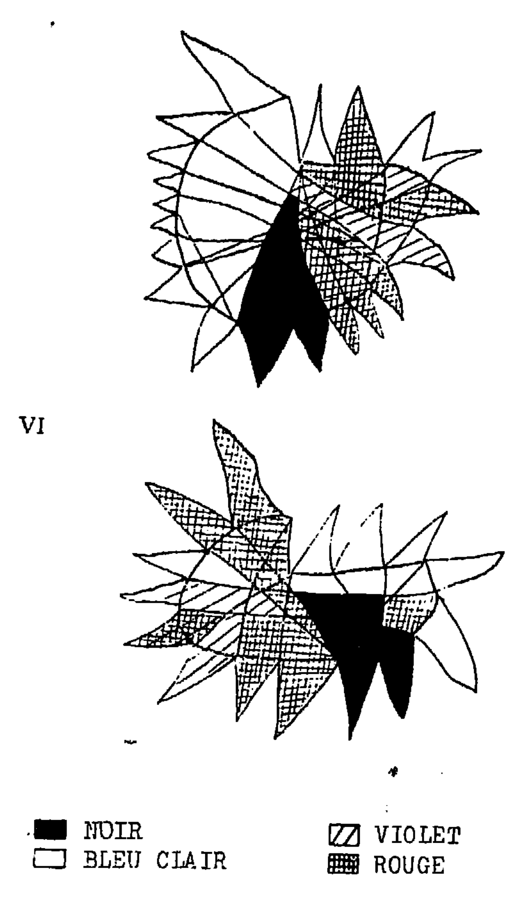
الرسم الخامس والرسم السادس يتطلّبان شرحاً أولياً. كان ريشارد مصاباً بألم في بلعومه ولديه قليل من الحّمى مساء اليوم الذي يسبق جلسة من جلسات التحليل، لكنه أتى مع ذلك إليها: كان الزمن صيفاً والجو لطيفاً. وكانت آلام البلعوم والرشوح تشكّل، كما ذكرت آنفاً، جزءاً من أعراضه وتسبّب له حصراً شديداً من توهّم المرض، حتى ولو كانت خفيفة. وكان في بداية الجلسة، عندما رسم الرسمين الخامس والسادس، مهموماً ومصاباً بالحصر إلى حد كبير. وقال لي إنه يشعر بحرارة كبيرة في بلعومه وبالسم في أقصى الجزء الخلفي من أنفه. والارتباط التالي (التداعي)، الذي لم يعبّر عنه

إلاّ بعد مقاومة شديدة، كان ذا علاقة بخوفه من أن يأكل من الطعام المسموم. وكان يشعر بهذا الخوف منذ سنين، ولكنه كان يعبّر عنه دائماً بصعوبة في تحليله، بهذه المناسبة كما في عدة مرات من قبل.

ونظر ريشارد كثيراً من النافذة، خلال هذه الجلسة، والحذر بادٍ عليه. ورأى فجأة رجلين يتكلمان معاً، وصرّح بأنهما كانا يتجسّسان عليه. وهكذا كانت علامات كثيرة تظهر عليه دالّة على مخاوفه الذهانية الهذائية. وكانت مراقبة أبيه وأخيه واضطهادهما يثيران هذه المخاوف، ولكنها تلتقي على وجه الخصوص عند أبويه المتحالفين ضده في حلف عدائي وسري. وربط تفسيري حذره بالخوف من مضطهدين داخليين كانوا يترصّدونه ويتآمرون عليه. وهذا الحصر كان قد تجلّى في تحليله قبل بعضٍ من الزمن. وأدخل ريشارد فيما بعد إصبعه في بلعومه فجأة، إلى أبعد حدّ ممكن، وبدا مهموماً جداً. وشرح لي أنه كان يبحث عن الجراثيم. وكنت قد اقترحت عليه التفسير التالي: الجراثيم (Germs) كانت تمثّل الألمان (Germans) أيضاً، أي الأب - هتلر، الأسود كل السواد، المتّحد بي، وترتبط في ذهنه بالرجلين اللذين كانا يضطهدانه، أي بأبويه في نهاية المطاف. فالخوف من الجراثيم كان إذن يرتبط ارتباطاً صميمياً بالخوف من أن يكون مسموماً، خوف ذي علاقة لاشعورية بأبويه، على الرغم من أنه لايتهمهما بصورة شعورية. وفتور هذا الخوف كان يحرّك مخاوفه الذهانية الهذائية.

وكان ريشارد قد نفّذ رسم الرسمين **الخامس والسادس** خلال هذه الجلسة، والارتباط (التداعي) الوحيد الذي استطعت الحصول عليه هذا اليوم نفسه هو أن الرسم **السادس** كان يمثّل الامبراطورية التي يمثلها الرسم **الخامس** نفسها. وكان الرسمان مرسومين بالفعل على ورقة واحدة.





الشكل رقم (٥)

وكان ريشارد، في اليوم التالي، قد استعاد صحته ويبدو ذا مزاج مختلف كل الاختلاف. ووصف لي، مليئاً بالنشاط، تلك اللذة التي كان قد اقتنصها وهو يأكل إفطاره، والحبوب بالحليب على وجه الخصوص، وبيّن لي كيف أنه مضغ كل شيء. (إنه أكل قليلاً جداً من الطعام خلال اليومين السابقين). وكان يقول إن معدته كانت صغيرة جداً، رقيقة وغائرة، و«العظام الكبيرة التي كانت موجودة داخلها تمدّدت» ما دام لم يكن يأكل طعام إفطاره. وكانت هذه «العظام الكبيرة» تدلّ على أبيه المستدخَل، أو على أعضاء أبيه التناسلية التي يمثّلها في مواد الرسم السابقة إما المسخ وإما الأخطبوط. وتعبّر العظام الكبيرة عن الجانب السيء في عضو الذكر

الأبوي، في حين أن «اللحم اللذيذ»، لحم المسخ، كـان يعـبّـر عن جـانبـه المشتهى. وكانت الحبوب، في التفسير الذي قدّمته، تمثّل الأم الطيّبة (الثديين الطيبين والحليب): إنه قارنها مرة من المرات بعش عصفور. وبما أن اعتقاده بالأم الطيبة التي استدخلها كان يتعزّز، فإن خوفه من المضطهدين الداخليين (العظام والمسخ) كان يتناقص.

وكـان تحليل الدلالة اللاشـعـورية لألم البلعـوم قـد أدّى إلى تناقص الحـصـر وإلى تعـديل في طرائق الدفـاع بالتـالي. وكـان مـزاج ريشـارد والارتبـاطات التي صـاغـهـا خـلال هـذه الجلسـة يشـهـدان بوضـوح على هذه التحـولات. وفـجـأة كـان العـالم قـد أصـبح رائعـاً في ناظريه: إنه يُعـجب بالريف، وبثوبي، وحذاءيّ، يقول لي إنني جميلة جداً. وتكلّم أيضاً على أمه بكثير من الحب والإعجاب. وكان العالم الخارجي يبدو وله إذن، وقد تناقص الخوف من المضطهـدين الداخليين، أفـضل مما كـان، وأكـثـر أمناً، واستعداد ريشارد للاستمتاع به كان متوطّداً. إننا قادرون على أن نلاحظ في الوقت نفسه أن اكتئابه يتخلّى عن مكانه لمزاج من الهوس الخفيف يدفعه إلى نفي خوفه من الاضطهاد. إن تناقص الحصر هو الذي كان في الحقيقة يتيح للدفاع الهـوسي، الثائر ضـد الاكـتـئاب، أن يتجلّى. ولـم يدم بـالطبع مزاج الهوس الخفيف لدى ريشارد، وظهر الاكتئاب والحصر في عدة مناسبات ممّا يلي من تحليله ظهوراً جديداً.

١١- ضروب من التقدّم تعبّر عنها الرسوم

تكلمت على وجه الحصر تقريباً، حتى الوقت الراهن، على العلاقة بين ريشارد وأمه بوصفها موضوعاً خارجياً. وكان تحليله مع ذلك قد أظهر الأمر التـالي من قبلُ بصـورة لامـجـال للشك فيـهـا: الدور الـذي كـانت الأم تمارسه بوصفها موضوعاً خارجياً يتداخل باستمرار مع الدور الذي كانت تمارسه بوصفها موضوعاً داخلياً. واحتفظتُ بإيضاح هذا المسألة، وهاجس

الوضوح شاغلي، لـ **الرسمين الخامس والسادس** اللذين يُبرزان بوضوح دور الأبوين، اللذين استدخلهما، في حياة ريشارد النفسية.

تناول ريشارد، في هذا اليوم إياه، **الرسم الخامس والرسم السادس** اللذين رسمهما في اليوم السابق، وصاغ الارتباطات (التداعيات)، التي كانا قد أثاراها في نفسه صوغاً حراً. وكان قادراً، وقد ضعف اكتئابه وضروب حصره ذات العلاقة بتوهّم المرض، على أن يواجه القلق الذي كان يحتجب خلف اكتئابه. وأظهر لي أن **الرسم الخامس** كان يشبه عصفوراً، بل عصفوراً «مرعباً تماماً». فالقطعة ذات اللون الأزرق الفاتح، في الأعلى، كانت تاجاً، والقطعة البنفسجية عيناً، والمنقار ذا «فتحة كبيرة». وكان هذا المنقار، كما بوسع المرء أن يرى، يتألف من المقطع الأحمر والمقطع البنفسجي الموجود إلى يمين الرسم، أي من اللون الذي كان يمثّل ريشارد دائماً واللون الذي يجسّد أخاه.

وهاكم التفسير الذي اقترحته عليه: كان التاج الأزرق يبيّن أن العصفور يمثّل أمه، الملكة، الأم المثالية في المادة السابقة، التي هي الآن شرهة ومدمّرة. ففي كل مرة كان منقاره يتكوّن من المقطع الأحمر والمقطع البنفسجي كان ذلك يعني أن ريشارد يُسقط على أمه ميوله السادية الفمية الخاصة وميول أخيه.

وكانت هذه المادة تبيّن أن استعداد الطفل لمواجهة واقعه النفسي الخاص أحرز تقدّماً كبيراً، وأصبح قادراً على التعبير عن إسقاط ميوله السادية الفمية والافتراسية على أمه. يضاف إلى ذلك أنه كان يتيح للجانب «الطيّب» من أمه وللجانب «السيء»، كما يبيّن **الرسم الخامس**، أن يتقاربا. وكان النموذجان الأصليان لهذين الجانبين، اللذين يظلّ الواحد منهما بعيداً عن الآخر بعداً كافياً بصورة عامة، هما الثدي الطيّب المحبوب والثدي السيء المكروه. والواقع أن الدفاعات بالانشطار والعزل كانت بادية

في هذا الرسم أيضاً: الجهة اليسرى من الصورة كانت زرقاء برمّتها. ولكن الأم كانت تبدو معاً بمظهر العصفور «المرعب» (المنقار المفتوح) وبمظهر الملكة (التاج الأزرق السماوي). وبالنظر إلى أن نفي ريشارد واقعه النفسي تضاءل، فإنه كان يرى أيضاً تنامي استعداده لمواجهة الواقع الخارجي: كان ممكناً بالنسبة إليه في هذا الزمن أن يعترف أن أمه أحبطته بالفعل وأيقظت كرهه إذن.

١٢- الخوف والإثمية: «الأبوان المتحدان»

كرّر ريشارد بصورة قاطعة، بعد تفسيرات **الرسم الخامس**، أن العصفور كان «مرعباً»، وصاغ بعض الارتباطات (التداعيات) التي أثارها **الرسم السادس**. وهذا الرسم الخاص، قال ريشارد، كان يشبه عصفوراً، ولكن دون رأس. والأسود الذي كان موجوداً في أسفل الرسم يمثّل «الحِمْل الضخم» الذي كان قد سقط إلى الخارج. وقال إن هذا كله كان «مرعباً كل الرعب».

وذكّرته، في تفسيري لـ **الرسم السادس** بما كان قد قال في اليوم السابق: الامبراطوريتان متطابقتان. وكان **الرسم السادس** يمثّله هو ذاته. وكان لديه الانطباع، وقد استدخل «لعصفور المرعب» (**الرسم الخامس**)، أنه أصبح يشبهه. والمنقار المفتوح كان يمثّل فم أمه المفتوح، ولكنه يعبّر أيضاً عن رغبته الخاصة في أن يفترسها: فاللونان اللذان يلوّنان المنقار يمثّلانهما: هو ذاته وأخاه (الرضيعين الشرهين). إنه كان قد افترس أمه، حسب اعتقاده، بوصفها موضوعاً مدمِّراً ومفترساً. وعندما كان قد استدخل أمه، وهو يتناول طعام إفطاره، فإنه كان يعتقد أنه يحميها من الأب السيء الذي استدخله: «العظام في معدته». وعندما كان قد استدخل الأم - العصفور «المرعبة»، فإنه كان يحسّ بأنه ارتبط بالأب - المسخ. وهذه الصور المرعبة

المتحدة للأبوين كانت تهاجمه داخلياً لتأكله وتهاجمه خارجياً كذلك لتخصيه(٤).

وكان ريشارد يشعر إذن أن الأبوين السيئين الداخليين والخارجيين، اللذين كانا ينتقمان بهجماتهما، خصياه وشوّهاه، ويعبّر عن مخاوفه في **الرسم السادس**: كان العصفور ماثلاً فيه دون رأس. ونجمت عن الميول السادية الفمية، التي كانت تمارس عملها ضد الأبوين في سيرورات الاستدخال، نتائج مفادها تحويل الأبوين إلى عدوين شرهين ومدمّرين مثلها. يضاف إلى هذا أنه لم يكن يشعر، بما أنه كان يعتقد أنه هو الذي حوّل أبويه وهو يفترسهما واحداً إلى مسخ والآخر إلى عصفور، بالخوف أمام هذين المضطهدين اللذين استدخلهما فحسب، ولكنه كان يشعر أيضاً بالإثمية، إثمية أشدّ قوة بمقدار ما كان يخشى أنه عرّض الأم الطيبة الداخلية إلى هجمات المسخ الداخلي. وكان مصدر هذه الإثمية أيضاً هجماته الشرجية ضد الأبوين الخارجيين والداخليين. إنها «الحمْل الضخم المرعب» الساقط من العصفور، الذي كان يعبّر عن هذه الهجمات(٥).

١٣- دور «الأم الطيّبة»

كان ريشارد، خلال الجلسة السابقة التي رسم فيها الرسمان الخامس والسادس، تحت سيطرة الحصر ولم يكن بوسعه أن يعبّر عن الارتباطات (التداعيات) التي أثارها الرسمان في نفسه. وثمة ضرب معيّن من سكون الألم الناشىء عن حصره كان يتيح له في هذه الجلسة أن يصوغ هذه الارتباطات.

ومن المفيد أن نفحص هنا رسماً سابقاً (الرسم السابع) كان يعبّر عن

(٤) ولنذكّر بهذا الصدد أنه كان قد حدث ختانه وهو في الثالثة من عمره، وأنه كان دائماً يعاني خوفاً شعورياً شديداً من الأطباء والعمليات منذ ذلك الزمن.

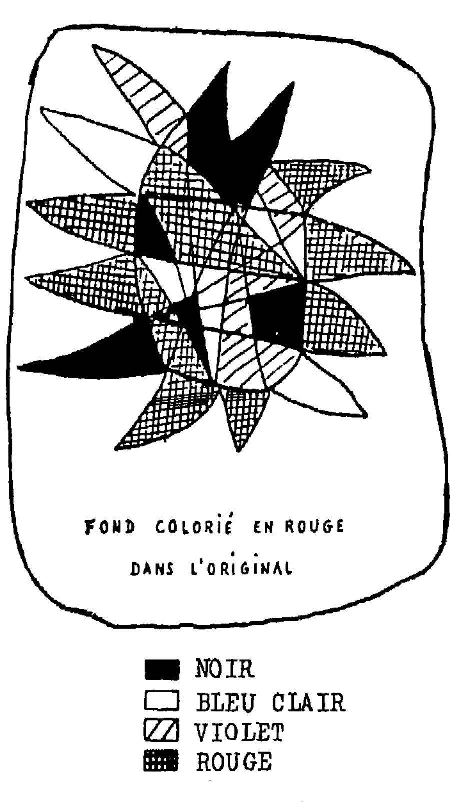
(٥) كان لبعض الميول وضروب الحصر الإحليلية دور ليس أقلّ أهمية في استيهاماته، ولكنها لاتجد مكاناً لها هنا.

استدخال موضوعاته بصورة أكثر وضوحاً مما كان يعبّر عنه الرسمان الخامس والسادس. وكان ريشارد قد أحاط هذا الرسم بخطّ، بعد أن انتهى من رسمه، وغطّى قاعه بالأحمر. ولاحظت أن الرسم كان يمثّل داخل جسمه الحاوي على أبيه وأمه وأخيه ونفسه، بعضهم بالنسبة لبعض. وعبّرت ارتباطاته (تداعياته)، بمناسبة هذا الرسم، عن سروره أن يرى عدد المقاطع الملوّنة بالأزرق الفاتح يزداد، أي المقاطع التي تمثّل أمه. وقال أيضاً إنه كان يأمل في أن يجد في أخيه حليفاً. وكانت الغيرة التي يعانيها من أخيه تجعله على الغالب حذراً ويخشى أخاه بوصفه منافساً. ولكنه، والحال هذه، شدّد على تحالفه معه. وأراني بالإضافة إلى ذلك أن مقطعاً من المقاطع السوداء كان محاطاً بأمه وأخيه ونفسه. وذلك كان يعني أنه يتحالف مع أمه الداخلية المحبوبة ضد الأب الداخلي الخطر[٦].

وتبيّن مادة الرسم التي عرضناها في هذا الفصل أن الدور الذي تؤدّيه الأم، أم تُضفى عليها المثالية غالباً، في حياة ريشارد النفسية، كان ذا علاقة بالأم الداخلية والأم الخارجية على حدّ سواء. وعندما كان ريشارد يعبّر، على سبيل المثال، عن أمله في أن يرى الأم الملوّنة كلها باللون الأزرق توسّع إقليمها في الغرب (انظر الرسم الثاني)، فإن هذا الأمل كان خاصاً بعالمه الداخلي وعالمه الخارجي على حدّ سواء. وكان اعتقاده بالأم الطيّبة الداخلية أكبر دعم له. فكل تأكيد لهذا الاعتقاد كان يجدّد أمله وثقته وشعوره بالأمن. وعندما كان هذا الإيمان يهتزّ، سواء بالمرض أو بشيء آخر، كان الاكتئاب والحصر يتفاقمان[٧]. يضاف إلى هذا أنه كان يحدث لديه الانطباع

(٦) كان هذا الرسم، الرسم السابع، يمثّل أيضاً داخل جسم أمه، حيث كان يدور الصراع نفسه. وكان ريشارد وأخوه يؤديان دور الموضوعين الداخليين الحاميين، وأبوه دور الموضوع الداخلي الخطر.

(٧) من المؤكد تماماً أن بوسع هذه الضروب من الحصر أن تثير بدورها رشوحاً وأمراضاً جسمية أخرى، أو تضعف المقاومة لهذه الأمراض على الأقل. فنحن نجد إذن أنفسنا هنا أمام حلة مفرغة، ذلك أن هذه الأمراض تعزّز ضروب الحصر هذه.



الشكل رقم (٦)

بأنه عاجز عن أن يحمي موضوعات حبه الداخلية من خطر التدمير والموت عندما كان يزداد خوفه أمام مضطهديه، أمام أمه السيئة وأبيه السيء. وموت موضوعات حبه كان يعني بصورة حتمية نهاية حياته. ونحن نمسّ هنا الحصر الأساسي للفرد المكتئب، حصر ناشيء في رأيي ،من وضعه الاكتئابي الطفلي.

وإليكم تفصيلاً ذا أهمية، مستمداً من تحليله، يبيّن خوفه من أن يرى موضوعاته الخارجية والداخلية تموت. وكانت علاقته الشخصية على وجه التقريب بالغرفة التي كان التحليل يدور فيها، وقد قلت ذلك من قبل، جانباً من الجوانب التي تميّز التحويل. وسفري إلى لندن، من جهة أخرى، كان قد أيقظ خوفه من القصف بالقنابل ومن الموت وعززّه. ولم يستطع الطفل أن

يتحمّل، بعد هذا السفر وخلال جلسات عديدة من التحليل، أن يُطفأ جهاز التدفئة الكهربائي قبل أن نغادر المنزل. وزال هذا الوسواس خلال جلسة من جلسات التحليل عرضتها بمناسبة تحليل الرسمين الثالث والرابع. وخلال الزمن الذي كانت تزداد فيه رغباته التناسلية حدة ويتناقض اكتئابه وحصره، كان حبه للرضّع والاستيهام الذي سيكون بحسبه قادراً على أن يمنح أمه ويمنحني رضّعاً «طيّبين» قد شرعا يحتلان مكاناً في ارتباطاته (تداعياته). وإلحاحه الوسواسي على الضرورة الماثلة في بقاء جهاز التدفئة الكهربائي في الغرفة يعمل أطول زمن ممكن كان على قدر اكتئابه[٨].

١٤- أعراض تعبّر عن ضروب حصره القديمة

وإذا كان ريشارد لم يفلح في أن يوطّد موقعه التناسلي، فذلك كان على نحو رئيس بسبب عجزه عن مواجهة حصره خلال المراحل المبكرة من نموه. وكان الدور الكبير الذي يؤديه الثدي السيء في حياته الانفعالية مرتبطاً بالإحباطات الناشئة من إرضاعه، وبالميول والاستيهامات السادية الفمية والإحليلية التي كانت هذه الإحباطات قد ولّدتها. والخوف الذي كان ريشارد يشعر به أمام الثدي السيء يعوّضه، إلى حدّ من الحدود، إضفاء الصفة المثالية على الثدي الطيب، إضفاء كان يتيح له الاحتفاظ بجزء من حبه لأمه. وكان الجزء الأكبر من الجوانب السيئة من الثدي والميول السادية الفمية التي أيقظتها لديه قد تحوّل على عضو الذكر الأبوي. وكان يشعر إزاء عضو الذكر الأبوي، فضلاً عن ذلك، بالغيرة والكره اللذين يميّزان بداية الوضع الأوديبي الإيجابي. فاستيهاماته كانت إذن تحوّل العضو التناسلي الأبوي إلى موضوع خطر، سامّ، مستعدّ للعضّ. وكان خوفه من عضو الذكر، بوصفه خوفاً من مضطهد خارجي وداخلي، من القوة بحيث لم يكن بوسعه أن يثق بخصاله الطيّبة والمنتجة. وهكذا فإن الخوف من الاضطهاد عاق الوضع

(٨) كان لترك جهاز التدفئة يعمل دلالة لاشعورية أخرى: كان ريشارد يريد أن يبرهن لنفسه أنه لم يُخص وأن أباه لم يُخص أيضاً.

الأنثوي المبكّر لدى ريشارد منذ الأصل. وكانت الصعوبات التي صادفها في الوضع الأوديبي المعكوس، وضروب حصر الخصاء التي تحرّضها رغباته الجنسية إزاء أمه، يؤثر بعضها في بعضها الآخر. وكانت رغبته في أمه مصحوبة بكره الأب. وكانت الرغبة في اقتلاع عضو الذكر الأبوي بنهشة من أسنانه يعبّر عن هذا الكره الذي كان يفضي إلى الخوف من أن يُخصى بالطريقة نفسها. إن هذا الكره يعزّز إذن كبت رغباته التناسلية.

وثمة كفّ يتصاعد لكل فاعليات ريشارد ولجميع اهتماماته كان يكوّن عرضاً من أعراض مرضه. وكان الكبت العنيف لجميع ميوله العدوانية مصدر هذا الكفّ، وهو كبت متفاقم على وجه الخصوص عندما يكون الأمر ذا علاقة بأمه. وكانت عدوانيته تجاه أبيه والرجال الآخرين أقل كبتاً، مع أن الخوف كان يقلّصها تقليصاً كبيراً. وكان موقفه من الرجال يقتصر في الأغلب على أن يجعل بعض العدوانيين والمضطهدين المحتملين أكثر هدوءاً.

وهناك كفّ أقل قوة كان ينال عدوانية ريشارد تجاه الأطفال الآخرين، على الرغم من أنه كان يخاف خوفاً شديداً من التعبير عنها بصورة مباشرة. وكان كرهه الأطفال، شأنه شأن الخوف الذي يوحونه إليه، ناشئاً بصورة جزئية من موقفه تجاه عضو الذكر الأبوي. وكان عضو الذكر المخرّب يرتبط في فكره ارتباطاً صميمياً بالطفل المخرّب والشره الذي ينهك أمه ويدمّرها في نهاية الأمر. وكان يعتقد بالفعل، على نحو لاشعوري، اعتقاداً قوياً بالمعادلة التالية: «عضو الذكر= طفل»، ويظنّ أيضاً بأنّ عضو الذكر السيء ليس بوسعه أن يولّد سوى الأطفال السيئين.

وكان عامل محدِّد، أي الغيرة التي يحسّ بها تجاه أخيه وكل طفل يمكنه أن يكون لأمه في المستقبل، يشرح رهابه من الأطفال. وكانت هجماته السادية اللاشعورية على الرضّع الذين يحتويهم جسم الأم ترتبط بكرهه

عضو الذكر الأبوي داخل جسم أمه. ولم يكن لديه سوى وضع واحد يتجلّى فيه حب الأطفال في بعض الأحيان: إنه يتجلّى في موقفه العطوف تجاه الرضّع.

١٥- الحنين إلى الأم بوصفها مرضعة

نحن نعلم الآن أن إضفاء الصفة المثالية على العلاقة بين الأم والرضيع كان يتيح وحده لريشارد أن يحتفظ باستعداده للحب. وكان خوفه وإثميته اللاشعوريان تجاه ميوله السادية الفمية الخاصة يدفعانه مع ذلك إلى أن يرى في الرضّع موجودات سادية فمية حصراً على وجه التقريب. وكان ذلك سبباً من الأسباب التي من أجلها لم يكن بوسعه أن ينجز في استيهاماته رغبته في أن يمنح أمه أطفالاً. وثمة أمر أكثر اتصافاً بأنه جوهري أيضاً يكمن في أن حصره الفمي كان قد فاقم، خلال النمو في طفولته الأولى، ذلك الخوف الناشىء من الجوانب العدوانية للوظيفة التناسلية ولعضو الذكر خاصته. وكان خوف ريشارد من أن تسود ميوله السادية الفمية رغباته التناسلية، ومن أن يكون عضو الذكر لديه عضواً مخرّباً، أحد الأسباب الرئيسة لكبت رغباته. وكان ممنوعاً عليه بالتالي أن يلجأ إلى إحدى الوسائل الرئيسة ليجعل أمه سعيدة وليعيد إليها الرضّع الذين كان يعتقد أنه دمّرهم. فميوله، ومخاوفه، واستيهاماته السادية الفمية، كانت تعارض إذن نموه التناسلي معارضة دائمة وبكل ضرب من الوسائل.

وأشرت مرات عديدة إلى النكوص إلى المرحلة الفمية بوصفه مقاومة لضروب الحصر الإضافية الناشئة من الوضع التناسلي. وعلينا ألا نهمل مع ذلك الدور الذي يؤدّيه التثبيت في هذه السيرورات. وبالنظر إلى أن ضروب الحصر السادية الفمية، والإحليلية والشرجية، لدى هذا الطفل مفرطة، فإن التثبيت على هذه الأطوار كان شديداً لديه جداً. ويترتّب على ذلك أن التنظيم التناسلي كان ضعيفاً والميل إلى الكبت بارزاً جداً. ومع ذلك

كانت بعض الميول التناسلية المصعّدة نامية لديه جداً على الرغم من ضروب كفّه. يضاف إلى هذا أن بعضاً من السمات الرئيسة للوضع الأوديبي الإيجابي ،للنمو الجنسي المتّجه صوب الجنس الآخر، كانت قد ألفت نفسها ناجزة لديه بمقدار ما كانت رغباته تتوجّه صوب أمه على وجه الخصوص وتتوجّه مشاعر الكره والغيرة صوب أبيه. وكانت هذه الصورة مع ذلك خادعة على نحو من الأنحاء، ذلك أن الطفل لم يكن بوسعه أن يحتفظ بحبه لأمه إلا بتعزيز العناصر الفمية في العلاقة التي كانت تربطه بها وبإضفاء الصفة المثالية على الأم المرضعة. وقد رأينا أن المقاطع الزرقاء في رسومه كانت تمثّل الأم دائماً. وكان اختيار هذا اللون مستوحىً من حبه للسماء الزرقاء الخالية من الغيوم ويعبّر عن حنينه لثدي خيّر لن يحبطه أبداً.

وكون ريشارد استطاع إذن، على نحو أو على آخر، أن يحتفظ بحبه لأمه حياً، أمر كان يمنحه الأستقرار الذي يتمتع به ولو أنه استقرار عابر. وكان يتيح، بالإضافة إلى ذلك، لميوله الجنسية المتّجهة صوب الجنس الآخر أن تنمو إلى حدّ من الحدود. وكان الحصر والإثمية يؤديّان دوراً هاماً في التثبيت على أمه، وهو أمر كان واضحاً. وكان ريشارد متعلقاً بأمه جداً، ولكنه تعلّق على نحو طفالي. ولم يكن قادراً إلا بشقّ النفس على أن يتحمّل غيابها عن ناظريه، وكانت بشائر موقف مستقلّ عنها ورجولي نادرة. وكان تصرفه مع النساء الأخريات يتعارض تعارضاً بارزاً مع حبه الكبير وإعجابه الأعمى اللذين كان يوقفهما لأمه، على الرغم من أن هذا التصرف لم يكن رجولياً بحق ولا مستقلاً. و يبدو في هذا التصرف مبكّر النضج جداً يذكّر المرء في بعض الأحيان بضرب من الدون جوان الراشد. وكان ريشارد يسعى بأي وسيلة من الوسائل، وحتى بالتملّق الأكثر اتصافاً بأنه مفضوح، لأن ينال رعاية النساء اللواتي يلتقيهن. وكان على الغالب ينتقدهن ويحتقرهن في الوقت نفسه ويتسلّى إذا شُغفن بلهجته المتملّقة.

١٥- العلاقات المستقبلية مع النساء المعلنة منذ الطفولة

هذان الموقفان من النساء يذكّران المرء ببعض النتائج التي أعلنها فرويد. فحين تكلم على «القطيعة بين تيّار الحب والتيار الشهواني في العاطفة الشبقية» لدى بعض الرجال الذين يعانون، حسب تعبيره، من «العجز النفسي»، أي الذين لايستردّون استطاعتهم الجنسية إلا في بعض الظروف، قال فرويد ما يلي: «تظلّ الحياة الشبقية لهؤلاء الأشخاص مفككّة، مقسومة إلى دربين يمثّلهما، في الفن، الحب السماوي والحب الأرضي أو الحيواني. وحينما يحب هؤلاء الأشخاص، فإنهم لايرغبون، وليس بوسعهم أن يحبوا عندما يرغبون»[٩].

فثمة تماثل بين وصف فرويد وموقف ريشارد من أمه. إنها الأم «التناسلية» التي كان يخشاها ويكرهها، في حين أنه كان ينذر لأمه «المرضعة» كل حبه وحنانه. وكان هذا الانفصال بين التيارين يبدو في التعارض بين موقفه من أمه وموقفه من النساء الأخريات. ففي حين كانت الرغبات التناسلية التي يعانيها إزاء أمه مكبوتة بقوة وكانت الأم قد ظلّت إذن موضوع الحب والإعجاب، فإنه كان بوسع هذه الرغبات، في نطاق معيّن، أن تمارس نشاطها عندما كان الأمر ذا علاقة بنساء أخريات غير أمه. ولكن هؤلاء النساء كنّ قد أصبحن عندئذ، بالنسبة إليه، موضوعات نقد واحتقار. وكنّ يمثّلن الأم «التناسلية»: كان رعبه من التناسلية ورغبته الملحّة في كبتها ينعكسان في احتقاره موضوعات رغباته التناسلية.

ومن جملة ضروب الحصر التي كانت تشرح تثبيته على الأم المرضعة ونكوصه إليها، كان خوفه من «داخل» جسم الأم، بوصفه محلاً مليئاً بالمضطهدين، يؤدي دوراً أساسياً. ذلك أن الأم «التناسلية»، التي كانت في

---

(٩) «مساهمة في سيكولوجية الحياة الغرامية»، مقال منشور في المجلة الفرنسية للتحليل النفسي، ١٩٣٦، العدد٩، ص ٢-٢١.

ناظريه الأم التي تباشر إنجاز الفعل الجنسي مع الأب، كانت تحتوي أيضاً على عضو الذكر «السيء» الأبوي، أو تحتوي بالحري على عدد كبير من أعضاء الذكر الأبوية، إذ تشكّل على هذا النحو مع الأب حلفاً خطراً ضد الابن؛ إنها، بالإضافة إلى ذلك، تحتوي الأطفال الذين يتّصفون هم أيضاً بأنهم أعداء. وثمة حصر ملحق كان قد انضاف إلى هذا الخوف: إنه حصر ذو علاقة بعضو الذكر الخاص به، المدرك أنه عضو خطر كان لابدّ له من أن يجرح أمه المعشوقة ويعطبها.

وكانت ضروب الحصر التي تزرع الاضطراب في النمو التناسلي لدى ريشارد مرتبطة على نحو وثيق بعلاقته بأبويه بوصفهما وجهين مستدخلين. وكانت العواطف التي يوحيها «داخل» جسمه الخاص ذات علاقة بالصورة التي لـ «داخل» جسم الأم بوصفه مفعماً بالخطر. ففي مقطع من المقاطع السابقة من هذا الفصل، رأينا أن الأم الطيبة (أي الغذاء الجيد في وجبة الصباح) كانت تحميه داخلياً من الأب، أي «العظام الكبيرة التي تزدحم معدته بها». وكانت صورة الأم التي تحميه من الأب الذي تمّ استدخاله تماثل وجهاً أمومياً كان لابد لريشارد أن يحميه من الأب السيء، وتماثل أماً كانت هجمات المسخ الداخلي الفمية والتناسلية تعرّضها إلى الخطر. وكان يحسّ بها في نهاية المطاف مع ذلك، وقد هدّدتها هجماته السادية الفمية الخاصة. وكان **الرسم الثاني**، في الواقع، يعرض الرجال الخبثاء (أباه وأخاه وهو نفسه) الذين كانوا يسحقون أمه ويبتلعونها. وهذه الخشية كان مصدرها إثميته العميقة: إنه يعتقد أنه دمّر (افترس) أمه وثدييها بهجماته السادية الفمية خلال سيرورة الاستدخال. وكان، في **الرسم السادس**، يعبّر بالإضافة إلى ذلك عن إثمية لهجماته السادية الفمية: إنه كان قد بيّن لي «الحمْل الضخم المرعب» الذي كان يسقط من العصفور. وكان قد بدا، قبل مرحلة التحليل التي نتكلم عليها، ومنذ أن بدأ يرسم امبراطوريته، أنه يشبّه برازه الخاص بالأب هتلر، الأسود هو أيضاً. ففي رسومه الأولى، كان

ريشارد يستخدم اللون الأسود ليرمز إلى نفسه، ثم قرّر أن اللون الأحمر سيمثّله ويمثّل اللون الأسود أباه. ثم حافظ على هذا التوزيع في جميع رسومه اللاحقة. ولكن التشبيه الذي تكلمت عليه للتو أوضحته مرة أخرى بعض الارتباطات حول الرسمين **الخامس والسادس**. فالمقطع الأسود، في **الرسم الخامس**، كان يمثّل الأب السيء. وكان هذا المقطع نفسه يجسّد، في **السادس**، «الحمْل الضخم المرعب» الذي كان يسقط من العصفور المشوّه.

وخوف ريشارد من ميوله الخاصة التخريبية كان استجابة لخوفه الذي توحيه إليه بوصفها موضوعاً خطراً ومنتقماً. و«العصفور المرعب» ذو المنقار المفتوح كان بياناً لإسقاط ميوله السادية الفمية الخاصة على الأم.

١٦- قبول الثنائية في المشاعر: خطوة إضافية في الأوديب

تجارب الإحباط الفعلي التي فرضتها على ريشارد أمه لم تكن قادرة على أن تشرح وحدها تكوّن هذه الصورة المرعبة لأم داخلية مفترسة في فكر الطفل. وأظهر **الرسم السادس** بوضوح ذلك الخطر الذي كانت الأم-العصفور «المرعبة» تمثّله بالنسبة إليه. ذلك أن العصفور دون رأس كان يجسّده هو ذاته ويظهر خوفه من أن تخصيه الأم، الخطرة جداً، والأب المسخ، العدوّان الخارجيان اللذان يتماهى الواحد منهما بالآخر. يضاف إلى ذلك أنه كان يشعر بأن الحلف بين الأم-العصفور «المرعبة» المستدخلة والأب المسخ يهدّده من الناحية الداخلية. وكانت هذه الأوضاع الداخلية من الخطر بحيث تكوّن السبب الرئيس لمخاوفه التي تبالغ بتوهّم المرض ولخشيته من الاضطهاد.

وعندما أصبح ريشارد قادراً خلال التحليل على أن يواجه الواقع السيكولوجي الذي مفاده أن موضوع حبه كان في الوقت نفسة موضوع كرهه وأن الأم ذات اللون الأزرق الفاتح، الملكة المتوّجة، كانت مرتبطة في ذهنه بالعصفور المرعب ذي المنقار المفتوح، استطاع أن يصحّح حبه لأمه بصورة

أكثر متانة. وكانت عواطف الحب لديه مرتبطة بصورة أشد وثاقة بعواطف الكره، وتجاربه السعيدة، التي عاشها مع أمه، لم يكن قط قد احتفظ بها بعيدة بعض البعد عن تجارب الإحباط لديه. ولم يكن قط إذن مرغماً، من جهة، على أن يضفي المثالية على الأم بقدر ما كان يفعل، ومن جهة أخرى، على أن يصنع لنفسه صورة مرعبة بهذا القدر لأمه السيئة. وفي كل مرة كان يمكنه أن يتيح لنفسه الموازنة بين جانبي الأم، كان يترتّب على ذلك أن الجانب الطيّب يعدّل الجانب السيء. وكانت الأم الطيبة، الأصلح، قادرة على أن تحميه من الأب «المسخ». وذلك يعني أنه لم يكن، في هذه المناسبات، يتصور أنه يؤذيها إيذاء شديداً بشراهته الفمية الخاصة ولم يكن الأب يؤذيها، وذلك أمر يعني بدوره أنه هو وأبوه قد أصبحا أقل خطراً في ذهنه. وكان بوسع الأم الطيبة أن تعود إلى الحياة وأن يزول إذن اكتئاب ريشارد.

وأمله المتعاظم في أن يحتفظ بمحلّلته وأمه حيّتين بوصفهما موضوعين داخليين وخارجيين كان مصدره تعزيز موقعه التناسلي واستعداده لأن يستشعر رغباته الأوديبية. والتكاثر، أي صنع الأطفال الطيّبين، الذي كان يدركه بصورة لاشعورية على أنه الوسيلة الأهم لمكافحة الموت والخوف من الموت، كان متاحاً له الآن في استيهاماته على نحو أفضل. وكونه أقل خوفاً من أن تسوقه ميوله السادية، فإن ريشارد كان يعتقد في نفسه أنه قادر على أن ينجب الأطفال الطيّبين. والواقع أن الجانب الخلاّق والخصب من عضو الذكر (عضوه وعضو أبيه على حدّ سواء) كان يحتلّ في تلك الفترة مكاناً من المستوى الأول. وكان لدى الطفل ثقة كبرى بميوله الخاصة البنّاءة والمرمّمة وبموضوعاته الداخلية والخارجية. وكان يعتقد اعتقاداً أشد جزماً بالأم الطيبة بالتأكيد، ولكنه يعتقد أيضاً بالأب الطيب. ولم يعد الأب عدواً خطراً بهذا القدر: بوسع ريشارد أن يواجه الصراع مع هذا المنافس المكروه. وكان الطفل

إذن قد خطا خطوة حاسمة صوب تعزيز موقعه التناسلي وصوب إمكانٍ مفاده أن يواجه المخاوف والنزاعات الناشئة من رغباته التناسلية .

ثانياً ـ تحليل طفل أنثى (حالة ريتا)

درست بعضاً من ضروب الحصر التي كانت تشوّش النمو التناسلي لصبي صغير . وإليكم الآن بعض المستخلصات من المادة التحليلية لبنت صغيرة . وتنطوي هذه المادة على بعض المزايا فيما يخصّ عرضها ، ذلك أنها بسيطة ومباشرة . والجزء الأعظم منها كان قد نُشر من قبل وسأضيف إليها مع ذلك بعض التفصيلات التي لا تزال غير منشورة وبعض التفسيرات الجديدة التي لم أكن قادرة على أن أصوغها عندئذ ، ولكنها تبدو لي أن لها ، وأنا أنظر إلى الماضي ، ما يسوّغها تماماً .

كانت ريتا ، ذات السنتين وتسعة أشهر من العمر في بداية تحليلها ، طفلة تربيتها عسيرة جداً . إنها مصابة بضروب شتى من الحصر ، وعاجزة عن أن تتحمّل الإحباطات ، وتشعر على الغالب بأنها تعسة جداً . وكانت بعض السمات الوسواسية الواضحة تبدو للعيان لديها ، سمات تتفاقم منذ بعضٍ من الزمن ، وكانت البنيّة تطالب أن ينفّذ الناس الذين يحيطون بها طقسيات وسواسية معقّدة ، وتنتقل من «وداعة» مغالية يرافقها الندم إلى نوبات من «الخبث» حيث كانت تحاول أن تسيطر على أشخاص وسطها . وكانت أيضاً تعاني صعوبات في تناول الطعام ، و «ذات نزوة» وتنقصها الشهية على الغالب . وعلى الرغم من أنها كانت ذكية جداً ، فإن نموها وتكامل شخصيتها تعوقهما قوة العصاب .

وكانت على الغالب تبكي دون سبب ظاهر وتجيب عندما تسألها أمها عن سبب بكائها : «لأنني حزينة جداً» . وعن سؤال : «لماذا أنت حزينة؟» ، تجيب : «لأنني أبكي» . وكانت إثميتها وضيقها يتجلّيان في الأسئلة المستمرة

التي تطرحها على أمها: «هل أنا لطيفة؟»، «هل تحبينني؟»، إلخ. ولم تكن تتحمّل أي لوم؛ وعندما يوبّخها أحد، كانت تذرف الدموع بغزارة أو تتّخذ موقف التحدّي. وكان الشعور باللاأمن الذي تستشعره إزاء أبويها يتجلّى على سبيل المثال في الحادث التالي الذي طرأ خلال سنتها الثانية من عمرها. قيل لي إنها انفجرت منتحبة لأن أباها كان قد هدّد الدبّ في كتاب الصور، ذلك الدبّ الذي كانت قد توحّدت به على نحو واضح.

وكانت ريتا تعاني كفّاً بارزاً جداً أمام اللعب. إنها عاجزة أن تفعل أي شيء بدُماها على سبيل المثال سوى غسلها وتغيير ثيابها بأسلوب قسري. وما إن كان ينضاف إلى لعبها عنصر من عناصر الخيال حتى تصاب بنوبة من الحصر وتوقف اللعب.

١ ـ الصحة النفسية لطفل من الأطفال منوطة أيضاً بأبويه

إليكم بعض الوقائع الوثيقة الصلة بتاريخها. كان غذاء ريتا من ثدي أمها خلال عدة أشهر. ثم قُدّمت لها الرضّاعة التي شقّ عليها أن تقبلها في بداية الأمر. وكان الانتقال من الرضّاعة إلى الغذاء الصلب عسيراً هو أيضاً، وكانت البنيّة لا تزال تعاني بعض العصوبات الغذائية عندما بدأت تُحليلها. يضاف إلى ذلك أن أمها كانت تقدّم إليها أيضاً، في هذه الفترة، رضعة واحدة بالرضّاعة مساءً. وقالت لي أمها إنها كانت فد تخلّت عن تقديم هذه الرضعة الأخيرة، ذلك أن كل محاولة من محاولات فطامها كانت تلقي ريتا في ضرب من الضيق العميق. أما فيما يتعلق بتعلّم النظافة الذي اكتمل لدى ريتا منذ بداية العام الثاني من عمرها، فإن لديّ أسباباً سليمة تدفعني إلى الاعتقاد بأنه جعل الأم مصابة بالقلق الشديد بعض الشدّة. وكان العصاب الوسواسي الذي أُصيبت به ريتا ذا علاقة وثيقة، على ما بدا لي، بتعلّمها النظافة قبل الأوان.

وكانت ريتا تقاسم الأبوين غرفتهما إلى أن بلغت عامها الثاني على وجه التقريب، والشاهد على علاقاتهما الجنسية في عدة مناسبات. ووُلد أخوها عندما كان عمرها سنتين. وفي هذه الفترة، بان عصابها بكل قوته. وثمة ظرف أخير ينبغي أن نأخذه بالحسبان: كانت أمها، هي نفسها، عصابية، وثنائية المشاعر إزاء ريتا.

وقال لي الأبوان إن البنت الصغيرة كانت تحب أمها أكثر من أبيها بكثير حتى نهاية السنة الأولى من عمرها. وأظهرت في بداية السنة الثانية إيثاراً واضحاً جداً لأبيها وبدت أنها تغار من أمها غيرة بيّنة، وتعبّر في عدة مناسبات، ودون أن يكون مجال للشك في ذلك، عندما بلغت شهرها الخامس عشر، عن رغبتها في أن تظلّ وحدها في الغرفة مع أبيها عندما تكون جالسة على ركبتيه. وكانت تتكلم في هذا العمر بصورة جيدة تكفي لتقول ما تريد قوله. وثمة تغيير جذري قد حدث في نفسها عندما بلغت شهرها الثامن عشر تقريباً، تغيير تجلّى بتحوّل في علاقتها بأبويها وتجلّى بشتى الأعراض كالمخاوف الليلية والرهاب من بعض الحيوانات (والكلاب على وجه الخصوص). وأمها هي الأثيرة لديها مجدّداً، على الرغم من أن موقف الطفلة منها كان موقفاً ثنائي المشاعر بقوة. وكانت ريتا متعلّقة بأمها إلى حدّ لم تكن تتحمّل أن تغيب عنها لحظة واحدة إلا بصعوبة. وتحاول في الوقت نفسه أن تسيطر عليها، وتبدي لها على الغالب كرهاً معلناً، وذلك أمر لم يكن يمنعها من أن تبدي نفوراً صريحاً من أبيها.

ولاحظ الأبوان هذه الوقائع حين كانت تقع وتكلّما إليّ عليها خلال التحليل. فعندما يكون الأطفال أكبر عمراً يكون ما يرويه الآباء عن سنواتهم الأولى من العمر موضع شك على الغالب، ذلك أن بوسع الذاكرة أن تشوّه الوقائع تشويهاً يتعاظم بمقدار ما ينقضي الزمن. أما في حالة ريتا، فإن تفصيلات الأحداث كانت لا تزال ماثلة في ذهن الأبوين، وأكّد التحليل كل التأكيد ما هو أساسي فيما كانا يرويانه لي.

٢ ـ أسباب مرض

بوسع المرء أن يلاحظ لدى ريتا، منذ بداية السنة الثانية من عمرها، بعض العناصر ذات الأهمية في وضعها الأوديبي: إيثار أبيها، وغيرة من أمها، بل رغبة لديها في أن تحتلّ مكان أمها لدى أبيها. وإذا أعدنا نموها الأوديبي إلى سنتها الثانية، فإن علينا أن نأخذ بالحسبان بعض العوامل الخارجية ذات الأهمية الكبيرة. إن الطفلة كانت تقاسم الأبوين غرفة نومهما وكانت هذه الأحداث قد سنحت لها على الغالب لتشهد علاقاتهما الجنسية. فرغباتها الليبيدية، وغيرتها، وكرهها، وحصرها، كانت إذن موضع إثارة بصورة مستمرة. وعندما بلغت ريتا شهرها الخامس عشر، وجدت الأم نفسها حبلى، وفهمت الطفلة حالتها بصورة لاشعورية. فالرغبة التي كانت تعانيها ريتا في الحصول على طفل من أبيها، وتنافسها مع أمها، كانا قد تعززّا بفعل ذلك كثيراً. وفي أعقاب هذه المناسبة، ازدادت عدوانيتها، وازداد أيضاً حصرها، وإثميتها، اللذين كانا ناجمين عنها، إلى درجة لم يكن بوسع رغباتها الأوديبية أن تظلّ على حالها.

وكانت هذه المنبّهات الخارجية قادرة مع ذلك أن تشرح وحدها الصعوبات التي صادفتها ريتا خلال نموها. فكثير من الأطفال يخضعون لتجارب شبيهة بل لتجارب أسوأ حظاً دون أن يقعوا مرضى على نحو خطير. ولا بدّ لنا إذن من أن نفحص العوامل الداخلية التي كانت قد أفضت، وهي تفعل فعلها في المؤثرات الخارجية وتتلقّى تأثيرها، إلى مرض ريتا وشوّشت نموها الجنسي.

وكشف التحليل عن أن الميول السادية الفمية لدى ريتا كانت قوية إلى حد المبالغة، وقابليتها لتحمّل أي توتر ضعيفة بصورة استثنائية. إنهما سمتان من السمات الجبليّة التي كانت قد كيّفت استجاباتها مع الإحباطات الأولى التي عانتها وأثّرت منذ البداية تأثيراً قوياً على علاقتها بأمها. وعندما كانت

رغباتها الأوديبية الإيجابية قد بدت في نهاية العام الأول من عمرها واضحة وضوح الشمس، كانت هذه العلاقة الجديدة بأبويها قد فاقمت مشاعر الإحباط لديها، ومشاعر الكره والعدوانية، وفاقمت في الوقت نفسه الحصر والإثمية اللذين كانا يرافقان هذه المشاعر. وكانت عاجزة عن مواجهة هذه النزاعات الكثيرة، ولم يكن بوسعها إذن أن تحافظ على رغباتها التناسلية.

وكان ثمة مصدران كبيران من مصادر الحصر يسودان علاقة ريتا بأمها: الخوف من الاضطهاد والحصر الاكتئابي. وكانت أمها تمثّل، في جانبٍ من جانبيها، شخصية مرعبة ومنتقمة. وهي، في جانب آخر، الموضوع الذي تحبه ريتا ولا غنى لها عنه، ريتا التي كانت تستشعر عدوانيتها الخاصة وكأنها خطر على الأم الحبيبة. فكان الخوف من فقدانها يرهقها. وكانت القوة التي تتصف بها هذه الضروب المبكّرة من الحصر وهذه الإثمية هي السبب الرئيس لعجزها عن تحمّل الحصر والإثمية الإضافيين الناجمين عن المشاعر الأوديبية ـ كره لأمها ومنافسة معها. وكانت تكبت كرهها دفاعاً عن نفسها وتعوّض عنه بحب مغال، وذلك أمر كان قد أفضى بالضرورة إلى نكوص إلى مراحل سابقة. وكانت علاقة ريتا بأبيها قد طرأ عليها التأثير العميق لهذه العوامل، هي أيضاً. فثمة جزء من ضغينتها إزاء أمها كان ينحرف صوب أبيها ويعزّز الكره الذي تشعر به إزاءه منذ إحباط رغباتها الأوديبية، هذه الكره الذي حلّ فجأة، نحو بداية عامها الثاني، محل الحب الذي كان يسبقه. والإخفاق في محاولتها أن تقيم علاقة مرْضية بأمها كان يتكرّر في علاقتها الفمية والتناسلية بأبيها. وبانت في التحليل رغبتها العنيفة في أن تخصي أباها (رغبة يثيرها على نحو جزئي الإحباط الذي تلقته في الموقع الأنثوي، ويثيرها على نحو جزئي حسد عضو الذكر، حسد استشعرته في الموقع المذكر).

فكانت الاستيهامات السادية لدى ريتا ترتبط إذن ارتباطاً وثيقاً

بشكواها الناشئة من الإحباط الذي عانته في مختلف الأوضاع الليبيدية، واستشعرته في الوضع الأوديبي المعكوس والإيجابي على حدّ سواء، وكانت العلاقات الجنسية بين الأبوين تمثّل دوراً هاماً في استيهامات ريتا السادية. وكان الحدث قد أصبح في فكر الطفلة حدثاً خطراً ومرعباً، حيث أن أمها تبدو الضحية لقسوة الأب القصوى. وكان أبوها قد أصبح في ذهنها بالتالي شخصاً خطراً على أمها بالتأكيد، ولكنه شخص خطر أيضاً عليها هي نفسها بمقدار ما كانت الرغبات الأوديبية لدى الطفلة مستقرّة في التوحّد بأمها. وكان سبب رهابها من الكلاب خوفها من عضو الذكر الخطر، عضو أبيها، الذي كان لا بدّ من أن يعضّها حتى يعاقبها على رغبتها في خصائه. وكانت علاقتها بأبيها قد اضطربت بعمق، ذلك أن أباها كان قد تحوّل إلى «رجل خبيث». وكانت تكرهه بمقدار ما كان قد أصبح تجسيد رغباتها السادية الخاصة إزاء أمها.

ويوضّح المشهد التالي الذي روته لي أمها توضيحاً بالمثال ما قلناه للتوّ. ففي بداية عامها الثالث، رأت ريتا وأمها، اللتان كانتا قد خرجتا في أحد الأيام تتنزهان، حوذياً يضرب حصانه بقسوة. وأظهرت الأم سخطاً عنيفاً وعبّرت البنت الصغيرة هي أيضاً عن غيظ كبير. وأذهلت البنت أمها، في اليوم نفسه بعد الحادثة بزمن قصير، وهي تقول لها: «متى نخرج مجدّداً لنرى الرجل الخبيث الذي يضرب الأحصنة؟». وكانت تبيّن على هذا النحو بأنها استمتعت بلذة سادية حين رأت هذا المشهد وتتمنى أن تراه يتكرّر. وكان الحوذي يمثّل في لاشعورها أباها والأحصنة أمها: كان الأب يضع في العلاقات الجنسية موضع التنفيذ تلك الاستيهامات السادية للطفلة حول موضوع أمها. وكان الخوف من أعضاء الأب التناسلية السيئة، واستيهام الأم التي دمّرها وجرحها كره الطفلة والأب السيء-الحوذي، يعوقان رغباتها الأوديبية الإيجابية والمعكوسة على حدّ سواء. ولم يكن بوسع ريتا أن تتوحّد بأم مدمَّرة على هذا النحو، ولا أن تتيح لنفسها أن تمثّل دور الأب في موقع

الجنسية المثلية. ولم يكن ممكناً إذن لأي من هذين الوضعين أن يستقرا خلال هذه المراحل من الطفولة الأولى.

٣ ـ ألعاب الأطفال تعبّر عن ميول لاشعورية

كانت ضروب الحصر التي استشعرتها ريتا عندما كانت تشهد المشهد البدائي تبدو في المواد التالية:

وضعت ريتا، خلال جلسة من جلسات التحليل، قطعة من لعبة البناء، ذات شكل مثلثي، على أحد وجوهها وقالت: «هذه، إنها امرأة صغيرة». ثم تناولت مطرقة صغيرة» ـ وكانت تشير على هذا النحو إلى قطعة أخرى أكثر استطالة- وضربت بها لعبة البناء وهي تقول: «عندما تضرب المطرقة ضربة كبيرة، تخاف المرأة الصغيرة خوفاً شديداً». فالقطعة المثلثية كانت تمثّلها هي ذاتها، وتشخّص «المطرقة» عضو الذكر الأبوي، والعلبة أمها، ويكرّر الوضع في مجمله ذلك الوضع الذي كانت الطفلة تشهد خلاله المشهد البدائي. وضربت العلبة، وتلك واقعة ذات دلالة، في المكان المحدّد الذي لم تكن العلبة فيه ملصقة إلا بالورق، بحيث أحدثت فيها ثقباً. وتلك حالة من الحالات التي أرتني فيها ريتا بصورة رمزية أنها تعرف العضو الأنثوي والدور الذي يمثّله في أفكارها الجنسية معرفة لاشعورية.

والمثالان التاليان خاصان بعقدة الخصاء لديها ورغبتها في عضو الذكر. كانت ريتا تلعب لعبة السفر مع دبّها لتذهب إلى بيت امرأة «لطيفة» لابدّ لها من أن «تحتفي بها». ولم يكن السفر مع ذلك ينقضي دون حادث. إن ريتا تخلّصت من قائد القاطرة واحتلّت مكانه. ولكنه كان يعود باستمرار ويهدّدها، وذلك أمر كان يجعلها تغوص في حصر كبير. وكان دبها، الذي أحسّت بأن وجوده أمر لاغنى عنه لينجح سفرها، موضوع نزاع بينهما. إنه يمثّل هنا عضو الذكر الأبوي، وتتجلّى خصومة ريتا مع أبيها في هذا الصراع من أجل عضو الذكر. إنها كانت قد سرقته من أبيها لأن ثمة، من جهة،

تحولا طرأ عليها بفعل حسدها وكرهها ورغبتها في الانتقام، ولتحتل من جهة ثانية مكان أبيها مع أمها. وكانت تريد أن تعوّض أمها، بواسطة عضو الذكر الأبوي القوي، مقابل الجروح التي كانت قد فرضتها على هذه الأم في استيهاماتها.

والمثال التالي مستمد من طقسي النوم لديها، طقسي كان قد أصبح يتعاظم إعداداً وقسراً بمقدار ما كان الزمن ينقضي، طقسي يحتوي على ضرب من الاحتفالي الشبيه بما يتعلّق بدميتها. وكانت الواقعة الرئيسة تكمن فيما يلي: ينبغي لفّ ريتا بأغطيتها (والأمر نفسه بالنسبة لدميتها) ذلك أن ثمة، في حالة العكس، فأراً أو ضرباً من «البوتزن» (وتلك كلمة كانت قد اخترعتها) كان سيدخل من النافذة ويأخذ «بوتزن» ها الخاص بعضّة من أسنانه. وكان «البوتزن» يمثّل معاً عضو أبيها التناسلي وعضوها التناسلي الخاص بها: كان عضو الذكر الأبوي سيعّض ويقتل عضو الذكر المتخيّل الخاص بها، كما كانت ترغب هي ذاتها في أن تخصيه. ويبدو لي حالياً أن الخوف من رؤية شخص يدخل من النافذة كان يشتمل أيضاً على خوف من أن تهاجم أمها «داخل» جسمها وكانت الغرفة تمثّل جسمها أيضاً، والمهاجم هو الأم التي كانت تثأر للهجمات التي أطلقتها الطفلة ضدها. وكانت الحاجة الوسواسية إلى أن تُدثّر بالأغطية بعناية فائقة جداً دفاعاً لمقاومة هذه المخاوف جميعها.

٤- الأنا العليا تنمو منذ الأشهر الأولى من الحياة

الحصر والإثمية اللذين وصفناهما في المقطعين السابقين كانا يرتبطان بنمو الأنا العليا واكتشفتُ لدى هذه الطفلة أنا عليا قاسية وعديمة الرحمة كالأنا العليا الموجودة في قاعدة ضروب العصاب الوسواسية الخطيرة لدى الراشدين. وكان التحليل قد أتاح لي أن أتبع مجرى هذا النمو حتى بداية السنة الثانية من عمر ريتا. وتقودني تجربتي اللاحقة إلى أن أستنتج أن نمو أناها العليا كان قد بدأ منذ الأشهر الأولى من حياتها.

وفي لعبة السفر الموصوفة فيما سبق، كان سائق القاطرة يمثّل أباها الفعلي، ولكنه يمثل أيضاً أناها العليا. وكانت هذه الأنا العليا أيضاً ذات تأثير في اللعبة الوسواسية التي تلعبها ريتا مع دميتها، عندما تنفّذ معها طقساً شبيهاً بالطقسي الذي كانت تقتضيه لنفسها عندما تذهب للنوم: إنها كانت تضع الدمية في سريرها وتدثّرها بأغطيتها على نحو منظّم جداً. ووضعت ريتا مرة، خلال التحليل، فيلاً قرب سرير الدمية. وشرحت أنه كان على الفيل أن يمنع «الطفلة» (الدمية) من أن تنهض من سريرها، وإلا فإن «الطفلة» كانت ستندسّ في غرفة أبويها وتؤذيهما أو تأخذ منهما شيئاً. وكان الفيل يمثّل أناها العليا (أباها وأمها)، والهجمات التي عليه أن يمنعها تعبّر عن الميول السادية لدى ريتا، المتمركزة حول علاقات أبويها الجنسية وعلى حمْل أمها. وكان على الأنا العليا أن تمنع الطفلة من أن تسرق من أمها الطفل الموجود داخل جسمها، ومن أن تجرح جسم الأم أو تدمّره وتخصي الأب.

وإليكم تفصيلاً من تاريخها ذا دلالة: عندما كانت ريتا تلعب بدميتها، في بداية السنة الثالثة من عمرها، كانت تصرّح غالباً أنها لم تكن أمها. وأظهر سياق التحليل مايلي: إنها عاجزة عن أن تتيح لنفسها أن تكون أم الدمية لأن هذه الدمية كانت تمثّل بالنسبة لها أخاها الصغير الذي ترغب في أن تأخذه من أمها وهي تخشى في الوقت نفسه أن تفعل ذلك، وكان مصدر إثميتها أيضاً استيهامات عدوانية شعرت بها خلال حمْل أمها. وإذا كانت ريتا عاجزة عن أن تمثّل في اللعب أم دميتها، فإن الكفّ لديها لم يكن مصدره مع ذلك إثميتها فحسب، بل خوفها أيضاً أمام وجه أم قاس، قاس إلى حد كبير جداً بحيث أن أمها الفعلية لم تكن قط على هذه الدرجة من القسوة. ولم تكن ريتا تكتفي بأن ترى أمها الحقيقية في هذا الجو المشوّه، بل تشعر فضلاً عن ذلك، شعوراً مستمراً، بأن ثمة وجه أم **داخلياً** مرعباً يهدّدها. وقد تكلمتُ على هجمات استيهامية تشنّها ريتا على جسد أمها وتكلمت على الحصر الذي كان رجع هذه الهجمات: فالطفلة كانت تخشى

أن تهاجمها أمها وتسرق أطفالها المتخيّلين. وتكلمت أيضاً على خوفها من أن يهاجمها أبوها ويخصيها. وأودّ أن أمضي في تفسيراتي إلى أبعد مدى. فالهجمات التي شنّها أبواها، بوصفهما شخصيتين خارجيتين، على جسمها يقابلها في استيهاماتها خوفها من أن يهاجمها في داخلها الوجهان الأبويان المستدخلان والمضطهدان اللذان كانا يؤلفان الجزء الطاغي من أناها العليا[١٠].

وقسوة الأنا العليا لريتا كانت تبدو على الغالب في الألعاب التي تمارسها خلال التحليل. ومثال ذلك أنها كانت تعاقب دميتها عقوبة قاسية. وعندئذ كانت نوبة من الغيظ والرعب تنفجر. وكانت ريتا تتوحّد في الوقت نفسه بالأبوين الصارمين اللذين يفرضان على الطفل عقوبات قاسية وبالطفل المعاقب الذي ينفجر غاضباً. ولم تكن قسوة أناها العليا تظهر في لعبها فحسب، ولكنها تظهر أيضاً في تصرّفها. فكانت تبدو في بعض الفترات لسان حالٍ لأم قاسية لا ترحم، ولسان حال لطفل صغير غير منضبط، شره ومخرّب، في فترات أخرى. ويبدو في ذلك أن ثمة القليل جداً من أناها الخاصة لتصل هذين الحدين الأقصيين أحدهما بالآخر ولتعدّل حدة النزاع. فكانت سيرورة التكامل التدريجية لأناها العليا معاقة بقوة، ولم تكن قادرة على إعداد شخصية تكون خاصة بها.

٥- تطور الأوديب تعوقه ضروب الحصر

كانت مشاعر ريتا الاكتئابية سمة من سمات عصابها البارزة. فقد كانت تُصاب بنوبات من الحزن، وتبكي دون سبب على الغالب، وتسأل

(١٠) سأدرس، في الملخص النظري العام المعروض في الفصل التالي، نمو الأنا العليا لدى البنت والدور الأساسي الذي يؤديه الأب الطيب المستدخل. وهذا الجانب من تكوّن الأنا العليا لم يظهر في تحليل ريتا. وكان تحسّن علاقتها بأبيها، تحسن حدث نحو نهاية تحليلها، يدلّ مع ذلك على تطور في هذا الاتجاه. وبوسعي أن أرى الآن أن الحصر والإثمية المرتبطين بأمها كانا يسودان حياتها الانفعالية إلى درجة كانت تُعاق علاقتها بأبيها الخارجي وبالصورة الأبوية المستدخلة.

أمها باستمرار إن كانت تحبها: وتلك علامات ضروب حصرها الاكتئابي. ومصدر هذه الضروب من الحصر كان موجوداً في علاقتها بثديي أمها. فاستيهاماتها السادية، التي كانت قد هاجمت فيها ثدي الأم وجسمها بكليته، أفضت لديها إلى خوف يسيطر عليها ويؤثر تأثيراً عميقاً على علاقاتها بأمها بوصفها موضوعاً لاغنى عنه وطيّباً، وتشعر بأنها آثمة لأنها عرّضتها إلى الخطر بفعل استيهاماتها العدوانية؛ وهي، من جهة ثانية، تكرهها وتخشاها بوصفها أما سيئة مضطهدة (إنها كانت تكره الثدي السيء وتخشاه في المستوى الأول). وكانت هذه المخاوف والمشاعر المعقدة، ذات العلاقة بأمها على أنها موضوع خارجي وموضوع داخلي في آن واحد، تكوّن وضعها الاكتئابي الطفلي. وكانت ريتا عاجزة عن مواجهة هذه الضروب من الحصر الحادّ وعاجزة عن أن تتغلّب على وضعها الاكتئابي.

وثمة واقعة مستمدّة من الجزء الأولي من تحليلها ذات مدلول بهذا الصدد[11]. فقد كانت تخربش بقوة على ورقة بيضاء تسوّدها برمتها. ثم مزّقتها إلى قطع صغيرة ألقتها في كأس ماء وقرّبت الكأس من فمها كما لو أنها تريد أن تشربها. وعندئذ توقّفت وقالت بصوت خفيض: «امرأة ميتة». وكرّرت الحركات ذاتها ونطقت الكلمتين نفسيهما، مرة أخرى.

وكانت الورقة الممزّقة، الملقاة في الماء، تمثّل أمها التي دمّرتها الوسائل الفمية والشرجية والإحليلية. وهذه الصورة لأم ميتة لم تكن فحسب صورة أم خارجية عندما تكون خارج حقل الرؤية، ولكنها صورة أم داخلية أيضاً. وكان على ريتا أن تتخلّى عن منافسة أمها في الوضع الأوديبي: إن خوفها من أن تفقد الموضوع الداخلي والخارجي كان يعمل بوصفه حاجزاً أمام كل رغبة يمكنها أن تفاقم كرهها لأمها، وأن تسبّب بالتالي موت هذه الأم. وكانت هذه الضروب من الحصر الناشئة من الوضع الفمي تشرح الاكتئاب

(١١) هذه المواد لم تكن مذكورة في منشوراتي السابقة.

العميق الذي أصاب ريتا عندما حاولت أمها أن تفطمها عن رضّاعتها الأخيرة. فلم تكن ريتا تريد أن تشرب حليبها في فنجان. ووقعت في يأس حقيقي، وفقدت الشهيّة فقداناً كاملاً، ورفضت أن تأكل، وتعلّقت بأمها تعلقاً لم يسبق له مثيل، سائلة إياها باستمرار: «هل تحبينني؟»، «هل كنتُ شنيعة؟»، إلخ. وكشف التحليل أن الفطام كان في تفكيرها عقاباً صارماً بسبب رغباتها العدوانية وتمنياتها موت أمها. وبما أن فقدان الرضّاعة كان يمثّل الفقدان النهائي للثدي، فقد حدث انطباع لدى ريتا بأنها دمّرت أمها بالفعل عندما انتزُعت منه االرضّاعة. ولم يكن حضور الأم نفسه قادراً على أن يفعل سوى أنه يلطّف هذه المخاوف، مؤقتاً. وتسوّل للمرء نفسه أن يستنبط أن فنجان الحليب، الذي ترفضه ريتا خلال الاكتئاب الذي تلا الفطام، يمثّل الأم المدمّرة والميتة إذا كانت الرضاعة المفقودة تمثّل الثدي الطيب المفقود، مثلما كان كأس الماء والورق الممزّق يمثّلان «المرأة الميتة».

وكان حصر ريتا الاكتئابي حول موت أمها يرتبط، كما قلت آنفاً، بمخاوفها من الاضطهاد: كانت تخشى من أن تهاجم جسمها أمٌ منتقمة. والواقع أن هذه الهجمات لاتكوّن في نظر الفتيات خطراً على جسمهن فحسب، ولكنها تكوّن أيضاً خطراً على كل الأشياء الثمينة، التي يحتويها «داخل» أجسامهن في نظرهن: أطفالهن الممكنين والأم الطيبة والأب الطيب.

والعجز عن حماية هذه الموضوعات المحبوبة من المضطهدين في الداخل والخارج يشكّل لدى البنات، جزءاً من وضع الحصر الأكثر أساسية[١٢].

---

(١٢) ظهر هذا الوضع، وضع الحصر، من نواح كثيرة في تحليل ريتا. ولم آخذ عندئذ بالحسبان تماماً أهمية هذه الضروب من الحصر وصلاتها الوثيقة جداً بالاكتئاب. وأتاحت لي تجربتي اللاحقة أن أوضّح هذا الأمر.

٦- يتحمّل المرء رغباته الأوديبية ليصبح راشداً

كانت علاقة ريتا بأبيها منوطة إلى حدّ كبير بأوضاع الحصر المتمركزة حول أمها. وثمة جزء كبير من كرهها للثدي السيء ومن خوفها منه كان قد تحوّل على عضو الذكر الأبوي. وإثميتها المفرطة إزاء أمها وخوفها من أن تفقدها كانا قد تحوّلا، هما أيضاً، على أبيها. وكان كل ذلك، مضافاً إليه الإحباط الذي جعلها أبوها تعانيه مباشرة، يعوق نمو العقدة الأوديبية الإيجابية لديها.

وكان حسد عضو الذكر والتنافس مع أبيها في الوضع الأوديبي المعكوس يعزّزان كرهها لهذا الأب. وقادتها الجهود التي كانت تبذلها لتكافح حسدها عضو الذكر إلى أن تعتقد أيضاً اعتقاداً أكثر جزماً بوجود عضو الذكر المتخيّل لديها. وكانت تحّس مع ذلك بأن أباً سيئاً يهدّد عضو الذكر هذا، أباً سيخصيها انتقاماً من رغبات في خصائه تستشعرها تجاهه. وكانت ريتا تظهر خوفها من الخصاء عندما خشيت أن يدخل «بوتزن» أبيها غرفتها وأن يستأصل «بوتزن» ها بعضّة من أسنانه.

وكانت رغبتها في امتلاك عضو الذكر الأبوي وفي أن تؤدي مع أمها الدور الذي يؤديه أبوها علامة واضحة على حسد عضو الذكر. ومواد اللعب التي ذكرناها فيما سبق تبيّن بالمثال هذا الأمر: كانت تسافر مع دبها، الذي يمثّل عضو الذكر لديها، ذاهبة إلى منزل «امرأة لطيفة» لابد لها من أن تحتفي بهما. وكان حصرها وإثميتها حول موضوع أمها المحبوبة يعزّزان مع ذلك، كما بيّن لي تحليلها، رغبتها في أن تمتلك عضو ذكر خاصاً بها. وكانت هذه الضروب من الحصر، التي أفسدت في وقت مبكّر بعض الشيء علاقتها بأمها، تؤدي دوراً هاماً في إخفاق النمو الأوديبي الإيجابي. وكان مفعولها أيضاً أنها عزّزت رغبتها في امتلاك عضو الذكر: فريتا تعتقد في

الواقع أن الوسيلة الوحيدة للتعويض عن الأضرار التي أوقعتها بأمها ولإحلال أطفال محل الأطفال الذين كانت قد سرقتهم منها في استيهاماتها، أن تمتلك عضو ذكر خاصاً بها يتيح لها أن تشبع أمها وتمنحها أطفالاً.

كانت الصعوبات الشديدة، التي استشعرتها ريتا أمام العقدة الأوديبية الإيجابية والمعكوسة، متأصّلة إذن في وضعها الاكتئابي. وبمقدار ما تناقصت هذه الضروب من الحصر، بمقدار ما أصبحت قادرة على أن تتحمّل الرغبات الأوديبية وتبلغ بالتدريج موقفاً أنثوياً وأمومياً. وكانت علاقة ريتا بأبويها وأخيها قد تحسّنت حوالي نهاية تحليلها الذي انقطع بسبب ظروف خارجية. وحلّت المودة محلّ كرهها لأبيها، الذي كان حتى ذلك الزمن بارزاً جداً. وتناقصت ثنائية المشاعر لديها تجاه أمها وقامت بينهما علاقة أكثر استقراراً ومودّة.

وتغيّر موقف ريتا من دبّها ودميتها تغيّراً أظهر التقدّم الكبير في نموها الليبيدي، والتخفيف من صعوباتها العصابية ومن قسوة أناها العليا. وفي إحدى المرات، صرّحت، وكان التحليل يكاد ينتهي وتباشر عندئذ تقبيل دبّها وتهديده وتقول له كلمات رقيقة: «لم أعد قط تعسة، لأن لي الآن رضيعاً صغيراً لطيفاً جداً». فقد كانت قادرة على أن تسمح لنفسها حالياً بأن تكون أم طفلها المتخيّل. ولم يكن هذا التغيّر أمراً جديداً كل الجدّة، بل كان إلى حدّ من الحدود عودة إلى موقع ليبيدي سابق. وكان الحصر والإثمية تجاه أمها قد عاقا خلال السنة الثانية من عمر ريتا، رغبتها في أن تتلقّى عضو الذكر الأبوي وأن يكون لها طفل من أبيها. وتوقّف نموها الأوديبي الإيجابي وتفاقم عصابها بوضوح. فعندما كانت ريتا تؤكد بقوة أنها ليست أم دميتها، كانت تبيّن أنها تصارع رغبتها في أن يكون لها طفل. وكانت عاجزة، تحت ضغط حصرها وإثميتها، عن أن ترعى موقعها الأنثوي وكانت مسوقة إلى أن

تعزّز موقعها الذكري. وعلى هذا النحو كانت الأمور قد انتهت إلى أن يمثّل الدبّ على وجه الخصوص عضو الذكر المرغوب. وكانت ريتا عاجزة عن أن ترغب في طفل من أبيها، ولم يكن التوحّد بالأم في الوضع الأوديبي قادراً على أن يستقرّ قبل أن يتناقص حصرها وإثميتها تجاه أبويها.

ميلاني كلاين

الفصل التاسع
بدايات العقدة الأوديبية

كانت ميلاني كلاين واحدة من أولى المحللات اللواتي مارسن التحليل النفسي للأطفال الصغار جداً. وكان ثمة، عام ١٩٠٨، سابق شهير، هانس الصغير الذي حلّله فرويد بمساعدة أب الصبي. وكانت الصداقة بين الرجلين وانفتاح والد هانس لأفكار التحليل النفسي قد أوجدا الشروط الملائمة للسير الجيد، سير العلاج. ولكن الظروف كانت استثنائية. ومنذ ذلك الحين، ساد الركود في هذا المجال.

وأتاحت تقنية اللعب تعويض التأخر. إنها تقنية مستخدمة دائماً مع ذلك. وبان عندئذ أن المعطيات الحاصلة على هذا النحو كانت تنير السنين الأولى من الحياة إنارة فريدة.

إن ملاحظات ميلاني كلاين قادتها إلى أن تصف علاقات الرضّع الباكرة بثدي الأم، ذلك أنه هو الموضوع الخارجي الأول الذي يتلقّون منه الإشباع. فهو يكيّف إذن علاقاتهم الأولى بالعالم. وتصوغ الانفعالاتُ التي يستمدونها منه ما هو مقبل فيما بعد. وبعد زمن متأخر بعض الشيء، يسترعي داخلُ جسم الأم، المتصوّر أنه يحتوي بصورة خاصة على عضو الذكر الأبوي، كل اهتمامهم.

أبوسعنا أن نقول إن فرويد أبدى ضرباً من الظلم حيال ميلاني كلاين؟ لن يكون الخصام الذي انفجر في عامي ١٩٢٦-١٩٢٧ بين ميلاني وابنة فرويد، أنّا، غريباً عن ذلك. ففرويد يرفض أفكار ميلاني الخاصة بالأنا العليا وبالأوديب المبكّر. وسيلحّ فرويد مع ذلك، تحت تأثير المحلّلات النفسيات، على أهمية العلاقة بين الأم والطفل، علاقة تسبق المثلث الأوديبي الشهير.

النص : ميلاني كلاين

اللوحات السريرية للحالتين اللتين عرضناهما في الفصل السابق تختلف من جوانب عديدة. ولكن هاتين الحالتين تشتركان بعدة خصائص ذات أهمية، كالميول السادية الفمية القوية، وحصر وإثمية مغاليين، واستعداد ضعيف لدى الأنا لتحمّل كل نوع من التوتر. وهذه هي، حسب تجربتي، بعض من العوامل التي تعوق الأنا، إذ تؤثر هذه العوامل في الظروف الخارجية وتتلقّى تأثير الظروف الخارجية، عن أن تكوّن بالتدريج دفاعات ملائمة ضد الحصر. وينجم عن ذلك أن تمثّل أوضاع الحصر المبكرة معاق وأن التطور الانفعالي والليبيدي للطفل يتأذّى بسبب ذلك، ويتأذى أيضاً نمو أناه العليا. وبما أن الحصر والإثمية سائدان، فإنه يحدث ضرب من التثبيت القوي جداً على المراحل المبكّرة. وينجم عن ذلك اضطراب النمو الأوديبي، وليس التنظيم التناسلي قادراً على أن يستقرّ استقراراً متيناً. وفي الحالتين اللتين وصفناهما في الفصل السابق، كما في الحالات الأخرى المشابهة، تباشر عقدة أوديب نموها السليم عندما تتناقص هذه الضروب المبكرة من الحصر.

ومفعول الحصر والإثمية على النمو الأوديبي يوضّحه، إلى حدّ من الحدود، ذلك التقرير المختصر عن الحالتين، تقرير استطاع القارىء أن يقرأه. والعرض التالي لنتائجي النظرية حول بعضٍ من جوانب النمو الأوديبي مبنيّ مع ذلك على مجموع عملي التحليلي، وعلى تجربتي مع أطفال وراشدين، تجربة تتدرّج من السواء إلى المرض الخطير.

ولا بدّ لوصف كامل للنمو الأوديبي من أن يتضمّن دراسة التأثيرات

والتجارب الخارجية مرحلة مرحلة، ولمفعولها خلال الطفولة كلها. وقد ضحيت على نحو مقصود بالوصف الشامل للعوامل الخارجية في سبيل وضوح النتائج الأكثر أهمية[1].

وقادتني تجربتي إلى الاعتقاد بأن الليبيدو ممزوج منذ بداية الحياة بالعدوانية التي تولّد الحصر. ويؤثّر الحصر تأثيراً عميقاً وفي جميع المراحل على نمو الليبيدو. والحصر، والإثمية، ومشاعر الاكتئاب، تقود الليبيدو إلى مدى أبعد في بعض الحالات، صوب مصادر إشباع جديدة؛ وتمنع نموه في حالات أخرى، إذ تعزّز التثبيت على موضوع أو هدف سابق.

وصورة هذه المراحل الأولى من عقدة أوديب صورة غامضة بالضرورة، قياساً على الأطوار الأكثر تأخراً من هذه العقدة. فأنا الطفل الصغير ينقصها النضج، إنها تحت سلطة الاستيهامات اللاشعورية كلياً. وحياته الدافعية، من جهة أخرى، هي في الطور الأكثر اتصافاً بأنه ذو أشكال متعدّدة. وتتميّز هذه المراحل البدئية بترجّحات سريعة بين الأهداف والموضوعات المختلفة، ترجحات تقابلها ترجحات في طبيعة الدفاعات. وفي رأيي أن عقدة أوديب تولد خلال السنة الأولى من الحياة، وتشرع في النمو لدى الجنسين تبعاً لخطوط مشابهة. والعلاقة بثدي الأم هي أحد العوامل الأساسية التي تكيّف النمو الانفعالي والجنسي. وسأنطلق إذن من العلاقة بالثدي لأصف العقدة الأوديبية لدى الصبيان كما لدى البنات.

١ ـ بداية الأوديب وثدي الأم

يبدو أن البحث عن مصادر إشباع جديدة يشكّل جزءاً من حركة

---

(١) الهدف الرئيس لهذا الملخص يكمن في أن أعرض أفكاري حول بعض الجوانب من عقدة أوديب عرضاً واضحاً. وأقترح بالإضافة إلى ذلك أن أقارن نتائجي مع بعض وجهات النظر لدى فرويد حول هذا الموضوع. فمن المتعذّر بالنسبة لي إذن أن أذكر في الوقت نفسه مؤلفين آخرين أو أن أحيل إلى نصوص عديدة تعالج هذا الموضوع. وأودّ أن أشير على الأقل إلى الفصل الحادي عشر من كتابي في **التحليل النفسي للأطفال** (١٩٣٢) حيث رويت أفكار عدة مؤلفين حول عقدة أوديب لدى البنت.

الليبيدو نحو الأمام. فالإشباع المحسوس في ثدي الأم يتيح للرضيع أن يوجّه رغباته صوب موضوعات جديدة، وصوب عضو الذكر الأبوي أول الأمر. ويمنح الإحباط، الذي يعانيه الرضيع في علاقته بثدي الأم، هذه الرغبة الجديدة مع ذلك دفعة خاصة. وعلينا أ لا ننسى أن الإحباط منوط بعوامل داخلية وبتجارب واقعية على حدّ سواء. فثمة ضرب محتوم من الإحباط الذي يمارسه الثدي، ولو في الظروف الأكثر ملاءمة، ذلك أن ما يرغبه الطفل في الواقع إنما هو إشباع **غير محدود**. ويقود الإحباط الذي يمارسه الثدي أولئك الصبيان والبنات إلى أن يتحولّوا عنه، ويحرّض فيهم الرغبة في ضرب من الإشباع الفمي يؤمنّه عضو الذكر الأبوي. فالثدي وعضو الذكر هما إذن الموضوعان البدائيان للرغبات الفمية لدى الأطفال الصغار.

ويصوغ إشباع الطفل الصغير والإحباط الذي يعانيه علاقته بثدي طيّب محبوب وبثدي سيّء مكروه. وضرورة مواجهة الإحباط والعدوانية التي تنجم عنه هي عامل من العوامل التي تقود إلى إضفاء المثالية على الثدي الطيب والأم الطيّبة وتقود بصورة موازية إلى تعزيز الكره للثدي السيّء والأم السيئة والخوف منهما، تلك الأم التي تصبح النموذج الأصلي لكل الموضوعات المضطهدة والمرهوبة.

وينتقل الموقفان المتعارضان من ثدي الأم إلى العلاقة الجديدة بعضو الذكر الأبوي. ويفاقم الإحباط المعانى في العلاقة السابقة تلك المتطلبات والآمال أمام المصدر الجديد. وتضاعف خيبة الأمل المحتومة التي تساهم بها هذه العلاقة الجديدة تلك الموانع أمام الموضوع الجديد؛ وذلك يؤدي دوراً أساسياً في عدم استقرار المواقف الانفعالية ومراحل التنظيم الليبيدي.

وتحوّل من جهة أخرى ميوله العدوانية، التي يحرّضها الإحباط ويعزّزها، ضحايا استيهاماته العدوانية، في ذهنه، إلى وجوه مهانة ومنتقمة

تهدّده بهجمات سادية تماثل الهجمات التي يشنّها على أبويه[٢]. وينجم عن ذلك أن الطفل يحسّ بالرغبة المتفاقمة في موضوع محبّ ومحبوب، في موضوع كامل، مثالي، يمكنه أن يشبع حاجته إلى العون والأمن. فكل موضوع يمكنه أن يكون إذن بالتناوب طيباً وسيئاً. وتفترض هذه الحركة من المسارات في الاتجاهين، بين مختلف مظاهر الصور الذهنية المثالية البدائية، تأثيراً متبادلاً وثيقاً للمراحل المبكّرة من عقدة أوديب الإيجابية والمعكوسة.

٢ ـ علاقات لا تخطر على بال

بما أن الطفل الصغير يستدخل، في ظلّ غلبة الليبيدو الفمي، موضوعاته منذ ولادته، فإن للصور الذهنية المثالية البدائية مثْلاً في عالمه الداخلي. فالصور الذهنية المثالية لثدي الأم ولعضو الذكر الأبوي تستقرّ داخل أناه وتكوّن نواة أناه العليا. ويقابل اجتياف الثدي الطيب والسيء والأم الطيبة والسيئة، اجتيافُ عضو الذكر الطيب والسيء والأب الطيب والسيء. فتصبح هذه الصور هي النماذج الأولى للوجوه الداخلية التي تحمي وتعين من جهة، وللوجوه الداخلية التي تنتقم وتضطهد من جهة أخرى. وتلك هي التوحّدات الأولى التي تصوغها الأنا.

وتؤثر العلاقة بالشخوص الداخلية، على أنحاء كثيرة، في علاقة الطفل ذات المشاعر الثنائية بأبويه بوصفهما موضوعين خارجيين، وتتلقّى تأثيرها على أنحاء كثيرة. ذلك أن اجتياف الموضوعات الخارجية يقابله، في كل مرحلة من المراحل، إسقاط الوجوه الداخلية على العالم الخارجي، وهذا التأثير المتبادل هو ركيزة العلاقة بالأبوين الواقعيين كما أنه ركيزة لنمو الأنا العليا. ونتيجة هذا التأثير المتبادل، الذي يفترض توجّها صوب الخارج

---

(٢) ينبغي أن نأخذ بالحسبان تلك الصعوبة الكبيرة التي نصادفها في التعبير عن عواطف الطفل الصغير واستيهاماته بلغة الراشد. فكل وصف للاستيهامات المبكّرة في الطفولة الأولى ـ وبالتالي كل وصف للاستيهامات اللاشعورية بصورة عامة ـ ليس بوسعه إذن أن يقدّم بيانات إلا عن محتوى هذه الاستيهامات لا عن شكلها.

وصوب الداخل، تكمن في أن يستقر ترجّح دائم بين الموضوعات والأوضاع الداخلية والخارجية. وتتعلّق هذه الترجحات بحركة الليبيدو بين مختلف الأهداف والموضوعات: فتطور العقدة الأوديبية ونمو الأنا العليا مرتبطان إذن ارتباطاً وثيقاً.

وثمة رغبات تناسلية مبكّرة تمتزج بميول الطفل الفمية امتزاجاً سريعاً جداً، على الرغم من أن الليبيدو الفمي والشرجي والإحليلي لا يزال يحجبها. وتتوجّه الرغبات التناسلية المبكّرة، شأنها شأن الرغبات الفمية، إلى الأب والأم. ويتّفق هذا الواقع مع فرضيتي التي مفادها أن لدى الجنسين معرفة فطرية لاشعورية بوجود عضو الذكر وبوجود العضو الأنثوي أيضاً. وتتيح الإحساسات التناسلية للطفل الذكر أن يخمّن أن لأبيه عضو ذكر يرغب فيه الصبي لأنه يماثل بينه وبين ما لديه. وتنطوي إحساساته وميوله التناسلية، في الوقت نفسه، على البحث عن فتحة بوسعه أن يدخل فيها عضو الذكر خاصته، أي إنه ينشد الأم. وتهيىء الإحساسات العامة لدى البنت الصغيرة -بدءاً، تهيئة على النحو نفسه، تلك الرغبة لتلقّي عضو الذكر الأبوي في عضوها الأنثوي. ويبدو إذن أن الرغبات التناسلية في عضو الذكر الأبوي، التي تمتزج بالرغبات الفمية، هي أساس المراحل المبكّرة لعقدة أوديب الإيجابية لدى البنت والمعكوسة لدى الصبي.

ويؤثّر الحصر والإثمية والمشاعر الاكتئابية على كل مراحل النمو الليبيدي. وقد تكلمت في عدة مناسبات على الوضع الاكتئابي الطفلي كما تكلمت على الوضع الرئيس لنمو الطفولة الأولى. وأقترح الآن صياغة أخرى لهذه الفكرة: نواة المشاعر الاكتئابية الطفلية، أي خوف الطفل من أن يفقد موضوعاته المحبوبة من جرّاء كرهه وعدوانيته، تشكّل منذ البداية جزءاً من علاقاته بالموضوعات ومن عقدته الأوديبية.

والنتيجة الطبيعة الأساسية للحصر والإثمية والمشاعر الاكتئابية هي

الحاجة الى التعويض . فالطفل الصغير مرغم، إذ تدفعه إثميته، إلى أن يزيل مفعول ميوله السادية بالوسائل الليبيدية . وتعزّز الحاجة إلى التعويض حبه الذي يوجد هو وميوله العدوانية معاً . وتكوّن استيهامات التعويض، في أدقّ تفصيلاتها على الغالب، عكس الاستيهامات السادية . فمشاعر القوة الكلية السادية تقابلها مشاعر القوة الكلية المعوّضة . ومثال ذلك أن البول والغائط عاملان هدّامان عندما يشعر الطفل بالكره . وهم هديتان عندما يحب . ولكنه عندما يشعر بأنه آثم وأنه مسوق إلى أن يقدّم التعويض، يتحوّل الغائط «الجيد» في ذهنه إلى وسائل للتعويض عن الأضرار التي أحدثها الغائط «الخطر» . ويحسّ الصبيان والبنات على حدّ سواء، من جهة أخرى، إحساساً على نحو مختلف، بأن عضو الذكر، الذي سبّب الأذى للأم ودمّرها في استيهاماتهم السادية، يصبح الوسيلة لتجديد هذه الأم والعناية بها في استيهامات التعويض لديهم . فالرغبة في منح إشباع ليبيدي وتلقّيه تتفاقم إذن بالحاجة إلى تقديم التعويض . ويفكر الطفل الصغير بالفعل أن الموضوع المهان يمكن تجديده على هذا النحو، وأن سلطة ميوله الخاصة العدوانية متقلّصة، وأن بوسع ميول الحب لديه أن تنتشر، وأن بوسع إثميته أن تسكن .

فالنمو الليبيدي تحرّضه الحاجة إذن إلى التعويض وتعززّه في كل لحظة، وتحرّضه وتعززّه في نهاية المطاف مشاعر الإثمية . ومع ذلك فإن الإثمية، التي تولّد الحاجة إلى تقديم التعويض، تكبح الرغبات الليبيدية . ذلك أن رغبات الطفل الليبيدية تبدو له، عندما يحسّ بأن عدوانيته هي الغالبة، بمنزلة الخطر على موضوعاته المحبوبة، ولا بدّ له إذن من أن يكبتها .

٣ ـ النمو الأوديبي للصبي

بعد أن قدمت لمحة عن المراحل المبكّرة لعقدة أوديب لدى الجنسين، سأفحص الآن على نحو أكثر دقة نمو الصبي . إنه يبلغ وضعه الأنثوي، الذي

يؤثّر تأثيراً عميقاً على موقفه من الجنسين، في ظلّ غلبة ميول واستيهامات فمية، إحليلية وسادية. وهذا الوضع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلاقة الصبي بثدي الأم. وإذا كان الصبي قادراً على أن يحوّل جزءاً من حبه ورغباته الليبيدية من ثدي الأم إلى عضو الذكر الأبوي مع الاحتفاظ بالثدي موضوعاً طيباً في الوقت نفسه، فإن عضو الذكر الأبوي سيمثّل في ذهنه عضواً خلاقّاً وطيباً يوسعه أن يتوقّع منه، كأمه، إشباعاً ليبيدياً وأطفالاً. وهذه الرغبات الأنثوية هي دائماً خاصة من خصائص النمو لدى الصبي. وتكوّن هذه الرغبات أساس عقدته الأوديبية المعكوسة وتؤلف الاتجاه الجنسي المثلي الأول. والصورة المطمئنة لعضو الذكر الأبوي بوصفه عضواً طيباً وخلاقاً هي، بالإضافة إلى ذلك، الشرط الأولي لاستعداد الصبي الصغير أن يبسط رغباته الأوديبية الإيجابية. ذلك أن الصبي الصغير ليس بوسعه أن يسمح لنفسه بالإحساس برغباته التناسلية إزاء أمه إلا حينما يعتقد اعتقاداً قوياً بـ «طيبة» العضو التناسلي المذكر - عضو أبيه الخاص. وبوسعه أن يواجه الكره والمنافسة اللذين تولّدهما في نفسه عقدة أوديب عندما تلطّف الثقة بالأب الطيب خوفه من الأب الخصّاء. فالميول الأوديبية المعكوسة والإيجابية تنمو إذن في آن واحد ويوثر الواحد منها على الآخر تأثيراً شديداً.

ولدى المرء أسباب مناسبة للاعتقاد بأن الخوف من الخصاء يتجلّى حالما يحسّ الطفل بالإحساسات التناسلية. والخوف من الخصاء لدى الذكر، وفق تعريف فرويد، هو الخوف من أن يرى عضوه التناسلي موضع الهجوم ومصاباً بالجراح أو مقطوعاً. وفي رأيي أن هذا الخوف يحس به الصبي أول الأمر عندما تكون الغلبة لليبيدو الفمي. وتتحوّل ميول الصبي السادية الفمية إزاء ثدي الأم على عضو الذكر الأبوي. يضاف إلى ذلك أن المنافسة والكره اللذين يسودان الوضع الأوديبي المبكّر يتجلّيان برغبة الصبي في أن يقتلع بأسنانه عضو الذكر الأبوي. ومن هنا منشأ خوفه من أن يقتلع أبوه بأسنانه عضوه التناسلي الخاص أخذاً بالثأر.

وثمة عدد كبير جداً من ضروب الحصر المبكّر ، الناشئة من مصادر شتى، تؤدي دورها في الخوف من الخصاء. والرغبات التناسلية لدى الصبي إزاء أمه مشحونة بالمخاطر منذ ظهورها بسبب استيهامات الهجمات الفمية والإحليلية والسادية على جسم الأم. فـ «داخل» جسم الأم، بحسب استيهامات الصبي، مصاب بجروح، مسموم وسام. وهو يحتوي بالإضافة إلى ذلك على عضو الذكر الأبوي الذي يُدرك، من جراء هجمات الطفل السادية، بوصفه موضوعاً عدائياً وخصّاء يهدّد بتدمير عضو الذكر لدى هذا الطفل.

٤- ضروب من الحصر ينبغي تعويضها

لهذه الصورة المرعبة، صورة «داخل» الأم، التي توجد مع صورة الأم بوصفها مصدراً لكل طيبة وكل إشباع، تستجيب مخاوف الصبي الصغير ذات العلاقة بجسمه الخاص. والخوف الأشد من كل هذه المخاوف هو الخوف من أن تهاجمه في داخله أم أو أب أو صورة للأبوين متّحدين، انتقاماً منه على ميوله العدوانية الخاصة. ولهذه المخاوف، مخاوف الاضطهاد، تأثير حاسم في ضروب الحصر لدى الصبي حول موضوع عضو الذكر الخاص به. فكل جرح يعاقب به المضطهدون المستدخلون «داخل» جسمه يفترض بالنسبة له هجوماً على عضو الذكر لديه، عضو يخشى أن يراه مشوّهاً، مسموماً أو مفترساً من الداخل. وليس عضو الذكر لديه فقط، مع ذلك، هو الذي يفكر بوجوب حمايته، بل يفكّر أيضاً بحماية محتويات جسمه الطيبة، والإفرازات الغائطية الطيبة، والأطفال الذين يتمنّى، في الوضع الأنثوي، أن يلدهم، والأطفال الذين يتمنى، حين يتوحّد بالأب الخلاق والطيّب، أن ينجبهم في الوضع الذكري. إنه مرغم على أن يحمي الموضوعات المحبوبة ويحتفظ بها، موضوعات استدخلها هي والوجوه المضطهدة في الوقت نفسه. فالخوف من الهجمات الداخلية على الموضوعات المحبوبة يرتبط إذن بالخوف من الخصاء ارتباطاً وثيقاً ويعزّزه.

وثمة حصر آخر يساهم في الخوف من الخصاء، مصدره استيهامات سادية تصبح فيها إفرازات الغائط مسمومة وخطرة. وعضو الذكر لدى الطفل، الذي يماثل هذا البراز الخطر المليء بالبول السيء، يصبح إذن عضو تدمير في استيهامات الجماع. وهذا الخوف يتفاقم من جراء كون الطفل يفكّر باحتواء عضو الذكر الأبوي وذلك يعني، بعبارة أخرى، أنه يتوحّد بالأب السيء. وعندما يتزوّد هذا التوحّد الخاص بالقوة، فإنه يُعاش بوصفه حلفاً مع الأب الداخلي السيء معادياً للأم. وينجم عن ذلك أن الصبي الصغير يفقد ثقته بالصفات الخصبة المعوّضة لعضوه التناسلي؛ ويحسّ أن ميوله العدوانية الخاصة تتعزّز وأن العلاقات الجنسية مع أمه ستكون عنيفة ومدمّرة.

ولهذا النوع من ضروب الحصر تأثير كبير على الخوف الحقيقي من الخصاء وعلى كبت الرغبات التناسلية، كما أن له تأثيراً على النكوص إلى مراحل سابقة أيضاً. وإذا كانت جميع هذه المخاوف مغالية والحاجة إلى كبت الرغبات التناسلية قوية جداً، فإن ثمة اضطرابات في الاستطاعة الجنسية قد تحدث فيما بعد. والعادة أن صورة لجسم الأم بوصفه مصدر الأشياء الطيبة جميعها (حليب جيّد وأطفال) واجتياف الموضوعات المحبوبة يعدّلان لدى الصبي هذه المخاوف. وعندما تكون الغلبة لميول الحب لديه، فإن نتاجات جسمه ومحتوياته تتّخذ دلالة الهدايا؛ ويصبح عضو الذكر لديه وسيلة لإشباع أمه ومنحها أطفالاً وتقديم التعويض. وإذا كانت، بالإضافة إلى ذلك، مشاعر احتواء الثدي، ثدي الأم الطيب، وعضو الذكر الأبوي الطيب، هي الغالبة لدى الصبي، فإنه يستمدّ منها ثقة كبيرة جداً بنفسه، ثقة تتيح له أن يرخي العنان جداً لرغباته وميوله. ويحسّ، في الاتحاد بالأب الطيب والتوحّد به، أن عضو الذكر لديه يتلقّى صفات خلاقة ومعوّضة. وتتيح له هذه المشاعر والاستيهامات جميعها أن يواجه خوفه من الخصاء وأن يؤسّس موقعه التناسلي على وجه أكيد. إنها، بالإضافة إلى ذلك، تكوّن الشرط الأولي لاستطاعة التصعيد التي يتّصف تأثيرها بأنه كبير على

فـاعليـات الطفل واهتـمـامـاته؛ وتتـأسّس في الوقت نفسـه قـاعـدة لإنجاز الاستطاعة الجنسية المستقبلية.

٥- النمو الأوديبي للبنت

قدّمنا فيما سبق وصفاً للمراحل المبكّرة للنمو الأوديبي لدى البنت، في نطاق ما ينطبق هذا النمو على نمو الصبي. وسأشير حالياً إلى بعض السمات الأساسية والنوعية لعقدة أوديب لدى البنت.

عندما تصبح الإحساسات التناسلية لدى البنت الصغيرة أكثر قوة، تستيقظ الرغبة في تلقّي عضو الذكر وفقاً لطبيعة العضو التناسلي الأنثوي المتلقّية(٣). ولدى البنت الصغيرة أيضاً معرفة لاشعورية بأن جسمها يحتوي يالقوة أطفالاً هم الثروة الأثمن بالنسبة لها.

ويصبح عضو الذكر الأبوي بالنسبة للبنت، بوصفه مانح الأطفال ويماثل الأطفال، موضوع رغبة شديدة وإعجاب. والعلاقة بعضو الذكر، بوصفه مصدر السعادة والهدايا الرئعة، تعزّزها علاقة الحب بالثدي الطيب والعرفان بالجميل.

وإذا كانت البنت الصغيرة تعرف معرفة لاشعورية بأنها تحتوي الأطفال بالقوة، فإنها ترتاب ارتياباً عميقاً باستعدادها المستقبلي للحمل. إنها تحس، من نواحٍ كثيرة، بالدونية قياساً على أمها. فالأم، في لاشعور الطفل، مشحونة بقدرة سحرية، ذلك أن ثديها مصدر كل شيء جيّد وهي تحتوي بالإضافة إلى ذلك عضو الذكر الأبوي والأطفال. وليس لدى البنت الصغيرة، على خلاف الصبي الذي تتأكّد استطاعته الجنسية مجدّداً بفعل امتلاكه عضو ذكر يشبه عضو الذكر الأبوي، أي وسيلة للاطمئنان عن

(٣) لا يترك تحليل الأطفال أي شك في أن ثمة امتثالاً للعضو الأنثوي في لاشعور الطفل. والاستمناء المهبلي الحقيقي أكثر تواتراً خلال الطفولة الأولى مما يقبله بعضهم على وجه العموم بكثير. وهذا الواقع أكدّه عدة مؤلفين.

موضوع خصوبتها المستقبلية. يضاف إلى ذلك أن شكوكها تتفاقم بكل ضروب الحصر ذات العلاقة بمحتويات جسمها. وهذه الضروب من الحصر تعزّز ميولاً إلى تجريد جسم الأم من الأطفال ومن عضو الذكر الأبوي على حدّ سواء. وهذه الميول تفاقم بدورها خوفها من أن ترى داخل جسمها الخاص تهاجمه وتجرده من محتوياته «الطيبة» أم خارجية وداخلية منتقمة.

وثمة بعض من هذه العناصر نشيط لدى الصبي أيضاً. ولكن الواقع الذي مفاده أن النمو التناسلي لدى البنت يكون متمحوراً على الرغبة الأنثوية في تلقّي عضو الذكر الأبوي وأن هاجسها الرئيس معنيّ بالأطفال المتخيّلين، يكوّن خاصة نوعية لنمو البنت الصغيرة. وينجم عن ذلك أن استيهاماتها وانفعالاتها تنبني على وجه الخصوص حول عالمها وموضوعاتها الداخلية. وتتجلّى منافستها الأوديبية بصورة أساسية في ميلها إلى أن تسرق من أمها عضو الذكر الأبوي والأطفال. وخوفها من أن ترى أماً سيئة منتقمة تهاجم جسمها، وتؤذي موضوعاتها الداخلية الطيبة أو تخطفها، يؤدي في ضروب حصرها دوراً دائماً وبيّناً. وفي ذلك، كما أرى، يكمن وضع الحصر الرئيس لدى البنت.

يضاف إلى هذا أن حسد الصبي أمه (التي يدركها على أنها تحتوي على عضو الذكر الأبوي والأطفال) عنصر من عناصر عقدة أوديب المعكوسة، في حين أن هذا الحسد يشكّل لدى البنت جزءاً من الوضع الأوديبي الإيجابي. ويظلّ عاملاً من العوامل الأساسية في نموها الجنسي والانفعالي كله، ويؤثر تأثيراً عميقاً على توحّدها بالأم في علاقتها الجنسية بالأب كما في دورها الأمومي.

فرغبة الفتاة في أن تمتلك عضو ذكر وفي أن تكون صبياً تعبير عن جنسيتها الثنائية. وتلك سمة شائعة لدى البنات شيوع الرغبة لدى الصبيان في أن يكونوا نساء. وشهوة البنت أن يكون لها عضو ذكر أمر ثانوي بالقياس

على رغبتها في تلقّي عضو الذكر. وهذه الشهوة تفاقمها الإحباطات التي تعانيها في وضعها الأنثوي، ويفاقمها الحصر والإثمية اللذان تستشعرهما في الوضع الأوديبي الإيجابي. وشهوة البنت في أن يكون لها عضو ذكر تحجب إلى حدّ من الحدود رغبتها المحبطة في أن تحتلّ مكان أمها قرب أبيها وأن تتلقّى أطفالاً من هذا الأب.

٦- العالم الداخلي في الحياة الانفعالية للبنت الصغيرة

سأقتصر في معالجتي هنا على تناول العوامل النوعية التي هي الأصل في تكوين الأنا العليا لدى البنت. إنها تحسّ بالحاجة الملحّة إلى أن تملأ عالمها الداخلي بالموضوعات الجيدة، بسبب الدور الكبير الذي يؤديه هذا العالم الداخلي في حياتها الانفعالية. وذلك أمر ينطوي جزئياً على شدّة سيرورات الاجتياف لديها، سيرورات تعزّزها أيضاً طبيعة عضوها التناسلي المتلقّية. ويكوّن عضو الذكر الأبوي والمستدخل، موضع الإعجاب الكبير، جزءاً داخلياً من أناها العليا. وهي تتوحّد بأبيها في وضعها المذكّر، ولكن هذا التوحّد، يرتكز على ملكية عضو ذكر متخيّل. وتعيش توحّدها بأبيها تبعاً لعضو الذكر الأبوي على حدّ سواء. وتدفع البنت، في الوضع الأنثوي، رغباتُها الجنسية واشتهاء أن يكون لها طفل إلى استدخال عضو الذكر الأبوي. وهي قادرة على الخضوع الكلي إزاء هذا الأب المستدخل فيما أنها تريد، في الوضع المذكّر، أن تتنافس معه في كل تطلّعاته وتصعيداته المذكرة. فتوحّدها المذكر بأبيها يمتزج إذن باتجاهها الأنثوي، وهذا المركّب هو الذي يميّز الأنا العليا الأنثوية.

والأب الطيب موضع الإعجاب يقابله إلى حدّ من الحدودو، في تكوين الأنا العليا الأنثوية، أب سيء خصّاء. والموضوع الرئيس لحصر البنت هو الأم المضطهدة مع ذلك. وإذا كان استدخال أم حنون طيّبة، بوسعها أن تتوحّد معها، يوازن هذا الخوف من الاضطهاد، فإن علاقة البنت بأبيها المستدخل يعزّز اتجاهها الأمومي إزاءه.

وعلى الرغم من سيادة العالم الداخلي في الحياة الانفعالية لدى البنت الصغيرة، فإن حاجتها إلى الحب وعلاقتها بالآخرين تشهدان على تبعية كبيرة للعالم الخارجي. وليس هذا التناقض مع ذلك سوى تناقض ظاهري، ذلك أن التبعية للعالم الخارجي تعزّزها حاجتها إلى أن تكون مطمئنة على عالمها الداخلي.

٧- موازنات مع التصور الكلاسيكي لعقدة أوديب

أقترح حالياً أن أقارن أفكاري الخاصة عن بعض الجوانب من عقدة أوديب بأفكار فرويد، وأن أوضّح بعض الخلافات في الرأي التي قادتني تجربتي إليها. فقد ظلّت بعض الأمور إلى حد معين، أمور يؤكد عملي فيها كشوف فرويد تأكيداً تاماً، مضمرة في وصف الوضع الأوديبي الذي قدّمته. وتمنعني سعة الموضوع مع ذلك عن دراسة هذه الجوانب دراسة تفصيلية: فعليّ أن اقتصر على أن أضع في مركز الضوء بعض جوانب الخلاف. فهذه إذن خلاصة عن الأساسي، في اعتقادي، من نتائج فرويد التي تنصّب على بعض الخصائص الأكثر أهمية من النمو الأوديبي.

الرغبات الجنسية تولد ويحدث اختيار واضح للموضوع في رأي فرويد، خلال الطور القضيبي الذي يمتّد على وجه التقريب من السنة الثالثة إلى السنة الخامسة من العمر ويعاصر عقدة أوديب. وثمة في رأي فرويد، خلال هذا الطور، «عضو جنسي وحيد يدخل في الحساب، عضو الذكر. فالسيادة المكتسبة ليست إذن سيادة التناسلي، بل هي ضرب من سيادة القضيب».

و«المرحلة القضيبية في التنظيم التناسلي تتراجع، لدى الصبي، أمام التهديد بالخصاء». وتتكوّن، من جهة أخرى، أناه العليا، وريثة العقدة الأوديبية، باستدخال السلطة الأبوية. والإثمية تعبير عن توتّر بين الأنا والأنا العليا. واستخدام مصطلح «الإثمية» غير مسوّغ إلا عندما يبلغ نمو الأنا

العليا نهايته. ويمنح فرويد رجحاناً للأنا العليا بوصفها سلطة الأب المستدخلة. وعلى الرغم من أنه يعترف، في نطاق معيّن، بالتوّحد بالأم على أنه عامل في تكوين الأنا العليا لدى الصبي، فهو لم يصغ الأفكار عن هذا الجانب من المشكل صوغاً بالتفصيل.

٨- «تعلّق طويل الأمد» بالأم

وفيما يخصّ البنت، يغطّي «التعلق بالأم السابق على المرحلة الأوديبية» والطويل الأمد، في رأي فرويد، تلك المرحلة التي تسبق دخولها في الوضع الأوديبي. ويعرّف فرويد هذه المرحلة بأنها «طور التعلّق بالأم حصراً، طور يمكن تسميته الطور قبل الأوديبي». ويعقب ذلك، خلال الطور القضيبي، أن الرغبات الأساسية لدى البنت إزاء أمها، رغبات تظلّ شدتها في الحدود القصوى، تتجمّع حول عضو ذكر تملكه هذه الأم. ويمثّل البظر عضو الذكر في ذهن البنت الصغيرة، والاستمناء البظري هو التعبير عن رغباتها القضيبية. ولا يزال العضو الأنثوي غير مكتشف ولايؤدي أي دور قبل أن تكون البنت الصغيرة امرأة. وعندما تكتشف البنت أنها لا تملك عضو الذكر، تظهر عقدة الخصاء لديها رأد الضحى. وتقطع الضغينة والكره، في هذه الفترة، تعلّقها بأمها: فأمها لم تمنحها عضو ذكر. وتكتشف أيضاً أن أمها محرومة، هي أيضاً، من عضو الذكر، وذلك أمر يدفعها، بين أمور أخرى، إلى أن تنصرف عنها لتتّجه صوب أبيها. فما ترغب، بادىء ذي بدء، في أن تتلقّاه من أبيها هو عضو ذكر، ثم طفل فقط، «الطفل الذي يحتلّ مكان عضو الذكر، وفق المعادلة الرمزية المشهورة جداً». وهكذا فإن عقدة الخصاء لديها هي التي تشقّ الطريق لعقدة أوديب.

والوضع الرئيس للحصر لدى البنت هو فقدان الحب. ويربط فرويد هذا الخوف بالخوف من موت الأم.

ويختلف نمو الأنا العليا لدى البنت من أنحاء كثيرة عن نمو الأنا العليا

لدى الصبي، ولكنهما يشتركان في سمة أساسية: إن الأنا العليا والإثمية نتيجتان من نتائج العقدة الأوديبية.

ويتكلم فرويد على مشاعر الأمومة لدى البنت، مشاعر ناشئة من العلاقة المبكّرة بالأم خلال الطور قبل الأوديبي. ويتكلم أيضاً على توحّد البنت بأمها، توحد مصدره عقدتها الأوديبية. ولكنه لا يوصل هذين الاتجاهين أحدهما بالآخر ولا يبيّن كيف يؤثّر التوحد الأنثوي بالأم، في الوضع الأوديبي، على تطور العقدة الأوديبية لدى البنت. وهو يعتقد أن البنت تقدّر أمها حق قدرها في ظلّ جانبها القضيبي على وجه الخصوص، حالما يتّخذ التنظيم التناسلي شكلاً لديها.

٩ ـ الخلافات مع فرويد: معرفة لاشعورية بعضوي التناسل

تلكم الآن خلاصة لأفكاري حول هذه الأمور المحدّدة. ففي رأيي أن النمو الجنسي والانفعالي لدى الصبي والبنت يشتمل، منذ **الطفولة الأغض**، على إحساسات وميول تناسلية تؤلّف المراحل الأولى من عقدة أوديب الإيجابية والمعكوسة. وهذه الإحساسات والميول محسوسة في ظلّ سيادة الليبيدو الفمي، وتمتزج برغبات واستيهامات إحليلية وشرجية. فالمراحل الليبيدية تتداخل تداخلاً جزئياً منذ الأشهر الأولى من الحياة. وتؤثّر الميول الأوديبية الإيجابية والمعكوسة منذ ظهورها، بعضها على بعض، تأثيراً وثيقاً. فخلال مرحلة السيادة التناسلية إنما يبلغ الوضع الأوديبي أوجه.

وأعتقد أن الأطفال الصغار من الجنسين يحسّون برغبات تناسلية إزاء أمهم وأبيهم وأن لديهم معرفة لاشعورية بالعضو الأنثوي كما بعضو الذكر[٤]. وهذا هو السبب الذي من أجله يبدو لي أن المصطلح الأول الذي صاغه فرويد، مصطلح «الطور التناسلي»، أنسب من مفهومه اللاحق، مفهوم «الطور القضيبي».

(٤) هذه المعرفة موجودة إلى جانب المعرفة اللاشعورية، والشعورية في نطاق معيّن، بوجود الشرج، الذي يؤدي دوراً مدروساً على نحو أكثر تواتراً في نظريات الجنسية الطفلية.

وتظهر الأنا العليا لدى الجنسين خلال الطور الفمي. فالطفل، تحت ضغط حياته الاستيهامية ومشاعره المتناقضة، يجتاف في كل مراحل التنظيم الليبيدي موضوعاته - أبويه في المقام الأول - ويبني أناه العليا انطلاقاً من هذه العناصر.

وهكذا تحتوي الأنا العليا على بعض العناصر وبعض السمات التي تعكس الصور الاستيهامية الموجودة في ذهنه، على الرغم من أن الأنا العليا تطابق من أنحاء كثيرة أولئك الأشخاص الواقعيين الذي يعيشون في عالم الطفل الصغير. فكل العوامل التي لها تأثير في علاقاته بالموضوعات تؤدي منذ البداية دوراً في بناء أناه العليا.

ويكوّن الموضوع الأول المستدخل، ثدي الأم، قاعدة الأنا العليا. وكما أن العلاقة بثدي الأم تسبق العلاقة بعضو الذكر الأبوي وتؤثّر فيها تأثيراً عميقاً، فإن العلاقة بالأم المستدخلة تسوّي على النحو نفسه، من أنحاء كثيرة، نمو الأنا العليا في مجموعها. فبعض الخصائص الأكثر أهمية من الأنا العليا، جانبها المحبّ والحامي، أو الهدّام والمفترس، ناجم عن العناصر الأولى الأمومية من الأنا العليا.

وأولى المشاعر الأولى من الإثمية، لدى الجنسين على حدّ سواء، ناجمة عن الرغبة الفمية السادية في افتراس الأم وثدييها في المقام الأول (أبراهام). فخلال الطفولة الأولى إذن إنما يولد الشعور بالإثمية. ولا تنبعث الإثمية عندما تكتمل العقدة الأوديبية. إنها بالحري تماماً عامل من العوامل التي توجّه منذ البداية تطور هذه العقدة وتؤثر على نتيجتها.

١٠ - الخوف من الخصاء ينبعث منذ أوائل الطفولة الأولى

سأدرس الآن على وجه أخص نمو الصبي. وأعتقد أن الخوف من الخصاء يظهر خلال الطفولة الأولى حالما يحسّ الصبي بإحساسات تناسلية. والميول المبكرة، لدى الصبي، إلى خصاء أبيه تتخذ شكل الرغبة في اقتلاع

عضو الذكر الأبوي بعضّة من أسنانه. فالخوف من الخصاء يحسّه الصبي أول الأمر إذن بوصفه خوفاً من أن يُقتلع عضو الذكر الخاص به بعضّة أسنان. وهذا الخوف البدئي من الخصاء يستتر ليبدأ بضروب من الحصر آتية من كثير من المصادر المختلفة الأخرى، في عدادها تؤدي أوضاع الأخطار الداخلية دوراً من المستوى الأول. وكلما اقترب النمو من السيادة التناسلية تجلّى الخوف من الخصاء. فإذا قبلتُ إذن قبولاً كلياً فكرة فرويد التي مفادها **أن الخوف من الخصاء هو وضع الحصر الرئيس لدى الصبي**، فليس بوسعي أن أقبل الوصف الذي يجعل منه **العامل الوحيد** الذي يُناط به كبت العقدة الأوديبية. إن ثمة ضروباً مبكّرة من الحصر، ناشئة من مصادر مختلفة، تساهم طوال هذا التطور بالدور الرئيس الذي يقدم الخوف من الخصاء على تأديته في الفترة التي يبلغ الوضع الأوديبي خلالها أوجه. ويحسّ الصبي، فضلاً عن ذلك، بالأسى والإثمية إزاء أبيه، بوصفه موضوعاً محبوباً، بسبب ميوله إلى خصائه وقتله. ذلك أن الأب، منظوراً إليه من جوانبه الطيّبة، مصدر قوة لا غنى عنه، وصديق ومثال، يبحث الطفل قربه عن الحماية والنصائح ويشعر إذن بأنه مرغم على حمايته. وإثميته الناشئة من ميول العدوانية إزاء أبيه تفاقم حاجته إلى كبت رغباته التناسلية. فقد أتاحت لي تحليلاتي للرجال والصبيان أن ألاحظ، في مناسبات عديدة، أن مشاعر الإثمية إزاء الأب كانت جزءاً مكمّلاً من عقدة أوديب وأنه كان لها تأثير أساسي على مآلها. والمشاعر الناجمة عن أن المنافسة بين الابن والأب تعرّض الأم للخطر أيضاً، وأن موت الأب سيكون خسارتها التي لا تعوّض، تعزّز أيضاً إثمية الصبي وتعزّز بالتالي كبت رغباته الأوديبية.

ونحن نعلم أن فرويد كان قد توصّل إلى النتيجة النظرية التي مفادها أن الأب، بقدر ما هي الأم، موضوع رغبات الابن الليبيدية. (انظر مفهومه لعقدة أوديب المعكوسة). يضاف ذلك أن فرويد أخذ بالحسبان (في عداد علاقات الحالة، في **تحليل رهاب لدى طفل في سن الخامسة**، ١٩٠٩، على

وجه الخصوص) ذلك الدور الذي يؤديه، لدى الصبي، حب الأب في النزاع الأوديبي الإيجابي. ولكنه لم يمنح الدور الحاسم لهذا الحب ما يكفي من الوزن في تطور النزاع الأوديبي وفي إنحساره. ويفقد الوضع الأوديبي، بحسب تجربتي، من قوته لا لأن الصبي الصغير يخاف أن يدمّر أبوه المنتقم عضو الذكر لديه فحسب، ولكن لأن حب الطفل وإثميته يدفعانه أيضاً إلى الاحتفاظ بأبيه وجهاً داخلياً وخارجياً.

١١ ـ رغبات البنت في أبيها تظهر ظهوراً مبكّراً جداً

تلك هي، باختصار، نتائجي حول عقدة أوديب لدى البنت. فالطور الذي تكون خلاله البنت، في رأي فرويد، متعلّقة بأمها تعلّقاً على سبيل الحصر، يشهد، بدرجة محسوسة في رأيي، ظهور رغبات في الأب، ويشمل المراحل المبكّرة من عقدة أوديب الإيجابية والمعكوسة. وليس لديّ أي شك، بالتالي، فيما يخّص عمق التأثير ومدة هذا التأثير الذي يمارسه كل جانب من العلاقة بالأم على العلاقة بالأب.

وحسد عضو الذكر وعقدة الخصاء يؤديان دوراً أساسياً في نمو البنت. ولكن إحباط الرغبات الأوديبية الإيجابية يعزّزهما تعزيزاً كبيراً. وعلى الرغم من أن البنت تسلّم في مرحلة من تطورها أن أمها تملك عضو ذكر على أنه صفة مذكّرة، فإن هذا التصور لا يؤدي على الإطلاق دوراً كبيراً في نموها بالقدر الذي يقصده فرويد. فالفكرة اللاشعورية، التي مفادها أنه أمها تحتوي عضو الذكر الأبوي موضع الإعجاب والمرغوب، تشرح حسب تجربتي عدداً كبيراً من الظاهرات التي يصفها فرويد بأنها تشكّل جزءاً من علاقة البنت بالأم القضيبية.

وتمتزج الرغبات الفمية لدى البنت في عضو الذكر الأبوي بالرغبات التناسلية الأولى في أن تتلقّى عضو الذكر. وتفترض هذه الرغبات التناسلية رغبة في تلقي أطفال من أبيها، وذلك أمر يؤكد المعادلة التالية:

(عضو ذكر = طفل). والرغبة الأنثوية في استدخال عضو الذكر الأبوي وفي تلقّي طفل من الأب تسبق سبقاً لا يتغيّر تلك الرغبة في أن تمتلك عضو ذكر خاص بها.

وإذا سلّمتُ بنتيجة فرويد حول غلبة هذين الضربين من الحصر - الخوف من فقدان الحب والخوف من موت الأم - في عداد ضروب الحصر لدى البنت، فإنني أعتبر أن خوفها من أن ترى جسمها موضع هجوم وموضوعاتها المحبوبة مدمّرة يكوّن الجزء الأساسي من وضعها الرئيس، وضع الحصر.

وينزع الوصف الذي عرضنه لعقدة أوديب إلى بيان الارتباط المتبادل بين بعض الجوانب الأساسية من النمو. فالتطور الجنسي للطفل يرتبط ارتباطاً لا ينفكّ بعلاقاته بالموضوعات وبكل الانفعالات التي تسوّي منذ الولادة موقفه من أمه وأبيه. والحصر والإثمية والمشاعر الاكتئابية هي جزء مكوّن من حياة الطفل الانفعالية. إنها تنفذ إلى علاقات الطفل الأولى بالموضوعات، علاقات تكوّنها العلاقات بأشخاص واقعيين وبممثّليهم في عالمه الداخلي على حدّ سواء. وانطلاقاً من هذه الصور المجتافة - توحّدات الطفل - تنمو الأنا العليا التي تؤثّر بدورها على العلاقة بالأبوين وعلى النمو الجنسي في مجموعه. وعلى هذا النحو إنما يؤثر النمو الانفعالي والجنسي، والعلاقات بالموضوعات، ونمو الأنا العليا، بعضها على بعض منذ البداية.

فالحياة الانفعالية للطفل الصغير، والدفاعات الأولى التي تُبنى تحت ضغط النزاع الذي يجعل الحب والكره والإثمية متعارضات، والتقلّبات في توحّدات الطفل، تلك هي الموضوعات الخاصة التي ينبغي للبحث التحليلي أن يُعنى بها خلال زمن لا يزال طويلاً. وستتيح لنا متابعة هذه الأعمال أن نفهم عقدة أوديب والنمو الجنسي في مجموعه فهماً أفضل.

ميلاني كلاين

الفصل العاشر

النزاع في المراهقة

إذا أتاح أوديب الانتقال من «الطبيعة» إلى الثقافة، فإن الناس دفعوا له ضريبة باهظة جداً.

وبحث الناس دائماً عن تجنّب المرور بأوديب مع احتمال إخفائه. ولهذا السبب، اقترحوا شتى الحلول. وقد صادفنا فيما سبق أحدثها.

وفي هذا المقال المكتوب عام ١٩٦٧، يروي بيلا غرنبرجر حلاً آخر، خاصاً بالمراهقة على وجه العموم، وبالشبيبة قبل عام ١٩٦٨ على وجه الخصوص.

وتستبق أفكار بيلا ببعض السنين مؤلّف جول ديلوز وفيليكس غاتاري، وتكوّن معاً طباقه وتجسيده المسبق.

النص: بيلا غرانبرجر

سنحت الفرصة لكل فرد منا أن يلاحظ أطفالاً يكوّنون لأنفسهم «كنزاً» يسميه الطفل نفسه هذه التسمية، بالنظر إلى أنها تناسب التوظيف النرجسي[1] الهائل الذي هو حامله.

(١) انظر، حول موضوع النرجسية، مؤلف «النرجسية، حب الذات»، في المجموعة نفسها، ترجمة وجيه أسعد، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٩.

ويتألف «الكنز»، المحجوب والمعروض على الغالب معاً والمحفوظ في الوقت نفسه بعناية قصوى، تأليفاً بصورة مفارقة وبالتعريف من أشياء تشكّل مزيجاً غريباً، بالية، مبتورة، وغير متجانسة، قذرة، ليس لها أي نفع ولا قيمة. ويبدو تماماً أن الطفل لا يفهم سمة النفايات لهذه الأشياء فحسب، ولكنه يتمسّك بهذا الفارق الدقيق الأساسي بالنسبة له، ولا يتردّد في إظهار شدّة توظيفه النوعي إذا اقترح عليه بعضهم على سبيل المثال أن يبادل بها ألعاباً جديدة، سليمة ولها قيمة موضوعية واقعية بوسعه على نحو تام أن يقيّمها مع ذلك. أما أصل هذه الأشياء، فإنه أصل خفيّ على وجه العموم، وهي أشياء ليست مكتسبة، حتى ولا متلقّاة، بل وُجدت وجُمعت خفية أو سُرقت صراحة، وذلك تفصيل ذو دلالة وسنعود إليه.

وإذا حلّلنا شتى خصائص الكنز، فإننا نكتشف على وجه السرعة الكبيرة أن الأمر يكمن قبل كل شيء، بالنسبة للطفل، في أن يكوّن شيئاً يملكه (بالنظر إلى نمطه في الاكتساب) دون أن يمرّ بالسيرورة العلائقية، بل متجنّباً هذه السيرورة. والمقصود بذلك علاقة بالموضوعات ليست واحدة من العلاقات بالنظر إلى غياب مكوّنة شرجية حسنة الاندماج كما نرى ذلك في بعض فئات الأطفال المصابين بهوس السرقة، الذين يسرقون حتى لا يكون عليهم أن يصيغوا طلباً، أي أن يباشروا علاقة بالموضوعات. ويشجّع الأصل الخفيّ لهذه الأشياء، بالإضافة إلى ذلك، على ضرب من تكوين الاستيهامات، غنيٌّ جداً، وعلى الأخص باتّجاه الاستقلال النرجسي الذي كان موضع البحث فيما سبق، بالنظر إلى أن الكنز ليس مصدره في الواقع أي شخص، وذلك أمر يستبعد الأصل الأوديبي ويستبعد كل المنظومة العلائقية الناجمة عنه. وبما أنه هو الذي أوجد الكنز، والكنز «اختراعه» (بالمعنى الحقوقي للمصطلح الذي يدلّ من جهة أخرى على علاقة الراشد بـ«كنزهم» - قطع نقود مكتشفة خلال أعمال حفر على سبيل المثال)، فإن

بوسعه أن يقوم بعملية إسقاط عليه على النمط النرجسي السحري ويخلق على هذا النحو عالماً حقيقياً منفصلاً هو سيده.

١ ـ الكنز: دلالة عميقة

وفيما يخص سمة المزيج التي تتصف بها «عناصر» الكنز، فإن دلالتها تبدو أنها تتحدّد تحديداً غنياً بعدد كبير من الشروط. وتبرهن كثرة الإسقاطات ونقص التماسك فيها على أن عناصرها التي لا تزال غير مندمجة موجودةٌ في حالة مجزّأة بالقياس على الأنا الإجمالية، وذلك أمر يناظر وجود صدع في الأنا التي أتبنا على وصفها. **فـ تعددية الموضوعات المستدخلة وعدم تمثّلها** مصانان على هذا النحو، وهو أمر يمكننا اعتباره دفاعاً نرجسياً ضد «إضفاء العقدة الأوديبية»، إضفاء مفهوم في إطار أسلوب التفكير لهذا العمل، **بالنظر إلى أن الموضوع الأوديبي في كل من جانبي أوديب موضوع وحيد**. ويجد الطفل نفسه على هذا النحو في وضع الإيمان بالآلهة المتعدّدة قياساً على الإيمان بالإله الواحد[٢].

والقاسم المشترك لعناصر الكنز يكمن في توظيفها النرجسي. والواقع أن ماهيتها، بوصفها أشياء أُضفيت عليها الصفة الفردية، ليست ذات أهمية، وليست ذات أهمية جدواها ولا قيمتها التي تتصف بأنها عدم كما رأينا، بالنظر إلى أن مبرّر وجودها والفردية الاستيهامية التي تُضفى عليها مرتبطان على سبيل الحصر بذلك التوظيف النرجسي لمالكها وناشئان منه فقط. وما إن يتألف الكنز وتجتمع عناصره، أي توهب توظيفاً نرجسياً، حتى يمثّل **منظومة حماية** حقيقية من مخاوف الخصاء التي ليس بوسعها إلا أن تنبعث من حيث القوة والعدد في لاشعور هؤلاء الأطفال على عتبة مرحلة

(٢) كان القانون الموسوي، الذي يحرّم رسم الشكل الإنساني أو الحيواني، ينزع إلى أن يمنع صناعة الأصنام، أي أن يمنع النكوص إلى الإيمان بتعدّد الآلهة. إنه كان يعبّر في الوقت نفسه عن الخضوع إلى واقع الأصل الإنساني، أي إلى وجود الأب، إذ ليس بوسع الإنسان أن يوجد نفسه وجوداً مستقلاً.

الكمون، أطفال نعلم الآن أن اندفاعتهم الأوديبية الأولى لم تكن تصفيتها ممكنة بسبب شرجيتهم غير المندمجة ونرجسيتهم المتضخّمة. فلايكافحون على هذا النحو كفاحاً يائساً استيهاماتهم العدوانية قبل التناسلية فحسب، ولكنهم يكافحون أيضاً عقدتهم الأوديبية. وقد تتّخذ منظومة الحماية التي يكوّنها الكنز مظهراً وسواسياً، بالنظر إلى أن وجودها يكتسي سمة الإرغام والقسر.

٢ ـ السيميائيون كانوا يحاولون تجنّب الأوديب

وحول موضوع المظهر الشرجي (قذارة، سمة النفاية) للكنز، يحوّل التوظيف النرجسي انعدام قيمته إلى قيمة، وفق الحلم العريق في القدم، حلم السيميائيين الذين لم يتخلّوا قط عن الأمل (ونحن نعلم أنه لا يزال يوجد منهم في أيامنا) في تحويل معدن الرصاص البخس (البراز) إلى معدن نبيل، إلى ذهب. ويعبّر هذا الحلم عن الرغبة التي تكمن في **القفز فوق سيرورة طويلة ملأى بالاحتمالات، سيرورة النضج الدافعي** المرتكزة على ضرب من تعاقب التوحّدات في الإطار الأوديبي، ونقول، بعبارة أخرى، تكمن في القفز فوق الأوديب. فالكنز موضوع جزئي سحري وشرجي من الضروري اجتيافه إذ تُضفى عليه قيمة قضيبية كما لو كان نتيجة سيرورة نضج مكتملة مرّت في كل أطوار التطور الأوديبي. والواقع أننا نجد أنفسنا في مستوى نكوصي، فالكنز موضوع شرجي يكاد يكون مشتقاً من الموضوع البرازي البدئي، وبالنظر إلى أن العناصر التي يتألف منها الكنز ناقصة، مطعون في ماهيتها ومبتورة، أي أُضفيت عليها الصفة الغائطية، فإن الخصاء والنقص يصبحان قيمة ومصدراً لقوة كلية سحرية شبيهة بالقوة الكلية التي تعزوها الشعوب البدائية للمصابين بالعاهات والمخصيين والمسوخ.

٣ ـ النضج يكمن في أن يصبح الفرد هو الأب الخاص لنفسه أو الأم الخاصة

النمو النفسي الجنسي البشري **ثنائي الطور** كما نعلم، إذ يستأنف الفرد خلال مرحلة البلوغ مختلف الأطوار الخاصة بسيرورته، سيرورة النضج قبل التناسلي والتناسلي. ونعلم أيضاً أن الأوديب لا يجد حلاً على الإطلاق في العمر الأوديبي الكلاسيكي وأن الإنسان لا يبلغ النضج الجنسي والعلائقي إلا في فترة زمنية متأخرة جداً. والحال أن مرحلة النضج هذه يمكننا اعتبارها تعاقباً طويلاً من الأوضاع الأوديبية عبر التوحّدات المقابلة في إطار حركة ديالكتيكية، إلى أن تحلّ الفترة التي يبدو خلالهاالفرد ناضجاً - بعد دمج توحّداته المتعاقبة في أناه - إذ أكمل السيرورة **ببلوغ هويته**، وماهى ذاته، أو نقول، بعبارة أخرى، يبدو الفرد ناضجاً لأنه أصبح الأب الخاص لنفسه أو الأم الخاصة. وترافق **التمايز الجنسي** بالطبع ضروبٌ من التقدّم في **إضفاء الفردية** ويرتبط التمايز إذن بالعوامل نفسها ـ توحّدات ونزاع أوديبي ، عوامل لا تنطوي من جهة أخرى إلا على مظهرين مختلفين من السيرورة نفسها. واستمرارية الديالكتيك الأدويبي والتوحيدي مطلقة ونحن نفهمها على وجه الخصوص خلال التحليل، حيث نعرض استمرار الديالكتيك نفسه برتابة قد يجدها بعضهم مرهقة. ويمكننا اعتبار الوضع التحليلي نفسه ـ منظور إليه من هذه الزاوية ـ على أنه علاقة الطفل ـ الوالد، وبوسعنا تشبيه التقدّم في العلاج بالنمو نفسه، بالنظر إلى أن هدفه يتطابق مع الفترة التي يصبح فيها الطفل المحلَّل راشداً، أي يصبح والداً بدوره. أما التوحّد، فإنه يرتكز كما نعلم على **الاجتياف** الذي يتصف بأنه بداية سيرورة من الاستقلاب (يرافقه مظهر حشوي **لاشعوري** ولكنه يُعاش مجدّداً في التحليل بصورة بارزة) ويحرك مجموعة من الاستيهامات المقابلة.

ولدينا جميعنا، وفقاً لما سبق، تجربة مفادها أولية المادة الأوديبية في بداية التحليل وطوال العلاج بالطبع، نظراً إلى أن الأساسي في العمل

التحليلي موقوف على الديالكتيك الأوديبي. والحال أن الأمر ليس دائماً على هذا النحو ونحن نصادف بصورة متعاظمة حالات يفرض فيها نفسه ضربٌ من رفع الركام قبل الأوديبي إذا صحّ القول قبل أن يكون بوسع المحلّل أن يقارب الأوديب على نحو صحيح من الناحية الدينامية. ففي عداد الذين يحلّلون أنفسهم بقصد امتهان التحليل النفسي، نكتشف أن بعضهم يبدون أنهم يعانون صعوبة بارزة أمام تحليل الأوضاع الأوديبية، وتلك صعوبة لا يمكنها أن تصبح محذوراً من وجهة النظر العلاجية فحسب، بل عائقاً حقيقياً يفشل أمامه المحلّل المبتدىء في مهنته خلال متابعته النجاح المهني. ويبدو في الواقع أن على المحلل أن يضطلع، في ممارسة العمل المهني نفسها، بدور الراشد إزاء المحلَّل-الطفل، وتُصاب فاعليته المهنية بالإعاقة حين يعجز عن الاضطلاع بهذا الدور.

ونحن نذكّر بالأهمية التي عزوناها للدمج السيء، دمج المكوّنة الشرجية، بسبب انعدام التأليف مع العامل النرجسي، فالاثنان يتابعان تطورهما بمعزل عن الأنا الإجمالية وعلى نمط مستقلّ. وبما أن الاجتياف يتّسم بصورة أساسية أنه حركة تضفي البنية على الأنا، فإن الحرية النسبية لسيرورة الاجتياف ذاتها تفلت بصعوبة، والحال هذه، من إضفاء الجنسية المبكّر، لا سيما أن هذه الإضفاء لا يمكنه إلا أن تشجّعه هذه الحرية، وذلك أمر يفضي إلى علاقة بالموضوعات أُضفي عليها النزاع، ولكنه لا يفضي إلى اجتيافٍ نتيجته اندماج في الأنا. فلنستأنف دراسة العامل الآخر، أي النرجسيةٍ، دون أن نتابع مع ذلك تحوّلات هذه الشرجية غير المندمجة متابعة أبعد.

٤ - «أنا وحدي»

كان الطفل يبحث من قبلُ، خلال الطور الشرجي، عن إنجاز استقلاله النرجسي وفق الصيغة التالي: «أناو حدي». والنرجسية (نرجسية معيّنة)- وتلك خاصة من خصائصها الأساسية- تتعارض مبدئياً مع الاجتياف، ذلك

أنها، كما نعلم، مصدر من مصادر المقاومة الأكثر أهمية. فالنرجسي يريد أن يظلّ ما هو عليه ويرفض إدخال أي شيء في أناه، إذ أن بوسع هذه المعارضة أن تستند إلى اتجاه أولي مبكّر إلى حد أقصى. ونحن نعلم أن على عالم الموضوع أن يقنع الطفل - بالحب الذي يحمله إليه - أن بوسعه أن يربح باستسلامه إلى الإغراءات الدافعية لهذا العالم وأن يخرج من نرجسيته الأصلية المطلقة، إذ يقبل الاجتياق الذي يظلّ أول الأمر، وخلال زمن طويل جداً على الغالب، ضرباً من التطفّل على سبيل الحصر. والنرجسي «لا يشبه أي شخص»، أي أنه **يرفض التوحّد**، وبوسعنا القول إن النرجسية نفسها، التي وصفناها على أنها تتشبّث بالأوديب لتنقذ كمالها، تعود صوب موقف أقدم وترفض الأوديب وكل التكوّنات التي تنجم عنه كما سنرى فيما بعد. وهي ترفض الأوديب والتوحّد بسبب **مفهوم السيرورة الحشوي** الذي تعيشه وكأنه نفوذ إلى داخل حدودها. أما «الطفل ذو الكنز»، فإننا نعلم أنه ابتدع منظومته ليندمج في عالم نرجسي هو إسقاطه الخاص، ولكنه إسقاط يظلّ في داخل عالمه إذا صحّ القول، وليتجنّب التوحّد الحقيقي بالموضوعات. وفيما يخصّ هذه الفئةمن الأفراد، نقول إن من المحتمل أن يكون إسقاط الفرد منهم نرجسيته على الموضوع الأوديبي قد كوّن من قبلُ ضرباً من التسوية، أي تخلّياً جزئياً عن نرجسيته، ولو بصفة مؤقّتة.

٥ ـ أزمة البلوغ المديدة نصادفها على الغالب بصورة متعاظمة

يركّب «الطفل ذو الكنز» آليته، آلية الحماية من أوديب، في العمر الذي يُفترض أن يتوقّف خلاله التيار الجنسي أو يتوقف على وجه التقريب (الطور المسمى طور الكمون)، وذلك أمر يمنح الآلية التي نحن بصددها ضرباً من الاستقرار. وحين يصل الطفل مع ذلك إلى البلوغ، يكون على المراهق أن يسيطر على تيار دافعي قوي جديد، يعاصر دفعة نرجسية مقابلة، وذلك أمر يفضي إلى انقلاب محتّم في الأجهزة القائمة حتى ولو في شروط سوية. إنها أزمة البلوغ الكلاسيكية. وهي أزمة سوية ولكنها ينبغي ألا

تتجاوز مدة معيّنة. فإذا استطالت مدتها إلى حدّ مفرط ـ **وتلك حالة أكثر تواتراً بصورة متعاظمة وظاهرة يبدو أنها تسم الحضارة المعاصرة بقوة ـ**، فإنها تشي باضطراب خطير في الأنا، في المنظور الذي وجّهنا خلاله البحوث الحالية.

والواقع أن أزمة المراهقة المرضية تتمايز على الأغلب من الطور السوي للبلوغ فيما يتعلّق بمدتها والتغيّرات الكيفية الملازمة لهذه الاستطالة الزمنية التي تخالف المألوف. ونجد أنفسنا إزاء أفراد ليس بوسعهم أن يكملوا نضجهم لأنهم لم ينجزوا توحّداتهم المبكّرة على نحو مرضٍ. ويعرف كل فرد ارتكاس المراهق الذي يتوقّف في الشارع أمام «كهل» في الخامسة والثلاثين أو السادسة والثلاثين من عمره يرتدي اللباس البورجوازي، منتفخ الكرش قليلاً مع بداية الصلع في رأسه، ليصيح بقرف: «أأصبح بمثل هذا القبح؟ الموت أفضل!». ولكن هذا الارتكاس يمرّ ونحن نعرف النتيجة، في حين أن دوام هذا الموقف يبدأ في أن يتّخذ مظهراً يثير بعضاً من القلق، وعلى وجه الخصوص لدى فرد في الخمسين من عمره على سبيل المثال. وما سمّاه بعضهم «**أزمة الأصالة الشبيبية**» هو في الواقع احتجاج على التوحّد بعالم الراشدين، وإذا كان هذا الاحتجاج يستمر، فذلك علامة مفادها أن النرجسية الكامنة ترفض التوحّد الأوديبي الذي رفضته دائماً وستستمر في هذا الموقف بالإضافة إلى ذلك. وإذا كانت صيغة «كل شيء مثل بابا»، المتحققّة إلى الحد الأقصى والمديدة، تبرهن على ضرب من التثبيت على الأوديب المعكوس، فإن الصيغة التي تكمن في مخالفة ما يفعله بابا على وجه الإطلاق تعني، بدءاً من سن الثامنة عشرة تقريباً، أن الأوديب لم يُصفّ ولن يُصفّى أبداً. ذلك أننا في هذه النقطة أمام سلوكات مظهرها المغالي والدائم لا يخدع أحداً: **الالتزام الأوديبي غير مطروح بل تجنّبه المطلق هو المطروح**. وليست المسألة مسألة التغلّب على الأب على نمط أوديبي (في الخصومة والمنافسة)، بل إبعاده حتى لا يكون على الابن أن يقيس نفسه به،

أو يلوطه على النمط السادي الشرجي ليتجنّب ملاقاته على المستوى التناسلي.

٦ ـ عدم الالتزام بالأوديب

نحن نعلم أن لقتل الأب ومضاجعة الأم علاقة بسلوك نكوصي بوسع المتوحّش الصغير الذي تكلّم عليه ديدرو[٣] أن يحققّه لو كانت له قوة الراشد. ولكن مأساة الإنسان، وذلك هو على وجه الضبط مصدر الديناميك الأوديبي كله، تكمن في أن هذين المعطيين، الرغبة الأوديبية وإمكان تحقيقها، لا يتطابقان في البدء. وينجم عن ذلك ضرب من سيرورة إضفاء الصفة الإنسانية، سيرورة ليست قابلة للعكس إلا في الحالة التي يباشر بالفعل خلالها النكوص هذه العودة إلى الوراء، كما في حالة التخلّف العقلي أو بعض ضروب الذهان. ونحن نعلم أيضاً أن «تصفية» الأوديب تعني حالة يندمج فيها الاستيهام البدئي اندماجاً واسعاً في الأنا، وتُستخدم ديناميته في عالم اقتصادي مرضٍ.

والتثبّت على ضرب من **معارضة التوحّد** هو البرهان على عدم التزام بالأوديب، وعلى بعدٍ منه. والشباب الذين يظلّون مثبّتين على هذا الموقف يتجنبّون كل إمكان لملاقاة الذين ينبغي لهم أن يكونوا منافسيهم، ويتجمّعون تجمعاً ذا انعزال تام. إنهم ينعزلون في عالم نرجسي يعيشون داخله مع أمثالهم، أي مع صورتهم الخاصة، حتى في اللغة واللباس، وفي حالة من اللاتمايز الجنسي[٤].

ويذكّر ضرب من العدوانية التي يوجّهونها إلى عدوهم المزعوم، أي

---

(٣) في حفيد رامو.

(٤) كل هذا يبيّن جيداً أن المقصود سيرورة من رفض التوحّد. فعالم الراشدين يتألف من أفراد، في حين أن عالم المراهقين في الفئة موضوع البحث يختلط بالجماعة التي يتصفون داخلها، في نطاق معيّن، بأن أحدهم يمكنه أن يحلّ محل الآخر. فيصبح المراهق «مختلفاً» عن الراشد ولكنه ليس «فريداً» على الإطلاق بين أنداده الذين يشبهونه وكأنهم أخوة.

الراشد، بالسباب الهوميري الذي يتبادله المحاربون الواقفون على ضفتي النهر، الذين يحاذرون مع ذلك أن يعبروا الأرض المتنازع عليها، هذه الأرض التي تحميهم وتؤمّن عدم لقائهم. وليست المسألة أن يحتلّ المراهق محلّ الأب بل أن يتصرّف كما لو أنه لم يكن موجوداً قط، وعندما يكون المراهق المثبّت على هذه المرحلة مسوقاً مع ذلك إلى الجلوس في مقعد أبيه، تدفعه إلى ذلك اندفاعته العدوانية، فإنه يغيّر كل شيء، ويملأ الإطار الأوديبي بمحتوى من المحتويات، إطاراً سيكون مختلفاً كل الاختلاف عمّا كان موجوداً من قبلُ، بحيث لم يعد بوسع أحد أن يشكّ بوجوده النرجسي خارج الإطار الأوديبي، وعلى وجه الخصوص أن يتهمه أحد بأنه أخذ أي شيء كان عن أبويه. وسيكون قد أفلح على هذا النحو إلى الحدّ الأقصى في تجنّب الوضع الأوديبي. ولن يشغل أبداً مكانه في الخط السلالي، ولكنه سيحطّم كل منظومة البنوّة ويبحث لنفسه عن مكان خارج هذه المنظومة(٥).

٧ ـ انتصار أوديب على السفنكس

بعد هذا التوضيح الموجز لما نقصد بالنضج الأوديبي، يستهوينا بشدة أن نستأنف تحليل الأسطورة الأوديبية نفسها، من خلال محتواها ونص سوفوكلوس. ونحن نلاحظ في هذا الموضوع واقعاً غريباً جداً مفاده أننا لا نجد بين تفسيرات الأسطورة الأوديبية، جميع التفسيرات، تفسيراً واحداً، حسبما نعلم، أدرج عنصرها الرئيس على نحو متماسك، وأقصد أن أتكلّم على السفنكس. وفي ذلك تكمن ولا ريب ثغرة كبيرة يمكننا شرحها بلغة المقاومة. وينشغل فرويد نفسه باللغز الذي يطرحه السفنكس أكثر مما ينشغل

(٥) البحث الشره عن الجدّة بأي ثمن، أيا كانت قيمتها الداخلية، يندرج في محاولة شبيهة لتجنّب الوضع الأوديبي. والمقصود ألا يدلف المراهق في ضرب من التقليد. وهذا يعني، هنا أيضاً، تحطيم الخط السلالي. ومصدر السحر الذي تمارسه الجدّة في ذاتها على بعضهم هو الحلّ الظاهري الذي تساهم به هذه الجدة في النزاع الأوديبي، إذ تتفاداه. والفكر الفريد حقاً والكشف الثوري بالفعل يغوصان في الواقع بجذورهما في الماضي الذي يتغذّيان منه ويحدثان فيه استقلالاً؛ ونقول، بعبارة أخرى، إنهما يصدران عن مبدأ البنوّة.

بالسـفنكس، ونحن نعلم أي معنى يعزوه إليه (أصل الأطفـال). وهو لا يتكلّم على السفنكس بوصفه كذلك إلا مرة واحدة (وذلك أمر غريب بما فيه الكفاية في **دستوفسكي وقتل الأب**)، ويقول عنه في الواقع إنه وجه أبوي يجسّد قتله بيد أوديب مسبقاً قتل لايوس إذا جاز القول. ولن نتوقّف عند هذه النقطة إلا لنذكّر بأن رأي فرويد لم يرجح في هذه الحالة، وأن المؤلفين ميّالون حالياً إلى أن يروا في وجه السفنكس تمثيلاً بالحري للصورة الذهنية المثالية لأم قضيبية. وفي رأينا أن النصر الذي حقّقه أوديب على السفنكس لا يكوّن تجسيداً مسبقاً لقتل الأب، ودلالته تتجاوز ما نسميه في العادة الأم القضيبية تجاوزاً واسعاً.

والسفنكس موجود أسطوري ذو نسخ عديدة. فسفنكس طيبة له وجه امرأة، وقوائم أسد وذنبه وله جناحان، وعلينا أن نلاحظ دفعة واحدة أن المقصود بذلك مجموعة من الرموز ولا شيء غير هذا، فليس للسفنكس جسم وهو يحجب فراغاً حامل رموز[٦]. وتحيل هذه الرموز إلى أصول مختلفة بصورة أساسية، والمقصود ضرب من **الركام القديم غير المتجانس** من الإسقاطات، وذلك أمر يعيدنا إلى الكنز[٧] ويقيم ضرباً من الاستمرارية بين الاثنين. والسفنكس «موضوع (حرتقة)» كالكنز، وهو أمر ذو علاقة بسمته النرجسية العتيقة.

والسفنكس مذكر، ولكنه يُعتبر مع ذلك مؤنثاً ويُسمّى من جهة أخرى «السفنج». فالمسخ ذو جنس غير معيّن إذن.

أما أصله النفسي فمتعدّد وفق الإسقاطات التي هو حاملها، وبوسع

---

(٦) ليس ذلك ضرباً من رؤية فكرية. كان العلماء في الآثار المصرية، الذين وجدوا تحت تصرفهم سفنكساً منحوتاً، مصابين بدهشة كبيرة حين اكتشفوا أن السفنكس (أبا الهول) لم يكن يخفي في الداخل - على خلاف جميع الروائع الأثرية المصرية القديمة - أي ممرّ أو معبد أو قبر، فقد كان فارغاً.

(٧) يعتبر السفنكس، في نسخته المصرية على وجه الخصوص، حارس الكنز، وهذه الوظيفة موجودة في استخداماته المعمارية المختلفة المنتشرة في بلدان الشرق الأدنى الحالي.

المرء أن يضع قائمة طويلة تحصي هذه الإسقاطات. ويبدو لنا مع ذلك أكثر نفعاً أن نبحث عن الفكرة المكوّنة الموجودة في أصل وظيفته في الأسطورة.

٨ ـ «الفوهرر» ضد أوديب

رأينا أن صدعاً معيّناً في الأنا يمنع المراهق على الغالب من إنجاز نضجه على نمط موحّد (فرد = غير منقسم = متجانس). فتظلّ أناه مبعثرة (**أنا بلباس زينة المسرح**) ودون أن يكون بوسعها إنجاز توحّداتها الأوديبية (التي هدفها لا يمكنه أن يكون سوى توحيد الشخصية: فليس ثمة سوى أب واحد وأم واحدة). وينظّم عندئذ **منظومة من الإسقاطات الكثيرة، مكافىء «الكنز»، بالنظر إلى أن نرجسيته تعزّزها في الوقت نفسه انعكاسات مرآوية عامة لدى جماعة معيّنة من المراهقين تفيد من المنظومة نفسها**. وبما أن كل شحنته النرجسية تحدّدها هذه السيرورة، فإن عالمه الموجود داخل هذه المنظومة هو وحده الموظّف نرجسياً، بالنظر إلى أن الشحنة المماثلة مسحوبة بصورة كاملة من عالم الراشدين الذي لم يعد موجوداً بمعنى من المعاني (إذ أنه غير موظّف كلياً). إنه بالتالي عالم اللاقيمة وينبغي طرحه إلى الخارج (وذلك على الأقل هو الهدف الذي ينشده المراهق، ويفهم المرء، بمعنى من المعاني، سخطه أمام الراشد الذي لا تتّفق أفكاره في هذا الصدد مع أفكاره).

والحال أنه يحدث أن تصبح هذه الإسقاطات النرجسية موحّدة المركز حول وجه رئيس يمثّل تطلّعات أعضاء الجماعة إلى الحد الأقصى. وبوسع المرء أن يشبّهه بـ **الصنم** (يمكن أن يكون المقصود ساحراً أو عرّافاً) الذي تكمن وظيفته الأساسية في دعم أطفاله في صراعهم الدفاعي ضد أوديب، بفضل القوة السحرية، ذات السمة الشرجية، التي تُعزى إليه. وسنرى أن هذا الصنم يظلّ في الواقع ذا جنس غير معيّن. وقد لاحظت أنّا فرويد[٨] جيداً أن المراهقين كانوا يخضعون على الغالب لشخصية تسميها «فوهرر»، شخصية

---

(٨) مشكل البلوغ، النفس، ١٩٦٠.

هي، في رأيها، ضرب من الوسيط، «فرد عمره وسط بين عمر المراهق وعمر أبويه»، فرد كان يندرج إذن في الإطار الأوديبي. والواقع أن الشخصية موضوع البحث ليست في رأيي وسيطاً، إنها موجودة على العكس في طليعة المقاومة المعادية للعالم الراشد، أي ضد أوديب. إنها حاملة الإسقاط النرجسي المصاب بهذيان العظمة للموالين لها، موالين هي مركز تجمّعهم، وهي التي تموّنهم أيضاً بمحتوى إيديولوجي أو محتوى آخر يغذّي اندفاعتهم الدفاعية ضد أوديب. إنها زعيمهم، ولا سيما أن الرابطة التي توحّدها بهم تعادل بالنسبة لهم حرية دافعية كبيرة يرافقها إشباع نرجسي مقابل: والواقع أن المراهق موضوع البحث ليس لديه أنا عليا أوديبية ناجزة بما أنه لم يدمج الأوديب، وهو يصارع ضروب الحصر الناجمة عن عجزه الأساسي ومخاوفه من الخصاء وعدم تعيينه فيما يتعلّق بهويته الفعلية وبجنسه، مزوّداً بأنا عليا أمومية عتيقة وبمثال للأنا يضفي الجمال بسبب نرجسيته.

٩ ـ سحر الصنم

والحال أن التوحّد على مستوى معيّن بالصنم (أتذكّر رسالة طفل معجب إلى صنمه: «إنني أحبك، إنك صنمي مدى الحياة»(*)) والحماية التي يمارسها يمحوان كل ذلك بفعل ما يتيحانه من التحرّر من الأنا العليا على وجه الدقة. فالصنم ليس الأنا العليا، إنه، على العكس، هو البرهان على غياب هذا المرجع الذي يحلّ محله الصنم بصورة مفيدة. و«**بوسعه أن يفعل كل شيء**»، أي أنه انتصر على الأنا العليا وبالتالي على الأوديب. والانتهاكات التي يتيحها لنفسه ستكون كلها مآثر مرآوية، ومن المفروض أن بوسعه أن يفعل كل شيء وأنه يعلم كل شيء. إنه لعيد حقيقي هوسي أن ينتمي الفرد إليه، وكل ما يفعله أو يقوله كامل. وأوهى كلمات الصنم (ساحر أو عرّاف)

(*) وردت العبارة في النص على الصورة التالية: «إنني أحبك، إنني صنمك مدى الحياة». ونحن نعتقد أن ثمة خطأ في الطباعة، ولذلك صحّحناها بحيث تلائم النص في رأينا «م».

هي موضع تعليق وتعمّق، ذلك أنها تبرهن على قضيب (عضو ذكر) سحري يُعزى إليه. والواقع أن هذا القضيب يتنبّأ به الموالون بالحري، إنه موعود (محجوب كأنه وعد)، والاستمتاع به مؤجّل دائماً إلى الغد[9] وهذا التأجيل الدائم هو الذي، على وجه الدقة، يعرّض العلاقة بين الصنم وأتباعه إلى خطر الاضطراب، علاقة تبدو من جهة أخرى، دفعة واحدة، على أنها ثنائية المشاعر على نحو كاف. ذلك أن وراء التبجّح، في الواقع، والاحتقار الحقود ومهانات محتقري الأوديب، يتنبّأ المرء بالاقتناع الصميمي أن القضيب الحقيقي هو قضيب الأب، وذلك على وجه الدقة هو ما يحجبه الالتباس، المحافظ عليه قصداً، ذلك الالتباس الذي يحيط بالقضيب الذي وعد به الصنم ويحيط بالصنم نفسه. وكما أن السفنكس يمثّل، بمعنى من المعاني في الواقع، الأم السادية الشرجية التي يبدو أن أحشاءها المظلمة والعميقة تكشف عن الصفة الأبوية، فإن الوعد الضمني، وعد السفنكس، لا يتيح للموالي أن يلمح اكتساب هذا القضيب فحسب، ولكنه يتيح اكتسابه على نمط سحري بالتجنّب، إذ يقفز على هذا النحو فوق النضج، أي فوق التوحّد بالأب والأوديب. ونحن نعلم أن السفنكس كان قد سبّب خسارة بعض الشباب و «دمّر المقاطعة على هذا النحو»، ولكنه كان عليه تماماً أن يمارس سحراً حقيقياً على هؤلاء الشباب حتى يتّجهوا إليه. وعلينا أن نفهم ما يوحيه الخوف والجاذبية معاً في السفنكس.

ونذكّر هنا بما قلناه للتوّ عن السبب المباشر للصدع على مستوى الأنا، وهو الاندماج المعيب للطور السادي الشرجي، بالنظر إلى أن عدم النضج لدى المراهق يجعله عاجزاً عن الاضطلاع بهذا الدور، أي عاجزاً عن أن يدمجه في أناه. وستكون عدوانيته عدوانية كاذبة تسيل جيداً على أنحاء مختلفة، ولكنها تسيل دائماً خارج التبنين الأوديبي. والحال أن كل شيء

(٩) كالتنّين، وهو سمكة يرتكز عليها العالم وفق حديث عبراني، ويحتفظ الله بطعمها الشهيّ للعادلين الذين سينعمون به يوم الدين.

يحدث كما لو أن النصير كان يفوّض قدرته على الإدماج الأوديبي إلى الصنم، إذ يترك له أمر الاضطلاع بهذا الدور بدلاً منه وإنجازه، لا سيما أنه يُعتبر المصدر نفسه لعدوانية سحرية شرجية ذات قوة كلية. وليس ذلك لإيضاح موقع الصنم، ذلك أن المراهق يتوجّه إليه حتى يلقي عدوانيته الشرجية في الميزان، آملاً في الوقت نفسه أن يفوز منه بالثقة على أنه سيكون مقبولاً دون أن يكون عليه اللجوء إلى استخدام العنصر الشرجي. فالسفنكس إذن يمثّل القضيب الشرجي، السحري، القوي والخطر (من هنا منشأ الخوف من الاقتراب منه كما الاقتراب من الطاعون)، ولكنه يمثّل الوعد المعجزي أيضاً (فالسفنكس هو كاهنة الوحي أيضاً)، مصدر السحر.

١٠ ـ لغز السفنكس

لنتذكّر المكيدة التي كان يطرحها السفنكس بألغازه التي يظلّ فهمها غامضاً بواسطة لغة سيبيلّية (السيبيلّيات كاهنات الوحي) و «تقنية كاهنات»[١٠]، تقنية كاملة، ولكنه يجعل فهمها غامضاً على وجه الخصوص بالخوف الذي كان يوحيه بفعل الاحتكار الذي كان يمتلكه؛ فكلام كاهنة الوحي يصدر عن الألوهية، ولها وحدها حق تفسيره، وذلك امتياز عظيم القيمة ويحضّ على التعسّف. ومهما يكن ضعيفاً ما يفلح المرء في تبيّنه من كاهنة الوحي، فإنه يشارك مع ذلك في قوتها الإلهية بدلاً من الارتعاش أمام غضبها؛ ولم يعد لديه خوف من الشَرَك لأنه هو الشرك[١١].

---

(١٠) تقيم كاهنات الوحي احتفالات طقسية في الكهوف وأماكن سرية أخرى، بمسرحة مناسبة وبعض الملحقات، كما لا نزال نراها في أيامنا هذه، وهي ذات ماهية شرجية؛ كالهياكل العظيمة، والجماجم، وأمعاء الحيوانات، ثفل القهوة، وبقع الحبر، إلخ.

(١١) اللغز في ذاته جنس شرجي، ذلك أن من يقول لغز يقول دائماً مكيده شرجية. فالآخر يوضع أمام صعوبة، أمام مانع، في حين أن من يحوك المكيدة يستمتع استمتاعاً ذاتياً بسيادة مطلقة. ونرى الآخر عندئذ مرتبكاً وعذابه أشد بقدر ما يكون الرهان مرتبطاً بضرب من الخسارة (خصاء أو موت كما في حالة السفنكس). والظلام في ذاته شرك شرجي: فالمرء «يخدع» فريسته و«يجذبها إلى الأنبوب». وتعبّر اللغة الألمانية عن خداع شخص من الأشخاص بعبارة «قاده خلف النور».

وغموض اللغة التي تستخدمها كاهنة الوحي يتيح أول الأمر جميع التفسيرات في اتجاه نرجسية الفرد الذي يسأل، حتى ولو أن عليه أن يدفع مقابلاً لها مخاوف وارتعاشات ترتبط من جهة أخرى، على مستوى عميق، ارتباطاً وثيقاً بالاستمتاع. (وتقنية الغموض ذات الجرعة المحدّدة يألفها كل الذين يستغلّون سذاجة الجمهور وثمة خط غير منقطع ينطلق من السحرة والكهّان ليصل إلى المنجمّين والعرّاف والمشعوذين وكاشفات الحظ الأخريات). فالعرّاف يفي ويعد معاً، يجذب أول الأمر ثم يحيل إلى الغد، وهو أمر يؤمّن له زبُناً دائمين وأمناء. إنه يستند في عمله إلى المستقبل، وذلك أسلوب يتيح له أن يظلّ في المجرّد، في اللاتعيّن والضبابي، في التلميحي، في الصيغة المفارقة والشعار، حتى يترك نافذة مفتوحة على المستقبل دائماً، مستقبل سيكون ممكناً كل شيء فيه، مستقبل سيسود فيه الفردوس الأرضي.

والاتصال بالمنجّم أو العرّاف يلقي الفرد مباشرة في السيرورة الأولية حيث يفقد العقل والمنطق حقوقهما. وتكفي بعض إشارات الإغراء، بل يكفي الالتباس وحده أو الغموض (ينبغي للغة نفسها أن تحتفظ بالخصائص الخاصة بما هو غير قابل للوصف). ويغوص الفرد، حين يستقرّ النكوص على هذا النحو، في النشوة وتنفتح الأبواب على العالم النرجسي ذي الإمكانات اللامتناهية، ويكفي الاعتقاد به. وإذا كان المنجم مع ذلك يجعل الفرد مستقراً في هذا العالم، فإنه يحرمه في الوقت نفسه من الوسائل الضرورية للخروج منه. إنه لن يتحرّك، ولكنه سيفلت من الأهوال المحتّمة لسيرورة النضج.

١١ - اختيار الخضوع أو الاستقلال

خشية الإنسان القديم من أن يدلف في الوضع الأوديبي تغمره بالرعب فيفوّض أمره إلى كاهنة الوحي أمام الخوف من دوافعه. إنه يخضع لقرارات الألوهية، وتبيّن لنا قراءة مسرحيات سوفوكلوس، الذي كان يعيش مع ذلك

في قرن بيريكلس، كم كان قدر الإنسان معلّقاً بالإرادة الطيّبة للآلهة. ويوسع المرء من جهة أخرى أن يفترض أن الإنسان كان يتوجّه بصورة عامة إلى كاهنة الوحي كلما كانت دوافعه الأوديبية أو مشتقاتها موضع تساؤل.

ويتساءل ريمون دي سوسور، في دراسته «الأعجوبة اليونانية»[١٢]، عن طبيعة العوامل التي غيّرت هذه الأمور وجعلت الإنسان يرفض هذه العبودية، إذ أسّس على هذا النحو حضارتنا. ويذكر على وجه الخصوص إبيقور الذي يضعه في مركز هذه الثورة ويقارنه على هذا النحو بفرويد. والحقيقة أن تعليم إبيقور هو الذي أفضى - إذ ألّف الأساسي، إذا صحّ القول، من التبدّل الواسع الذي كان يحدث - إلى استقلال الفرد، حاضّاً على ضرب من نقد الذات تبعاً للواقع (والواقع الإنساني قبل كل شيء)، لا تبعاً لسلطة خارجية بالنسبة للذات (والأمر الفريد أن ثمة اسم علم، بين الكلمات اليونانية النادرة التي تبنّاها الشعب اليهودي، أصبح اسماً موصوفاً. إنه اسم إبيقور الذي يعني «كافراً» بالعبرية).

والحال أن ثورة القرن الذي عاش فيه بيريكلس، التي لانزال نشارك فيها مشاركة واسعة في أيامنا هذه، كانت بعيدة عن الانتصار على الظلامية التي كانت لا تزال موجودة مع التفتّح الرائع للفكر الحديث في الوقت نفسه، وهذه المعيّة في الوجود غير وديّة وهي مستمرة ما دام صحيحاً أن الصراع بين أرموزد وأهرمان(*) صراع أبدي.

ووجب على سوفوكلوس، إحدى الشخصيات الأكثر اعتباراً في عصره، أن يشهد، ويشارك دون شك مشاركة فعّالة، ضرباً من الأزمة، ضرباً من المبارزة، لا بين جيلين (كان في الخامسة والسبعين من عمره عندما كتب **أوديب الملك** وفي التسعين عندما دفع إلى المسرح مسرحية **أوديب في كولون**)، بل بين عالمين، عالمي النور والظلام وعالمي العقل والخرافة، كانا

---

(١٢) مجلة التحليل النفسي الفرنسية، ١٩٣٨.

(*) أرموزد إله الخير يقابله أهرمان إله الشر، في الديانة الزرادشتية، ديانة الفرس القديمة.

يتصادمان بصخب. وكان لا بد له من أن يفهم أن هذا الضرب من الإكليروس، الذي كان يوزّع إرادات الآلهة على الناس، كان يمارس، على الرغم من تحرّر الفكر الإنساني، ضغطاً على الناس وأن بعضهم كان يسرع صوب الأماكن التي كان العالم الروحاني لكاهنات الوحي ينتشر فيها، عالم يغلّفه ضباب الجهل وسحرُ طقسٍ تعزيمي. وإذ يتوق الشباب إلى السكينة، فإنهم كانوا يتوهون ويسرعون إلى الأحشاء السوداء للسفنكس الذي كان يجعلهم يرتعشون تحت التأثير السحري والمرعب للغته اللغزية التي كان يملك مفتاحها هو وحده.

١٣ ـ أوديب يصارع الظلامية

من الواضح أن المبارزة بين أدويب والسفنكس كامنة في عقدة الدراما بالنسبة لسوفوكلوس، في العقدة نفسها. وعلى المستوى الشعوري ولا ريب إنما كان سوفوكلوس يهاجم الظلامية السائدة في كل عصر تحت أقنعة شتى، والإرهاب الفكري الذي يستند إلى الحصر لدى الضعفاء، والخرافة التي محلّها من يزعم أنه يعبّر عن الكلام الإلهي، والعالم الروحاني الذي يتسرّب إلى فكر الشبيبة ويسمّمه.

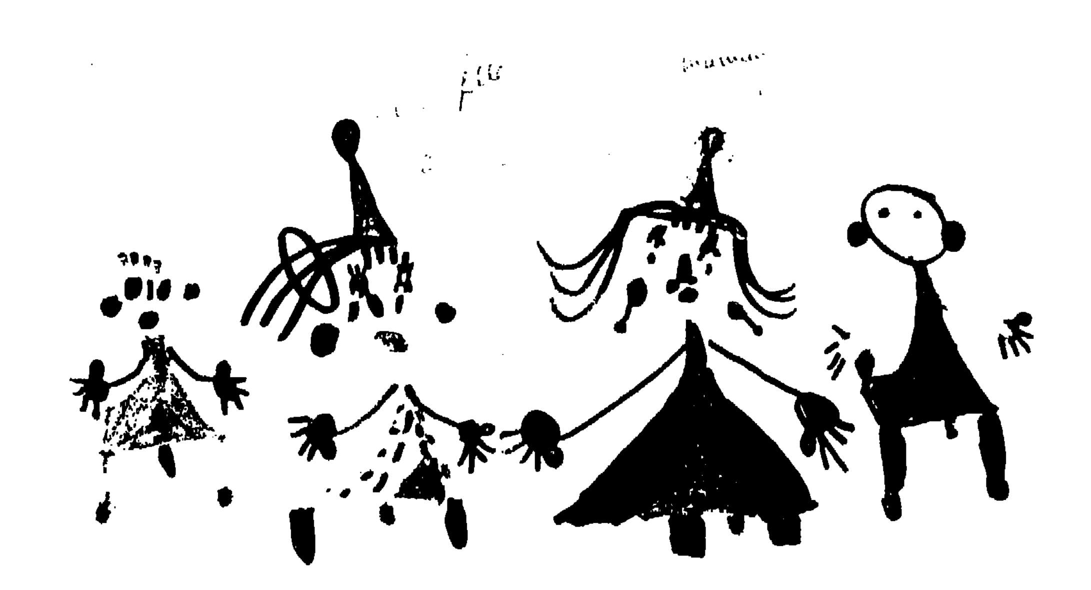
ويبدو تماماً، فيما يخصّ المستوى الشعوري، أن أوديب، المنتصر على السفنكس، بطل، لا لأنه فاز في لعبة الحزازير، بل لأنه، إذ فعل ذلك، استبعد ـ بإشارة واحدة ـ ضرباً كاملاً من الحضارة الزائفة المصنوعة من الشعوذة ومن الصيغ السحرية والارتعاش أمام السر الخفيّ. وبيّن أنه لم يكن ثمة حاجة إلى الاحتفاظ بالإسقاط الذي يصبّه غير الناضجين على السفنكس وأن الإسقاط وحده هو الذي يمنحه حياة وسلطة ذات قوة كلية. إنه عارض المسخ على هذا النحو بأنا ليست ذات صدع وانتصر عليه. وحين اقتلع أوديب قناع السفنكس، كشف عن خوائه، إذ ألقاه على هذا النحو في العدم.

بيلا غرنبرجر

الباب الثالث

هل ثمة عقدة إليكترا؟





كل أعضاء الأسرة في هذا الرسم لبنت صغيرة عمرها ٧ سنوات،
بما فيهم الإناث، مزوّدون بعضو الذكر

الفصل الحادي عشر
اختبار الوقائع

كانت الملاحظات العيادية لسوابق الأوديب تبيّن أنه أسهل بكثير لدى الرجال من النساء. ومصدر ذلك، كان يعتقد فرويد، أن المحلّل النفسي كان رجلاً على الأغلب، في بداية حركة التحليل النفسي على الأقل. يضاف إلى ذلك أن تحليل النساء كان قد دخل عليه التعديل بفضل هذا الوضع وكان على المريضات أن يكشفن عمّا كان ذا علاقة بالأب أكثر من الأم. وكان طور التعلّق بالأم غامضاً وتعاقب الأحداث أقل تماسكاً.

والمسلّم به خلال زمن طويل أن عقدة أوديب كما كانت معروفة لدى الصبي، يمكنها أن تنتقل إلى البنت بسهولة. واقترح يونغ مصطلح «عقدة إليكترا» ليشرح الموازاة.

ولكن كل شيء يتغيّر مع التنقيب في الدور القضيبي ومع، ولابدّ تماماً من القول، تكوين المحلّلات النفسيات. وتتبنّى بعضهن، كالسيدات جان لامب-دي-غروت وماري بونابرت أو هيلين دوتش، أفكاراً قريبة من أفكار فرويد عن الخصاء، وسلبية المرأة، وجهل العضو الأنثوي، وحسد عضو الذكر. وتتصدّر الحركة المعارضة روث ماكبرنشفيك وكارن هورنه وميلاني كلاين.

وجوزين مولر محلّلة نفسية وطبيبة. إنها الأولى التي تعير انتباهاً لما تقوله عن البنات الصغيرات أمهاتهن أو الممرضات اللواتي ألفن الاتصال بالأطفال. ويبدو أنهن، أي البنات، كالبدائيين، «يعرفن» و«لا يعرفن» في الوقت نفسه وجود عضوهن الأنثوي.

والحال أن الاعتقاد السائد، حتى تلك الفترة، أن البنت الصغيرة لم يكن لديها إحساس بعضوها الأنثوي ولا امتثال له وإن كان لاشعورياً. ومن هنا منشأ انطباعها أنه ليس لها عضو جنسي يخصّها هي، وأنها بالتالي صبي «ناقص» (أي مخصيّ). وعلى هذه النقطة الواضحة إنما كانت النظرية الفرويدية كلها قد انبنت، نظرية ترى أن عقدة الخصاء هي محرّك الأوديب بالنسبة للمرأة.

النص: جوزين مولر

بمناسبة محاضرة لجميعة برلين، ٣١ تشرين أول ١٩٥٢، قدّمت السيدة هورنه[1] مقالاً عنوانه: «ملاحظات امرأة حول عقدة الذكورة لدى المرأة». وجذب هذا المقال انتباهي إلى الفرضيات التالية: العضو الأنثوي موظّف، في المرحلة التناسلية، توظيفاً ليبيدياً أكثر على الأغلب مما يعتقد بعضهم. ويصبح هذا التوظيف عندئذ أكثر دلالة من توظيف المناطق الأخرى التي تثير الغلمة. وذلك أمر كشفت لنا عنه، على وجه الخصوص، ملاحظة النساء الباردات من الناحية الجنسية، اللواتي يؤثرن البظر في العلاقات الجنسية. إنهن على وجه العموم نساء تسودهن عقدة خصاء قوية ويتّصفن بخصائص مذكّرة بارزة جداً. وأريد الآن أن أقصر عرضي على توظيف عضوين تناسلين أنثويين. وسأتناول بالمعالجة فقط تلك السيرورات والاستيهامات التي يمكنها أن تدلّنا على أفضليات المرأة، إما للذة البظرية، وإما للذة المهبلية.

وسأرجع أيضاً إلى الاندفاعات التناسلية المرتبطة بعقدة الخصاء.

---

(١) في الصحيفة العالميه لعلم النفس التحليلي، المجلد ١٢، ١٩٢٦. ومقال آخر عنوانه: «الفرار من الأنوثة»، في هذه الصحيفة، المجلد ٧، ١٩٢٦.

إن ملاحظاتي المنصبّة على الأطفال وعملي التحليلي هما اللذان أوحيا إليّ هذه التعليقات. وقد توصّلت أيضاً على هذا النحو إلى الفكرة التالية: تحليل عقدة الخصاء جعلنا نكتشف أن البظر تدركه البنيّة منذ الطفولة الأولى؛ وهذا الأمر يقودنا مع ذلك إلى ظاهرة أخرى: تشعر البنية برغباتها الدافعية مقترنة بالعضو الأنثوي، ولكنها تكبتها كما تكبت الموضوع والهدف اللذين يرتبطان بها. وهذا الإدراك يقدم مع ذلك على إثارة الاضطراب في شعور الطفل الأنثى بمعزل عن الكبت. إنه يجعل إرادة هذا الطفل ودوافعه وإدراكه موضع شك.

١ ـ العوامل التي تكشف عن معرفة خفيّة

ملاحظاتي المنصبّة على الأطفال نتيجة تجربتي في المشفى وعملي بوصفي طبيبة عامة. وكانت أمهات بنيّات من سن السنتين إلى الخمس سنوات قد استشرنني على الغالب، أمهات كنّ يعتقدن أن أطفالهن البنات وقعن مرضى لفرط ما أثرن عضوهن الأنثوي. وأتذكّر حالتين على نحو دقيق جداً، حالة بنيّة في سن الثالثة وحالة بنيّة أخرى في الرابعة من عمرها. وكان الفحص قد كشف على الغالب ضرباً من التهيّج في مدخل العضو الأنثوي وتقيّحاً بسيطاً. ويفكر الطبيب أول الأمر، أمام حالات من هذا النوع، بوجود دودة البطن التي تفلح، خلال البراز، في دخول العضو الأنثوي، إذ تسبّب عندئذ تهيّجاً تسعى البنيّة إلى تلطيفه بفرك هذا الجزء من الجسم بإصبعها[٢]. وذلك سبب الاستمناء في الأغلب، ولكننا نصادف حالات عديدة أخرى لا يوجد لها أي سبب خارجي. وبدلاً من أن يتلقّى العناية هؤلاء الأطفال الإناث، فإنهن يعانين التهديد والوعظ المألوفين. ونحن نعلم جميعاً أن الفاعليات الجنسية الأكثر وضوحاً هي التي، على وجه

---

(٢) نجد الملاحظة التالية على سبيل المثال، التي أبداها سترومبل في المجلة العالميه لعلم النفس التحليلي، (الطبعة ١٦، ١٩٠٧، s. 684, Bd.I): «يحدث على الغالب أن تدخل العضو الأنثوي ديدان البطن محدثة ضرباً من التهيّج العنيف الذي يشجّع الاستمناء في بعض الأحيان».

الخصوص، يكشفها الأطباء والملاحظون الآخرون. أما البنيّات اللواتي يمارسن الاستمناء بالعضو الأنثوي على نحو مستتر، فإنهن لا يُكتشفن. وهكذا تترجّح بعض البنيّات في الاستمناء بالعضو الأنثوي من الأعلى إلى الأسفل أو يتمايلن من اليمين إلى اليسار، أو يثرنه أيضاً بتقليص العضلات ثم باسترخائها. ولا يلاحظ الأهل أيضاً تلك البنيّة التي تشعر بأنها مراقبة، فتخفي عندئذ نشاطاتها أو تكبت دوافعها الغريزية. ويعترف بعض الأطباء مع ذلك أنهم استطاعوا مراقبة حالات من هذا النوع، ولكنها حالات استثنائية على وجه العموم. ويذكر بعض المحلّلين أمثلة مثيرة ويخطر ببالي تلك الأمثلة التي أشارت إليها ميلاني كلاين. وتكلّم بويم، هو أيضاً، على مريضة كانت تمارس الاستمناء بين الخامسة والسابعة من عمرها، كمريضة السيدة هورنه، بالطرف السفلي المطويّ من قميص النوم، الذي كانت تفرك به عضوها الأنثوي. ويذكر هارنيك حالة تحليلين لامرأتين مصابتين بالبرود الجنسي كان البظر لديهما حسّاساً بصورة خاصة. وكانت إحدى هاتين المرأتين قد تذكّرت أن الطبيب أخرج من عضوها الأنثوي (شكلة) شعر عندما كانت في الثالثة من عمرها. وكانت الأخرى قد تذكّرت أنها كانت تمارس الاستمناء بالعضو الأنثوي في الخامسة عشرة من عمرها.

وهكذا استطاعت هذه المرأة، على الرغم من توظيف ليبيدي شعوري للعضو الأنثوي خلال البلوغ، أن تكبت رغباتها في هذه العضو وآثرت البظر. ولا تبدو لي هذه السيرورة ممكنة حسب تجربتي إلا إذا كان الكبت «مهيّأ» في مرحلة الطفولة. وحول هذا الموضوع، أنوي أن أعرض عليكم حالة ذات صلة بالموضوع وثيقة جداً، وحالات أخرى أكثر دقة، خلال عرض عيادي قريب أكثر شمولاً.

٢ ـ ظاهرة العضوين التناسليين لدى البنت

قادتني بعض العناصر في تجربتي العيادية إلى الاعتقاد بثقة أن الطفل الأنثى يكبت، أكثر مما يعتقد بعضهم، أول دافع يقترن بالعضو الأنثوي، وذلك أمر قد يشجّع إيثار البظر. وقبل أن أفصّل في المادة العيادية، أودّ أن أذكر بعض الملاحظات النظرية. وأقترح أن نفحص الحالة الفرضية لبنيّة تصبح شاعرة بضرب، لامتمايز في البداية، من إثارة البظر والعضو الأنثوي خلال المرحلة التناسلية. وفي أعقاب ذلك، ستدفعها بعض التجارب إلى أن تصرف انتباهها عن المظهر المهبلي للإثارة وأن تكبت هدفها. وبوسعنا عندئذ أن نفهم دلالة الظاهرة، ظاهرة عضوين تناسليين اثنين لدى البنت: ولاتتخلّى البنت تخلياً كاملاً، في حالتنا الفرضية، عن المستوى التناسلي. وتفلح بهذه الطريقة في استغلال التوظيف الليبيدي للبظر. والتوظيف المفرط للبظر مرتبط بحاجتها إلى أن تنصرف عن العضو الأنثوي. وبوسعنا الاستنتاج عندئذ أن التوظيف المفرط للبظر يكشف عن قوة الدافع الذي تعلّق بالعضو الأنثوي في المقام الأول.

ولاينجح هذا الكبت دائماً؛ بل أعتقد أن درجة الإخفاق منوطة بقدرة اللذة البظرية على أن تمنع البنيّة من النكوص والسقوط في مراحل من النمو أسبق من المرحلة التناسلية. ولكن إذا أخفق الكبت، فإنه يكون ممكناً عندئذ أن تتدخّل إثارة العضو الأنثوي مجدّداً. وثمة جهد جديد من الكبت سيلي، ولكن التهديد بظهوره على المستوى الشعوري سيوقظ الإثمية التي ترتبط بالاستنماء البظري على وجه الخصوص. وثمة مشاعر معمّمة من الريبية ستظهر، إذ تصيب الإرادة والاندفاعات والإدراك. وسيعاني الفرد الأنثى، لفرط ما دافع عن نفسه ضد الإحساسات الحادّة التي تميّز الجنس، مشاعر الدونية التي ستغزو كل حياته النفسية، معاناة لايمكنه تجنّبها. وهذه المشاعر ستعزّز المشاعر التي تنبثق من حسد عضو الذكر. وستضفي آليات الدفاع في

الوقت نفسه قيمة كبرى على الأفكار والقدرات والفاعليات المرتبطة بالدوافع التي يشعر بها الطفل الأنثى. ويبدو أن الإثارة البظرية تشبه اللذة الإحليلية وتوقظ الاستيهامات الإحليلية. ويظهر أن الاستيهامات الإحليلية تفاقم، بالعكس، إثارة البظر. وتنطوي هذه الاستيهامات، ذات السمة العدوانية والفاعلة، على توحّد بالرجل (بالأب) في دوره الجنسي.

والتوظيف المفرط للبظر، في الحالة التي عرضتها في بداية الفقرة السابقة، يجعل التخلّي عن الاستنماء البظري أمراً عسيراً، حتى في طور البلوغ، أي عندما تميل الإثارة الجنسية إلى الاعتدال. وفي الوقت نفسه، يظلّ الدافع المهبلي المكبوت بصورة سيئة، ذو الهدف الطفلي، حاضراً في اللاشعور. وبما أن الطفل الأنثى يحتفظ بالتوظيف الليبيدي للعضو التناسلي الكلي، فإن حسد عضو الذكر ينمو مع ذلك بالحري.

٣- أسباب التبعية الفكرية

حسد عضو الذكر يكبح المرأة منذ نهاية البلوغ أو فيما بعد، عندما تبدأ بإقامة علاقات جنسية، حين لاتفلح الدوافع الجنسية، المثارة مجدّداً، في أن تتجاوز الجهود المتكرّرة لكبتها. والمرأة لاتحتاز الشعور برغباتها المهبلية، وليس بوسعها أن تحدّد الإشباع الدافعي هدفاً لها، وفي مثل هذه الحالات، يظلّ الهدف الطفلي للدافع كامناً في اللاشعور. وليس بوسع الأنا أن تتوحّد بالإرادة اللاشعورية، وهي لاتشعر بالأمن إلا عندما تنبذ الدوافع التناسلية. ولاتتوصّل الرغبات الأخرى للأنا إلى أن تتمفصل مع الرغبات التناسلية. وتنزع المرأة، بدلاً من أن تواجه العالم بصورة مستقلة، إلى أن تتجنّب كل مايمكنه أن يقود من جانبها إلى أن تتّخذ موقفاً أنثوياً بصورة نموذجية، وتتبنّى وجهة نظر الرجل تبنياً يكتنفه القلق. ونظراً إلى هذا التوحّد الجديد بالرجل، تبيّن المادة التحليلية التي تقدّمها بنيّات في الخامسة إلى الثانية من عمرهن، من جهة، أن الأشكال الأخيرة من الإشباع الدافعي الطفلي تُنبذ وأن

الاستمناء المهبلي يُستأنف في البلوغ، وأن الاستيهامات، من جهة أخرى، تفقد محتواها الطفلي لتُشحن بمحتوى آخر سيستمرّ في حياة الرشد. وتصبح هذه الظاهرة عندئذ، ولو أن المرأة ليست داعية لها، هي العامل الذي يضع لها القواعد طوال حياتها، في جهد دائم للتوحّد برجل مثالي.

وأودّ الآن أن أقول بعض الكلمات عن حب الذات لدى المرأة الذي يفلح في أن يتوطّد على الرغم من حسدها عضو الذكر. ولست أقصد على الإطلاق أن أقلّل من الأهمية الرئيسة لرغبة البنيّة في عضو الذكر، بل أحاول بكل بساطة أن أقيّم هذه الرغبة تقييماً جديداً بالنسبة إلى طبيعة المقتضيات الدافعية بصورة عامة. إنني أستند إلى ملاحظة النساء الباردات جنسياً، اللواتي أصبح حب الذات لديهن سريع العطب جداً بفعل حصر مصدره التهديدات الدائمة الآتية من عقدة الخصاء. ولهؤلاء النساء سريرة أكثر سكينة عندما يبدأ برودهن الجنسي بالزوال. وتقودني هذه الملاحظة إلى أن أطرح السؤال التالي: هل انحلال عقدة الخصاء يمكننا تصوره دون تغيّر خارجي في حياة الفرد الجنسية؟

٤ ـ الانصراف بصورة طبيعية عن حسد عضو الذكر

أعتقد أن حب الذات لدى كل فرد ينبني بصورة أساسية على القدرة على إشباع الدوافع الأساسية واستغلالها لإقامة علاقات مرضية مع الغير. ولا يمثّل الموضوع التناسلي دوراً رئيساً له الغلبة لدى الطفل. ولكن من الضروري أن تكون الميول التناسلية ذات الارتباط بجنس المراهق ميولاً تقبلها أناه قبولاً نهائياً حتى يفلح في الاحتفاظ باعتباره الخاص. فالدوافع المهبلية، لدى بعض النساء، مكبوحة مع ذلك منذ البداية، وهي لا تبلغ الشعور. وتظلّ هذه الدوافع طفلية من حيث هدفها، ويظلّ سلوكها دائماً تحت رقابة الرغبات المهبلية اللاشعورية ذات الهدف الطفلي. وفي مثل هذه الحالات، من المحتّم أن تعيش المرأة مع مشاعر أناها عيشة عدم انسجام، ولا سيما أن

هذه المشاعر تعزّزها على المستوى الدافعي إثارات بظرية وأن النزاع الذي يثير الاضطراب في رغباتها التناسلية يفلح في تدمير حب الذات لديها. وإذا حاولت محاولة جديدة أن تحلّ المشكل بالكبت، إذ تفاقم اتجاهها المذكر وإثاراتها البظرية، فإنها ستكون حسّاسة لحسد عضو الذكر بالحري. وعلى العكس، إذا كان ممكناً أن تصبح الدوافع المهبلية شعورية وأن تؤمّن إشباعاً تاماً، فإن المرأة تتصرف بصورة طبيعية عن حسدها لعضو الذكر. وتبيّن لنا التجربة أن النساء اللواتي وُهبن قابلية الحصول على الإشباع المهبلي الكامل، بمعزل عن الإمكانات الخارجية، يفلحن على نحو أكثر سهولة من النساء الباردات جنسياً في أن يحللن محل الرجال، وهن أقل جاهزية لمواجهة الرجال في الأوضاع التي يتفوّقون فيها بالضرورة ـ وهي أوضاع توقظ عقدة الخصاء لديهن. وأريد، حول هذا الموضوع، أن أؤكد أهمية التمييز الذي أقامته كارن هورنه بين الأولي والثانوي من حسد عضو الذكر.

وسأكتفي، فيما يخصّ السمة العيادية لهذا المشكل، أن أذكر بكل بساطة أي نوع من الحالات تنطبق عليها وما هي نقاطها الرئيسة. فالنساء النموذجيات هنّ نساء بين العشرين والأربعين من عمرهن، نساء يعانين الهستيريا أو العصاب الوسواسي، بالإضافة إلى البرود الجنسي أو التشنّجات المهبلية.

وفي بعض الحالات النادرة جداً، ثمة اتجاه للمعارضة قوي جداً حال دون أي اتصال بعضوهن التناسلي، إما في الجماع وإما في إطار فحص طبي. ورافق ذلك اضطرابات وظيفية (كالغياب الكلي للطمث والتشنّجات المهبلية، على سبيل المثال) تزول خلال العلاج مع أنها موجودة في البداية.

وبوسعنا القول عن هذه الحالات إن أطوار الرغبات الجنسية المتفاقمة جداً لا يسهل تمييزها من الأطوار الأخرى التي تهدأ فيها الرغبات الجنسية، وإن هذا اللاتمايز يسم بسمته حياة هؤلاء النساء باستمرار. فالدوافع الطفلية

تثير الاضطراب لدى الأطفال حتى سن السبع سنوات، وتُكبت الدوافع مجدّداً في السابعة، وتتجمّع قوى الكبت خلال البلوغ مجدّداً، نحو العاشرة والحادية عشرة، لتعارض انبعاث الدوافع الجنسية. والعادات الشهرية الأولى يمكنها أن تحدث في ضرب من اللامبالاة المذهلة، بل أن تتأخر حتى التاسعة عشرة من العمر في بعض الحالات. والصعوبات التي يصادفنها في البلوغ لا تنحلّ في الحقيقة أبداً، ومثال ذلك أعراض اليرقان في الخامسة والثلاثين. ويبدأ سن اليأس مبكراً لدى النساء اللواتي تظهر هذه اللوحة العيادية عندهن، ويدوم زمناً طويلاً (عشر سنوات). ولم يحدث قط أن استقبلت عيادتي للتحليل النفسي حالة من هذا النموذج، ولكنني عالجت في بعض الأحيان، بوصفي طبيبة عامة، مريضات مصابات بهذا التنادذ خلال عدة سنين. واستطعت أن ألاحظ عندئذ أن هؤلاء النساء كن يعانين، بعد زوال الطمث بعشر سنوات إلى خمس عشرة، اكتئاباً مزمناً خطيراً جداً، أو يعانين في أحسن الأحوال اضطرابات ذات علاقة بالمناخ، متميّزة (مزاجاً متقلّباً، نوبة تعرّق).

٥ ـ فهم الكفّ الأنثوي

توصّلت إلى النتيجة التي مفادها أن عقدة الخصاء، في مثل هذه الحالات، ليست هي وحدها التي توضع موضع الاتهام. فقوى الكبت تُقاد أيضاً إلى صراع تعزّز الكبت وتنزع إلى أن تكبت توظيفاً ليبيدياً للعضو الأنثوي الذي كان يتجلّى في عمر مبكّر. وهذا التأكيد مبنيّ على الأسباب التالية:

١ ـ إذا درسنا تجارب البنت الصغيرة واستيهاماتها بين الثامنة والحادية عشرة من عمرها، فإننا ندرك أنها تحاول أن تتحرّر من رغباتها المهبلية وأنها تتهيأ لأن تعاني عودة متناهية لرغباتها خلال البلوغ.

٢ ـ ليس بوسعنا أن نفهم ظهور الأعراض الخطيرة، كالعسر في

الطمث أو اللامبالاة الكلية أمام العادة الشهرية الأولى وإحساسات اللذة المقترنة بدفق الدم في الأعضاء التناسلية، إلا حين نسلّم بوجود التكوين السابق لآليات الدفاع المقامة لمعارضة الإدراكات الأولى لتوظيف العضو الجنسي الأنثوي ليبيدياً. وقد يكون بوسعنا أن نفهم على نحو أسهل تأخّر العادة الشهرية الذي يدوم في بعض الأحيان عدة سنين، إذا اعتبرناه توظيفاً ليبيدياً لم تستطع البنيّة أن تحققّه سابقاً.

٣ـ خلال الفترة التي تحتاج فيها بعض البنيّات إلى رعاية كبرى، خلال هذه الفترة على وجه الضبط إنما يُظهرن رغبة قوية جداً في إبداء استطاعتهن ونشاطهن. وتكشف على الغالب هذه الحالة الذهنية في التحليل، عن ذكورة قوية أو عن عقدة خصاء. والدفاع ضد الدور السلبي في الحياة الجنسية كان موضع المناقشة على الغالب، ولكننا نتبيّن، إذا تابعنا التحليل، أن ذلك يحجب اتجاهاً آخر كانت إحدى مريضاتي تسميه «الخوف من حصول الخوف».

وفي حالة هذه المريضة، ساعدنا وضع التحويل على أن نفهم أن أصل هذا الحصر كان مرتبطاً بوضع طفلي (كنا نشعر به آنفاً)، أي بانبعاث اندفاع مهبلي ذي هدف سلبي وبقمعه، اندفاع كان الأب موضوعه.

٤ ـ نحن نعلم أن الزواج ينزع إلى تفكيك الشعور بالأنا، الذي كانت تملكه المرأة قبل الزواج.

٥ ـ نحن نجد في التحليل على الغالب أن توحّد المرأة بالرجل يستند إلى رغبة عنيفة جداً لديها في أن تكون خاضعة وموضع الاغتصاب.

جوزين مولر

مقال ترجمه عن الأمريكية بيري هيوارد

الفصل الثاني عشر

بمعرض الحديث عن جنسية المرأة

سينكبّ فرويد هنا على توضيح الفوارق الأساسية التي تفصل بين الأوديب الأنثوي وأوديب الصبي: فلا وجود لعقدة إليكترا على الإطلاق.

فقد أصاب بعض التعديل أفكاره منذ أن اعترف بعض المحلّلين بأهمية ما يسميه «الطور قبل الأوديبي» لدى البنت. والمشكل مزدوج بالنسبة لها: بلوغ الأنوثة يفترض تغيّراً في موضع الحب، أي الانتقال من التثبّت على الأم إلى التعلّق بالأب، وتغيّراً في العضو أيضاً، أي الانتقال من البظر إلى العضو الأنثوي ولكن في أي فترة يحدث ذلك ولماذا؟

ويضفي فرويد على الطور قبل الأوديبي لدى البنت الصغيرة أهمية أكبر بكثير من الأهمية التي يضفيها على الطور قبل الأوديبي لدى الصبي: إنه ليس بحاجة إلى عضو آخر ولا إلى موضوع حب آخر.

فهل يعني ذلك أن فرويد يعود عن كلية الصيغة الشهيرة القائلة إن «عقدة أوديب هي نواة العصاب»؟ ربما، ذلك أن الرابطة قبل الأوديبية بالأم قد يكون لها، في هذا المنظور، انعكاسات جدّية على النمو الجنسي اللاحق لدى البنيّة. ولن يكون الأب سوى بديل الأم...

النص : فرويد

في طور العقدة الأوديبية السوية، نجد الطفل يتعلّق بالأب من الجنس المقابل تعلّقاً عاطفياً، في حين أن العدواة تسود علاقته بالأب من الجنس نفسه. وليس عسيراً علينا أن نتوصّل إلى هذه النتيجة بالنسبة للصبي. فأمه كانت وتظلّ الموضوع الأول لحبه. ولا بد للأب من أن يصبح منافسه بفعل التعزيز لميول الحب لديه وبفعل الإدراك الأكثر عمقاً للعلاقة بين أبيه وأمه. والأمر على خلاف ذلك بالنسبة للبنت. كانت الأم هي موضوعها الأول. فكيف تجد طريقها إلى أبيها؟ وكيف انفصلت عن أمها ومتى ولماذا؟ نحن نفهم منذ زمن طويل أن نمو الجنسيةالأنثوية يتعقّد بمهمة التخلّي عن المنطقة التناسلية الغالبة من حيث الأصل، أي البظر، لمصلحة منطقة تناسلية جديدة هي العضو الأنثوي. وثمة تحوّل ثانٍ من النسق نفسه، مبادلة الموضوع البدئي -الأم- مقابل الأب، لا يبدو لنا الآن أقل أساسية وأهمية بالنسبة لنمو المرأة. ونحن لا نزال نجهل أيضاً على أي نحو ترتبط هاتان المهمتان إحداهما بالأخرى. ومن المتواتر جداً، كما نعلم، أن نصادف نساء يرتبطن بالأب ارتباطاً قوياً، وهو أمر لا يقتضي على الإطلاق أن يكنّ عصابيات لهذا السبب. وعلى مثل هؤلاء النساء إنما أُجريت الملاحظات التي أسردها هنا والتي قادتني إلى تصوّر معيّن للجنسية الأنثوية. وهناك واقعتان كانت قد أدهشتاني قبل كل شيء: الأولى كانت تكمن في أن التحليل يؤكد أنه حيث يوجد تعلّق بالأب قويّ على نحو خاص، كان ثمة فيما سبق طور من التعلّق بالأم على وجه الحصر، حاد ومشبوب العاطفة بالقدر نفسه. ولم يكن الطور التالي قد ساهم، إذا استثنينا تغيّر الموضوع، بأي سمات جديدة في الحياة الغرامية إذا صحّ القول. وكانت العلاقة الأولية بالأم تتنظّم على نحو غنيّ جداً ومتنوّع.

وعلّمتني الواقعة الثانية أن تقدير المدة التي يستغرقها هذا التعلّق بالأم

كان تقديراً أقل من الحقيقة بكثير. وكان هذا التعلّق يمتدّ، في بعض الحالات، حتى السنة الرابعة وحتى السنة الخامسة في حالة واحدة ويشغل على هذا النحو جزءاً من فترة التفتّح الجنسي المبكّر أطول بكثير مما كنا نعتقد. والواقع أن المرء مضطر للتسليم بأن من الممكن أن يظلّ عدد معيّن من النساء متعلّقاً بالرابطة البدئية التي تربطه بالأم وألا يفلح أبداً في توجهيها إلى الرجل حقاً.

١ ـ مسألة الرابطة البدئية بالأم لدى البنت الصغيرة

يبلغ الطور قبل الأوديبي لدى المرأةبذلك أهمية لم نكن قط نعزوها إليه حتى هنا.

وبما أن هذا الطور يتيح المجال لكل التثبيتات وكل ضروب الكبت، التي نعيد إليها أصل الأعصبة، فإنه يبدو ضرورياً أن نعود عن كلية القضية التي مفادها أن عقدة أوديب هي نواة الأعصبة. ولكنه تصحيح غير ملزم لمن ينفر منه. فبوسع المرء، من جهة، أن يمدّ محتوى العقدة الأوديبية على كل علاقات الطفل بأبويه؛ وبوسعه، من جهة أخرى، أن يأخذ بالحسبان أيضاً كشوفنا الجديدة ويقول إن المرأة لا تبلغ الوضع الأوديبي السوي إلا عندما تتجاوز مرحلة سابقة تسود فيها العقدة السلبية. والحقيقة أن الأب في هذا الطور، ليس سوى منافس معيق بالنسبة للبنيّة، ولو أن العداوة له لا تبلغ تلك الدرجة التي تميّز سلوك الصبيان إزاء أبيهم. فقد تخلّينا تماماً منذ مدة طويلة عن أن نتوقّع ضرباً من الموازاة الضيّقة بين النمو الجنسي المذكر والمؤنث. ويدهشنا النفوذ إلى الفترة قبل الأوديبية لدى البنيّة كما يدهشنا، في مجال آخر، الكشف عن الحضارة الميسينية ـ المينونية وراء الحضارة اليونانية.

فكل مايتعلق بهذه الرابطة الأولى بالأم بدا لي عسير الإدراك من ناحية التحليل، مبيضّاً بفعل السنين، مبهماً، لايكاد المرء أن يكون قادراً على

أن يعيشه مجدّداً، وكأنه خاضع لكبت لايرحم على نحو خاص. ولكن هذا الانطباع ربما لم يحدث لديّ إلا لأن النساء اللواتي كنت قد حلّلتهن كنّ قادرات على الاحتفاظ بهذه الرابطة ذاتها بالأب، وتلك رابطة كنّ قد احتمين فيها منذ الطور قبل الأوديبي موضوع البحث. ويبدو في الحقيقة أن النساء المحلّلات - كالسيدتين جان لامب دي غروت وهيلين دوتش - استطعن أن يدركن على نحو أكثر سهولة ووضوحاً هذه الظروف لأن التحويل على بديل أم مناسب كان يقدم على مساعدتهن لدى مريضاتهن. ولمّا أفلح قط في أن أكشف الخفيّ في حالة من الحالات كشفاً تاماً. وسأقتصر لهذا السبب على أن أنقل النتائج الأكثر عمومية ولن أضرب سوى القليل من الأمثلة على الأفكار الجديدة التي توصلّت إليها. وإليكم أحد هذه الأمثلة: أظن أن ثمة علاقة وثيقة على وجه الخصوص بين طور الرابطة بالأم ومجموعة أسباب الهستيريا، وذلك أمر لاينطوي على مايثير الدهشة، إذا اعتبرنا أن الواحد والآخر، أي الطور والعصاب على حد سواء، ينتميان إلى السمات الخاصة بالأنوثة؛ وأظن أيضاً، بالإضافة إلى ذلك، أن المرء يجد في هذه التبعية للأم منشأ الذهان الهذائي اللاحق لدى المرأة[1]. ويبدو هذا المنشأ جيداً، في الواقع، أنه حصر الاغتيال (الافتراس؟)، اغتيال تنفّذه الأم، وهو حصر يثير الدهشة ولكننا نجده بانتظام. ونحن ميّالون إلي التأكيد أن هذا الحصر ذو علاقة بعداوة للأم ينمو لدى البنيّة في أعقاب تقييدات تربوية كثيرة وعناية جسمية؛ وأن آلية الإسقاط يشجّعها واقع مفاده أن التنظيم النفسي لايزال في بدايته.

وقد عرضت الواقعتين اللتين أدهشتاني بجدتهما: إن التبعية القوية، تبعية المرأة لأبيها، ليست سوى إرث لرابطة بالأم، قوية بالقدر نفسه، وإن

---

(١) في الحالة المعروفة جيداً، حالة روث ماك برنشفيك المعروضة في مقال نشرته «الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي»، العدد ١٤، ١٩٢٤، عنوانه «تحليل ضرب من هذيان الغيرة»، ينشأ المرض نشوءاً مباشراً من تثبيت قبل أوديبي على الأخت.

هذا الطور الأقدم يستمرّ خلال مرحلة مدتها غير متوقّعة. وأريد الآن أن أرجع إلى الوراء لأدرج هذه النتائج في صورة النمو الأنثوي الذي نعرفه جيداً. ولن أكون مضطراً، وأنا أفعل ذلك، إلى أن أتجنّب تكرار نفسي. والمقارنة المستمرة بوقائع الذكور لايمكنها إلا أن تكون مفيدة في غرضنا.

٢- فرويد يؤكد مواقفه مجدّداً

من الواضح أول الأمر أننا إذا أكّدنا ضرباً من الجنسية الثنائية في جبلّة الموجودات البشرية، فإن هذه الثنائية الجنسية لدى المرأة أكثر شدة منها لدى الرجل بكثير. فليس لدى الرجل في نهاية المطاف سوى منطقة تناسلية واحدة لها الغلبة، عضو جنسي، في حين أن للمرأة منطقتين: المهبل، وهو عضو أنثوي على وجه أخص، والبظر المشابه لعضو الرجل. ونعتقد أننا على حق في التسليم بأن العضو الأنثوي ليس موجوداً إذا صحّ القول خلال سنين عديدة؛ وربما لايبدأ بإحداث إحساسات إلا في البلوغ. ولاريب في أن أصوات الملاحظين، التي تعيد الحركات المهبلية أيضاً إلى هذه الفترة من بداية العمر، تتكاثر في هذه الأزمنة الأخيرة. فالأساسي ممّا يتعلّق بالتناسلية في الطفولة ينبغي إذن أن يحدث داخل علاقته بالبظر. والحياة الجنسية لدى المرأة تنقسم بصورة منتظمة بين طورين، للأول منهما سمة مذكّرة. والثاني هو وحده الطور الأنثوي بصورة نوعية. فثمة على هذا النحو سيرورة انتقال من طور إلى آخر في نمو المرأة، ولاشيء من ذلك لدى الرجل. وثمة تعقيد آخر ناجم عن أن وظيفة البظر ذات السمة المذكّرة تستمرّ في الحياة الجنسية اللاحقة لدى المرأة على نحو متغيّر جداً وليست بالتأكيد مفهومة بصورة مرْضية. ونحن لانعلم بالطبع ما الأساس البيولوجي لهذه الخصوصية، وليس بوسعنا أيضاً أن نعزو إليها هدفاً غائياً.

وينمو الفارق الثاني ذو العلاقة باكتشاف الموضوع نمواً يوازي نمو الفارق الأول الكبير. فالأم، لدى الذكر، هي الموضوع الأول للحب - من

جرّاء كونها هي التي تمنح الغذاء وتغدق العناية بالجسم - وتظل الموضوع الأول للحب إلى أن ينوب منابها موضوع آخر يشبهها بالطبيعة أو مشتق منها. ولابدّ من أن تكون الموضوع الأول بالضرورة لدى المرأة أيضاً والشروط الأولية لاختيار الموضوع هي نفسها بصورة طبيعية لدى كل الأطفال. ولكن الرجل الأب ينبغي له أن يصبح الموضوع الجديد للحب لدى المرأة في نهاية النمو. ونقول بعبارة أخرى، إن التغيّر في جنس المرأة ينبغي أن يقابله تغيّر في جنس الموضوع. فثمة مهمات جديدة للبحث تظهر هنا. والمسألة تكمن في أن نعرف: في أي درب من الدروب يحدث هذا التحوّل؟ فهل يتمّ التحوّل بصورة كلية أم على نحو غير كامل؟ وما هي شتى الإمكانات التي تنجم عن هذا النمو؟

٣- لاوجود لعقدة إليكترا

اعترفنا فيما سبق أيضاً أن ثمة فارقاً آخر بين الجنسين خاصاً بالعلاقة بعقدة أوديب. ولدينا الانطباع الذي مفاده أن كل ما قلناه عن عقدة أوديب ذو علاقة على وجه الحصر بالطفل ذي الجنس المذكر وأن لنا الحق إذن في أن نرفض اسم عقدة إليكترا التي تقتضي الإلحاح على التماثل بين الجنسين. وعلاقة التزامن المحتومة بين الحب لأحد الأبوين والكره للآخر، المعتبر منافساً، لاتحدث إلا للطفل المذكر. فاكتشاف إمكان الخصاء لدى هذا الطفل إذن، عند رؤية العضو التناسلي الأنثوي، هو الذي يرغمه على أن يضفي مظهراً آخر على عقدته الأوديبية. ويقود هذا الاكتشاف إلى إيجاد الأنا العليا ويدخل على هذا النحو كل السيرورات التي تنشد دمج الفرد في الجماعة الثقافية. وبعد استدخال المرجع الأبوي بوصفه أنا عليا، لابد أيضاً من أن نفصل هذه الأنا العليا عن الأشخاص الذين كانوا في الأصل هم الممثّلين النفسيين لها. والمنفعة التناسلية النرجسية، منفعة المحافظة على عضو الذكر، هي التي، على وجه الضبط، كانت قد غيّرت اتجاهها، في المجرى الفريد لهذا النمو، صوب تقليص الجنسية الطفلية.

وثمة مقدار معيّن من الاحتقار للمرأة بوصفها مخصيّة هو الذي يبقى أيضاً لدى الرجل من تأثير عقدة الخصاء. وينجم عن ذلك، في الحالات القصوى، ضرب من الكفّ في اختيار الموضوع وضرب من الجنسية المطلقة إذا رافق هذا الكفّ دعْم العوامل العضوية. ومفعولات عقدة الخصاء مختلفة كل الاختلاف لدى المرأة. فالمرأة تعترف بواقع خصائها وتعترف أيضاً، بالإضافة إلى الاعتراف الأول بتفوق الرجل وبدونيتها الخاصة، ولكنها تتمرّد أيضاً على هذه الظروف المزعجة. وهناك ثلاثة اتجاهات من النمو تنجم عن هذا الموقف المجزأ. فالأول يقود إلى الانصراف عن الجنسية بصورة عامة. والبنيّة التي أرعبتها المقارنة بالصبي غير راضية من بظرها. إنها تتخلّى عن فاعليتها القضيبية وتتخلّى مع هذه الفاعلية عن الجنسية بصورة عامة وعن جزء كبير من ذكورتها في مجالات أخرى. والاتجاه الثاني يقودها إلى ألا ترجع، بجرأة وقحة، عن ذكورتها المهدّدة. وأملها في أن تتلقّى، مرة أخرى أيضاً، عضو ذكر يستمرّ إلى فترة متأخرة بصورة لا تُصدّق، ويصبح هذا الأمل هدف حياتها ويظلّ استيهامها الذي مفاده أن تكون رجلاً على الرغم من كل شيء استيهاماً مكوّناً لفترات طويلة من حياتها. وهذه العقدة لدى المرأة، «عقدة الذكورة»، يمكنها أيضاً أن تنتهي إلى اختيار موضوع جنسي مثلي واضح. وليس ثمة سوى الاتجاه الثالث من النمو، الاتجاه المتعرّج جداً، الذي يفضي إلى موقف أنثوي، سويّ ونهائي، يختار الأب موضوعاً ويجد الشكل الأنثوي من عقدة أوديب على هذا النحو. فعقدة أوديب لدى المرأة هي، على هذا النحو، تلك النتيجة النهائية لأطول نمو. إنها عقدة لا تنحلّ بل، على العكس، تنشأ تحت تأثير الخصاء. فهي تفلت من التأثيرات المعادية القوية التي لها، لدى الرجل، مفعول تدميري، ويحدث على الأغلب أن المرأة لا تتجاوزها على الإطلاق. وهذا هو السبب الذي من أجله أيضاً كانت النتائج الثقافية لإلغائها هزيلة وقليلة الأهمية. ولا ينخدع المرء

على وجه الاحتمال حين يقول إن هذا الفارق في العلاقة المتبادلة بين عقدة أوديب وعقدة الخصاء يضفي على طبع الأنثى بصمته بصفتها موجوداً اجتماعياً[٢].

٤ ـ أضواء جديدة على جنسية المرأة

طور الرابطة الحصرية بالأم وقد يُسمّى الطور **قبل الأوديبي**، يقتضي على هذا النحو أن نوليه أهمية لدى المرأة أكبر بكثير من الأهمية التي تخصّه لدى الرجل. إن عدداً من الظاهرات في الحياة الجنسية لدى المرأة، ظاهرات لم تكن مفهومة على نحو جيّد فيما مضى، تجد شرحها التام بالرجوع إلى هذا الطور. ومثال ذلك أننا لاحظنا منذ زمن طويل أن كثيراً من النساء اللواتي اخترن أزواجهن وفق النموذج الأصلي الأبوي أو منحنهم مكان الأب، يكرّرن عليهم، في الزواج، علاقتهن السيئة بالأم. وكان ممكناً للزوج أن يرث من العلاقة بالأب وهو يرث في الواقع من العلاقة بالأم. ويفهم المرء بسهولة أن في ذلك حالة من الحالات القريبة من النكوص. فالعلاقة بالأم كانت العلاقة البدئية التي بُنيت عليها الرابطة بالأب، ولكن ما كان موجوداً في الأصل ينبعث الآن من الكبت. فترحيل الروابط الانفعالية بالموضوع الأم إلى الموضوع الأب يكوّن المحتوى الرئيس للنمو لدى المرأة تكويناً تاماً.

وإذا أحدث كثير من النساء لدينا الانطباع بأن نضجهن مترع بالخصومات مع أزواجهن، مثلما كان شبابهن مع أمهاتهن، فإننا نستنتج،

---

(٢) بوسع المرء أن يتوقّع أن الرجال الذين يناصرون المرأة وكذلك المحللات النفسيات لن يكونوا على وفاق مع هذا العرض. وما كادوا يتمالكون أنفسهم عن الاعتراض أن الأصل لمثل هذه النظريات هو «عقدة الذكورة» لدى الرجل وأن عليها أن تكون صالحة لتقديم تسويغ نظري للميل الفطري لدى الرجل إلى احتقار المرأة وقمعها. ولكن مثل هذه البرهنة التحليلية النفسية تذكّر في هذه الحالة، كما هو الأمر على الأغلب، بالسلاح الشهير ذي الحدّين لدى دستويفسكي. فسيجد معارضوها، من جهتهم، جلياً أن الجنس الأنثوي لا يريد أن يقبل ما يبدو أنه يناقض مساواة مع الرجل مشتهاة بحرارة. فاستخدام التحليل سلاحاً للمجادلة لا يمكنه أن يقود إلى قرار.

في ضوء الملاحظات السابقة، أن موقفهن العدائي من الأم ليس نتيجة المنافسة في عقدة أوديب، بل ناشىء على العكس من الطور السابق ولم يكن إلا موضع التعزيز والاستغلال في الوضع الأوديبي. واهتمامنا ينبغي له أن يتجّه صوب الآليات التي أثّرت في هذا التخلّي عن الموضوع الأم، وحده المحبوب وبهذا المقدار من القوة. ونحن نراهن أننا لا نجد عاملاً وحيداً، بل مجموعة كاملة من العوامل التي تؤثر معاً في اتجاه الهدف النهائي.

وتنفصل عن هذه العوامل بعض العوامل المشروطة على وجه الخصوص بظروف الجنسية الطفلية، فهي إذن صحيحة أيضاً للحياة الغرامية لدى الصبي. ولا بدّ، في المقام الأول، من ذكر الغيرة من أشخاص آخرين، أخوة وأخوات، منافسين، وثمة بينهم مكان للأب. والحب الطفلي لا يعرف الحدود. إنه يقتضي الاحتكار ولا يكتفي بالأجزاء. ولكن له سمة ثانية: إنه حب لا هدف له على وجه الدقة، عاجز عن تحقيق إشباع تام وهو لهذا السبب محكوم عليه بصورة أساسية أن ينتهي إلى خيبة أمل ويخلي المكان لموقف عدائي. وقد يشجّع غياب الإشباع النهائي، خلال الحياة فيما بعد، على مخرج آخر. وبوسع هذا العامل أن يؤمّن الاستمرار الهادىء للتوظيف الليبيدي، كما يحدث في العلاقات الغرامية المكفوفة فيما يخصّ هدفها، ولكن قد يحدث بصورة منتظمة، تحت تأثير اندفاعة النمو، أن يتخلّى الليبيدو عن الموقع غير المرْضي ليبحث عن موقع آخر.

وثمة باعث آخر أكثر نوعية بكثير يدفع إلى الانصراف عن الأم، ناجم عن تأثير عقدة الخصاء على الموجود المحروم من عضو الذكر. فالبنيّة تكتشف في أحد الأيام دونيتها العضوية؛ وهي تكتشف هذا الأمر بصورة طبيعية في زمن مبكّر على وجه التقريب إذا كان لها أخوة أو كانت قريبة من الصبيان. ونحن نعلم الآن ما الاتجاهات الثلاثة التي تبرز عندئذ: أ) توقّف كل حياة جنسية؛ ب) الإلحاح المتعجرف على ذكورتها؛ جـ) بدايات الأنوثة التي

ستكون نهائية. وليس من اليسير على المرء أن يحدّد الزمن الصحيح لهذه الاتجاهات ويضع أنماط تطورها. ففترة اكتشاف الخصاء فترة هي ذاتها متغيّرة إلى درجة محسوسة، والعوامل الأخرى تبدو غير مستقرة وتابعة للمصادفة. وينبغي لنا أن نأخذ بالحسبان شروط الفاعلية القضيبية الخاصة، وأن نأخذ بالحسبان أيضاً واقع كونها مكتشفة أم لا وعدد الموانع التي خبرتها الفتاة الصغيرة بعد هذا الاكتشاف.

٥ ـ ضغينة لازبة

البنيّة إنما تكتشف بصورة عفوية، في أغلب الأوقات، فاعليتها القضيبية، أي الاستمناء على مستوى البظر، الذي يتمّ دون استيهام في بادىء الأمر. ويشرح الاستيهام المتواتر جداً، الذي يجعل من الأم والمرضعة أو مربية الأطفال مغرية، ذلك التأثير الذي تمارسه العناية الجسمية على هذا التيقّظ. وتظلّ المسألة التي مفادها أن نعرف هل استمناء الفتاة أندر من استمناء الصبي، وأقل فاعلية منذ البدء، مسألة معلّقة: وقد يكون ذلك ممكناً. والإغراء الحقيقي هو أيضاً متواتر إلى حدّ كاف: إنه يصدر إما عن الأطفال الآخرين وإما عن أشخاص مهمتهم الاهتمام بالبنيّة، بتهدئتها ونومها، أو يريدون جعلها تابعة لهم. والإغراء يثير الاضطراب، حيث يؤثر في السير الطبيعي لسيرورات النمو؛ وله على الغالب نتائج ذات أهمية ودائمة.

ويصبح تحريم الاستمناء، كما رأينا، سبباً للتخلّي عنه ولكنه يصبح أيضاً باعثاً على التمرد على الأشخاص الذين حرّموه، سواء أكانت الأم أم بديلة الأم التي تنصهر بالأم على نحو منتظم بفعل الاستمرار. ويبدو أن الإصرار على الاستمناء يفتح الدرب للذكورة. ويتجلّى مفعول التحريم الذي يبدو دون أهمية، حتى حيث لم تتمكّن البنيّة من أن تفلح في قمع الاستمناء، في الجهود اللاحقة لتتحرّر من هذا الإشباع الذي كان الأبوان قد أفسدا عليها متعته، تحرراً لقاء أكبر التضحيات. يضاف إلى هذا أن اختيار

الموضوع لدى الصبيّة الناضجة قد يكون متأثراً بدوام هذا القصد. والضغينة الناشئة من منع الفاعلية الجنسية الحرة تؤدّي دوراً كبيراً في الانفصال عن الأم. والباعث نفسه يوضع موضع التطبيق مجدّداً، بعد البلوغ، عندما تعزو الأم إلى نفسها وجوب حماية العذرية لدى ابنتها. وعلينا ألا ننسى أن من الطبيعي أن تعارض الأم على النحو نفسه استمناء الصبي وتهيء له بذلك باعثاً قوياً على العصيان.

وعندما تعاني البنيّة تجربة قصورها الخاص، لدى رؤية العضو التناسلي المذكر، فإن معاناتها لا تحدث دون تردّد وتمرّد. وقد رأينا أنها تحتفظ احتفاظاً متيناً بالأمل في أن تتلقّى يوماً من الأيام مثل هذا العضو، والرغبة في ذلك تظلّ باقية بعد الأمل. وعلي أي الأحوال، تعتبر البنيّة هذا الخصاء، في البداية، حظاً سيئاً فردياً. ولا تمدّه على البنيّات الأخريات بصورة فردية إلا فيما بعد، وفي نهاية المطاف على راشدات أخريات بصورة فردية. وعندما تتكوّن لديها فكرة العمومية لهذه السمة السلبية، فإنها تحطّ من قيمة المرأة كثيراً ومن قيمة أمها.

٦ ـ أطفال ساخطون دائماً

من الممكن تماماً أن يترك الوصف، الذي قدّمته للتو عن النحو الذي تسلك عليه البنيّة إزاء الخصاء ومنع الاستمناء، انطباعاً مشوّشاً ومليئاً بالتناقضات لدى القارىء. وليس هذا الأمر ناشئاً من خطأ المؤلف تماماً. ويكاد لا يكون ممكناً في الحقيقة أن نقدّم عرضاً ذا مدى عام. فلدى مختلف الأفراد، نجد الارتكاسات الأكثر اختلافاً؛ وتتجاور لدى الفرد نفسه اتجاهات متناقضة. ومنذ أول تدخّل لمنع الاستمناء، يظهر النزاع الذي سيرافق نمو الوظيفة الجنسية منذئذ. ويصعب بالحري أن نفهم هذه الفكرة التي على المرء أن يكوّنها عن الجهود الكبيرة لتمييز السيرورات النفسية، في هذا الطور الأول، من السيرورات اللاحقة التي تحجبها وتشوّهها في الذاكرة. ، هكذا

فإن أمر الخصاء، على سبيل المثال، يُفهم فيما بعد أنه عقاب على فاعلية الاستمناء، وتنفيذه معزوّ إلى الأب، وهذان أمران ليسا بالتأكيد موجودين في الأصل. والصبي، هو أيضاً، يخشى أن يخصيه الأب، على الرغم من أن التهديد، بالنسبة له أيضاً، يصدر عن الأم في غالبية الأوقات. ومهما يكن ممكناً أن تكون النتيجة في نهاية هذا الطور الأول من العلاقة بالأم، فالباعث الأقوى على الابتعاد عن هذه الأم، الباعث الذي يبرز، هو أنها لم تمنح البنيّة عضواً تناسلياً حقيقياً، أي أنها جعلتها تولد امرأة. وليس دون دهشة إنما نحصل على لوم آخر يعود إلى زمن أبعد: الأم لم تمنح الطفل ما يكفي من الحليب، ولم تستمرّ في تغذيته بالحليب زمناً طويلاً كافياً. وقد يحدث ذلك على الأغلب في ظروفنا الثقافية، ولكنه بالتأكيد ليس بقدر ما يتأكد على الغالب في التحليل. ويبدو هذا الاتهام أنه بالحري تعبير عن السخط العام لدى الطفل الذي يُفطم بين الشهرين السادس والتاسع في الشروط الثقافية للزواج الأحادي، في حين أن الأم، لدى الشعوب البدائية، تنذر نفسها للطفل نحواً من سنتين إلى ثلاث سنوات. إنه اتهام يوجّهونه كما لو أنهم كانوا قد ظلوا دائماً غير مشبعين وكما لو أنهم لم يكونوا قد رضعوا ثدي الأم زمناً طويلاً كافياً. ولكنني لست متأكداً من أن بعض المحلّلين لن يصطدموا بالاعتراض نفسه إذا كانوا أطفالاً رضعوا من حليب أمهاتهم مدة زمنية بقدر مدة الأطفال البدائيين. فكم هي كبيرة شراهة الليبيدو الطفلي!

فلننظر الآن إلى كل مجموعة الدافعيات التي اكتشفها التحليل النفسي والتي تشرح أمر الانصراف عن الأم: سهت الأم عن تزويد البنيّة بالعضو التناسلي الصحيح الوحيد؛ لم ترضعها إرضاعاً كافياً؛ أرغمتها على أن تشارك الآخرين في حب الأم؛ إنها لم تستجب قط لجميع التوقّعات؛ وأخيراً، إنها أثارت الفاعلية الجنسية الخاصة للبنيّة أول الأمر ثم حرّمتها. وتبدو جميع هذه البواعث غير كافية لتسويغ العدواة النهائية. وبعض هذه البواعث نتائج محتومة لطبيعة الجنسية الطفلية، ويتميّز بعضها الآخر بأنها عقلنات لاحقة

بتغيّر العاطفة غير المفهوم. وربما تمضي الأمور بالحري على هذا النحو، بحيث ينبغي للتعلّق بالأم أن يضمحلّ لأن التعلّق الأول قوي جداً، شبيه بعض الشبه بما نلاحظه لدى المرأة الصبية خلال زواجها الأول الذي يحدث وهي في أوج حبها. وثمة، في الحالتين، خيبات أمل محتومة وقد يؤدي تكديس بواعث العدوان إلى إخفاق الموقف الغرامي. والقاعدة أن الزواج الثاني أفضل من الأول.

٧ ـ ثنائية المشاعر موجودة في جذور الحياة الغرامية

لا يسعنا أن نمضي إلى حد التأكيد أن ثنائية المشاعر في التوظيفات الانفعالية هي قاعدة سيكولوجية ذات مدىً عام، وأن من المتعذّر على وجه الخصوص أن نحسّ بحب كبير لشخص من الأشخاص دون أن ينضاف إليه كره ربما كان كبيراً بالقدر نفسه أو «العكس بالعكس». ويفلح الانسان السوي الراشد، دون شك، في التمييز بين الموقفين، وفي ألا يكره موضوع حبه وألا يكون ملزماً بحب عدوه أيضاً. ولكن ذلك يبدو ناجماً عن تطورات لاحقة. ففي الأطوار الأولى من الحياة الغرامية، تبدو الثنائية أنها القاعدة. وتظلّ هذه السمة العتيقة كل الحياة لدى كثير من الناس. والسمة المميزة لدى أولئك الذين يصابون بالعصاب الواسوسي هي أن الحب والكره يتوازنان في علاقاتهم بالموضوع. وبوسعنا أن نؤكد غلبة الثنائية في المشاعر لدى البدائيين أيضاً. والرابطة القوية، رابطة البنيّة بأمها، ينبغي لها أن تكون على هذا النحو ثنائية المشاعر بصورة قوية، ولا بدّ للبنيّة من أن تكون مرغمة، بمقتضى هذه الثنائية على وجه الضبط وبمساعدة عوامل أخرى، على أن تنصرف عن أمها. وتلك هيَ مجدّداً نتيجة سمةٍ عامة من سمات الجنسية في الطفولة.

وسرعان ما يُثار سؤال يعارض هذه المحاولة من الشرح: ولكنْ كيف يكون بوسع الصبيان الصغار أن يحتفظوا برابطتهم بالأم دون أن يرفضوها، وهي رابطة ليست أقل قوة بالتأكيد؟ ونحن جاهزون للإجابة بسرعة توازي

السرعة في طرح السؤال: لأن بوسعهم تصفية ثنائية المشاعر كلها إزاء أمهم، إذ يضعون على الأب كل عواطف العدواة لديهم. ولكن علينا، أولاً، ألا نقدّم هذه الإجابة قبل أن ندرس الطور قبل الأوديبي لدى الصبي دراسة عميقة، ومن المحتمل، ثانياً، أن الفطنة تقتضي الاعتراف بأننا لا ننفذ جيداً إلى هذه السيرورات التي اطلعنا عليها.

٨ ـ التمرّد على التبعية

لدينا سؤال آخر: ماذا تتطلّب البنيّة من أمها؟ ومن أي طبيعة أهدافها الجنسية خلال مرحلة الرابطة الحصرية بالأم؟ الجواب الذي نقتبسه من المادة التحليلية يستجيب استجابة تامة لما نتوقّعه. فالأهداف الجنسية لدى البنت إزاء أمها ذات طبيعة فاعلة وسلبية. إن الطور الليبيدي الذي يجتاره الطفل يحدّد هذه الأهداف. وعلاقة الفاعلية بالسلبية علاقة جديرة هنا بأن نُعنى بها عناية خاصة. ومن اليسير أن يلاحظ المرء أن انطباعاً يعانيه الطفل بصورة سلبية يولّد الميل لديه إلى ارتكاس فعّال، في جميع مجالات الحياة الذهنية لا في المجال الجنسي فقط. ويبحث عن أن يفعل هو نفسه ما كان الآخرون يفعلون به سابقاً أو ما فعلوه برفقته. وذلك جزء من عمل السيادة على العالم الخارجي، عمل مفروض عليه ويمكنه هو ذاته أن يقود الطفل إلى بذل الجهد ليكرّر انطباعات يميل بطبيعته إلى تجنّبها بسبب محتواها المنفّر. ويستخدم لعب الطفولة هذا القصد في أن يكمل تجربة سلبية بسلوك فعّال وفي أن يلغي هذه التجربة إذا صحّ القول. فمنذ أن يفتح الطبيب فم الطفل المتمرّد ليرى بلعومه، سيمثّل الطفل دور الطبيب ويكرّر هذا الاختبار، اختبار القوة، على أخت أو أخ أصغر منه وكلاهما عاجزان عن الدفاع تجاهه كما كان الأمر بالنسبة له مع الطبيب. وليس بوسع المرء أن ينسى أن ثمة هنا ضرباً من التمرّد على السلبية وإيثار الدور الفاعل. وهذا الانقلاب، انقلاب السلبية إلى فاعلية، لا يحدث بصورة منتظمة ونشيطة لدى كل الأطفال بالقدر نفسه.

ومن الممكن أيضاً أن يغيب هذا الانقلاب لدى بعض الأطفال منهم. وبوسعنا أن نستمدّ من هذا السلوك، سلوك الطفل، نتائج حول القوة النسبية للذكورة والأنوثة، التي ستتجلّى لديه في جنسيته.

وتجارب الطفل الجنسية الأولى مع أمه، أو ذات التلوين الجنسي، هي بالتأكيد تجارب من طبيعة سلبية. إنها ترضعه وتغذّيه وتلبسه ثيابه وتوجّهه في كل أفعاله. وهناك جزء كبير من ليبيدو الطفل يظلّ مثبّتاً على هذه التجارب ويستمتع بضروب من الإشباع مرتبطة بها، وجزء آخر يبحث عن تحويل هذه التجارب إلى فاعلية. فإرضاعه من ثدي الأم يحلّ محله مصّ فاعل لثدي الأم. ويكتفي الطفل، في المجالات الأخرى، إما بالاستقلال، أي أن ينجز وحده ما كان الآخرون يفعلونه معه حتى ذلك الحين، وإما أن يكرّر تكراراً فاعلاً في ألعابه تجاربه السلبية أو يجعل حقاً من أمه موضوعاً يسلك تجاهه سلوك الفرد الفاعل. وهذا السلوك الأخير، الذي يحدث في مجال الفاعلية بمعناها الدقيق، بدا لي أمراً لا يُصدّق خلال زمن طويل، إلى أن بدّدت التجربة هذا الشك.

ومن النادر أن نسمع بعضهم يقول إن البنيّة تريد أن تغسل أمها، وتلبسها ثيابها وتعلّمها النظافة. وقد يحدث لها بالتأكيد أن تقول: «لنلعب الآن لعبة الأم، إنني أنا الأم وأنت الطفل»، ولكنها تحقّق رغباتها الفاعلة، في معظم الأوقات، تحقيقاً غير مباشر، إذ تلعب مع لعبتها، وتمثّل هي ذاتها الأم ولعبتها الطفل. وكون البنات يؤثرن، على خلاف الصبيان، أن يلعبن مع لعبتهن، أمر يُعتبر عادةً علامة أنوثة متيقّظة في زمن مبكّر. وليس ثمة خطأ في حسبان ذلك، ولكن علينا ألا ننسى أن الجانب الفاعل من الأنوثة هو الذي يعبّر عن نفسه في الخارج على هذا النحو وأن هذا الإيثار لدى البنت يشهد بوجه الاحتمال على حصرية الرابطة بالأم مع إهمال كامل للموضوع الأب.

٩ ـ الحصر والرعب: تحوّلات اللذة

الفاعلية الجنسية المذهلة جداً لدى البنت، ذات العلاقة بالأم، تتجلى من الناحية الزمنية بميول فمية وشرجية بل وقضيبية أخيراً، موجّهة صوب الأم. ومن العسير شرحها على نحو مفصّل لأن المسألة على الغالب تحرّكات دافعية مظلمة. ولم يتمكن الطفل من أن يدرك هذه التحركات إدراكاً نفسياً حينما حدثت ولم يكن ممكناً أن تكون موضوع تفسير إلا بعد حدوثها. فتبدو على هذا النحو، في التحليل، على صورة تعبير لم يكن بالتأكيد خاصاً بها في البدء. ونحن نصادفها في بعض الأحيان على صورة تحويل على الموضوع الأب اللاحق حيث لا يوجد لها مكان وحيث تثير الاضطراب في الفهم إثارة محسوسة. ونصادف الرغبات الفمية العدوانية والرغبات السادية بالصورة التي أرغمها أن تكون عليها كبتُ البداية، كحصر أن تقتله الأم، حصر يسوّغ، من جهة الطفل، تلك الرغبة في موت الأم لو أن هذه الرغبة أصبحت شعورية. ومن المتعذّر أن نقول بأي تواتر يستند هذا الحصر إزاء الأم إلى عدوانية تصدر عنها، وهي عدوانية يتنبّأ بها الطفل. (إنني لم أصادف حتى الآن سوى الحصر من الافتراس لدى بعض الرجال؛ إنه حصر يرتبط بالأب ولكنه ناجم على وجه الاحتمال عن تحوّل العدوان الفمي الموجّه إلى الأم. والطفل يرغب في افتراس الأم التي منها يتغذّى؛ والأب لا يمكنه أن يكون الباعث لمثل هذه الرغبة).

وقول النساء اللواتي يرتبطن ارتباط قوياً بالأم، واللواتي استطعت أن أدرس لديهن الطور قبل الأوديبي، متّفق على أنهن قاومن الاستحمام والحقنات الشرجية التي كانت أمهاتهن يباشرنها عليهن وكانت هؤلاء النساء قد اعتدن على أن يستجبن لها بالحصر وصراخ من الرعب. وقد يكون ذلك سلوكاً متواتراً جداً أو منتظماً جداً لدى الأطفال. وأدين إلى روث ماك برانشفيك، التي عُنيت بهذا المشكل في الوقت الذي عنيت به أنا، بأنها

فهمت أساس هذا التمرّد القوي على نحو خاص: كانت روث ماك برانشفيك تقارن هذه الصرخة من الرعب بعد الحقنة الشرجية بالنشوة الجنسية التي يحصل عليها المرء بفعل إثارة تناسلية. أما الحصر، فإنه ينبغي أن يُفهم بأنه تحوّل لذة العدوان التي تثيرها هذه الحقنات. وأعتقد أن ذلك كله يطابق الواقع: فالتنبيه الحاد السلبي للمنطقة المعوية، خلال المرحلة السادية الفمية، يثير، ارتكاساً له، ضرباً من انفجار لذة العدوان، الذي يتجلّى بصورة مباشرة غضباً، أو حصراً في أعقاب قمعه. ويبدو أن هذا الارتكاس يتوقّف في السنين اللاحقة.

وتبيّن الإثارات السلبية في الطور القضيبي جيداً أن الفتاة تتّهم أمها بالإغراء اتهاماً منتظماً لأنها (أي الفتاة) أحسّت بإحساساتها التناسلية الأولى أو الأقوى أيضاً خلال الفترة التي تصنع لها الأم زينتها فيها أو تباشر العناية الجسمية بها (الأم أو الشخص المكلّف بالأطفال الذي يمثّلها). وقالت لي الأمهات على الغالب أنهن لاحظن أن بناتهن الصغيرات من سن السنتين إلى الثلاث سنوات كن يحببن جيداً هذه الإحساسات ويطلبن من أمهاتن أن يكررن الملامسات والفرك. وإذا بدا الأب بصورة منتظمة، في استيهامات السنوات اللاحقة، على أنه المغري الجنسي، فإن مسؤولية ذلك، في رأيي، تقع على الأم التي ليس بوسعها أن تتجنّب تدشين الطور القضيبي لدى الطفل. ومع واقع الانصراف عن الأم، يكون الدخول في الحياة الجنسية أيضاً مسجّلاً في حساب الأب.

١٠ - درب الأنوثة

في الطور القضيبي أخيراً، تتحقّق تحرّكات شديدة فاعلة للرغبة، معادية للأم. فالفاعلية الجنسية خلال هذه الفترة تبلغ أوجها في الاستمناء البظري. وثمة في ذلك امتثال للأم على وجه الاحتمال، ولكن تجربتي لا تتيح لي أن أعلم إن كان ذلك يقود الطفل إلى امتثال هدف جنسي وما هو

هذا الهدف. وليس بوسع المرء أن يتعرّف بوضوح على هذا الهدف ولا عندما يمنح الإعلان عن أخ صغير أو أخت صغيرة اندفاعاً جديداً لكل اهتمامات الطفل. وتريد البنيّة، شأنها شأن الصبي الصغير، أن تكون هي التي صنعت هذا الطفل الجديد لأمها وارتكاسها إزاء هذا الحادث وسلوكها إزاء الطفل يماثلان ارتكاس الصبي وسلوكه. ويبدو هذا الأمر مخالفاً للصواب إلى حدّ كاف، ولكن السبب قد يكون ببساطة أنه أمر غير مألوف بقدر كبير.

وأمر انصراف البنيّة عن أمها خطوة ذات دلالة كبيرة في درب النمو لدى البنت، إنه أكثر من مجرد تغيّر في الموضوع. وقد وصفنا آنفاً أصل هذا الأمر وتكاثر دافعياته المفترضة، ونحن نضيف إلى ذلك الآن أنه لا بدّ لنا، حين نقاربه، من أن نلاحظ انخفاضاً قوياً في التحركات الجنسية الفاعلة وزيادة التحركات الجنسية السلبية. ومن المؤكد أن الإحباط كان قد أصاب الميول الفاعلة إصابة أشدّ، وبانت أنها متعذّرة التحقيق بصورة كلية وسيهملها الليبيدو على نحو أكثر سهولة، ولكن خيبات الأمل لا تنقص الميول السلبية أيضاً. ويتوقّف الاستمناء البظري على الغالب في الوقت الذي تنصرف خلاله البنيّة عن الأم. ومع كبت الذكورة التي نمت حتى هذه الفترة لدى البنيّة، يصاب بالضرر على الأغلب جزء كبير من ميولها الجنسية بصورة عامة إصابة دائمة. ويتمّ الانتقال إلى الموضوع الأب بمساعدة الميول السلبية من حيث أن هذه الميول أفلتت من الكارثة. ودرب نمو الأنوثة درب سالك الآن بالنسبة للبنت من حيث أنه لا تعوقه البواقي من الرابطة بالأم، الرابطة قبل الأوديبية التي كانت الفتاة قد تجاوزتها.

والآن إذا تصفحنا الجزء من النمو الجنسي الأنثوي الذي كنا قد وصفناه هنا، فليس بوسعنا الامتناع عن إطلاق حكم معيّن على الأنوثة برمتها. وقد وجدنا فيه عاملةً تلك القوى الليبيدية العاملة لدى الطفل من الجنس المذكر،



رؤية الأعضاء التناسلية الأنثوية تثير حصر الخصاء لدى الصبي

واستطعنا أن نقتنع بأن البنيّة والصبي دلفا، خلال زمن معيّن، في الدروب نفسها ويصلان إلى النتائج نفسها.

وثمة على هذا النحو عوامل بيولوجية تبتعد عن الهدف الذي كانت تنشده في البداية، وتضع ميولاً فاعلة ومذكّرة في جميع دلالاتها على درب الأنوثة. وبما أنه ليس بوسعنا أن نرفض عزو الإثارة الجنسية إلى تأثير بعض المواد الكيميائية، فنحن ميّالون إلى أن نتوقّع أن تقدّم لنا الكيمياء الحيوية في يوم من الأيام مادة يولّد وجودها الإثارة الجنسية المذكّرة ومادة أخرى تفعل الشيء نفسه بالنسبة للإثارة الجنسية الأنثوية. ولكن هذا الأمل لا يبدو لنا أقل سذاجة من الأمل - أمل تجاوزناه في أيامنا هذه لحسن الحظ - في أن نكتشف بالمكبّر تلك العوامل المنفصلة التي تسبّب الهستيريا والعصاب الوسواسي والسوداوية، إلخ.

ولا بدّ، في الكيمياء الجنسية أيضاً، من أن يحدث شيء أكثر تعقيداً. ولكن علم النفس لا يبالي إن كان ثمة، في الجسم، مادة واحدة للإثارة الجنسية أو مادتان أو مواد كبيرة العدد. ويعلّمنا التحليل النفسي أن نرتضي وجود ليبيدو واحد له مع ذلك أهداف - أي أنماط من الإشباع - فاعلة وسلبية. وفي هذا التناقض وفي، قبل كل شيء، وجود ميول ليبيدية لها أهداف سلبية، إنما يكمن الباقي من المشكل.

سيغموند فرويد

الفصل الثالث عشر
توضيح للخصومة

جعل أرنست جونز ميلاني كلاين تأتي إلى انغلترا، إذ جذبته أصالة تصوراتها وجونز صديق سيد فيينا وزميله الأمين، وسيكون كاتب سيرته الذاتية الرئيس فيما بعد، ولهذا السبب أيضاً تصيب الدهشة كل فرد حين ينحاز جونز إلى مدرسة التحليل النفسي الانغليزية في المنازلة الدائرة حول الجنسية الأنثوية.

يوجّه جونز اتهاماً حديثاً للمحلّلين النفسيين في فيينا. إنه يلومهم في الواقع على نزعتهم القضيبية، إذ ينتقص المحلّلون النفسيون والرجال، في رأيه، من دور الأعضاء الجنسية الأنثوية. أما زملاؤهم النساء، فإنهن يبرهنّ في كتاباتهن وممارستهن على أنهن يؤثرن عضو الذكر إيثاراً علنياً. ألم يبق لديهم، في هذه الشروط، شيء لم يستطع تحليلهم الخاص أن يحلّه؟

وسيصبح النزاع على وجه السرعة من الحدّة بحيث أن انفصالاً سيفوته أن يحدث في قلب حركة التحليل النفسي.

ويؤكد جونز أفكاره مجدّداً مع ذلك: يمثّل الطور القضيبي بالنسبة للجنسين تسوية عصابية ضد الرغبات الأوديبية الآثمة.

النص : إرنست جونز

إذا درسنا عن كثب تلك المساهمات العديدة وذات الأهمية التي قدّمتها المحلّلات النفسيات على وجه الخصوص، خلال السنين العشر الأخيرة، للمشكلات الغامضة الخاصة بأولى تطورات الجنسية الأنثوية، فليس ممكناً أن يفوتنا أن ندرك خلافاً لدى مختلف المؤلفين، خلافاً يبدأ بالظهور في مجال الجنسية المذكرة أيضاً. وإذ امتثل معظم المؤلفين لرغبة خليقة بالثناء جداً، فقد بذلوا جهدهم للتركيز على نقاط الوفاق مع زملائهم، بحيث أن الخلافات في الرأي لايعبّرون عنها دائماً تعبيراً تاماً. وفي نيتي أن أتناول المشكل بصراحة، آملاً أن أجعله واضحاً. وإذا وُجد ضرب من الالتباس، فإنه سيكون مفيداً أن نبدّده، وإذا بدا خلاف في الرأي، فإن أمر تحديده سيتيح لنا أن نطرح أسئلة ذات فائدة، ستكون نقطة انطلاق لبحوث لاحقة[1].

واخترت لهذه الغاية أن أعالج موضوع المرحلة القضيبية. إنه موضوع محدّد إلى درجة كافية، ولكننا سنرى أنه يتشعّب ليولّد معظم المشكلات الأكثر عمقاً التي تظلّ دون حلّ. وكنت، في المقال الذي قدّمته إلى مؤتمر إنسبرك عام ١٩٢٧، قد اقترحت فرضية مفادها أن المرحلة القضيبية من نمو الجنسية الأنثوية تمثّل حلاً ثانوياً لنزاع نفسي، حلّ دفاع، أكثر مما تمثّل تطوراً بسيطاً ومباشراً. وكانت لديّ شكوك، في هذه الفترة السابقة، حول وجود مرحلة قضيبية لدى الإنسان، ولكن بما أن مقالي كان معنياً بالجنسية الأنثوية، فإنني لم أعبّر فيه عن هذه الشكوك. وصرّح الأستاذ فرويد[2] أن الدفاع عن

---

(١) كان جزء من المقال قد قُرىء في المؤتمر الثاني عشر الدولي للتحليل النفسي في ويسبادن، ٤ أيلول ١٩٣٢. وصار المقال بمجموعه موضوع عرض في الرابطة البريطانية للتحليل النفسي، ١٩ تشرين الأول و٢ تشرين الثاني ١٩٣٢. وكان قد نُشر في الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي، المجلد ١٤. ١٩٣٣.

(٢) انظر الفصل السابق.

هذه الفرضية لم يكن ممكناً. ومن جهة أخرى، أبلغت الدكتورة هورنه(٣) حديثاً عن ريبتها فيما يخص صحة المفهوم الخاص بالمرحلة القضيبية لدى الإنسان.

١- فئة مشوّهة

سأذكر أول الأمر أن الخاصة الأساسية المشتركة بين الجنسين، في الوصف الذي عرضه فرويد للمرحلة القضيبية، هي الاعتقاد بأنه لايوجد لدى الناس سوى ضرب واحد من العضو التناسلي: عضو الذكر. وفي رأي فرويد أن سبب هذا الاعتقاد ناجم ببساطة عن أن العضو الأنثوي لمّا يكن قد اكتشفه، في هذا العمر، أيٌّ من الجنسين. وتنقسم الموجودات الإنسانية إذن لاوفق كونها ذات عضو مذكر وعضو مؤنث، بل وفق كونها ذات عضو ذكر أم لا. فثمة فئة تملك عضو ذكر وأخرى محرومة منه: الفئة المخصيّة. ويبدأ الصبي بالاعتقاد أن الناس كلهم ينتمون إلى الفئة الأولى وهو لايتوصّل إلى أن يخطر بباله وجود الفئة الثانية إلا عندما تستيقظ ضروب حصره. وتفكر الفتاة على النحو نفسه، ولكن علينا هنا أن نستخدم التعبير المقابل، تعبير «الفئة التي تملك بظراً». ولن يكون لديها تصوّر لفئة مشوّهة، فئتها، إلا بعد أن تقارن عضوها بعضو الصبي. ولدى الجنسين ميل إلى رفض الاعتقاد بهذه الفئة الثانية، وكلا الجنسين للسبب نفسه، لأنهم جميعهم لايريدون تصديق الواقع المفترض للخصاء. وهذا الوصف الذي قدّمه فرويد تعرفونه جميعكم، والوقائع التي يمكننا ملاحظتها بسهولة والتي يستند إليها الوصف ما انفكّت تتأكد. ولكن تفسير الوقائع يكوّن مشكلاً آخر ليس سهلاً بهذا القدر.

وسألفت الآن انتباهكم إلى ملاحظة يحتويها عرض فرويد احتواءً

(٣) كارن هورنه، رعب المرأة، مقال في الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي، ١٩٣٢ المجلد ١٣، ص ٣٥٣.

ضمنياً، ولكن من الضروري أن نتوقّف عندها بهدف وضوح أكبر. فثمة طوران في المرحلة القضيبية. وأنا أعلم أن فرويد يستخدم التعبير نفسه، «المرحلة القضيبية»، للطورين، وهذا هو السبب الذي من أجله لم يميِّز بينهما. وأولهما، الذي نسميه الطور **القضيبي الأول**، كائن في مرحلة البراءة أو الجهل، في الشعور على الأقل. ولن يكون ثمة مشكل حول هذا الموضوع، بالنظر إلى أن الطفل يعتبر بثقة أن الباقي من الناس مصنوع على صورته وله عضو مذكّر مناسب، عضو ذكر أو بظر بحسب الحالة. وفي الطور الثاني، أو **الطور القضيبي الثاني**، يستيقظ الظن بأن العالم ينقسم إلى فئتين، لافئة مذكرة وفئة مؤنثة بالمعنى الدقيق للعبارة. بل هناك الفئة التي لها عضو ذكر وتلك الفئة المخصيّة (على الرغم من أن هذين التصنيفين يتداخلان في الواقع تداخلاً وثيقاً جداً). ويبدو الطور القضيبي الثاني عصابياً أكثر من الطور الأول، في سياقه الخاص على الأقل، ذلك أن أموراً كثيرة ترافقه: الحصر، والنزاع، والصراع ضد قبول ما يحسّ به الطفل أنه الواقع، أي الخصاء. ويرافقه أيضاً، لدى الصبي، نغمة من التعويض المغالي عن القيمة النرجسية لعضو الذكر، في حين أننا نجد لدى البنت مزيجاً من الأمل واليأس.

ومن الواضح أن الفارق بين هذين الطورين تفرضه فكرة الخصاء التي تستقرّ لدى الجنسين، في رأى فرويد، عقب ملاحظة الفوارق التشريحية الجنسية. ويدعم فرويد[٤]، كما نعلم، فكرة مفادها أن لخوف الطفل أو للفكرة التي مفادها أنه مخصيّ نتائج تضعف الدوافع المذكّرة لدى الجنسين. ويعتقد فرويد أن هذا الأمر يبعد الصبي عن أمه، ويعزّز الاتجاه القضيبي والجنسي المثلي: ويتخلّى الصبي عن جزء من جنسيته المحارمية المتوجّهة للجنس الآخر، في سبيل حماية عضو الذكر لديه. ويفضي هذا

---

(٤) فرويد، بعض النتائج السيكولوجية المترتبة على التمييز التشريحي بين الجنسين، مقال في صحيفة علم النفس التحليلي الدولية، ١٩٢٧، المجلد ٨، ص١٣٣-١٤١.

الأمر نفسه لدى البنت، على العكس، إلى نتيجة عكسية، أسعد حظاً، تجعلها تتبنّى اتجاهاً أنثوياً وذا جنسية متجهة صوب الجنس الآخر. وهذا هو السبب الذي من أجله تضعف عقدة الخصاء، وفق هذه النظرية، علاقة الصبي الأوديبية وتعزّز العلاقة الأوديبية لدى البنت. إن عقدة الخصاء تقود الصبي في الطور القضيبي الثاني، في حين أنها تبعد البنت عن هذا الطور بعد تمرّد مؤقت على هذا المستوى.

٢- المقارنة مع الرجال الآخرين

سأبدأ بتطور الصبي، المفهوم على نحو أفضل بصورة عامة، وربما الأكثر بساطة. ونحن جميعنا نعرف الخاصة النرجسية للمرحلة القضيبية التي يقول عنها فرويد إنها تبلغ ذروتها نحو السنة الرابعة من العمر، على الرغم من أنها تتجلّى بالتأكيد قبل هذه الزمن بكثير(٥). وأريد على وجه الخصوص أن أتكلم على الطور القضيبي الثاني. وثمة سمتان بارزتان تميّزه من المراحل السابقة:

١- إنه أقل سادية؛ ويبقى من هذا الاتجاه على وجه الخصوص ميل إلى استيهامات القوة الكلية.

٢- إنه أكثر تمحوراً حول الذات، إذ أن الصفة الرئيسة الباقية من الغلمة المتجهة صوب الغير هي مظهرها الاستعراضي. فهو طور أقل عدوانية إذن، وأقل ارتباطاً بالأشخاص الآخرين وبالنساء على وجه الخصوص. من أين تأتي طبيعة هذا التغيّر؟ يبدو أنه يستقرّ في اتجاه الاستيهام وأنه يحدث ابتعاد عن النمط الواقعي للاتصال بالناس الآخرين. وإذا كان الأمر على هذا

---

(٥) بعد قراءة هذه المقال في الجمعية البريطانية للتحليل النفسي، شاركت ثلاث محلّلات نفسيات (ميلاني كلين، وميليتا شميدبرغ، ونيناسير) بتجاربهن التي مفادها أن من الممكن إيجاد آثار من الطور القضيبي الثاني قبل نهاية السنة الأولى.

النحو، فإن ذلك يسوّغ الظن بأن ثمة عنصر تسريب وأن المسألة ليست فقط مسألة تطور طبيعي نحو واقع أكبر وتكيّف أكثر نماء.

وثمة ظرف خاص يعزّز هذا الشك على نحو واضح، ظرف تستمر خلاله المرحلة القضيبية في حياة الرشد. وإذا استخدمنا مكبّر التحليل النفسي لدراسة مشكل عسير، فإن بوسعنا أن نستعمل تضخيم العصاب والانحراف، التضخيم المعروف جيداً. ويمنحنا توضيح العوامل المحدّدة، في هذين المجالين، معالم لفحص الأشخاص المزعوم أنهم أسوياء. ويتذكر المرء أن هذا هو المدخل الذي دلف فيه فرويد ليصل إلى تحديد الجنسية الطفلية السوية على نحو عام. وينجم عن ذلك أن من السهل جداً، فيما يخصّ هذه الحالات الراشدة، أن نحدّد وجود عوامل ثانوية تتدخّل في الحياة الجنسية، ومن هذه العوامل الخوف والإثمية على وجه الخصوص. وأفكر على نحو خاص بهذا النموذج من الرجال، المصاب على الغالب بوسواس المرض (توهّم المرض)، الذي يطرح على نفسه مشكلات ذات علاقة بحجم عضو الذكر لديه وبنوعيته (أو ببدائله الرمزية)، ولا يبدي إلا دوافع ضعيفة إزاء النساء، ولاسيما دافعاً ضعيفاً على نحو خاص، أو غير موجود، بالنسبة لما يتعلّق بالولوج. فالنرجسية، والاستعراضية (أو بالحري رزانة غير مسوّغة)، والاستمناء، ودرجة متغيّرة من الجنسية المثلية، هي الخصائص الرائجة المرتبطة بهذا النموذج. وفي التحليل، يبين بسهولة أن جميع هذه الضروب من الكفّ هي كبت أو دفاع، يقتضيهما حصر عميق سأدرسه الآن.

أما وقد شحذت هذه التجارب رؤيتنا الطبيعية الثانوية للنزعة القضيبية النرجسية، فإن بوسعنا الآن أن نبحث عن الاتجاهات المماثلة لدى الصبي (إني أرجع مجدّداً إلى الطور القضيبي الثاني وإلى أمثلة بارزة)، وأؤكد أننا نجد ما يكفي من البراهين لنَصل إلى نتيجة مشابهة. ونقول، لكي نبدأ، إن الوصف مماثل بصورة أساسية. فلدينا التركيز النرجسي على عضو الذكر،

يرافقه شكوك وضروب من الريب فيما يخصّ حجمه وقيمته. وقد درست ميلاني كلاين[٦] دراسة مطوّلة، تحت عنوان «التعزيز الثانوي للزهو القضيبي»، تلك الأهمية التي يمثّلها عضو الذكر بالنسبة للصبي فيما يخصّ السيادة على ضروب الحصر العميقة ذات المصادر المختلفة، وتؤكد أن المبالغة النرجسية في النزعة القضيبية (أي المرحلة القضيبية، على الرغم من أن ميلاني كلاين لاتستخدم هذا المصطلح) ناجمة عن الحاجة إلى مواجهة كميات كبيرة بصورة خاصة من ضروب الحصر.

ومن الجدير بالملاحظة، في هذه المرحلة، أن الفضول الجنسي لدى الصبي، فضول لفت فرويد[٧] إليه الانتباه بصورة خاصة في مقاله الأول حول هذا الموضوع، لايتجسّد في اهتمام موجّه إلى النساء، بل في مقارنات بين نفسه وبين رجال آخرين. وهذا أمر ذو علاقة بالغياب المدهش للدافع إلى الولوج، دافع يفضي بصورة منطقية ،إلى الفضول وإلى البحث عن متمّمه. ولفتت كارن هورنه[٨] الانتباه بحق إلى الخاصّة التي يكوّنها هذا الكفّ، كف الولوج. وبالنظر إلى أن دافع الولوج ،هو الخاصة الرئيسة، ولاشك، خاصة العمل الوظائفي لعضو الذكر، فمن الغريب بالتأكيد أن تغيب على وجه الضبط خاصته الأكثر بروزاً، حيث تكون فكرة عضو الذكر هي التي تسود الوضع. ولاأعتقد لحظة واحدة أن ذلك سببه أن هذه الخاصة لمّا تنم، وهو تأخر ناجم عن جهل بالمقابل، أي بالعضو الأنثوي. فثمة على العكس، في المراحل الأكثربدائية، كما بيّن المحلّلون النفسيون للأطفال، مايكفي من البراهين، في استيهامات الرضيع (الصبي) وألعابه وفاعلياته، على دوافع سادية إلى الولوج. وإنني على وفاق تام مع النتيجة التي توصّلت

---

(٦) ميلاني كلاين التحليل النفسي للأطفال، الترجمة الفرنسية، المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٥٩، ص٢٦٢.

(٧) ، فرويد، خصائص الطفولة، ص٢٤٦.

(٨) كارن هورنه، رعب المرأة، ص ٣٥٣-٣٥٤.

إليهال كارن هورنه[٩] ومفادها أن «العضو الأنثوي الذي لايُكتشف عضو معدوم». وليس بوسعي الامتناع عن مقارنة هذا الجهل المفترض للعضو الأنثوي بالأسطورة الإتنولوجية التي نصادفها غالباً ومفادها أن المتوحشين يجهلون العلاقة بين الجماع والإخصاب. ويعرف الأفراد في الحالين، ولكنهم لايعلمون أنهم يعلمون. فالمعرفة، بعبارة أخرى، موجودة، ولكنها **معرفة لاشعورية** وتتجلّى بتنوّع من الرموز لانهاية له. والجهل الشعوري شبيه بـ «الطهارة» لدى بعض الصبايا، طهارة مستمرة حتى عصرنا المستنير. إنها بكل بساطة معرفة لم تلق القبول وتظلّ بالتالي لاشعورية.

٣- الخوف من أن يكون الشريك التعس

يقود التحليل الواقعي لذكريات المرحلة القضيبية، في سن الرشد، إلى نتائج تتوافق مع الوضع الذي نلاحظه عندما تستمرّ هذه المرحلة حتى سن الرشد (كما ذكرنا ذلك أعلاه) وتتوافق أيضاً مع النتائج التي نحصل عليها انطلاقاً من تحليل الأطفال[١٠] خلال المرحلة القضيبية. ويظهر، كما أوضح فرويد أول من أوضح، أن التركيز النرجسي على عضو الذكر يرافقه الخوف من عضو الأنثى، وثمة على وجه العموم أيضاً وفاق في الرأي على أن الحالة الأولى سابقة على الحالة الثانية أو سابقة على الخوف من الخصاء. يضاف إلى هذا أنه لا يصعب أن نرى أن هذين الخوفين، الخوف من عضو الأنثى والخوف من الخصاء، يرتبطان الواحد بالآخر ارتباطاً وثيقاً، وأن أي حلّ للمشكلات التي نطرحها لا يمكنه أن يكون مرْضياً إلا إذا ألقينا ضوءاً على الاثنين.

ولا يستخدم فرويد ذاته كلمة «حصر» ليتكلّم على عضو الأنثى، بل يتكلم على «الرعب» الذي يوحيه. وكلمة «رعب» كلمة وصفية، ولكنها

---

(٩) كارن هورنه، رعب المرأة، مصدر مذكور سابقاً، ص ٣٥٨.

(١٠) انظر على وجه الخصوص ميلاني كلاين، التحليل النفسي للأطفال.

تنطوي على خوف من الخصاء أقدم، يقتضي بدوره شرحاً. وتتيح بعض الفقرات التي كتبها فرويد أن نفهم أن هذا الرعب من العضو الأنثوي ليس سوى رهاب بسيط لحماية الصبي من الموجودات المخصيّة، كما يمكنه أن يحمي هذه الموجودات من رؤية وحيد ساق. وإنني على يقين مع ذلك أن فرويد يسلّم بعلاقة أكثر نوعية من هذه العلاقة بين فكرة الخصاء والعضو المخصيّ، الخاص بالمرأة. والفكرتان لا يمكنهما إلا أن تكونا ذات ارتباط وثيق. وأعتقد بأنه يعني بذلك أن هذا الرعب يذكّر، بالتداعي، ببعض الأمور المخيفة، أي الخصاء، التي تحدث للناس (كالنساء) الذين لديهم رغبات أنثوية أو الذين يعاملون معاملة النساء. ومن الواضح هنا، كما نعلم منذ زمن طويل، أن الصبي يضع الجماع وخصاء الشريك موضع التساوي وأنه يخشى بالتأكيد أن يكون هو هذا الشريك التعس. وبهذا الصدد، علينا ألا ننسى أن فكرة المرأة المخصيّة، بالنسبة للصبي القضيبي العصابي، لا تنطوي على قطع فحسب، بل تنطوي على فتحة انطلاقاً من ثقب، بحسب نظرية الجرح الذي يناسب الفرج. وفي تجربتنا اليومية، نشعر بالصعوبة، خلال أيامنا هذه، في فهم هذا الخوف إلا بلغة الرغبة المكبوتة في تمثيل دور أنثوي في الجماع، ومع الأب على نحو واضح. وخلاف ذلك لن يكون الجماع والخصاء موضع مساواة. والخوف من أن تكون هذه الرغبة منجزة يشرح الخوف من أن يُخصى شرحاً بالتأكيد لأنه يطابقه بالتعريف، ويشرح أيضاً ذلك «الرعب» من عضو الأنثى، أي من المكان التي كانت هذه الرغبات فيه موضع إشباع. ولكن كون الصبي يضع الجماع والخصاء موضوع المساواة أمر يبدو أنه ينطوي على معرفة سابقة بالولوج. وليس من اليسير، انطلاقاً من هذه الفرضية، أن نسوّغ العلاقة المعروفة جيداً بين الخوف من الخصاء والمنافسة مع الأب لامتلاك الأم، أي عقدة أوديب. وبوسعنا على الأقل أن نرى أن الرغبة الأنثوية ينبغي لها أن تكون عروة المشكل كله.

٤ ـ عالم دون نساء سيكون عالماً دون خوف

يبدو أن هناك فرضيتين خاصتين بدلالة المرحلة القضيبية وسأحاول الآن أن أحدّد إلى أي مدى تتعارض الواحدة مع الأخرى وإلى أي حدّ بوسعنا أن نجعلهما منسجمتين. وبوسعنا أن نسميهما الفرضية البسيطة والفرضية المعقّدة. فمن جهة، نفرض أن الصبي لم يكفّ، وهو يجهل الفارق بين الجنسين، عن التفكير بأنه كان لدى الأم عضو ذكر طبيعي خاص بها إلى أن تجعله تجربته لعضو الأنثى وتجعله في الوقت نفسه أفكاره الخاصة بالخصاء (ووضعه الجماع والخصاء موضع المساواة على وجه الخصوص) يظنّ، ظناً يرافقه النفور، أنها كانت مخصيّة. وهذا أمر يتوافق مع رغبته المعروفة في أن يصدّق بأن للأم عضو ذكر. وهذه الفرضية البسيطة تهمل الأسئلة السابقة بالتأكيد حول معرفة المنشأ الذي يستمدّ منه الصبي فكرتيه، فكرتي الجماع والخصاء، وذلك أمر لا يعني أنه ليس بوسعنا أن نجيب عن هاتين الفكرتين انطلاقاً من هذه الفرضية. إنها مع ذلك مسألة علينا أن نتركها معلّقة في الوقت الراهن. ومن جهة أخرى، نفترض أن لدى الصبي، منذ أوائل الأزمنة الأولى من حياته، معرفة لاشعورية مفادها أن لدى الأم فتحة (غير الفم والشرج) يمكنه أن يلجها. ولكن هذه الفكرة تقود، لأسباب سندرسها للتوّ، إلى الخوف من الخصاء وهو إنما يزيل، ليقاوم هذا الخوف، دافعه إلى الولوج ويزيل أيضاً كل فكرة عن عضو أنثوي ويحلّ محلهما على التوالي نرجسية قضيبية وإلحاحاً على الاعتقاد بأن للأم أيضاً عضو ذكر. وتنطوي هذه الفرضية الثانية على شرح أقل بساطة وأكثر بعداً بصراحة عن إلحاح الصبي على الاعتقاد بأن للأم عضو ذكر. والواقع أنه يخشى أن يكون لديها عضو أنثى أكثر من أن يكون لديها عضو ذكر، والسبب أن ذلك يولّد، في الحالة الأولى، فكرة ولوجه والخطر الذي يرافق هذا الولوج. ولو لم يكن في العالم غير أعضاء الذكر، لما كان ثمة نزاع غيور ولا خشية من الخصاء.

ففكرة الفرج ينبغي لها أن تسبق فكرة الخصاء. ولو لم يكن يوجد تجويف للولوج فيه، لما كان يوجد خوف من الخصاء.

ويستند ذلك بالطبع إلى الفرضية التي مفادها أن النزاع والخطر ينشآن لأن الصبي يشارك الأب رغباته في الولوج في التجويف نفسه وأعتقد، مع ميلاني كلاين ومحلّلين نفسيين آخرين للأطفال، أن ذلك صحيح في تمام المرحلة الأولى من حياة الصبي وليس صحيحاً فقط في المرحلة التي تلي الاكتشاف الواعي للتجويف موضوع البحث.

ونحن نتوصّل الآن إلى المسألة التي نوقشت على الغالب، مسألة المصدر الذي تصدر عنه مخاوف الخصاء.

إن تجربتي تجعلني أعتقد بأن المنعطف الحاسم في عقدة أوديب هو المنافسة المرهوبة مع الأب. ويتبنّى الصبي، ليجد حلاً لهذا الوضع، اتجاهاً أنثوياً ينطوي على خطر الخصاء. وفي حين تعتبر الدكتورة كارن هورنه أن الاتجاه الأنثوي اتجاه أولي يلجأ الصبي إلى كبته خوفاً من أن يجعل دونيته المذكّرة ـ بالنظر إلى أن هذا الخوف عامل ديناميّ فاعل ـ موضع هزء، فإنني بالحري أرى أن هذه المشاعر، مشاعر الدونية، والخجل الذي يرافقها، كلاهما يليان الاتجاه الأنثوي والباعث الذي يثيره. وهذه الأفكار إنما هي الأبرز لدى الرجال ذوي العقدة، عقدة «عضو الذكر» الصغير التي يرافقها العجز على الأغلب، ولديهم إنما نلاحظ ملاحظة أكثر وضوحاً أصل هذه العقدة. وما يخجل منه حقاً رجل من هذا النوع ليس كون عضوه، عضو الذكر، «صغيراً»، بل من السبب الذي من أجله هو صغير.

إنني، على العكس، على وفاق تام مع كارن هورنه وبعض الباحثين الآخرين، وبخاصة ميلاني كلاين[11]، عندما يقولون إن ارتكاس الصبي إزاء الوضع الحاسم لعقدة أوديب يتأثر بالعلاقة السابقة بالأم تأثراً كبيراً. ولكن

(١١) انظر الفصل السابع.

المقصود بذلك مسألة أكثر تعقيداً من الزهو الجريح، وثمة عوامل أكثر قسوة بكثير تتدخّل. وتشدّد ميلاني كلاين على خشية الصبي من أن تخصيه الأم عقاباً على الدوافع السادية التي يوجّهها ضد جسمها، وذلك بصرف النظر عن كل فكرة عن الأب أو عن عضو الذكر لديه، على الرغم من أنها توافق على أن هذه الفكرة الأخيرة تعزّز سادية الصبي، إذ تعقّد الوضع على هذا النحو. ولهذه الدوافع ذاتها، كما عبّرت عنها بالتفصيل[١٢]، تاريخها وعلينا العودة إلى المرحلة الأولية لتقدير طبيعة القوى العاملة. وضروب الحرمان، على هذا المستوى، وربما ضروب الحرمان الفمية على وجه الخصوص، هي التي تتصف بالأهمية الكبرى على نحو مؤكد من جرّاء كونها تجعل إقامة العلاقات مع الأبوين أشد عسراً على المستوى التناسلي. ومن المهم معرفة السبب الداعي إلى أن يكون الأمر على هذ النحو. وبوسعي أن أذكر حالات عدد معيّن من المرضى الذين لم يفحلوا في بلوغ الشرط الإنساني (سواء أكان الأمر بالنسبة للرجال أم للنساء)، والإخفاق في هذه الحال بدا أنه لا بدّ من أن يكون على وجه الدقة مرتبطاً باتجاههم إلى أن يكون لديهم أول الأمر حاجة إلى الحصول على شيء من النساء، شيء لم يكن بوسعهم قط الحصول عليه بالطبع في الواقع. فلماذا ينبغي لعلاقة غير كاملة بالحَلَمة أن تمنح الصبي مشاعر أنه لا يملك عضوه الخاص، عضو الذكر، ملكية كاملة؟ إنني مقتنع كل القناعة أن هذين العنصرين مرتبطان بصورة وثيقة، على الرغم من أن العلاقة المنطقية بينهما ليست واضحة بالتأكيد.

٥ ـ مفتاح المشكل: رغبات الصبي الأنثوية

لا أعلم إلى أي حدّ يكتسب صبي من الصبيان خلال السنة الأولى من حياته، مستنداً إلى تماثل طبيعي، ذلك اليقين بأن لأمه عضواً تناسلياً كعضوه، ولكن لديّ الانطباع بأن فكرة من هذا النسق لاتعنيه جدياً ما دامت غير موضوعة موضع التساؤل في ارتباطات (تداعيات) أخرى. وتبدو الفكرة الأولى أنها المعادل الرمزي للحلمة وعضو الذكر. وسيكون عضو

(١٢) مقالات عديدة منشورة في الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي.

ذكر الأم على وجه الخصوص، من هذه الناحية، حلمة أكثر اتصافاً بأنها مرْضية ومغذّية، وحجمه هو الوحيد الذي يكوّن مزية واضحة. فكيف يكون بوسع عضو ذي جانبين، الثدي، أن يتحوّل على وجه الدقة إلى عضو أوسط، عضو الذكر؟ ألا يعني ذلك، عندما يحدث، أنه كان لدى الصبي سلفاً فكرة عضو الذكر الأبوي، انطلاقاً على وجه الاحتمال من تجربته أو من استيهاماته للمشهد البدائي، أو ليس ممكناً، حتى قبل ذلك، أن تكون تجاربه الاستنمائية الأولى (المقترنة على الأغلب بالتجارب الفمية) واتجاهه الفمي الذي يتجلّى عادة إزاء عضوه الخاص، عضو الذكر، كافيين وحدهما ليحدث هذا التماثل؟ إنني أميل بالحري إلى الفرضية الثانية، ولكن من العسير أن يكون لديّ تفصيلات واضحة حول هذا الموضوع. وأياً كان الخيار، فإن الاتجاه إزاء عضو الذكر الأسطوري لدى الأم لايمكنه مع ذلك إلا أن يكون ذا مظهرين متعارضين في البداية. فنحن، من جهة، لدينا الإدراك لعضو مرئي، سهل المنال إذن، وديّ ومغذّ، استقباله ومصّه ممكنان. ولكن ثمة، من جهة أخرى، تلك السادية التي يحرّضها الإحباط الفمي (هذا العامل نفسه الذي أتاح الإدراك)، سادية لابدّ لها من أن تخلق بالإسقاط فكرة عضو مخيف، معادٍ وخطر، ينبغي تدميره بابتلاعه حتى يشعر الصبي بأنه آمن. وهذه الثنائية، ذات العلاقة بحلمة الأم (وعضو الذكر - الحلمة) في البداية، تتفاقم كثيراً عندما يشترك في ارتباط الأفكار (التداعي) عضو الذكر الأبوي. وأنا مقتنع أن ذلك يحدث في وقت مبكّر جداً من الحياة، قبل السنة الثانية من العمر بالتأكيد. وقد يحدث الا يكون لذلك علاقة بالتجارب الواقعية أو حتى بوجود الأب، وجوده نفسه، وأن يستقرّ بواسطة الإحساسات الليبيدية التي يعانيها الصبي في عضوه الذكري وترافقها دوافع الولوج على نحو لامفرّ منه. والاتجاه الثنائي يتعزّز من ناحيتين. فمن ناحية أولى، يقترن الميل إلى تقليد الأب بفكرة اكتساب القوة انطلاقاً منه. ومن

ناحية أخرى، لدينا المنافسة والعداوة الأوديبيتان، المعروفتان اللتان تتواجهان في بداية الأمر بلغة الإبادة الفمية.

وهذه الملاحظات الخاصة بالمستوى الفمي تبدأ في إيضاح اللغز الذي حدّدناه فيما سبق: لماذا يشعر كثير من الرجال بالعجز عن وضع شيء في المرأة إلا إذا سحبوا منها أول الأمر شيئاً؟ ولماذا لايمكنهم الولوج؟ أو لماذا، ولنتكلم بجرأة كبيرة، يحتاجون إلى أن يمرّوا بمرحلة «أنثوية» مرْضية قبل أن يكون بوسعهم الشعور أنهم على أحسن حال في المرحلة المذكّرة؟ قلت فيما سبق إن سر المشاكل كله موجود بالضرورة في رغبات الصبي الأنثوية. والمؤشر الأول يكمن في أن هذه المرحلة الأنثوية مرحلة أولية، فمية على نحو أساسي، وأن إشباع الرغبات في هذه المرحلة يسبق النمو المذكر. وعاقبة أي إخفاق في هذا المجال هي ضرب من التثبيت على المرأة في المستوى الفمي أو الشرجي، تثبيت مصدره الحصر ولكن بالإمكان أن تُضفي عليه الغلمة إضفاء شديداً بأشكال منحرفة.

وسأحاول الآن أن أمضي إلى حدّ أبعد في توضيح لغزنا، وسنفحص الصعوبات التي يعانيها الصبي مع الأم ومع الأب، على نحو منفصل بهدف الوضوح. وعليّ مع ذلك أن ألفت الانتباه إلى الصفة المصطنعة في هذا التمييز. ونحن، حين ننظر إلى الأبوين على أنهما موجودانِ متمايزان بوسع المرء أن يرى كلامنهما منفصلاً عن الآخر، نفعل شيئاً لايزال الرضيع غير قادر على أن يفعله بعدُ، شيئاً لايعنيه كثيراً في استيهاماته الأكثر سرية. ونحن نحلّل العناصر التي يتألف منها مفهوم من المفهومات تحليلاً مصطنعاً (مفهوم «الوجه المركّب للأبوين» كما تسميه ميلاني كلاين)، وهي عناصر لاتزال بالنسبة للصبي متشابكة بصورة قوية. وتقودنا الكشوف الناجمة عن تحليل الأطفال إلى أن نعلّق أهمية متعاظمة على الاستيهامات والانفعالات التي ترتبط بهذا المفهوم، وإنني ميّال جداً إلى الاعتقاد بأن مصطلح «المرحلة

قبل الأوديبية»، الذي استخدمه فرويد ومؤلفون آخرون استخداماً حديثاً، يطابق تمام المطابقة تلك المرحلة من الحياة التي يسودها مفهوم الوجه المركب للأبوين.

٦- نزاع يصعب حلّه

على أي حال، لنفحص العلاقة بالأم أول الأمر. وإذا صرفنا النظر عن عضو الذكر الأبوي، فإن علينا أن نحلّ اللغز الذي مفاده أن نعرف كيف يرتبط اكتساب الصبي شيئاً مصدره الأم بأمن امتلاك عضوه واستخدامه، عضو الذكر الخاص به. وأعتقد أن هذه العلاقة الفمية والقضيبية موجودة في السادية المشتركة بين الحالتين. فالإحباط الفمي يولّد السادية وعضو الذكر النافذ يُستخدم، في الاستيهام، سلاحاً سادياً لبلوغ الأهداف الفمية المرغوبة وليشقّ طريقاً إلى الحليب، والبراز، والثدي، والأطفال الرضّع، إلخ، وكل ذلك يبحث الطفل عن أن يبتلعه. والمرضى الذين كنت قد أشرت إليهم فيما سبق، والذين نستخدمهم برهاناً على التثبيت الفمي المنحرف إزاء النساء، كانوا كلهم ساديين جداً. والمعادلة التالية: سن= عضو الذكر، معروفة بكفاية ولابد لها من أن تبدأ في هذه المرحلة السادية قبل التناسلية من النمو. ولعضو الذكر السادي علاقات ذات أهمية مع الشرجية (ومثال ذلك الاستيهام الشائع ومفاده سحب طفل من البطن بواسطة عضو الذكر). وعلى هذا النحو ينتهي عضو الذكر ذاته إلى أن يقترن باتجاه الاكتساب، ويتوحّد إحباط هذه الاتجاه الأخير بإحباط عضو الذكر، ونقول، بعبارة أخرى، إن العجز عن الحصول على الحليب، إلخ، يعادل العجز عن استخدام عضو الذكر. ويقود الإحباط، فضلاً عن ذلك، إلى الخوف من العقاب الصادر عن الأم التي تصيب الأسلحة نفسها بالأذى. وقد حدث لي أنني لاحظت أن ذلك كان يوضع موضع المساواة مع الإحباط الأكثر أولية. فسحب الأم حلمة الثدي يضفي عليها سمةهي جامعة الحلمات أو أعضاء الذكر، وهي

أمّ تحتفظ بالتأكيد وعلى نحو دائم بكل عضو ذكر يُقدّم لها، وسادية الصبي، في هذه الحال، تتجلّى (كما لو أنها ضرب من الخدعة المزدوجة) بسياسة سادية قوامها أن يسحب من المرأة ما بإمكانها أن ترغب فيه، أي أن تكون عاجزة على سبيل المثال.

وعلّمتني تجربتي، على الرغم من أن هذا النزاع مع الأم هو الأساس لصعوبات لاحقة دون ريب، أن نولي أهمية كبرى النزاع مع الأب فيما يخصّ أصل الخوف من الخصاء. ولكن عليّ في الحال أن أضيف بنداً ذا أهمية كبيرة. إن عضو الأم التناسلي، في خيال الصبي، لاينفصل خلال زمن طويل جداً عن فكرة أنه يؤوي عضو الذكر الأبوي، وستكون رؤية الأمور مزيّفة جداً إذا لم نأخذ بالحسبان سوى علاقة الصبي بأبيه الحقيقي «الخارجي». وفي ذلك ربما يكمن الفارق بين المرحلة قبل الأوديبية لدى فرويد وعقدة أوديب بالمعنى الدقيق للمصطلح. وعضو الذكر المخبأ في الداخل هو الذي يتحمّل جزءاً كبيراً من المسؤولية عن الصعوبات، هذا العضو الذي نفذ إلى جسم الأم أو الذي ابتلعته، أي التنيّن أو التنانين التي تلازم المناطق المذرقية. ويحاول بعض الصبيان مواجهة الصعوبة وفق معطيات قضيبية بصورة مباشرة، مستخدمين في الاستيهام عضو الذكر، عضوهم، لولوج العضو الأنثوي وإلحاق الأذى بعضو الذكر الأبوي الذي يوجد فيه؛ أو دافعين الاستيهام، كما لاحظت على الغالب، إلى حدّ اللواط، إلى حد الولوج في جسم الأب، جسمه ذاته. ولنقل عَرَضاً إن المرء يرى إلى أي حدّ يوضّح ذلك تلك التعاوضية الوثيقة بين صورتي الأب والأم. فبوسع الصبي أن يمصّ الأب أو الأم وينفذ إلى هذه أو ذاك. وما يعنينا هنا مع ذلك أكثر ما يعنينا هو الميل الكبير إلى مواجهة عضو الذكر الأبوي وفق معطيات أنثوية. والأفضل أن نقول «معطيات أنثوية في الظاهر»، ذلك أن معطيات أنثوية حقاً ستكون أكثر إيجابية. وأريد بصو . أساسية أن أتكلّم على معطيات سادية فمية وشرجية، وأعتقد أن اتجاه التدمير

المشتق من هذا المستوى هو الذي يمنح المفتاح لشرح اتجاهات مختلفة أنثوية في الظاهر: فالتدمير يتمّ بالفم والشرج، وبالأسنان والبراز، وبالبول على المستوى القضيبي. وكنت أكتشف باستمرار، لدى الرجال، هذا الميل العدائي والمدمّر، لاخلف اتجاههم الثنائي المشاعر بصورة واضحة إزاء كل أنوثة فحسب، ولكن خلف الرغبة الودودة في نيل الإعجاب أيضاً. والتسليم بكياسة ظاهرة هو، على كل حال، أفضل قناع بوسع المرء أن يتخيّله لإخفاء النوايا العدائية. والهدف النهائي لكل هذه الأنوثة، كلها على وجه التقريب، هو امتلاك الموضوع المرهوب وتدميره. ولايشعر الصبي أنه آمن ما دام ذلك لم يتحقّق، وهو عاجز عن الاهتمام بالنساء، وأكثر عجزاً عن ولوجهن أيضاً. ويُسقط أيضاً اتجاهه التدميري الفمي والشرجي ذا العلاقة بعضو الذكر الأبوي على التجويف الذي يفترض الصبي أنه يحتويه. وهذا الإسقاط ييسرّه اقترانه بالدوافع السادية السابقة والفمية والقضيبية، الموجهة ضد جسم الأم وضدالخوف من الانتقام، خوف يرافق هذه الدوافع. يضاف إلى ذلك أن تدمير عضو الذكر الأبوي يعني أن التجويف سيدمّر عضو الذكر الخاص به كما يدمر عضوَ الذكر الأبوي ولوجُه في فمه. فنحن لدينا عندئذ صيغة بسيطة لعقدة أوديب: رغباتي (المزعومة أنها أنثوية، أي المدمّرة من الناحية الفمية) المعادية لعضو الذكر الأبوي هي من القوة بحيث أنني إذا ولجت في مهبل أمي، وأنا لاأزال أحملها في قلبي، فإنني سألقى المصير نفسه، أو، نقول بعبارة أخرى: إذا أقمت علاقات مع أمي، فإن أبي سيخصيني. فالولوج موضوع موضع التساوي مع التدمير أو نقول، إذا عدنا إلى الجملة المعروفة على نحو أفضل والمستخدمة سابقاً، إن الجماع موضوع موضع التساوي مع الخصاء. ولكن موضع الرهان ليس خصاء الأم، وتلك هي النقطة الحيوية، بل خصاء الصبي أو أبيه.

٧- الأم القضيبية: استيهام لاغنى عنه

بعد أن درسنا المصادر المختلفة لحصر الخصاء ومشكل الأنوثة لدى الرجل، أعود الآن إلى سؤال فريد مفاده أن نعرف السبب الذي يدعو الصبي، في المرحلة القضيبية، إلى أن يكون بحاجة إلى أن يتخيّل أن لأمه عضو ذكر فعلاً. وسأضيف إلى هذا السؤال سؤالاً آخر، سؤالاً غير مطروح على الغالب، مفاده أن نعرف عائدية هذا العضو فعلاً، عضو الذكر. والإجابة تحتويها الملاحظات السابقة وسأعبر ببساطة، حتى لا أكرّر نفسي، على صورة جملة: **وجود عضو ذكر ، مرئي لدى الأم يطمئن الصبي مباشرة فيما يخصّ الرغبات الفمية البدئية؛ ويكوّن هذا الحضور نفياً لكل حاجة إلى اللجوء إلى سادية خطرة لمواجهة الحرمان ويكوّن، قبل كل شيء، ضماناً مفاده أن الخصاء لم يحدث وأنه لايتعرّض هو، ولاأبوه، لهذا الخطر**. وتجيب هذه النتيجة عن السؤال حول عائدية عضو الذكر لدى الأم[١٣]. وليس عضو الذكر عضوها إلا من جانب صغير ناجم عن حاجات الصبي الفمية الأكثر بدئية. إنه عضو الذكر الأبوي على وجه الخصوص، على الرغم من أن بوسعنا القول بمعنى من المعاني إنه عضو ذكر الصبي من حيث أن قدره مرتبط بقدر الأب بفعل الخصاء المتبادل الذي يهدّده كما يهدّد أباه.

ولابد أيضاً من تقديم السبب الذي من أجله كانت رؤية العضو التناسلي الأنثوي الفعلية علامة الانتقال من الطور الأول (الطور القضيبي الأول) إلى الطور الثاني (الطور القضيبي الثاني) من المرحلة القضيبية. وتجعل هذه الرؤية، شأنها شأن تجارب البلوغ، أمراً واضحاً ما كان لاينتمي

(١٣) ، تجيب ميلاني كلاين، في كتابها **التحليل النفسي للأطفال**، ص٢٥٧، إجابة قاطعة عن هذا السؤال: المرأة ذات عضو الذكر تمثّل دائماً تلك المرأة ذات عضو الذكر الأبوي.

سابقاً إلا إلى الحياة الاستيهامية. وهي تمنح خوف الخصاء واقعاً. ولكن ذلك لا يتمّ بوساطة الفكرة التي مفادها أن الأب خصى الأم (وهذا أمر ليس سوى عقلنة شعورية)، بل بالتذكير بإمكان أن تكون رغبة مكبوتة خطرة قد أُشبعت في الواقع. وأقصد أن أتكلم على الرغبة في إقامة علاقات مع الأم وتدمير عضو الذكر الأبوي. وعلى الرغم من شتى الفرضيات المعارضة، تمنح العقدة الأوديبية مفتاح المشكل الخاص بالمرحلة القضيبية، كما فعلت بالنسبة لمشكلات كثيرة أخرى.

إننا ابتعدنا جداً عن التصور الذي مفاده أن الصبي، الذي يجهل الفارق بين الجنسين آنفاً، مرعوب من أن يجد أن رجلاً خلق فارقاً بالعنف إذ خصى شريكته وجعل منها امرأة، مخلوقاً مخصياً. ومن العسير، حتى لو لم نأخذ بالحسبان تلك التحليلات الواقعية التي انصبّت على السنوات الأولى من الطفولة، أن ندعم وجهة النظر المنطقية الوحيدة القائلة إن الصبي ليس لديه حدس بالفارق بين الجنسين. فقد رأينا أن الطور القضيبي الثاني يثيره الخوف من الخصاء وأن هذا الخصاء ينطوي، بدوره على خطر الولوج. وينجم عن ذلك وحده، في كل هذا الارتكاس المعقّد، أن حدس تجويف يمكن الولوج إليه هو أول فرضية كامنة. فعندما يقول فرويد إن الصبي يتخلّى عن رغباته المحارمية إزاء الأم حتى يكون أميناً على عضو الذكر لديه، فإن ذلك ينطوي على أن عضو الذكر كان الحامل المذنب لهذه الرغبات (في الطور القضيبي الأول). فماذا يمكنها، والحال هذه، أن تكون هذه الرغبات التي تعرّض وجوده للخطر إن لم تكن إنجاز الوظيفة الطبيعية لعضو الذكر، أي الولوج؟ وهذا الاستنتاج تسوّغه البحوث الواقعية تسويغاً جيداً.

وسأحاول الآن أن ألخّص النتائج التي توصّلنا إليها. والنتيجة الرئيسة

هي أن المرحلة، القضيبية بصورة أساسية(*)، تسوية عصابية أكثر مما هي تطور طبيعي للنمو الجنسي. ومن الطبيعي أن تكون هذه المرحلة متغيّرة الشدّة وفق الشدة في مخاوف الخصاء على وجه الاحتمال، ولكن بوسعنا القول إن تجنّبها متعذّر بمقدار ما يكون متعذراً على وجه الحصر تجنّب حصر الخصاء، أي عصاب الطفولة. فإلى أي مدى يُعتبر تجنّب عصاب الطفولة متعذّراً؟ إنه أمر لا نعرفه إلا عندما تتوافر لدينا تجربة كبيرة في تحليل الأطفال. ومجرد الحاجة إلى التخلّي عن الرغبات المحارمية لا يجعل، على أي حال، تجنّب هذا العصاب ممكناً. فليس الوضع الخارجي هو الأصل في المرحلة القضيبية، بل الأصل هو التعقيدات في النمو الداخلي لدى الصبي، تعقيدات قد يكون تجنّبها ممكناً.

٨ ـ التخلّي عن الأم في سبيل الأمان

يتخلّى الصبي في المرحلة الأوديبية عن الاتجاه المذكّر للولوج وعن كل اهتمام موجّه إلى داخل جسم الأم ليتجنّب المخاطر المتخيّلة التي أوجدها في الوضع الأويبي، وينتهي إلى أن يعتبر وجود عضو الذكر لديه و «عضو الذكر لدى أمه» أمراً مؤكّداً. وذلك يعادل «حلّ عقدة أوديب» التي قال بها فرويد، إنه تخلّ عن الأم في سبيل حماية عضو الذكر. ولكن هذا الأمر ليس مرحلة مباشرة من مراحل التطور. وعلى الصبي، على العكس، أن يعود إلى الوراء فيما بعد ليتطور، وعليه أن يطالب مجدّداً، مطالبة ملحّة، بما تخلّى عنه، أي بدوافعه المذكرة حتى يبلغ العضو الأنثوي. وعليه أن يعود من الطور القضيبي الثاني، الطور العصابي والمؤقت، إلى الطور القضيبي الأول، الأصيل والسوي. وينجم عن ذلك أن الأساس القضيبي النموذجي، أي الطور

(*) أي الطور القضيبي الثاني «م».

القضيبي الثاني، لا يمثّل في رأيي إلا عائقاً عصابياً للنمو أكثر مما يمثّل مرحلة طبيعية للتطور(١٤).

ونحن نتوصّل الآن إلى المشكل المقابل لدى البنت، ونبدأ القول إن التمييز المذكور آنفاً بين الطور القضيبي الأول والطور القضيبي الثاني أكثر أهمية لدى البنات منه لدى الصبيان، إلى حدّ مفاده أنه كان لديّ الانطباع، عندما أصدرت الفرضية القائلة إن المرحلة القضيبية لدى البنات تمثّل حلاً ثانوياً لنزاع من النزاعات، بأن المرحلة القضيبية كانت تعني ما أعتبره الآن طورها الثاني ليس إلا، وذلك خطأ صحّحه فرويد في إحدى المراسلات. ولنقل بالمناسبة إن إدانته فرضيتي كانت مبنيّة بصورة جزئية على الخطأ نفسه، بالنظر إلى أنه كان يعتقد بأنني كنت أقصد الكلام على المرحلة القضيبية في كليتها. وبوصف ذلك ظرفاً مخفّفاً أقول إن فرويد لم يصف، في مقاله

---

(١٤) من المفيد أن نلاحظ هنا من أي النواحي تتّفق النتائج التي أقترحها مع نتائج مؤلفين هما فرويد وكارن هورنه، اللذين سنحت لنا فرصة مناقشة فرضياتهما، ومن أي النواحي تختلف عنها. إنني متفق مع فرويد حول الفرضية الأساسية التي مفادها أن الانتقال من الطور القضيبي الأول إلى الطور القضيبي الثاني ناجم عن الخوف من الخصاء الصادر عن الأب وأن ذلك يستقرّ في الوضع الأوديبي بصورة أساسية. وأعتقد أن فرويد يؤكد أيضاً أن الرغبات المؤنثة التي تختبئ خلف جزء كبير من حصر الخصاء تستقرّ بوصفها وسائل لمواجهة الأب المحبوب والمرهوب. وربما يشدّد فرويد أكثر ما يشدّد على مصالحته ليبيدياً، في حين أنني ألفت الانتباه أكثر ما ألفته إلى الدوافع العدائية والمدمّرة التي تحتجب خلف الاتجاه الأنثوي. وليس بوسعي، من جهة أخرى، أن أقبل الفرضية التي تقول بجهل العضوين التناسليين، فرضية يلحّ عليها فرويد في عدة مناسبات (علماً بأنه يبدو أنه ترك المسألة مفتوحة في فقرة حول المشاهد البدائية والاستيهامات البدئية) وأعتبر فكرة الأم المخصيّة شبيهة على نحو أساسي بفكرة أم كان رجلها مخصياً. ولا أعتقد أيضاً أن الطور القضيبي الثاني مرحلة طبيعية من مراحل النمو.

وأنا أتفق مع كارن هورنه فيما يتعلّق بريبيتها حول جهل العضوين التناسليين، وبشكوكها الخاصة بالسواء في الطور القضيبي الثاني، وبرأيها القائل إن ارتكاس الصبي على الوضع الأوديبي متأثّر جداً بالعلاقة السابقة مع الأم. ولكنني أعتقد أنها تخطىء في شرح العلاقة بين هذين الموضوعين وأعتبر أن خوف الصبي من رغباته الأنثوية (التي نجدها جميعنا خلف حصر الخصاء) ناجم عن مخاطر ساديته الغذائية عندما تتدخل هذه السادية في الوضع الأوديبي لا عن الخجل الذي يعانيه بسبب دونيته المذكرة في علاقته مع أمه.

الأصلي، المرحلة القضيبية لدى البنت بسبب غموضها الشديد وإن تعريفه (مرحلة يُعتقد بأن الفارق بين الجنسين خلالها فارق بين موجودات لها عضو ذكر وموجودات مخصيّة) لا ينطبق على وجه الدقة إلا على الطور القضيبي الثاني، لأن المفترض أن عضو الذكر غير معروف في الطور القضيبي الأول.

والفارق، وفق التصور الفرويدي، بين جزأي المرحلة يماثل الفارق الذي كنا قد أشرنا إليه بالنسبة للصبي. ويعتقد فرويد بأن ضرباً من سيادة البظر تستقرّ في مرحلة معيّنة، عندما تكون البنت، التي تجهل الفارق بين البظر وعضر الذكر، سعيدة كل السعادة كما هي عليه. وأسمّي حالياً هذه الحالة الطور القضيبي الأول لدى البنت. إنه يناظر الطور القضيبي الأول لدى الصبي الذي يفترض بعضهم أيضاً بصدده أنه يجهل الفارق بين الجنسين. وستكون البنت، في الطور القضيبي الثاني، ذلك الطور الذي أصدرتُ حول موضوعه الفرضية التي مفادها أنه ارتكاس دفاع ثانوي، على اطلاع بالفارق وهي، شأنها شأن الصبي، ستقبله بنفور (وفي حالة البنت بضغينة) أو ستحاول أن تنكره. والإنكار ينطوي مع ذلك، على خلاف ما يفترض بعضهم أنه يحدث لدى الصبي، على معرفة واقعية بالفارق، ذلك أن البنت لم تعد تعتقد، كما كان عليه الحال آنفاً، بأن لدى الجنسين بظراً مرْضياً، ولكنها تكابد الرغبة في أن يكون لها عضو مختلف عن السابق، أي عضو ذكر حقيقي. وهذه الرغبة مدفوعة إلى حد الإنجاز المتخيل لدى الجنسيات المثليات اللواتي يكشف سلوكهن كشفاً ضمنياً، وتكشف أحلامهن كشفاً صريحاً، عن الاعتقاد بأن لهن بالفعل عضو ذكر حقيقياً، ولكن هذا الاعتقاد نفسه، حتى لدى الفتاة الأكثر سواء، يتناوب خلال المرحلة القضيبية الثانية مع الرغبة في أن يكون لها عضو ذكر.

والقاسم المشترك لجزأي المرحلة لدى الفتاة هو، كما لدى الصبي، فكرة الخصاء، فكرة مفادها أن النساء لسن إلا مخلوقات مخصيّات، إذ ليس ثمة وجود لعضو أنثوي حقاً. وعلى الصبي، في الطور القضيبي الثاني الذي

أثار الاضطراب فيه ذلك الاكتشاف المفترض للخصاء، أن يعود إلى الطور القضيبي الأول، أي إلى وحدة الجنسين الأصلية. ورغبة البنت، في هذا الطور ذاته أي المرحلة القضيبية الثانية، تكمن أيضاً في إيجاد السلام المتوافر في المرحلة القضيبية الأولى، بل وفي التشديد على سمتها القضيبية، أي في الرجوع إلى وحدة الجنسين الأصلية. وأعتقد أن ذلك يوضّح التصور الفرويدي توضيحاً جيداً.

٩- تصوران يتواجهان

نحن نجد أنفسنا إزاء فرضيتين متمايزتين فيما يخصّ تطور الجنسية الأنثوية. وسأعرضهما عرضاً موجزاً بعض الإيجاز بهدف مقارنتهما. فجنسية الفتاة، وفق الفرضية الأولى، جنسية مذكرة بصورة أساسية في البداية، وعلى الأقل منذ فطامها، وإخفاق الاتجاه المذكر (خيبة الأمل إزاء البظر) هو الذي يدفعها إلى الأنوثة. وجنسية الفتاة، وفق الفرضية الثانية، جنسية أنثوية بصورة أساسية وإخفاق الاتجاه الأنثوي هو الذي يدفعها، مؤقتاً على وجه التقريب، صوب ذكورة قضيبية.

وأعترف أن هذا العرض غير تام ولا يوفّي أياً من هاتين الفرضيتين حقها، ولكنه يمكنه أن يصلح ركيزة للمناقشة. وأسميهما على التوالي الفرضية أ والفرضية ب، وسأدخل عليهما بعض التعديلات الواضحة التي تجعلانهما أكثر صحة وتقلّل بعد الفارق بينهما. فالذين يدعمون الفرضية أ يسلّمون على نحو طبيعي بثنائية جنسية بدئية، مع أنهم يرون أن الاتجاه المذكّر (البظر) هو السائد. وهم أيضاً على وفاق مفاده أن العوامل المزعومة أنها نكوصية (حصر) تتدخّل في الطور القضيبي الثاني، ولكنهم يؤكدون أنها أقل أهمية من الدافع الليبيدي الذي ينشد المحافظة على الذكورة الأصلية. وأولئك الذين يدعمون الفرضية ب، من جهة أخرى، يسلمون أيضاً بثنائية جنسية بدئية، إذ تنضاف ذكورة بدئية بظرية إلى أنوثة أكثر بروزاً أو نقول،

لنعرض الأمور عرضاً أكثر حذراً دون أن نثير أسئلة، بالوجود معاً لأهداف فاعلة وسلبية نزّاعة إلى أن تتجمّع في أماكن تناسلية خاصة. ويسلّمون أيضاً بأن ثمة على الغالب قليلاً من الحب الظاهر للأب الذي يُعتبر منافساً في المرحلة الأولى من التثبيت على الأم؛ وهم على وفاق بأن الرغبة الغلمية الذاتية بصورة مباشرة، وبالتالي الليبيدية، في امتلاك عضو ذكر، تؤدي، هي وعوامل الحصر في الوقت نفسه، دوراً ذا أهمية في دفع الفتاة من الأنوثة إلى الذكورة القضيبية. ويتفق القائلون بالفرضيتين جميعهم على أن التجربة الماثلة في رؤية الفتاة عضو ذكر تؤثر تأثيراً قوياً في الانتقال من الطور القضيبي الأول إلى الطور القضيبي الثاني، دون أن يكونوا متفقين على أسباب هذا التأثير. يضاف إلى هذا أن الفرضيتين تلتقيان في القول إن الفتاة ترغب في عضو ذكر خلال الطور القضيبي الثاني(١٥)، وإنها تلقي اللوم على الأم في كونها محرومة منه. أما فيما يخص عائدية عضو الذكر الذي ترغب فيه ولماذا ترغب فيه، فهما سؤالان لانجيب عنهما إجابة بقدر من السهولة.

وعلى الرغم من هذه التعديلات، هناك مع ذلك فوارق في الرأي باقية فيما يتعلق بطوري المرحلة القضيبية وليست المسألة مسألة فارق في التشديد على أمر دون آخر. وعندما درسنا الضروب نفسها من الغموض، في نمو الجنسية المذكّرة، بان نافعاً أن نشدّد على العلاقة بين مشكل الخوف من الخصاء ومشكل الخوف من الفرج. وأود هنا أن أشير إلى الأهمية التي

---

(١٥) وأضيف، عَرَضاً هنا، ضرباً من التعليق على التباس في بعض التعبيرات كالتعبيرين التاليين: «ترغب في عضو ذكر» أو «أمنية الحصول على عضو ذكر». والواقع أن بوسعنا، فيما يتعلّق بالجنسية الأنثوية، الطفلية، أن نجد لها ثلاثة معان: ١) الرغبة في اكتساب عضو ذكر، إذ تبتلعه عادة؛ وتحتفظ به في الجسم لتحوّله على الغالب إلى طفل؛ ٢) الرغبة في امتلاك عضو ذكر في المنطقة البظرية، عضو ذكر يمكنها الحصول عليه عندئذ بأكثر من طريقة؛ ٣) الرغبة خلال سن الرشد بالاستمتاع بعضو ذكر في الجماع. وسأحاول التعبير بوضوح عن دلالة كل حالة.

تتصف بها علاقة بين رغبة الفتاة في أن يكون لها عضو ذكر وكرهها الأم، ذلك أنني على يقين بأن شرح أحد هذين المشكلين يعني شرح الآخر. وأعرض بعض نتائجي قبل أن يحين أوانها قائلاً إنه ربما سيبين ممكناً أن نصوغ الحلّ المذكر والحل المؤنث لهذه المشكلات في صيغة واحدة.

وسأستخدم، لأحاول توضيح الفرضيتين المتعارضتين المذكورتين أعلاه، مؤشرين قدّم فرويد كليهما. فالأول موجود في ملاحظته(١٦) أن أول تعلّق للفتاة بأمها «بدالي في التحليل غير ممكن ادراكه، مطموراً في الماضي الضبابي، عسيراً جعلهُ يُعاش مجدّداً، بحيث أنه كان يظهر أنه طرأ عليه كبت لارحمة فيه على وجه الخصوص». وليس بوسعنا إلا أن نكون على وفاق معه حين يشير إلى أن الحل النهائي لجميع هذه المشكلات يكمن في تحليل معمّق لتمام المرحلة الأولى من تعلّق الفتاة بأمها، ومن المحتمل أن تكون الفوارق في الرأي الخاصة بالمرحلة اللاحقة من النمو ناجمة بصورة رئيسة، وربما على نحو كلي، عن واقع مفاده أن ثمة فرضيات مختلفة خاصة بهذه المرحلة الأولى.

١٠- عمل وظائفي بدني مكبوت بعمق

هذا هو مثال على هذه الفرضيات: وإذ ينتقد فرويد كارن هورنه، يقول، ليصف فرضيته، إن الفتاة **تنكص** في الطور القضيبي الثاني خوفاً من أن تتقدّم في الأنوثة، نكوصاً بحيث يتأكد بأن المرحلة السابقة (مرحلة البظر) لايمكنها أن تكون سوى مرحلة قضيبية. ولكن هذا هو على وجه الضبط أحد الأسئلة التي تطرح نفسها، والسيرورة التي ذكرناها للتوكّيست، بالنسبة لمن يرى عكس ما يقوله فرويد، نكوصاً بل هي تكوّن عصابي جديد. وهذا هو سؤال ينبغي أن يُدرس. وليس علينا أن نعتبر أمراً بدهياً أن استخدام البظر يماثل من الناحية السيكولوجية استخدام عضو ذكر مماثلة تامة للسبب الذي مفاده على سبيل الحصر أن كليهما متماثلان من الناحية التكوينية الفيزيائية.

(١٦) انظر الفصل السابق.

فسهولة بلوغ أي منهما يمكنها وحدها أن تؤدي دوراً. والبظر جزء من العضو الأنثوي على كل حال. والتوافق بين الاستمناء البظري واتجاه مذكر أمر غير ثابت من الناحية العيادية على الإطلاق. فقد عرفت، من جهة، حالة لم يكن بوسع البظر فيها أن يؤدي عمله الوظائفي بسبب تشوّه خلقي، ولكنها حالة كان الاستمناء بالعضو الأنثوي فيها استمناء من نوع مذكر على نحو بارز (وضعية الاستلقاء على البطن، الخ). ومن جهة ثانية، إن الحالات التي ترافق فيها الاستنماء البظري، لدى الراشدة، استيهامات أنثوية متّجهة نحو الجنس الآخر بصورة أكثر بروزاً، تُلاحظ كل يوم، وتكتب ميلاني كلاين[١٧] قائلة إن هذه التركيبة خاصة تميّز تمام الطفولة الأولى. وفي مقالي من إنسبورغ، عبّرت عن الرأي الذي مفاده أن الإثارة المهبلية كانت ذات أهمية أكبر مما كان بعضهم يعترف لها في الطفولة الأولى (على خلاف رأي فرويد القائل إن هذه الإثارة لاتبدأ إلا في البلوغ)، وتلك فرضية كانت قد عبّرت عنها آنفاً عدة محلّلات نفسيات، ميلاني كلاين (١٩٢٤)[١٨] وجوزين مولر (١٩٢٥)[١٩] وكارن هورنه[٢٠]. وكنت قد توصلت إلى هذا الرأي انطلاقاً من مواد كمواد كارن هورنه، أي من نساء تبدو الميول المذكرة لديهن قوية وتبدو في الوقت نفسه برودة جنسية مهبلية. والمهم في هذا العمل الوظائفي المهبلي الأول، المكبوت بعمق إلى حد كبير، هو الكمية الهائلة من الحصر الذي يرافقه (كمية أكبر بكثير من كمية الحصر التي ترافق العمل الوظائفي البظري)، وذلك موضوع سنعود إليه. ويعتبر الأطباء على

---

(١٧) ميلاني كلاين، **التحليل النفسي للأطفال**، مصدر مذكور سابقاً، ص٢٢٤.

(١٨) ميلاني كلاين، **من تحليل عصاب وسواسي لدى طفل في السادسة من عمره**، الجمعية الألمانية الأولى لعلم النفس التحليلي، ويرزبورغ، ١١ تشرين الأول ١٩٢٤.

(١٩) انظر الفصل الحادي عشر.

(٢٠) كارن هورنه، **الهروب من الأنوثة**، الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي، ١٩٢٦، المجلد ٢٧ ص٣٣٤. إنها دعمت هذه الفرضية دعماً واسعاً في مقال نشرته في الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي، المجلد ١٤، ص٥٧.

الغالب أن استمناء مهبلياً فعلياً أكثر شيوعاً من الاستمناء البظري خلال السنوات الأربع أو الخمس الأولى من الحياة، في حين أن هذه الحالة ليست بالتأكيد هي الحالة السائدة خلال فترة الكمون، وذلك واقع يجعلنا بذاته نفكر بتحول من الاتجاه الأنثوي الى اتجاه مذكّر أكثر قوة. ولكننا إذا وضعنا جانباً هذا العمل الوظائفي المهبلي الفعلي، فإن بوسعنا، انطلاقاً من تحليل راشدين وأطفال معاً، أن نحصل على العديد من البراهين على استيهامات ورغبات أنثوية في الطفولة الأولى: استيهامات ذات علاقة بالفم، والفرج، والجنين، والشرج، واتجاه التلقّي للجسم بصورة عامة. وأعتقد، لهذه الأسباب جميعها، أن بوسعنا أن نبقي مسألة الأولية البظرية، وبالتالي الأولية المذكّرة لدى البنت عندما تكون رضيعاً على وجه الحصر، معلّقة إلى أن نعرف عن الجنسية في هذه المرحلة البدئية جداً أموراً أكثر مما نعرف الآن.

وثمة مثال مشابه على سوء الفهم، مصدره الفرضيات الأولية المختلفة، موجود في مشكل الشدّة في الطور القضيبي الثاني وأهدافه المميّزة. إن فرويد، الذي يؤكد أن الشدة والهدف يشرحهما طور قضيبي أول مذكر بالنظر إلى أن الصدمة الناجمة عن رؤية عضو الذكر لاتنفكّ تعزّز هذا الطور، ينتقد كارن هورنه التي تعتقد، في رأيه، أن الهدف وحده مصدره الطور القضيبي الأول، بالنظر إلى أن الشدة ناجمة عن عوامل لاحقة (حصر). وبمقدار ما تدعم مع ذلك كارن هورنه الفرضية ب (وليس بوسعي، بالطبع، أن أقول على وجه الضبط مقدار دعمها)، فإنها تدعم بالمقدار نفسه نقيض الرأي الذي يجعلها فرويد تدعمه. وهي على وفاق معه في أن شدة الطور القضيبي الثاني ناجمة عن الطور السابق (ولكن مع الانزياح) ولاتبتعد عنه إلا بقولها إن الهدف غير ناجم عنه، بالنظر إلى أن العوامل الثانوية هي التي تحدّده على وجه الخصوص. وكل ذلك، ونقول مرة أخرى أيضاً، منوط بالنحو الذي نعتبر عليه الطور الأول، فإما أن نعتبره

على وجه الخصوص مذكراً وذاتي الغلمة وإما أن نعتبره بصورة رئيسة أنثوياً وغيري الغلمة.

ويبدو أن فرويد يعتقد أن المسألة محسومة بفعل واقع مفاده أن العديد من البنات الصغيرات يكشفن عن تعلّق دائم ومطلق بالأم. وهو يصف ذلك بأنه المرحلة قبل الأوديبية من النمو، مرحلة لايمثّل فيها الأب سوى دور صغير جداً ودور سلبي (منافسة). وغير ممكن أن يشك المرء في هذه الملاحظات وبوسعي شخصياً أن أذكر الحالة القصوى لتعلّق مطلق بالأم امتدّ حتى البلوغ على وجه التقريب، وذلك عمر استقرّ فيه ضرب من التحويل على الأب بالدرجة نفسها من اقتصار التعلّق عليه. وهذه الحالات لاتستبعد مع ذلك أن يكون ثمة ضرب من العقدة الأوديبية الإيجابية موجوداً في خيال البنت اللاشعوري. وهي حالات تقتصر على البرهان على أن هذه العقدة لم تفلح في أن تتجلّى بالنسبة للأب الحقيقي. ويبيّن التحليل، بحسب تجربتي في مجال الحالات النمطية من هذا النوع، وبحسب تجربة محلّلين نفسيين للأطفال، وعلى وجه الخصوص ميلاني كلاين، وميليتا شميديبرغ، ونينا سرل، أن هؤلاء البنات الصغيرات عانين في زمن مبكّر جداً دوافع ذات علاقة بعضو ذكر متخيّل، عضو ذكر مندمج بالأم، ولكنه مشتق من الأب، وأنهن صنعن استيهامات خاصة بجماع الأبوين. وأسمح لنفسي، إذ وصلت إلى هذه النقطة، أن أذكّر كم بالتشديد، في الجزء الأول من هذا المقال، على مفهوم «الوجه المركّب من الأبوين»، وتلك صورة الأبوين المجتمعين في الجماع.

١١- فكرة تتجسّد

ذلك يقودنا إلى دراسة المؤشر الثاني المذكور. وهذا المؤشر ذو علاقة بالأفكار التي تصوغها البنت الصغيرة عن الجماع، وتلك أفكار تؤدي دوراً ذا أهمية في نموها الجنسي. وتعكس الأفكار الجنسية لطفل من الأطفال جبلّته

الجنسية الخاصة، كما بيّن فرويد منذ زمن طويل، وذلك أمر ينبغي له إذن أن يساعدنا في حلّ مشكلنا. كتب إليّ فرويد، منذ بضع سنين، يقول إن ثمة أمرين كان يشعر تجاههما أنه في ظلمات النمو الجنسي الأنثوي بالتأكيد. فالأمر الأول كان يكمن في أن فكرة الجماع الأولى، لدى البنت الصغيرة، كانت فمية أي فكرة مصّ العضو الجنسي[٢١]. وقد اكتشف فرويد كعادته نقطة رئيسة، على الرغم من أن من المحتمل أن يكون التاريخ أكثر تعقيداً. ولهذه الملاحظة الرئيسة، على أي حال، عدة نتائج جديرة بالدراسة. ففي أول الأمر، يصعب على المرء أن يتخيّل تكوّن تصوّر فمي صرف إذا كانت فكرة الجماع الأولى قد حدثت بعد سنين من تجارب الرضيع الفمية، والتحليلات التفصيلية لهذه الفترة البدئية، وبخاصة تلك التي أجراها محلّلو الأطفال، تؤكد ما كانوا يتوقّعون منها، أي أن التجارب والتصور مقترنان اقترانا وثيقاً، لا من الناحية التكوينية فحسب، ولكنهما مقترنان من الناحية الزمنية أيضاً. وتعزو ميلاني كلاين[٢٢] أهمية كبيرة إلى التنبيه الذي تحمله إلى الرغبات ضروب النقص وخيبات الأمل، التي لا يمكن تجنّبها خلال فترة المصّ، وتربط معاً بالفطام منابعَ العداوة للأم الأكثر عمقاً والفكرة الناشئة لموضوع يشبه عضو الذكر، موضوع هو ضرب من الثدي الأكثر اتصافاً بأنه مرْض. ونحن نعلم جيداً أن الرغبات المتجهة صوب الثدي يجري تحويلها الى فكرة عضو الذكر وأن هذين الموضوعين يتماثلان تماثلاً كبيراً في الخيال، ولكن من العسير أن نقول في أي فترة يبدأ التحويل بالاستقرار على شخص الأب. ومن المؤكد، في اعتقادي، أن هذين الموضوعين يستقرّان، خلال فترة طويلة نسبياً، على الأم أكثر من الأب، أي أن البنت تبحث عن عضو

---

(٢١) بوسعي أيضاً أن أذكر الأمر الآخر، بالنظر إلى أن رأياً صادراً عن مثل هذا المصدر لا يمكنه إلا أن يسترعي الانتباه: وكان مفاد هذا الأمر أن البنت تتخلّى عن الاستمناء بسبب خيبة الأمل التي يسبّبها البظر لها (بالمقارنة مع عضو الذكر).

(٢٢) ميلاني كلاين، التحليل النفسي للأطفال، ص ٢٥١.

الذكر لدى أمها. ويصبح نشدان عضو الذكر، هذا النشدان المبهم، أكثر وضوحاً نحو السنة الثانية من العمر ويرتبط بفكرة مفادها أن عضو الذكر لدى الأم مصدره عضو الذكر الأبوي، إذا أنها كانت قد حصلت عليه خلال مصّ مفترض لعضو الذكر الأبوي.

وقد يصعب، في المقام الثاني، أن تتقلّص فكرة المصّ، مص عضو الذكر، إلى فكرة مص لاهدف له. ويعلم الطفل جيداً أن الحصول على شيء من الأشياء هو هدف المصّ. فالحليب (أو المني) وعضو الذكر (عضو الذكر-الثدي) هما إذن شيئان يُبتلعان ونحن نتوصّل، بمعادلات رمزية معروفة، ونتوصّل بصورة جزئية أيضاً من خلال تجارب الطفل الغذائية الخاصة، إلى فكرتي الغائط والأطفال التي تُنال أيضاً انطلاقاً من هذا الفعل الأولي الذي هو المصّ. وفي رأي فرويد أن حب الطفل وجنسيته هما دون هدف بصورة أساسية، ومحكوم عليهما، لهذا السبب ذاته، بأن يكونا موضع خيبة أمل. وتؤكد الفرضية العكسية أن ثمة في اللاشعور أهدافاً محدّدة جداً وأن الخيبة ناشئة من أن هذه الأهداف لاتُنال.

١٢- المنافسة الأوديبية متناسبة مع خيبة الأمل

وأودّ، إذ وصلت إلى هنا أن أعبّر بوضوح عن أن الرغبات موضوع البحث هي، في رأيي، ذات غلمة غيرية. ولمّا تسنح الفرصة للبنت الصغيرة جداً أن تتكوّن لديها رغبة ذاتية الغلمة عند رؤية عضو الذكر الخاص بصبي. وتستقرّ فيما بعد رغبتها في أن تمتلك هي ذاتها عضو ذكر، للأسباب التي عبّرت عنها كارن هورنه[٢٣] بوضوح كبير. فرغبة البنت، في المرحلة الأولى، في أن تدمج عضو ذكر بواسطة الفم وأن تصنع منه طفلاً (غائطياً) شبيهة مع ذلك بالغلمة الغيرية لدى المرأة الراشدة على الرغم من أنها رغبة

(٢٣) كارن هورنه، في تكوين عقدة الخصاء لدى المرأة، الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي، ١٩٢٤، المجلد الخامس، ص٥٢-٥٤.

لاتزال على مستوى غذائي، ويؤكد فرويد[٢٤] أن رغبة البنت في امتلاك عضو ذكر تحلّ محلها رغبة في أن يكون لها طفل عندما تُصاب الرغبة الأولى بخيبة أمل. ولكنني بالحري على وفاق مع فرضية ميلاني كلاين التي تعتبر أن المعادلة عضو ذكر - طفل معادلة فطرية وأن رغبة البنت في أن يكون لها طفل - شأنها تماماً شأن المرأة السوية - هي الاستمرار المباشر لرغبتها الغلمية الغيرية في أن يكون لها عضو ذكر. وما تبحث عنه هو اللذة الناجمة عن دمجها عضو ذكر وصنع طفل منه أكثر مما هو امتلاك طفل لأنها ليس بوسعها أن تمتلك عضو ذكر خاص بها.

وتتجلّى طبيعة هذه الرغبات، الليبيدية بصورة خالصة، بأنحاء عديدة. ولن أذكر سوى نحو واحد. فإدخال الثدي في الفم تعقبه لذة شرجية عند مرور الغائط، والتنظيف الذي يلي فيما بعد تحسّ به البنت الصغيرة على الغالب على أنه تجربة جنسية مع الأم أو الممرضة. وتستند هذه الملاحظة إلى واقع مفاده أن يد الأم أو إصبعها تكافىء عضو ذكر، وذلك هو على الغالب حضّ على الاستمناء.

والحال أن وضعاً من المنافسة الأوديبية السوية لا بدّ له بالتأكيد من أن يوجد إذا نالت الأم من الأب كل ما تنزع البنت إلى نيله، وهي منافسة تتناسب على وجه الدقة مع خيبة أمل البنت الخاصة. والعداوة التي ترافق هذه المنافسة تستأنف استئنافاً مباشراً وتعزّز تلك التي كانت البنت تعانيها إزاء أمها خلال فترة المصّ، ذلك أنهما من طبيعة واحدة. فالأم تمتلك شيئاً ترغب فيه البنت، ولا تريد أن تمنحها إياه. ولا تلبث فكرة عضو الذكر الأبوي أن تتبلور، على نحو يتعاظم وضوحه، في هذا الشيء الذي نالته الأم من الأب خلال تنافس فازت فيه الأم عليه، وفي الطفل الذي بوسعها إنتاجه انطلاقاً من هذا الشيء. وذلك لا يتّفق مع التأكيد المطلق أن مفهوم العقدة الأوديبية

(٢٤) فرويد، بعض النتائج السيكولوجية للتمييز التشريحي بين الجنسين، مصدر مذكور سابقاً.

لا ينطبق إلا على الأطفال الذكور(٢٥). يقول فرويد: «لدى الأطفال من الجنس المذكر وحدهم إنما يحدث اللقاء القدري، لقاء الحب لأحد الأبوين والكره للأب الآخر الذي يعتبره منافساً». ونحن مرغمون هنا على أن نكون ملكيين أكثر من الملك(٢٦).

ومع ذلك لا يشرح الوصف الفرويدي للجماع بالمص، الذي انطلقنا منه، تلك الملاحظة الهامة التي يلحّ بعضهم عليها وتخصّ عاطفة المنافسة التي تعانيها البنت الصغيرة إزاء الأب. والحقيقة أن تصوّر الجماع بالمصّ لا يبدو سوى نصف الحكاية. فالأم لا تتلقّى من الأب شيئاً من الأشياء فحسب، ولكنها، وفقاً للفكرة المتمّمة التي نصادفها، تمنحه شيئاً من الأشياء أيضاً، ونقول، بكلمتين، تمنحه غذاء. وفي هذا إنما تكون المنافسة قوية جداً، ذلك أن الأم تمنحه على وجه الضبط ما ترغب فيه البنت الصغيرة (الثدي والحليب). وثمة أيضاً، إزاء الأب، مصادر أخرى للمنافسة والكره والضغينة التي ينبغي لي أن أتكلم عليها. والواقع أننا، حين توظّف السادية هذا التصور لـ«لغة الثدي» (كما بوسعنا تسميتها)، نحصل عندئذ على الفكرة المعروفة ذات النزعة النسوية، الفكرة عن الرجل الذي «يستهلك» المرأة، ويتعبها، ويسحب منها ما لديها، ويستغلّها، إلخ.

١٣ ـ الفاعلية التي تمارس ضد جسم الأم

لا يوجد شك في أن البنت الصغيرة تتوحّد بمظهري هذه التصورات، ولكن رغباتها في التلقّي، في حالتها، لا بدّ لها من أن تكون أكبر أهمية من رغباتها في العطاء. ففي هذا العمر، أشياء كثيرة ترغب فيها ولديها قليل من الأشياء تعطيها.

فما هو إذن معنى هذه الفاعلية القضيبية التي تُمارس ضد جسم الأم والتي كانت قد لاحظتها هيلين دوتش، وجان لامبل، دي غروت، وميلاني

(٢٥) انظر الفصل السابق.

(٢٦) الجملة واردة في النص بالفرنسية.

كلاين، ومحلّلات نفسيات أخريات؟ علينا ألا ننسى أن الطفل يتصور عضو الذكر، في زمن مبكّر جداً، لا على أنه أداة حب فحسب، ولكنه يتصوره أيضاً على أنه سلاح تدمير. والبنت، في غضبها السادي ضد جسم الأم، الناجم على نحو كبير عن عجزها عن أن تتحمّل المعاكسة، تستولي على كل الأسلحة، فم، ويدين، وقدمين. وبهذا الصدد، ربما ليست القيمة السادية لعضو الذكر، أي قدرته على أن يوجّه بولاً مدمّراً، هي الأوهى بين استخداماته التي تحسد الصبي عليها. ونحن نعلم أن معارضة الطفل تولّد السادية ويبدو، إذا استندنا في حكمنا إلى استيهامات الأطفال وسلوكهم الفعلي على حدّ سواء، أن المبالغة في تقدير كمية السادية الموجودة لدى الأطفال أمر شائك جداً. وتولّد هذه السادية، بسبب الخشية من الانتقام الذي تثيره، خوفاً مقابلاً. ويبدو، هنا أيضاً، من الصعوبة أن نبالغ في تقدير عمق الخوف الذي يعانيه الأطفال وشدته. وعلينا أن ننظر إلى النمو الجنسي للصبيان والبنات على أنه يتأثّر في كل نقطة من نقاطه بالرغبة في مواجهة الخوف، وإنني على وفاق مع ميلاني كلاين[٢٧] في ريبيتها التي أبدتها حول إمكان القدرة على أن نصف النمو الجنسي، كما حاول فرويد أن يفعل محاولة مكشوفة، دون أن نتكلم على الأنا العليا، أي دون الكلام على عوامل تتكوّن بفعل الإثمية والخوف.

وبهذا الصدد، أتوصّل إلى التساؤل: ألم يعز فرويد دلالة كبيرة جداً إلى الأهمية التي توجّهها البنت إلى أعضائها الخارجية (البظر-عضو الذكر)، على حساب المخاوف الرهيبة الخاصة بداخل جسمها؟ وأنا واثق أن الداخل، بالنسبة لها، مصدر حصر أشد بكثير وأن الاهتمام الذي يبدو أنها توجّه إلى الخارج ليس إلا موقفاً دفاعياً، وتلك نتيجة برهنت على حقيقتها ميلاني كلاين[٢٨] برهاناً مفصّلاً في بحوثها الثاقبة التي انصبّت على أولى السنوات

(٢٧، ٢٨) ميلاني كلاين، التحليل النفسي للأطفال، ص ٢٤٨-٢٤٩.

الأولى من النمو الأنثوي. ولفتت جوزين مولر[٢٩] الأنظار بغبطة إلى أن الواقع التشريحي، بالنسبة للبنت، القاضي بأن يكون لها عضوان تناسليان، المهبل الداخلي (الرحم) والبظر الخارجي، يتيح لها أن تنقل مصدر الغلمة من الداخل إلى الخارج عندما يكون الداخل مهدّداً. والخشية الرئيسة لدى الفتاة التي تشعر بأنها آثمة - حتى بصورة شعورية - هي، على أي حال، أن تكون عاجزة أبداً عن أن يكون لها طفل. وهي تخشى، بعبارة أخرى، أن تكون أعضاؤها الداخلية معطوبة. إنه أمر يذكّرنا بثالوث هيلين دوتش[٣٠] من المخاوف الأنثوية المكافئة: الخصاء وفضّ البكارة والولادة (علماً بأن الخصاء يحتاج إلى تحديد دقيق)، وكذلك المخاوف الخاصة بسن الرشد، مخاوف من «الأمراض الداخلية»، وعلى وجه الخصوص سرطان الرحم.

١٤ ـ تحويل الخوف والعداوة على الأب

الخوف الذي يعانيه الطفل بصورة بدئية إزاء الأم، شأنه شأن الكره ذي العلاقة بها، يُحال على الأب، وكلاهما يتمركزان على الغالب تمركزاً غريباً على فكرة عضو الذكر ذاته. وكما أن الصبي يسقط ساديته على الأعضاء الأنثوية، إذ يستخدم هذه الأعضاء الخطرة فيما بعد وسيلة لتدمير الأب بالجنسية المثلية، تسقط الفتاة ساديتها على عضو الرجل إسقاطاً ترافقه النتيجة ذاتها على وجه التقريب. وتلك تجربة من التجارب الأكثر غرابة. تجربة مفادها أن يرى المرء امرأة نذرت حياتها لاكتساب عضو ذكر (على المستوى الجنسي المثلي) تشعر في الوقت نفسه بالقرف والخوف والكره لكل عضو ذكر فعلي. ولدينا، في هذه الحالات، فكرة عن الذعر والفظاعة اللذين يمكنهما أن يستقرا بالنسبة إلى عضو الذكر، أكثر الأسلحة المميتة تدميراً، وعن

(٢٩) جوزين مولر، الفصل الحادي عشر.

(٣٠) هيلين دوتش، معنى المازوخية في الحياة الذهنية لدى المرأة، الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي، ١٩٣٠، المجلد١١، ص٤٨.

الرعب الذي قد توحيه فكرة ولوجه داخل الجسم[٣١]. وهذا الإسقاط الخاص هو من الأهمية بحيث ينبغي للمرء أن يتساءل إلى أي مدى لا ينجم خوف البنت عن رغباتها السادية في أن تجتثّ عضو الذكر، إذ تعضّه، وتبتلعه إذ تنتزعه من الأم أو من الأب فيما بعد، وذلك أمر يفضي إلى الخشية من أن يدخل فيها هذا العضو الخطر، عضو الذكر (وهو خطر لأن تصوره يحدث تحت تأثير السادية). وذلك أمر يصعب تحديده، ولكن قد يحدث أن يكون لدينا هنا مركز المسألة ذاته.

وعندما تكبر البنت وتفهم على نحو أوضح أن الأب هو الذي يملك بالفعل (ويحتفظ) عضو الذكر، تحوّل على أبيها غالباً ضغينتها على أمها. ويقول فرويد إن هذه التحويل الغريب، تحويل العداوة وخيبة الأمل من الأم على الأب، هو البرهان على أنه لا يمكنه أن يصدر عن منافسة مع الأم، ولكننا رأينا للتو أن شرحاً آخر كان ممكناً. ويفهم المرء تماماً أن الضغينة تستقرّ في أعقاب رغبة غلمية غيرية في عضو الذكر، رغبة معاقة وأن حضور الأب ينبّهها ـ ويُفهم أيضاً أن هذه الضغينة تُضفى على الأم أول الأمر ثم على الأب. وفي هذه الضغينة على الأب الذي يعوق الرغبة الليبيدية، ينزلق عنصر إضافي، ذلك أن للإحباط أيضاً نتيجة مفادها ترك البنت إلى الخوف من الأم. والواقع أن إشباع رغبة من الرغبات، عندما يكون الخوف من العقوبة بسببها موجوداً، قد يبين أنه الضمان الأقوى ضد الحصر، ذلك على الأقل ما يعتقده اللاشعور عادة. وهذا هو السبب الذي من أجله يرتكب من يرفض الإشباع جريمة مزدوجة: إنه يرفض اللذة الليبيدية والأمن في الوقت نفسه.

١٥ ـ حسد عضو الذكر، ماذا تفعل البنيّة بعضو الذكر؟

هذه العناصر، التي ليست ولا ريب سوى مستخلص من التعقيد

(٣١) من هنا على وجه الخصوص منشأ التواتر لاستيهامات المرأة أنها تُضرب حين تتجنّب الولوج.

الحقيقي، ينبغي لها أن تكون ماثلة في ذهننا عندما نحاول أن نعيد بناء النمو في الطور القضيبي الثاني. وتدرك البنت **بصورة لاشعورية**، في هذه الفترة، أن للموجودات البشرية من الجنس المذكر عضو ذكر حقيقياً وهي تستجيب لذلك على نحو متميّز إذ ترغب في أن يكون لها عضو ذكر خاص بها فلماذا هذه الرغبة؟ وماذا تريد أن تفعل به؟ إنه سؤال أساسي وجوابه ينبغي له أن يعطينا الجواب في الوقت نفسه عن السؤال الأساسي أيضاً حول أصل العداوة التي تحملها البنت لأمها. وبوسعنا هنا أن نميّز بوضوح كاف بين الفرضيتين آ و ب، وذلك أمر ينبغي له أن يكون قادراً على تحريض البحوث المستقبلية.

وللجواب عن هذه الأسئلة، الصادر عن الفرضية آ، مزية بالتأكيد مفادها أنه أبسط من الجواب الذي تعطيه الفرضية ب. فالبنت، وفق الفرضية آ، ترغب في أن تمتلك عضو الذكر الذي تراه لأنه شيء كان دائماً موضع اعتبارها، ولأنه هو الذي تراه في أحلامها الأكثر جنوناً ببظر مرْض تحقّق للمرة التي لا تعرف ترتيبها. وليس ثمة في ذلك نزاع داخلي خطير، بل ضغينة فقط، وبخاصة على الأم التي تجعلها البنت مسؤولة عن خيبة الأمل التي تلي بصورة لا يمكن تجنّبها. وقد يكون حسد عضو الذكر هو السبب الرئيس لانصراف البنت عن أمها. والقيمة الفعلية لـ عضو الذكر ـ البظر قيمة غلمية ذاتية بصورة أساسية، وأفضل عرض عن ذلك كانت كارن هورنه[٣٢] قد قدّمته منذ سنين. والرغبة رغبة ليبيدية بصورة كلية على وجه التقريب وتمضي في الاتجاه الذي تمضي فيه الميول الأولى للبنت. وعندما تُصاب هذه الرغبة بخيبة الأمل، تعود البنت إلى اتجاه غلمي غيري أنثوي ومحارمي، ولكن ذلك ليس سوى السبيل الوحيدة الباقية لها. وكل مقاومة مزعومة للأنوثة أو كل اعتراض بصددها بالحري لا يمليه خوف عميق يرتبط بها بقدر ما تمليه الرغبة في الاحتفاظ بالموقع المذكّر، عضو ذكر ـ بظر، موقع تعرّضه

(٣٢) كارن هورنه، حول تكوين عقدة الخصاء لدى المرأة، مصدر مذكور سابقاً.

الأنوثة إلى الخطر. ونقول بعبارة أخرى من الضروري أن يكون هذا الاعتراض هو ما يبديه الصبيان لو كان لهم أن يختاروا، لأن الأنوثة تكافىء الخصاء. وهذه الفرضية، التي تشرح بعبارة واحدة وفي وقت واحد كره البنت أمها وقوة الطور القضيبي الثاني شرحاً بعامل واحد رئيس (الرغبة في امتلاك عضو ذكر ـ بظر)، فرضية بسيطة ومنطقية معاً. والمسألة تكمن مع ذلك في أن نعرف: هل تشمل هذه الفرضية كل شيء، أي هل الفرضيات التي تنطوي عليها هذه الفرضية بالتضمين، في الطور القضيبي الأول، تأخذ بالحسبان جميع العوامل الموجودة؟

والجواب الذي تقدّمه الفرضية ب مفاده أن البنت، في الأصل، ترغب في عضو الذكر على المستوى الغلمي الغيري، ولكنها مدفوعة صوب اتجاه غلمي ذاتي (في الطور القضيبي الثاني) على النحو الذي يكون عليه الصبيان أنفسهم، خوفاً من المخاطر المتخيّلة ذات العلاقة بالرغبات الغلمية الغيرية. وسأذكر هنا بعض المؤلفين الذين يوضّحون بصورة بارزة هذه الآراء المتعارضة. فمن جهة، تكتب هيلين دوتش[٣٣] المتفقة مع فرويد تقول: «فرضيتي هي أن عقدة أوديب، لدى البنت، تستقرّ مع عقدة الخصاء». ومن جهة أخرى، تتكلّم كارن هورنه[٣٤] على «هذه الأسباب ذات السمة الأساسية للهروب في الاتجاه المذكر، وتلك أسباب أصلها كامن في عقدة أوديب»؛ وتؤكد ميلاني كلاين[٣٥] أنها ترى أن «البنيّة تقاوم اتجاهها الأنثوي الخاص خوفاً من أمها أكثر مما تقاومه بسبب ميولها المذكّرة».

والشكل المذكر للغلمة الذاتية يكوّن هنا إذن سبيلاً وحيدة باقية لها. وتتبنّى البنيّة هذا السبيل لأن الأنوثة، التي هي الأمر المرغوب بالفعل، ترافقها مشاعر خطر وحصر لا يمكنها أن تتحمّلها. والمصدر الأعمق لضغينة

---

(٣٣) هيلين دوتش، معنى المازوخية في الحياة الذهنية للمرأة، مصدر مذكور سابقاً.

(٣٤) كارن هورنه، الهروب من قبعة المرأة، مصدر مذكور سابقاً.

(٣٥) ميلاني كلاين، التحليل النفسي للأطفال، ص ٢٤٩.

البنت على أمها ناشىء من إشباع فمي غير تام يقود البنت إلى أن تبحث عن ثدي أكثر نجوعاً، عن عضو ذكر، إذ تسلك درباً ذا غلمة-مثلية ثم درباً، فيما بعد، يتحقّق فيه الإشباع بواسطة موضوع من الجنس المغاير. والاتجاه الليبيدي إزاء الثدي يتجلّى هنا في استيهامات أنثوية تقترن باستمناء فرجي (إما مهبلي وإما بظري) تمارسه البنيّة وحيدة أو مع الشخص الذي يُعنى بالنظافة. والبنت متعلّقة بأمها تعلقاً جنسياً مثلياً في هذه المرحلة. وهي بوسعها أن تأمل، منها وحدها، نيل الإشباع المرغوب بواسطة عضو الذكر، طوعاً أو كرهاً. وذلك أمر يبدو سهلاً ولا سيما أن الأم تمثّل أيضاً، في هذا العمر، ذلك المصدر الرئيس للإشباع الليبيدي (الإشباع بواسطة موضوع خارجي) على أي حال. وليست البنت تابعة للأم من حيث المحبة والإشباع فحسب، ولكنها تابعة أيضاً من حيث إشباع حاجاتها الحيوية جميعها. والحياة متعذّرة لولا الأم وحبها. وفي ذلك تكمن الأسباب التي هي أقوى ما يمكن لتتعلّق البنت بأمها تعلقاً شديداً.

١٦ ـ أصل العداوة للأم

إن قفا الميدالية موجود في اللاشعور مع ذلك، وهو أكثر كارثية بكثير. فالدافع السادي إلى مهاجمة الأم وسرقتها يقود إلى خوف شديد من الانتقام، خوف يتطور، كما كنا قد شرحنا فيما سبق، إلى خوف من عضو الذكر الذي يلج، خوف يتجدّد نشاطه عندما تجد البنت نفسها أمام عضو ذكر حقيقي ليست عائديته إلى الأم بل إلى الأب أو الأخ. وليس الوضع في الواقع أسوأ مما كان عليه في السابق، ذلك أن البنت لا يزال لها بظر واحد ولم تأخذ منها الأم شيئاً. وتلومها مع ذلك لأنها لم تمنحها ما هو أكثر، أي عضو ذكر. ووراء هذه اللوم الذي مفاده أن الأم لم تشبع رغباتها الغلمية الذاتية إلى حدّ كاف، يكمن لوم أكثر عمقاً وقوة: لوم مفاده أنها عارضت الرغبات الأنثوية الحقيقية لطبيعتها المستقبلة وهدّدت بتدمير جسمها في الحالة التي تستمرّ خلالها متمسكة بهذه الرغبات.

وتبدو الفرضية ب إذن أنها تقدّم أسباباً تناسب العداوة للأم أكثر من الفرضية آ. وكلتاهما متّفقتان فيما يخصّ الإحباط الصادر عن الأم، ولكنهما تختلفان في تقدير الإحباط على المستوى التناسلي. فالأم لا تسحب شيئاً من البنت وفق الفرضية آ، ولكن الضغينة ناشئة من أنها ليس لديها ما هو أكثر. وتعوق الأم معاً، وفق الفرضية ب، ميولها الأنثوية (إلى عضو الذكر) وتهدّد بتشوية جسمها (أي بتدمير الأعضاء الأنثوية حقاً، التي تصلح لاستقبال عضو الذكر ولحمل الأطفال) إذا لم تتخلّ عن هذه الميول. وليس من المدهش أن تتخلّى عنها في حدود معيّنة وفي بعض الأحيان تتخلّى عنها بكاملها.

ويعبّر الطور القضيبي الثاني عن ارتكاسه على هذا الوضع وعن مقاومته خطر العقدة الأوديبية[٣٦]. والرغبة التي تعبّر عن نفسها في هذا الطور، رغبة في أن تمتلك البنيّة عضو ذكر خاص بها، تصون الليبيدو المهدّد بتوجيهه صوب درب غلمي ذاتي أكثر أماناً، كما أنه مصان عندما يتوجّه صوب الانحراف. وهذا الانزياح على المستوى الغلمي الذاتي، انزياح يرافقه بالتالي ضرب من تعزيز العصاب، يصاب بدوره بخيبة أمل. وثمة القليل جداً من الفتيات اللواتي لا ينخدعن (في حدود معيّنة خلال حياتهن) فيما يتعلّق بأصل مشاعر الدونية لديهن. والمصدر الحقيقي، كما هو الأمر دائماً عندما تكون مشاعر الدونية هي موضع البحث، ضرب من التحريم الداخلي الناجم عن الإثمية والخوف. وهذا الخوف ذو علاقة بالرغبات الغلمية الغيرية أقوى من علاقته بالرغبات الغلمية الذاتية بكثير.

وهناك، بالإضافة إلى ذلك، مزايا أخرى لهذا الموقع القضيبي، ومن هنا منشأ قوته الكبيرة. إنه يكوّن دحضاً كاملاً للهجمات المرهوبة التي تشنّها

---

(٣٦) هذه الفرضية التي دافعت عنها في مقالي لمؤتمر وانسبروك كانت كارن هورنه قد قدّمتها للمرة الأولى في اعتقادي (في تكوين عقدة الخصاء، مصدر مذكور سابقاً، ص ٥٠) وطوّرتها ميلاني كلاين في كتابها التحليل النفسي للأطفال، ص ٢١١، إلخ.

الأم على أنوثة البنت لأنه ينفي وجود هذه الأنوثة ذاتها وينفي بالتالي كل الأسباب لمثل هذا الهجوم. وذلك يولّد أيضاً استيهامات لاشعورية أخرى هي أيضاً أكثر بعداً عن العقلانية: يصبح ممكناً مواجهة ثنائية المشاعر إزاء الأم. فمن جهة، بمتناول البنت الآن سلاح الهجوم، سلاح الحماية إذن، الأكثر قوة. إن جون ريفيير(٣٧) هو الذي لفت الانتباه على وجه الخصوص إلى هذا السبب. ومن جهة أخرى، بوسعها، وفق آلية الاسترداد ذات الأهمية، التي نذرت لها ميلاني كلاين دراسات مهمة من هذه الزواية، أن تعوّض عن الرغبات الخطرة في أن تسرق عضو ذكر من أمها: إن لديها الآن عضو ذكر تعيده إلى أمها التي كان قد سُلب منها، وتلك سيرورة تؤدي دوراً كبيراً في الجنسية المثلية الأنثوية. يضاف إلى هذا أنها لم تعد تتعرّض لخطر الهجوم، على مستوى السادية، الذي يشنّه عضو الذكر الخطر، عضو الرجل. ويسأل فرويد إن كان ثمة هروب من الأنوثة، ومن أين يمكنه أن يكون ناجماً إن لم يكن عن الميول المذكرة. والحال أننا نرى أن لدى البنت مصادر من الطاقة الانفعالية أكثر عمقاً بكثير من الميول المذكرة يمكنها أن توجد، على الرغم من أن هذه الميول المذكرة بوسعها أن تتجلّى في مخرج مقنّع جداً بالنسبة لها.

١٧ ـ أرغبة غير مشبعة أم منافسة مع الأب؟

سنكون بصورة عامة على وفاق في أمر واحد على الأقل، هو أن الرغبة في عضو ذكر تعبّر عنها البنت مرتبطة بكره الأم. وهذان المشكلان مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، وحول طبيعة هذه العلاقات إنما توجد فوارق الرأي الأكثر وضوحاً. وفي حين يؤكد فرويد أن الكره موجود لأن البنت لم تنل عضو ذكر خاص بها، تفترض الفرضية التي نقدّمها هنا، فرضية دعمتها

(٣٧) جون ريفيير، التنظيم النسائي شبيه بالتقنّع، الصحيفة العالمية لعلم النفس التحليلي، ١٩٢٩، المجلد العاشر، ص٣٠٣.

ميلاني كلاين بقوة[٣٨]، أن الكره هو بصورة أساسية منافسة مع عضو الذكر الأبوي. فالطور القضيبي الثاني، وفق فرضية فرويد، ارتكاس طبيعي على واقع تشريحي تعس؛ وعندما يفضي هذا الطور إلى خيبة أمل، تعود البنت إلى درب غشيان المحارم الغلمي مع الجنس الآخر، وتدخل البنت، وفق الفرضية الثانية، دخولاً مبكّراً جداً في درب غشيان المحارم الغلمي مع الجنس الآخر، يرافقه الكره الأوديبي للأم، فيكون الطور القضيبي الثاني هروباً يتحاشى مخاطر هذا الوضع التي لا يمكنها تحمّلها. ويكون له على وجه الدقة إذن ما للظاهرة المقابلة لدى الصبي من دلالة.

وخلاصة القول، أودّ الآن أن أعقد موازنة عامة بين هذه المشكلات لدى الصبي والبنت. إن فكرة العمل الوظائفي في اتجاه غلمي مع الجنس الآخر ذي علاقة بطبيعتهما، مفقودة لدى الاثنين في الطور القضيبي الثاني؛ فثمة تخلّ. ونلاحظ لدى الاثنين أيضاً إنكاراً قوياً للعضو الأنثوي ورفضاً له: فجميع الجهود تنزع إلى الخيال الذي مفاده أن للجنسين عضو ذكر. ولهذه الخاصّة الرئيسة للطور القضيبي الثاني لدى الجنسين بالتأكيد شرح مشترك، والفرضيتان اللتان تتواجهان تقدّمان شرحاً واحداً له. فاكتشاف الفارق بين الجنسين وما ينطوي عليه هو الذي لا تقبله الفرضية الأولى. وثمة، وفق الفرضية الثانية، خوف عميق من العضو الأنثوي ناجم عن حصر ذي علاقة بأفكار الجماع الأبوي الذي يرافقه، خوف يتجدّد نشاطه على الغالب بفعل رؤية العضو التناسلي للجنس المقابل.

والفارق الرئيس بين هاتين الفرضيتين، الذي تصدر عنه الفوارق الأخرى وإليه ينبغي لبحوثنا بالتالي أن تتوجّه، ذو علاقة على وجه الاحتمال بالأهمية المتغيّرة التي يعزوها مختلف المحلّلين إلى الاستيهام البدئي لعضو الذكر الأبوي، المندمج في الأم. فوجود هذا الاستيهام واقع يعرفه المحلّلون معرفة جيدة منذ عشرين عاماً ونيّف. ومع ذلك فإن النتيجة الرئيسة لبحوث

(٣٨) ميلاني كلاين، التحليل النفسي للأطفال، ص ٢١٠.

ميلاني كلاين ربما ستكمن في أنها تقودنا إلى الاعتراف بهذا الاستيهام على أنه السمة الدائمة لحياة الطفولة وأنها تعلّمنا أن السادية والحصر اللذين يحيطان به يؤدّيان دوراً غالباً في النمو الجنسي للصبي والبنت. وهذا التعميم يمكنه أن يمتدّ امتداداً نافعاً إلى الاستيهامات الأخرى التي وصفتها ميلاني كلاين وبعض محلّلي الأطفال الآخرين الذين يستندون إلى ما سمّته مفهوم «وجه الأبوين المركّب»، مفهوماً يقترن اقتراناً وثيقاً، كما ذكرت فيما سبق، بالمرحلة قبل الأوديبية من النمو وفق النظرية الفرويدية.

وليست الخاصة الرئيسة للطور القضيبي الثاني (إلغاء العمل الوظائفي الغلمي مع الجنس الآخر) هي ذاتها لدى الصبي والبنت بصورة أساسية فحسب، ولكنها هي الباعث أيضاً. ويتمّ التخلّي، في الحالتين، لصيانة الكمال الجسمي، أي الأعضاء الجنسية (الخارجية لدى الصبي والداخلية لدى البنت). ولا تريد البنت أن تتعرّض لخطر مفاده أن يُصاب عضوها الأنثوي أو رحمها، شأنها شأن الصبي فيما يخصّ عضو الذكر لديه. ولدى كل من الجنسين تلك البواعث الأقوى لنفي كل فكرة الجماع، أي عن الولوج، وهذا هو السبب الذي من أجله يُعنى ذهنهما بالخارج من جسمهما[٣٩].

١٨ ـ مشكلان مختلفان وطبيعة متماثلة

تناولت، في الجزأين من هذا المقال، نقطة انطلاق هي ثنائي من المشكلات المترابطة: الخوف من الخصاء والخشية من الفرج لدى الصبي، والرغبة في امتلاك عضو ذكر والكره للأم لدى البنت. ويصبح الآن ممكناً أن نبيّن أن الطبيعة الأساسية لهذين الثنائيين من المشكلات المختلفة في الظاهر

(٣٩) لا أريد أن أقول إن هذا السبب هو السبب الوحيد العامل. فهذا الاهتمام بخارج الجسم يتّفق، كما بيّن جون ريفيير في المناقشة التي تلت عرض هذا المقال على الجميعة البريطانية، مع ميل عام إلى إضفاء الخارجية، إضفاء يتجلّى لدى الطفل الذي يكبر ويبحث عن اتصال بالعالم الخارجي.

هي نفسها لدى الجنسين. والخاصتان المشتركتان تكمنان في تجنّب الولوج والخوف من الضرر الذي يسبّبه الأب من الجنس نفسه. فالصبي الذي يلج العضو الأنثوي يخشى أن يخصيه الأب؛ والبنت التي تسمح لنفسها أن يكون لها عضو أنثوي بالوسع الولوج إليه تخشى أن تشوّهها الأم. وواقع أن هذا الخطر يكون مقترناً على الغالب، بفعل الإسقاط، بالأب من الجنس المقابل، على النحو الذي وصفناه فيما سبق، مظهر ثانوي. فمصدره الفعلي هو العداوة للأب من الجنس نفسه، أي جنس الطفل. ولدينا في ذلك بالفعل صيغة أوديبية على نحو نموذجي: الجماع المحارمي يرافقه الخوف من تشوّه يسبّبه الأب المنافس. وذلك أمر صحيح بالنسبة للبنت والصبي على السواء، على الرغم من التقنّع الجنسي المثلي جداً الذي تكون البنت مرغمة على تبنّيه.

ولنعد إلى مفهوم الطور القضيبي: إذا كانت الفرضية التي نقدّمها هنا تبين صحيحة، فإن مصطلح «الطور القضيبي الأول»، الذي اقترحته فيما سبق ينبغي له ألا ينطبق إلا على الصبي؛ ومع ذلك فهو غير ضروري، ذلك أنه يعني في الواقع بكل بساطة أنه طور تناسلي. بل يمكنه أن يفتح باباً للبس، ذلك أنه يُري الوظائف التناسلية الأولى لدى الصبي في ضوءٍ قضيبي صرف، أي غلمي ذاتي، مستبعداً تلك الغلمة الغيرية، غلمة السنة الأولى من الحياة التي توجد منذ أوائل الأزمنة الأولى منها والمصطلح، بالنسبة للبنات، يفتح باباً للبس أشد أيضاً لأولئك الذين يؤكدون أن المرحلة الأولى تماماً من نموهن هي مرحلة أنثوية بصورة أساسية. أما فيما يخصّ جهل الجنسين الذي يُقال إنه يميّز الطور القضيبي الأول، فذلك أمر صحيح دون شك بالنسبة للشعور، ولكن ثمة براهين واضحة تبيّن أن الأمر غير صحيح بالنسبة للاشعور. والحال أن اللاشعور جزء مهم من الشخصية.

وأتوصّل الآن إلى ما أسمّية الطور القضيبي الثاني، ذلك الطور الذي

يفكر فيه المرء على وجه العموم عندما يستخدم مصطلح «الطور القضيبي».
وتميل الفرضية آ التي درسناها إلى اعتبار هذا الطور القضيبي الثاني تطوراً طبيعياً لدى الجنسين انطلاقاً من طور قضيبي أول، بالنظر إلى أن اتجاهه متماثل على وجه التقريب لدى الجنسين. وتشدّد الفرضية ب تشديداً أقوى على مسألة مفادها أن الطور القضيبي الثاني ضرب من الانحراف عن الطور القضيبي الذي يسبقه، أي الطور القضيبي الأول، بل إنه ينطوي من نواح كثيرة على عكس الاتجاه لهذا الطور القضيبي الأول. وذلك أمر يمكنه أن يجد تعبيره بوضوح ونحن نقول إن «الغلمة التي يتحقّق إشباعها بواسطة موضوع من الجنس المقابل وتميّز الطور الأول تتحوّل، في الطور القضيبي الثاني ولدى الجنسين، تحوّلاً واسعاً إلى غلمة ذاتية جنسية مثلية بالإنابة. فالطور القضيبي الثاني لدى الجنسين هو إذن تسوية عصابية بين الليبيدو والحصر، بين الدوافع الليبيدية الطبيعية والرغبة في تجنّب التشوّه، أكثر من كونه تطوراً ليبيدياً على نحو صرف». وليست المسألة في الحقيقة مسألة عصاب بالمعنى الدقيق للمصطلح، من حيث أن الإشباع الذي لا يزال مباحاً إشباع شعوري وليس لاشعورياً كما في العصاب. والمقصود بالحري شذوذ جنسي بوسعنا أن نطلق عليه مصطلح انحراف قضيبي. إنه قريب من العكس الجنسي؛ وهو عكس واضح لدى البنت. وعلى الرغم من أن ما سأقوله ليس هو الهدف من هذا المقال على وجه الدقة، فإن العلاقة وثيقة جداً بحيث أنني سأجازف بأن أخصّ مشكل العكس الجنسي ببعض الملاحظات الناجمة عن الموضوع الحالي. ويبدو أن العكس الجنسي هو، في ماهيته، عداوة الأب المنافس من الأبوين، عداوة أُضفيت عليها الصفة الليبيدية بفعل التقنية الخاصة التي تتطلّع إلى حيازة الأعضاء الخطرة للجنس المقابل، أعضاء أصبحت خطرة بفعل الإسقاط السادي. ورأينا فيما سبق إلى أي مدىً تشتقّ السادية التناسلية من السادية الفمية التي تسبقها، ولهذا السبب من الممكن تماماً أن تكون هذه السادية الغلمية أيضاً، التي اقترحت سابقاً أنها كانت

الجذر النوعي للجنسية المثلية الأنثوية، جذر الجنسية المثلية المذكّرة. وترى ميلاني كلاين[٤٠] أن أصل هذه السادية الفمية كامن في «تثبيت فمي للمص».

١٩ ـ الحادث النفسي الأكثر أهمية في الحياة

أذكّركم، تجنّباً لكل سوء فهم، أن الطور القضيبي، أو الانحراف القضيبي، ينبغي ألا يعتبر كياناً محدّداً على نحو نهائي. وعلينا أن ننظر فيه بالمصطلحات الديناميية والاقتصادية، شأنه شأن السيرورات المشابهة جميعها. ونقول بعبارة أخرى إنه يعرض إمكاناً لامتناهياً من التنوّعات. فهو يتدرّج، لدى أفراد مختلفين، من مؤشرات خفيفة إلى الانحراف الأكثر صراحة. ويختلف في شدّته، لدى الفرد نفسه، من مرحلة إلى أخرى وفق التغيّرات الأخلاقية في التحريض، التي تساهم بها العوامل التحتية.

ولا أؤكد أيضاً تلك الفرضية التي ترى أن الطور القضيبي طور مرضي بالضرورة، علماً أن من الممكن بالتأكيد أن يصبح مرضياً بفعل المبالغة أو التثبيت. إنه ضرب من الانعطاف عن الدرب المباشر للتطور وردّ فعل على الحصر. وربما سيبيّن البحث على الأقل، إذا أخذنا بالحسبان ما نعرفه، أن الحصر الطفولي الأكثر بدئية حصر لا مفرّ منه وأن الدفاع القضيبي هو الممكن الوحيد في هذا العمر. ولا شيء يتيح الإجابة عن هذه الأسئلة إن لم تكن تجربة تحليلية أكثر تعمقاً في ميدان السنين الأولى من العمر. يضاف إلى هذا أن النتائج التي نتوصّل إليها هنا لا تنفي القيمة البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية للعنصر الجنسي المثلي في الطبيعة الإنسانية. ومعيارها الوحيد هو درجة الحرية والانسجام في العمل الوظائفي النفسي.

وأسمح لنفسي الآن أن أبرز النتائج التي تبدو لي أنها الأكثر دلالة.

والملاحظة الأولى مفادها أن الطور القضيبي الثاني ذا الطابع المميز

(٤٠) ميلاني كلاين، مصدر مذكور سابقاً، ص ٢٥١.

انحراف ينشد، شأنه شأن الانحرافات جميعها، أن يصون إمكان الإشباع الليبيدي إلى أن تحلّ الفترة (إذا حلّت يوماً من الأيام) التي يمكن خلالها مواجهة الخوف من التشويه للعودة مجدّداً إلى التطور الغلمي المتّجة نحو الجنس الآخر، تطور كان الطفل قد تخلّى عنه مؤقتاً. والعكس الجنسي، الذي يعمل بوصفه مقاومة الخوف، منوط بالسادية التي ولّدت هذا الخوف.

ثم إن علينا أن نعترف، أكثر من أي وقت مضى، بقيمة ما كان الاكتشاف الأكبر على وجه الاحتمال لفرويد: عقدة أوديب. ولا أجد ما يدعو إلى الشك في أن الوضع الأدويبي، لدى البنت بقدر ما هو لدى الصبي، يكوّن في واقعه وفي الاستيهام ذلك الحادث النفسي الأكثر حسماً في الحياة.

وأخيراً، أعتقد أن من المفيد أن نتذكّر حكمة مصدرها أقدم أيضاً من أفلاطون: «في البدء... خلقهما الله ذكراً وأنثى».

إرنست جونز

* * *

الفصل الرابع عشر
فرويد والأنوثة

لم يعدّل فرويد قط، في حقيقة الأمر، أفكاره عن الجنسية، على الرغم من المجادلات. وينتقد تطبيق قياس التمثيل على الأنواع الإنسانية، قياساً يؤسّس التمييز على وجه العموم بين السمة المذكّرة الفاعلة والسلوك الأنثوي المتلقّي. ولكنه ينتقده ليسوّغ هذا التمييز على نحو أكثر براعة.

ويظلّ فرويد ريبياً فيما يخصّ الإحساسات المهبلية المبكّرة، والمعرفة الفطرية للأعضاء الجنسية الأنثوية، وتكونّ الأنا العليا. فعقدة الخصاء وحسد عضو الذكر حاسمان في نمو المرأة النفسي، ولهذا السبب يؤدي الحسد والغيرة دوراً كبيراً في حياتها. والرغبة في الأمومة ذاتها متحدّرة من الرغبة في عضو الذكر كما يبرهن على ذلك، في رأي فرويد، تعلّق الأمهات بأبنائهن، تعلّق عميق ومطلق.

وإذ دفع سيد فيينا محاكمته إلى الحد الأقصى، فإنه كان قد خلُص في محاضرته حول الأنوثة إلى القول: «...ولكن المرأة، من الناحية الفردية، يمكن اعتبارها مخلوقاً بشرياً!» ويعترف بأن الجنسية الأنثوية تظلّ «القارة السوداء» في التحليل النفسي.

وتكشف جانين شاسيغه سميرجل، في النص الذي سيلي للتوّ، عن التناقضات وضروب الغموض في الفرضيات الفرويدية. ومن الضروري أول الأمر أن يفهم المرء نجاح هذه الفرضيات المستمر لأن الملاحظات العيادية لم تفلح قط، ولا النظريات الأخرى، في أن تقوّضها كلياً.

ولكن المزعج أن المحلّلين النفسيين لم يتوصّلوا دائماً إلى وفاق حول الجنسية الأنثوية، على الرغم من مرور نحو من ثمانين عاماً من الممارسة. فهل الخطأ في هذه المجال يخدم قضية، وإذا كانت الحال هي هذه، فأي قضية؟ ورفض المعرفة يعرّض للشبهة حتماً علماً من العلوم. وعندما يتوطّد الرفض بمثل هذا الإصرار، بوسع المرء أن يعتقد بأنه يمسّ رغبة أعمق من أن يفقد جذوره بسهولة.

النص: جانين شاسيغه - سميرجل

يروي «المدراش» (شرح التلمود) أن الطفل يمتلك معرفة كلية منذ ولادته. ولكن ملاكاً يصل فجأة، ويضع إصبعه على الشفة العليا للوليد الذي تغرق معرفته في النسيان. وهذه الأسطورة، التي تمثّل الكبت الأولي تمثيلاً جميلاً جداً، تناسب النظريات الجنسية الطفلية تماماً، وتناسب على وجه الخصوص نظرية الواحدية الجنسية القضيبية والجهل الملازم لها بالعضو الأنثوي لدى الجنسين: وهي نظريات تقدم على أن تنوب مناب معرفة فطرية على وجه الاحتمال. ومن المعلوم مع ذلك أن الواحدية الجنسية القضيبية وجهل العضو الأنثوي ليسا، في رأي فرويد، إعدادين دفاعيين مرتبطين بالكبت: فالعضو الأنثوي لاوجود له بالنسبة للأطفال من الجنسين **حتى في اللاشعور**، وذلك أمر يستمرّ إلى البلوغ. وتلك مصادرة سيؤكدها فرويد في جميع مؤلفاته، بدءاً من **المحاولات الثلاث** (١٩٠٥) وإلى **الأنوثة** (١٩٣٢) و**المختصر** (١٩٣٨)، مروراً على نحو أساسي بـ **التنظيم التناسلي الطفلي** (١٩٢٣). ومن المثير للاهتمام أن نشير إلى أن فرويد أخذ بالحسبان، في نصوصه الأخيرة، تلك المجادلة الخاصةبوجود رغبات مهبلية مبكّرة، ولكنه يتخلّص منها كل مرة في جملة من الجمل. يقول في كتاب **الأنوثة**: «يتكلم بعضهم، في الحقيقة، عن إحساسات مهبلية مبكّرة، ولكنه يبدو عسيراً أن

نميّز هذه الإحساسات من الإحساسات الفمية أو الصادرة من دهليز الأذن، وهي لايمكنها بأي حال من الأحوال أن تؤدي دوراً. وبوسعنا أن نكون واثقين أن البظر هو الذي يكوّن المنطقة الغالبة التي تثير الغلمة، خلال الطور القضيبي».

وبملاحظة صغيرة، يدحض فرويد، في **المختصر**، رأي «أنصار» العضو الأنثوي: «يؤكد بعضهم على الغالب وجود إثارات مهبلية مبكّرة. ولكن من المحتمل جداً أن تكون المسألة في الواقع مسألة إثارات بظرية، أي إثارات صادرة من عضو شبيه بعضو الذكر. وذلك أمر لايبطل حقنا في وصف هذا الطور بالقضيبي».

وفي مقاله «**في الجنسية الأنثوية**[1]» (١٩٣١)، يردّ فرويد للمرة الأولى على معارضيه حول هذه النقطة، رداً على نحو مدهش بعض الشيء: «المهبل... عضو أنثوي على نحو خاص والبظر يماثل عضو الرجولة. ونعتقد أننا مصيبون في أن نسلّم بأن المهبل ليس موجوداً إذا جاز القول خلال سنين عديدة. وربما لايبدأ بإحداث إحساسات إلا في مرحلة البلوغ. ولاريب في أن أصوات الملاحظين الذين يرجعون الحركات المهبلية إلى هذه المرحلة، مرحلة البدء، تتكاثر في الأزمنة الأخيرة. فالأساسي فيما يتعلّق، خلال الطفولة، بالتناسلية ينبغي **إذن**[2] أن يحدث في علاقة بالبظر».

وبوسع المرء أن يلاحظ أن فرويد لايأخذ بالحسبان، في دحضه الرأي المعارض، إلا وجود الإثارات المهبلية المبكرّة أو غيابها، لاالانقلاب في نظرية الجنسية الأنثوية الذي يستطيع أن يقود إليه هذا الوجود (اللاشعوري على الأقل) للعضو الأنثوي. وأنا أفكر على وجه الخصوص بفهم الأوديب

---

(١) انظر الفصل الثاني عشر.

(٢) إنني أنا التي تضع الكلمة بحرف بارز.

الأنثوي، برغبته في عضو الذكر الأبوي وبرغبته في أن يكون له طفل، بكل الأمــور التي تصبح إذن أولية، أنثوية بصورة أساسية. أما فيما يتعلّق بالصبي، فإنه يجهل وجود العضو الأنثوي أيضاً ويتصور أن جميع الموجودات البشرية، بما فيها أمه، تملك عضو ذكر. وإذا كان فرويد يؤكد ذلك ببساطة في **المحاولات الثلاث**، فإنه في الوقت نفسه، ينفي وجود الانتصاب في عضو الذكر قبل البلوغ وينفي، بفعل ذلك، وجود رغبات الولوج («في الوقت الذي تقود فيه سيرورة النضج الى أولية المناطق التناسلية، ويشير فيه نمو عضو الذكر، الذي أصبح نعوظاً، إلى الهدف، أي إلى الولوج في تجويف...»). ويأخذ فرويد بالحسبان، في كتابه **النظريات الجنسية الطفلية** (١٩٠٨)، عدداً معيّناً من الملاحظات التي أبديت عن موضوع «الصغير هانس». ويتوصّل إلى رسم مرحلة مفيدة جداً لحديثي: «لوكان بوسع الطفل أن يتابع ما تشير إليه إثارة عضو الذكر لديه، لاقترب بعض الاقتراب من حلّ مشكله. وكون الطفل ينمو في جسم الأم ليس شرحاً كافياً بوضوح. فكيف يدخل في هذا الجسم؟ وما الذي يثيره نموه؟ فأن يكون الأب في هذا الأمر ذا أهمية، ذلك أمر محتمل. إنه يقول تماماً إن الطفل هو طفله أيضاً. ولعضو الذكر أيضاً، من جهة أخرى، نصيبه في هذه السيرورات الخفيّة، ويبرهن على ذلك بإثارته التي ترافق كل هذا العمل الفكري. وترتبط بهذه الإثارات اندفاعات لايحسن الطفل تفسيرها، اندفاعات غامضة إلى عمل عنيف: النفوذ والتحطيم وثقب الثقوب في كل مكان. ولكن عندما يبدو الطفل في درب جيّد للمصادرة على وجود العضو الأنثوي والتعرّف، في مثل هذا الولوج لعضو الذكر الأبوي في الأم، على هذا الفعل الذي يبدو به الطفل في جسم الأم، فإن الفكرة هنا إنما تتوقّف حائرة: إنها تقدم على الاستناد إلى الفكرة التي مفادها أن الأم تملك عضو ذكر كالرجل وأن وجود التجويف الذي يستقبل عضو الذكر يظلّ مجهولاً لدى الطفل».

ولنلاحظ أن فرويد يتخيّل فيما بعد، في كتابيه **اختفاء العقدة الأوديبية**[٣]، و**المختصر** على وجه الخصوص، أن الطفل الذكر يرغب فقط في أن ينكبّ على ملامسات مبهمة وغير متعيّنة لأمه، ملامسات عضو الذكر فيها متورّط على نحو غامض.

١- المعطيات العيادية تضع نظرية فرويد موضع التساؤل

أستأنف هنا بعض العناصر من ملاحظة «الصغير هانس»[٤] (١٩٠٩)، ملاحظة تبدو لي أنها لاتناقض السمة «الضبابية» لإثارة عضو الذكر لدى الصبي الصغير فحسب، ولكنها تضع أيضاً موضع التساؤل كل نظرية الواحدية الجنسية القضيبية، أو بالحري تبرز على نحو واضح سمتها الدفاعية بصورة أساسية. وتبدو لي هذه العناصر في الوقت نفسه أنها تؤكد المظهر الدفاعي أيضاً للنظريات الجنسية الطفلية بصورة عامة. إنها نظريات تستند إلى معرفة حدسية، غريزية، كاملة، للواقع الجنسي، غير ممكن قبولها لأسباب كثيرة. فكيف يُفترض بالفعل أن البنت تجهل أن لها عضواً أنثوياً عندما يعزو فرويد إلى الحلم تلك القدرة على الكشف المبكّر عن كل التغيّرات العضوية في كتابة **تتمة ميتاسيكولوجية لنظرية الأحلام** (١٩١٥)؟ لماذا تتوقّف قدرات اللاشعور على معرفة ما يجري في صميميتنا الجسمية عند العضو الأنثوي؟ وكيف لايكون لدى الصبي معرفة كشفية بعضو يكمل عضوه، في حين أن فرويد يصادر من جهة أخرى على وجود استيهامات أولية فطرية؟

عندما كان هانس في السنة الثالثة والنصف من عمره، وُلدت أخته الصغيرة أنّا. ويسجّل أبوه في هذا اليوم نفسه الملاحظة التالية في بطاقته: «ونقل سرير هانس إلى الغرفة المجاورة هذا الصباح الباكر، الساعة الخامسة،

---

(٣) انظر الفصل السابع.

(٤) فرويد، **خمس تحليلات**، المنشورات الجامعية الفرنسية، ١٩٥٤.

بما أن آلام المخاض بدأت. ويستيقظ هناك السابعة صباحاً ويسمع أنين المرأة التي تضع وليدها؛ وعندئذ يسأل: «لماذا تسعل ماما؟» ثم يقول بعد برهة: «اللقلق سيأتي اليوم بالتأكيد..» وأُخذ هانس فيما بعد بقليل إلى المطبخ؛ فيرى في المدخل حقيبة الطبيب ويسأل: «ما هذا؟» ويجاب: «حقيبة طبيب». فيقول عندئذ بلهجة المقتنع: «في هذا اليوم سيأتي اللقلق!...».

وبعد الولادة، «دُعي هانس عندئذ إلى الغرفة، ولكنه لم ينظر إلى أمه، ولالشيء إلا إلى الأحواض الصغيرة الملأى بماء دامٍ لاتزال في الغرفة، ويلاحظ، مندهشاً جداً، وهو يشير إلى الحوض الذي يوجد فيه الدم: «لايخرج الدم من مخرج البول عندي».

هذا المستخلص يبين جيداً أن هانس يعلم أن الولادة مؤلمة بما أنه يربط بين أنين أمه وقدوم للقلق. ويؤثر مع ذلك، لأسباب عديدة (غزو الإثارات المرتبطة بالسادية والإثمية الناجمة عنها على وجه الاحتمال)، أن يحوّل الأنين إلى سعال، سعال أقل إثارة للقلق. وهو، في الوقت نفسه، يربط بين حقيبة الطبيب وقدوم اللقلق. إنه يعلم جيداً أن كل شيء يجري في جسم أمه. يضاف إلى هذا أنه يفهم، دون أن يشهد الولادة، أن الطفل خرج من الأعضاء التناسلية لأمه، بما أنه يقرن الدم بمخرج بولها.

فليس ثمة شيء يسوّغ واقعاً مفاده أن فرويد يعزو إلى« «مخرج البول»، طوال النص، معنى مذكّراً على سبيل الحصر. وعندما يسأل هانس أمه إن كان لها أيضاً مخرج بول وتجيب «بالطبع، لماذا؟»، فليس من الضروري أن نعتقد أنها كذبت عليه، ذلك أن لها، هي أيضاً، أعضاء تناسلية بولية. وسؤال هانس، بالمقابل، يمكنه أن يُفهم على أنه فضول ذو علاقة بفارق الجنسين الذي يعرفه إلى مستوى معيّن معرفة جيدة جداً. وأرغب في أن أبرهن على ذلك ببعض الوقائع.

قبل أن يستقرّ رهابه، قبل ذلك على وجه الضبط، أتى هانس إلى

سرير أمه محاولاً غوايتها وهو يقول لها: «هل تعلمين أن الخالة م. . .
قالت: كم هو «لطيف (ماخوده) الصغير». نعم إنه (ماخود) لطيف، ولكنه **صغير**. إنه ليس كبيراً كـ(ماخود) الأحصنة الذي يخشاه على وجه الخصوص. وستبدأ عندئذ مجموعة كاملة من الموضوعات التي تنصبّ على المقارنة بين عضو الذكر **الصغير** لديه وعضو الذكر الكبير لدى الحيوانات التي يحسدها عليه، وهو عضو يثير لديه الخشية من أن تعضّ الأحصنة أصابعه ويثير خوفاً أكثر ضبابية من الحيوانات ذات السمات القضيبية الواضحة: كالزرافة (بسبب عنقها)، والفيل (بسبب خرطومه)، والبجع (بسبب منقارها). وفي رأي فرويد أن تفكير هانس بأن «مخرج البول لديّ سيكبر معي عندما أكبر» يتيح لنا أن نستنتج ما مفاده أن هانس ما انفك، خلال ملاحظاته، يعقد الموازنات وظلّ قليل الرضى عن أبعاد عضوه التناسلي الخاص. والواقع أن بوسع المرء أن يعتقد أن جزءاً من رهابه مرتبط برغبته في أن يستأصل المخرج الكبير للبول لدى الأحصنة والحيوانات القضيبية الأخرى التي تهدّده بالمقابل. والأحصنة التي تكبو، موضوع لذعر هانس، يمكن اعتبارها ايضاً، إلى مستوى معيّن، أحصنه مخصيّة، عكس منتصبة. ورغبته في عضو ذكر كبير سيكون موضوع بحث تفصيلي. ويتوصّل والد هانس وفرويد ذاته إلى الاستنتاج أن هانس يخشى أن «أمه لاتحبه لأن مخرج البول لديه لايُقارن بالذي لدى أبيه». ولهذا السبب فإن إنجاز هذه الرغبة سيتمّ باستيهام عامل الأدوات الصحيّة القادم ليضع مخرج بول كبير. ولكن لماذا الرغبة في عضو ذكر كبير كعضو الذكر الأبوي ليروق لأمه، إذا كان هانس يجهل أن للأم عضواً يعجز «(ماخوده) الصغير اللطيف» عن أن يسدّه ويرضيه؟ وهذه المعرفة بالعضو الأنثوي لدى الأم تبدو بوضوح في استيهامين آخرين يقصّهما على أبيه: «إنني معك في شونبران، حيث توجد الخرفان؛ وعندئذ انزلقنا تحت الحبال، ثم أخبرنا الشرطي الواقف في مدخل الحديقة بذلك، فأوقفنا كلينا». ويقول له في الاستيهام الثاني: «كنت معك في

القطار، وكسرنا زجاج ناقذة فساقنا الشرطي». والفكرة التي مفادها أن عضو الذكر لديه صغير جداً بالقياس على عضو أمه الأنثوي تلوح مجدّداً، كما يبدو لي، من خلال الخوف من أن تدعه أمه يسقط في حوض الحمام، الحوض الكبير. فأن يكون هذا الخوف قد حدّدته رغبته في أن تتخلّى أمه عن أنّا تحديداً قوياً، ذلك أمر لا يبطل هذه الفرضية: كان بوسع هانس على نحو جيد جداً، كالطفل الذي كان يقول عن أخته الصغيرة حسبما ذكر فرويد «إن اللقلق أخذها»، أن يعيد أنّا إلى المكان الذي كانت قد قدمت منه. وسيتكلم هانس فيما بعد على الصندوق الكبير (بطن أمه): «هذا صحيح، يابابا، صدّقني. لقد أخذنا صندوقاً كبيراً، كان داخله مليئاً بالأطفال؛ إنهم كانوا جالسين في حوض الحمام».

فليس بوسع المرء إذن أن يفوته التعرّف في استيهامات الصغير هانس ورهابه على رغبة أوديبية تنطوي على الامتلاك التناسلي للأم بعضو ذكر ينافس عضو الأب.

٢- نتائج غريبة جداً لدى فرويد

والحال أن ما هو واضح يراه فرويد واضحاً أيضاً، فالوقائع بهذا الصدد لاتتيح أبداً أن يكون تفسيرها مختلفاً. وعلى الرغم من ذلك، فإنه يحتفظ بنظرية الواحدية الجنسية القضيبية وجهل العضو الأنثوي، المرتبط بهذه الجنسية. يقول فرويد في الواقع: «ثمة فكرة تنفذ إلى نفس الطفل عن شيء بوسعه أن يفعله مع أمه وبه يحقّق الاستحواذ عليها، ويجد، ليعبّر عمّا لايمكنه فهمه، بعض الامتثالات المرنة التي سمتُها المشتركة هي العنف والمحظور ومحتواها يبدو لنا أنه يتّفق مع الواقع الخفيّ اتفاقاً مدهشاً جداً. وعلينا أن نعتبرها استيهامات جماع...». ثم يقول فيما بعد: «هذا الأب كان نموذجه... فالأب لا يعلم من أين كان الأطفال يأتون فحسب، ولكنه كان يفعل أيضاً شيئاً من الأشياء ليجعلهم يأتون، هذا الشيء يبدو أن هانس

لا يستشعره إلا على نحو غامض. وكان لابدّ لمخرج البول من أن يكون له شيء يفعله حول هذا الموضوع، ذلك أن مخرج البول لدى هانس يعاني إثارات كلما كان هانس يفكر بهذه الأمور -وكان لابدّ من أن يكون مخرج بول كبيراً أكبر من الذي لدى هانس. ولو كان هانس يعير انتباهاً لهذه الإحساسات النذيرة، لكان لابدّ له من الافتراض أن الأمر كان فعل عنف عليه أن يجعل أمه تعانيه. فكسر شيء والدخول إلى مكان مغلق- تلك بالفعل كانت الاندفاعات التي كان يحس بها في نفسه».

ونحن نعتقد هنا بأن فرويد قريب كل القرب من الاعتراف بوجود العضو الأنثوي، على الأقل في مستوىً قبل شعوري في نفس هانس. فتطرأ عندئذ هذه النتيجة الغريبة: «لكن هانس لم يكن بوسعه مع ذلك، على الرغم من أن الإحساسات التي كان يعانيها في عضو الذكر وضعته على درب المصادرة على العضو الأنثوي، أن يحلّ اللغز، لأنه لم يكن ثمة في علمه، شيء شبيه بما كان يطلبه عضو الذكر؛ بل، على العكس، إن الاقتناع بأن لأمه مخرج بول يشبه ما لديه كان يسدّ السبيل إلى حلّ المشكل».

ويعبّر فرويد إذن هنا عن مجموعة من الآراء التخمينية، بل المتناقضة: الرغبات في الولوج موجودة لدى الصبي، بادىء ذي بدء، قبل البلوغ بكثير، وكذلك الفكرة «الغامضة» أو «البشير» بالعضو الأنثوي، على خلاف ما كان يقوله فرويد في المحاولات الثلاث ويستمرّ في تأكيده في أعماله اللاحقة. ولا يبدو في أي فترة من الفترات، وعلى نحو حاسم، أن «مخرج البول» الذي يفترض هانس أنه موجود لدى أمه عضو ذكر. وهو عندما يتخيّلها محرومة من عضو شبيه بعضوه، فإن هذا الامتثال لا ينفكّ يتنضّد على امتثال العضو الأنثوي. وبوسع المرء أن يتساءل عندئذ إن كان هذا الامتثال يؤدّي دوراً، «وهو يسدّ السبيل على حلّ المشكل» كما يقول فرويد، وأي دور في هذه الحال؟ وبوسع المرء بالتأكيد أن يتخيّل جواب فرويد: إنه

الخوف من الخصاء الذي يدفع الصبي الصغير إلى الرغبة في أن يرى عضو ذكر حيث لايوجد. ولكن الخوف من الخصاء عند رؤية الأعضاء التناسلية الأنثوية المحرومة من عضو الذكر سيكون، في رأيه، أقوى بقدر ما يجهل وجود العضو الأنثوي. وما يتخيّله الصبي الصغير عندئذ ليس جنساً مختلفاً عن جنسه، ولكن - وياللهول! - غياب الجنس.

والواقع أن جميع هذه الصعوبات لن توجد إذا اعتبرنا أن الصبيان الصغار والبنات الصغيرات يعرفن، كطفل «المدراش»، كل شيء ذي علاقة بالجنسية، ولكن مجموعة من ضروب الكبت تتدخّل على سبيل الدفاع أمام سيل من الإثارات غير المحتملة أول الأمر، ثم أمام بعض النزاعات. وذلك يشرح أمراً مفاده أن الطفل يصوغ لنفسه الأفكار الجنسية التي تناسب مرحلة النمو التي يوجد فيها. وهكذا سيعيش على مستويين: مستوى المعرفة العميقة التي يمتلكها بصورة غريزية عن الجنسية، والمستوى الذي يتيحه له نموه ورغباته ودفاعاته، منسّقة بحيث تتّفق مع الإعلام الذي يتلّقاه. والتربية الجنسية حريصة لهذا السبب على بعدين: بعد خاص بلاشعور الطفل، الذي لا تساهم فيه بأي شيء لا يعرفه سلفاً، وبعد الأفكار الجنسية التي يصوغها الطفل لاستعماله الخاص؛ وتجبيب هذه الأفكار مبدئياً عمّا هو قادر على تحمّله في فترة من فترات تطوره. وإذ نقدّم للأطفال معلومات جنسية، فإننا نتعرّض إلى خطر مفاده أن نجد أنفسنا في الحالة التي وجد نفسه فيها أب هانس الذي سمع ابنه يجيب، عندما قال له: «ولكنك تعلم جيداً جداً أنه ليس بوسع صبي أن يكون له أطفال»، «نعم، نعم. ولكنني أعتقد أن بوسعه مع ذلك».

ومفاد فرضيتي أن نظرية الواحدية الجنسية القضيبية تنسجم مع انشطار في الأنا (نعم، نعم. ولكنني أعتقد أن بوسعه ذلك) **أو مع كبت معرفة سابقة لا مع جهل بالعضو الأنثوي**. وكانت هذه الفكرة قد صاغتها قبلي على وجه الخصوص جوزين مولر، وكارن هورنه، وميلاني كلاين،

وأرنست جونز. ولكن موقعي قائم مع ذلك في منظور مختلف بعض الاختلاف.

٣ ـ البرهان بأوديب سلبي

ولكن لنتوقّف لحظة عند نصّ عيادي شهير آخر لفرويد، **تحليل الرجل ذو الذئاب** (١٩١٨)، قبل أن نمضي بعيداً إلى الأمام. وإذا كان رهاب الصغير هانس متمحوراً حول الأوديب الإيجابي، فإن «العصاب الطفلي للرجل ذي الذئاب متمحور حول الأوديب السلبي، أي حول الرغبة في **أن يُستخدم لجماع الأب**، أي أن يقوم مقام الأم في المشهد البدائي. ونحن نعلم أن الطفل كان قد شهد المشهد الشهير للجماع بين الأبوين، **جماع والمرأة مستلقية على بطنها**، وعمره عام ونصف وأنه حلم بالذئاب حين كان في الرابعة. والحال أن «عودة النشاط للمشهد البدائي في الحلم كان قد أعاد الطفل حالياً إلى التنظيم التناسلي. إنه كان قد اكتشف العضو الأنثوي»، يقول فرويد. فنحن نرى إذن أن تناقضاً يبدو هنا مع النظرية الخاصة لاكتشاف العضو الأنثوي عند البلوغ. ويزعم فرويد على نحو غريب جداً أن ملاحظة الجماع والمرأة مستلقية على بطنها حمل إلى الرجل ذي الذئاب ذلك «الاقتناع بواقع الخصاء». وليست واجهة الجسم الأنثوي في هذا الوضع محجوبة بصورة كلية فحسب، ولكننا نجد مرة أخرى أيضاً ذلك الالتباس فيما يخصّ الدور الذي تؤديه معرفة العضو الأنثوي في عقدة الخصاء المذكّرة: والتعرّف عليه هنا يُعتبر أنه المسؤول الرئيس عن مخاوف الخصاء لدى الرجل ذي الذئاب. ويكون العضو الأنثوي على وجه الدقة هو الجرح الناجم عن الخصاء الذي فرضه الأب. وفي رأي فرويد أن الطفل كان قد كبت معرفته، معرفة العضو الأنثوي، ليتبنّى فكرته الأولى عن المعاشرة الجنسية بالشرج؛ يقول فرويد: «لكن شيئاً جديداً حدث عندئذ الآن وقد كان في الرابعة من عمره. فالتجربة التي كان قد اكتسبها في الفاصل الزمني، والتلميحات إلى الخصاء التي أبداها بعضهم أمامه، استيقظتا وألقتا شكاً على الفكرة القديمة،

«فكرة الشرج»؛ وأوحتا إليه التعرّف على الفارق بين الجنسين والدور الجنسي الآيل إلى المرأة، وسلك في هذه المناسبة سلوكاً على النحو المألوف لدى الأطفال عندما نقدّم إليهم شرحاً بغيضاً مفاده أنه الشرح الذي يمسّ موضوعات جنسية أو ذات طبيعة أخرى. فطرحَ الفكرة الجديدة ـ خوفاً من الخصاء في هذه الحالة ـ وتشبّث بالفكرة القديمة. وانحاز إلى الشرج ضد العضو الأنثوي... فاستُبعد الشرح الجديد».

ونجد أنفسنا، هنا أيضاً، أمام قضية تناقض الصياغات الأخرى التي تضمّها مؤلفات فرويد. ففي نصه **تحليل منته وتحليل لا ينتهي**، يبيّن فرويد أن السلبية أمام رجل من الرجال، أياً كانت طبيعتها، قد يعيشها الذكور خصاءً، وليس الولوج الفعلي ضرورياً على هذا النحو لإيقاظ المخاوف من فقدان عضو الذكر. فالولوج الشرجي لا يمكنه بالحري أن يصون الرجل من الخصاء. ويكوّن الخوف من السلبية، كما نعلم، ذلك «الأساس الراسخ» الذي تقوم عليه تحليلات الذكور. ولا يتيح العمل التحليلي على الإطلاق انطباعاً ضاغطاً بهذا القدر لبذل الجهود عبثاً ووعظ من لا يصغي إلا... عندما نبحث عن إقناع رجل من الرجال أن الموقف السلبي إزاء رجال آخرين لا يعني الخصاء دائماً، وأنه أمر لا غنى عنه لعلاقات كثيرة في الحياة.

٤ ـ الأب موضوع الصبي أكثر مما هو موضوع البنت

ليس بوسع المرء إلا أن تصيبه الدهشة مما يلي: كانت الرغبات في أن يلجه عضو الذكر الأبوي موجودة عند الرجل ذي الذئاب حينما لاحظ الجماع الأبوي، وعمره عام ونصف، وتجدّد نشاطها في حلمه وعمره أربعة أعوام، في حين أن رغبة البنت في أن يلجها عضو الذكر لا تطرأ لديها إلا عند البلوغ! يضاف إلى هذا أن الرجل ذا الذئاب يرغب، شأنه شأن الرئيس شريبر، في أن يتلقّى طفلاً من أبيه، وتلك رغبة غريزية مرتبطة بتوحّده الأنثوي، في حين أن هذه الرغبة لا تبدو لدى البنت إلا على أنها بديل لحسد

عضو الذكر أو تقوم مقامه. فالرغبات الأنثوية في ولوج عضو الذكر وتلقّي طفل من الأب تكون على هذا النحو صريحة لدى الرجل أكثر منها لدى المرأة. ولنتذكّر بالإضافة إلى ذلك أن هذه الرغبات تكوّن، لدى الرجل، نواة الهذيانات.

ونحن نعلم من جهة أخرى أن فرويد يؤكد في مقاله **«في الجنسية الأنثوية»** (١٩٣١): «لدى الطفل الذكر على سبيل الحصر إنما يحدث الالتقاء المشؤوم بين حب أحد الأبوين وكره الأب الآخر بوصفه منافساً».

والطور قبل الأوديبي يعتبره فرويد أكثر أهمية لدى المرأة منه لدى الرجل بكثير. والبنت يمكنها ألا تبلغ طور الأوديب الإيجابي أبداً و «الأب ليس سوى منافس مزعج بالنسبة للبنت» خلال الطور الأوديبي السلبي لديها. وإذا بلغت البنت ذلك الأوديب الإيجابي، فإن العلاقة بالأب لا تنفكّ تتابع التعلّق السابق بالأم: «فلم يساهم الطور التالي إذا جاز القول بأي سمات جديدة في الحياة الغرامية».

وبوسعنا أن نقول، إذا دفعنا هذه القضايا إلى نتائجها الأخيرة، إن الأب موضوع الصبي أكثر مما هو موضوع البنت في نظربة أوديب الفرويدية. فعن الواحدية الجنسية القضيبية يتفرّع لدى البنت **حسد عضو الذكر**. ذلك أن التصور الفرويدي ينطوي على أن الفتاة، بين اكتشاف وجود العضو المذكّر لدى الصبي، اكتشاف يسبق عقدة أوديب، وبين البلوغ، فترة اكتشاف العضو الأنثوي لديها، ليست سوى خصيّ يملك عضو ذكر مبتوراً: البظر. وهذا الواقع يصرفها عن الأم التي لم تمنحها عضو ذكر ويحثّ خطاها إلى الأوديب لتنال العضو المشتهى من الأب، وحسدها سيتحوّل، في أفضل الحالات، إلى رغبة في طفل تفضّله ذكراً. والرغبة الجنسية لدى المرأة في عضو الذكر تابعة بصورة كلية لحسدها النرجسي. **فحسد عضو الذكر أولي، والرغبات الغلمية الأنثوية ثانوية**.

---

(٥) فرويد، مصدر مذكور سابقاً.

ولكن محن المرأة النفسية الجنسية لا تتوقّف هنا كما نعلم. فالجنسية لدى البنت الصغيرة مذكرة بصورة أساسية وبظرية بصورة حصرية ـ فالأجزاء التناسلية الخارجية «الأنثوية» كما يسميها فرويد بصورة ذات دلالة، لا تدخل في الحساب ولو تحت تأثير الإغراء. وعلى المرأة، حين تصل إلى مرحلة البلوغ، أن تتخلّى عن توظيف عضوها «المذكر» (البظر) لحساب أعضائها الأنثوية الداخلية. «فالمكبوت عندئذ إنما هو عنصر مذكّر من الجنسية»(١٩٠٥). والبظر، الذي يرفض أن يتخلّى عن توظيفه (لم يعد بوسعه أن يكون مفيداً إلا بوصفه «حطب إضرام النار» في امتداد الإثارة)، مسؤول عن البردوة الجنسية الأنثوية والاستعداد المسبق للعصاب، وللهستيريا على وجه الخصوص. ويطرح وليم جيلّيسبي[٦]، حول هذا الموضوع، السؤال التالي: ألا تنطوي نظرية فرويد للبظر، المذكر زعماً، الذي ينبغي للمرأة أن تتخلّى عنه، إلحاحاً على أن المرأة ينبغي أن تكون مخصيّة؟

ومن المعلوم أن البظر يؤدي دوراً خلال مدة الفعل الجنسي كلها، وذلك تماماً طوال حياة امرأة سوية، وهو أمر كان ضمنياً لدى جونز عندما كان يقول «إن البظر يشكّل جزءاً من الأعضاء التناسلية الأنثوية على كل حال».

٥ ـ الجنسية الأنثوية من وجهة النظر الفرويدوية موجودة في ظل علاقة النقص

بوسعنا أن نحاول جمع النقاط الرئيسة التي تناولتها بالبحث في نظرية الجنسية الأنثوية لدى فرويد، انطلاقاً من الواحدية الجنسية القضيبية.

- جهل الصبي عضو الأم الأنثوي؛
- جهل البنت عضوها الأنثوي؛

(٦) ملاحظات ماضوية على آراء فرويد في الجنسية الأنثوية، ١٩٧٤.

- توظيف البنت الحصري بظرها، المكافىء لعضو ذكر مبتور؛

- ضرورة التخلّي عن هذا التوظيف عند البلوغ؛

- جنسية نفسية لدى البنت يسودها حسد لعضو الذكر لا يرتوي؛

- رغبة في ولوج عضو الذكر الأبوي وفي تلقّي طفل منه رغبة مباشرة لدى الصبي أكثر منها لدى البنت؛

- أوديب إيجابي لا تبلغه بعض النساء أبداً؛

- في الأوديب الإيجابي الأنثوي صلة بالأم تنتقل إلى الأب حصراً؛

- الأمومة ليست سوى «بديل» رجولة لا يمكن بلوغها.

فالجنسية الأنثوية موضوعة على هذا النحو برمتها في ظلّ علامة النقص: نقص العضو الأنثوي، نقص عضو الذكر، نقص الجنسية النوعية، نقص الموضوع الغلمي المناسب، نقص القدرات الخاصة الموظّفه في الذات، وضرورة «فقدان» البظر في نهاية المطاف. وينضاف إلى ذلك النقص النسبي في الأنا العليا وقدرات التصعيد. وجنسية الصبي، على العكس، جنسية عامرة: إن له عضواً جنسياً مناسباً، وجنسية نوعية دفعة واحدة، وموضوعين غلميين على وجهي أوديب الإيجابي والسلبي.

والحال أن المرأة في النظرية الفرويدية نقيض صورة الأم البدئية، كما تبدو في المادة العيادية لدى الجنسين. وقد يكون الأمر مجرد مصادفة، ولكن التناقضات، التي كشفنا عنها في مؤلفات فرويد الخاصة بالواحدية الجنسية القضيبية، وهذه النتائج، تحضنّا على أن نتوقّف توقفاً أطول مدة عند هذا التعارض بين المرأة، في رأي فرويد، والأم وفق اللاشعور.

ومن الواضح أن المدهش لا يكمن في أن معرفة فرويد أُصيبت بالإعاقة في بعض من جوانب مؤلفاته، بل المدهش أنه استطاع أن يمدّها بهذا القدر من البعد وذلك أمر لن ينفكّ عن إثارة عجبنا. وما يثير مشكلاً هو

الحظوة التي تستمرّ بالتمتّع بها هذه النظرية التي أتقنت المقاومة، في نهاية المطاف، لكل الأدلة العيادية والنظرية التي كانت قد عارضتها وأتقنت أيضاً مقاومة تناقضاتها الخاصة.

وتبدو لي نظرية الواحدية الجنسية القضيبية (ومشتقاتها) قادرة على أن تمحو الجرح النرجسي، المشترك لدى الإنسانية، الناجم عن عملية النضج قبل الأوان لدى صغير الإنسان، التي تجعله تابعاً لأمه تبعية تامة.

ويشدّد فرويد، منذ كتب كتابه **مجمل لسيكولوجيا علمية** (١٨٩٥)، على حالة النضج قبل الأوان لدى الموجود الإنساني وعلى التبعية التي تؤدي إليها. وفي ملاحظة وردت في نصه، **الدوافع وقدرها** (١٩١٥)، يعزو فرويد إلى عجز الرضيع انفصال الأنا واللاأنا: «الحالة النرجسية البدئية لا يمكنها أن تتطور على الإطلاق لو أن كل فرد لم يكن يتجاوز فترة تكون فيها عناية الغير أمراً لا غنى له عنها بوصفه عاجزاً عن أن يساعد نفسه بنفسه، فترة كانت حاجاته الأكثر إلحاحاً خلالها موضع الإشباع بفضل عون خارجي».

ويتكلّم فرويد مجدّداً، في نصه **الكفّ والعرض والحصر** (١٩٢٦)، على عملية النضج قبل الأوان لدى الموجود الإنساني، قائلاً: «يبدو أن الوجود الجنيني وجود أقصر مدة بالقياس على الوجود الجنيني لدى معظم الحيوانات. فالموجود الإنساني أقل كمالاً منها عندما يولد. ولهذا السبب، فإن تأثير العالم الخارجي يتعزّز، والتمايز بين الأنا والهو ضروري، وأهمية مخاطر الحياة تزداد، والموضوع، القادر وحده على الحماية من هذه المخاطر والحلول محل الحياة داخل الرحم، يرى قيمته تتعاظم تعاظماً كبيراً. فهذا العامل البيولوجي يشيد إذن أوضاع الخطر الأولى ويخلق الحاجة إلى الحب التي لن تتخلّى عن الإنسان أبداً».

وهذه التبعية، تبعية الطفل الصغير لأمه، التي لا غنى عنها لبقائه حياً، هي التي تفضي، كما نعلم، إلى تكوين الصورة الذهنية المثالية الكلية القدرة

للأم. وكلما نما الطفل، اكتسب من خلال نضجه النفسي الفيزيولوجي وتوحّداته ضرباً من الاستقلال يتعاظم نموه. وتظلّ نفسه مع ذلك موسومة إلى الأبد بسمة العجز الأولى، ولا سيما أنها تلت حالة من الكمال الكلي كانت الحاجات خلاله مشبعة بصورة آلية (أشير إلى الحالة الجنينية والمرحلة القصيرة التي يمكن افتراضها، مرحلة لا تتمايز خلالها الأنا من اللاأنا). وليس بوسعه أن يعيش رغباته المحارمية إلا على نمط درامي ناجم عن التفاوت الزمني بين ظهورها والاستعداد لإشباعها. وهنا أيضاً، تكمن حالة النضج قبل الأوان في قلب المشكل.

٦ ـ نظرية تحتفظ بالأوهام

لنذكّر باللوحة المظلمة التي وضعها فرويد ذاته للطفل الأوديبي في نصه **ما وراء مبدأ اللذة** (١٩٢٠): «لا بدّ لتفتّح الحياة الجنسية الطفلية المبكّر من أن يكون ذا مدة قصيرة جداً بسبب عدم التوافق بين الرغبات التي كان يستوجبها والواقع ودرجة النمو غير الكافية التي تنطوي عليها حياة الطفل. وهذه الأزمة، التي تقع في الظروف الأكثر عسراً، كانت ترافقها الإحساسات الأكثر ألماً. وفَرَض الحب الخائب والإخفاقات الغرامية على عاطفة الجدارة ضرباً من الإذلال وخلّفتا لدى الفرد جرحاً نرجسياً، وكونتا، بحسب ملاحظاتي الخاصة وملاحظات مالينوسكي، سبباً من الأسباب الأكثر قوة لـ «مشاعر الدونية» المتواترة جداً لدى العصابين. ولم يساهم الاكتشاف الجنسي، الذي وضع له نمو الطفل الجسمي حداً، بأية نتيجة مرْضية. ومن هنا منشأ شكاواه اللاحقة: «إنني عاجز عن أن أنال أي شيء كان، ولا شيء يجعلني أنجح». ولم يتمكّن التعلّق، ذو الحب الكلي، الذي كان يربطه على الأغلب بالأب ذي الجنس المقابل لجنسه، من أن يقاوم خيبة الأمل، والتوقّع العبث للإشباع، والغيرة التي تسبّبها ولادة طفل جديد، بالنظر إلى أن هذه الولادة برهان واضح على خيانة الحبيب أو الحبيبة؛ ومحاولته الخاصة، الجدّية على نحو مأساوي، أن ينجب هو ذاته طفلاً،

أخفقت إخفاقاً يثير الشفقة؛ ونقص الحنان الذي كان يتمتّع به في الزمن الماضي، والمقتضيات المتنامية للتربية، والكلمات الجدية التي كان يرى نفسه أنها تتوجّه إليه، والعقوبات التي كانت تنزل به، انتهت إلى أن تكشف له كل مدى الاستخفاف الذي كان نصيبه منذ ذلك الزمن فصاعداً».

ويبدو التخلّي عن الموضوع الأوديبي، في هذا السياق، وكأنه مرتبط باعتراف الطفل المؤلم بصغاره وقصوره. وهذه هي مأساة الأوهام الضائعة. والحال أن نظرية الواحدية الجنسية تميل إلى الحفاظ على هذه الأوهام. فجويس ماك دوغال[7] ألحّ على أن رؤية الأعضاء التناسلية الأنثوية محرومةً من عضو الذكر مرعبةٌ للطفل، لا لأنها تؤكد احتمال خصائه فحسب، ولكن لأنها أيضاً ترغمه على أن يعترف بدور عضو الذكر الأبوي وعدم إنكار المشهد البدائي أبداً.

وأعتقد، فيما يخصّني، أن أساس الواقع لا يكوّنه الفارق بين الجنسين فحسب، بل يكوّنه الفارق بين الأجيال أيضاً؛ والفارقان مترابطان في جميع نقاطهما. وليس الواقع أن الأم كانت مخصيّة، بل إن لها عضواً أنثوياً، والصبي عاجز عن أن يغمره. والواقع أن ثمة للأب عضو ذكر وأن الصبي محروم منه («المخرج الكبير للبول» الذي يحسده الصغير هانس) ولديه أيضاً قدرات تناسلية لا يحوزها. وعندما يكون الطفل مرغماً على الاعتراف بالفارق بين الجنسين في تكاملهما التناسلي، يرى نفسه مرغماً في الوقت نفسه على الاعتراف بفارق الأجيال **وذلك يكوّن جرحاً نرجسياً مؤلماً تحاول نظرية الواحدية الجنسية القضيبية أن تزيله**: لو أن الطفل الذكر لم يكن لديه أية رغبة في ولوج أمه خلال المرحلة الأوديبية، ما دام يجهل وجود عضوها الأنثوي جهلاً كلياً، فإنه لن يكون ثمة شيء يحسد أباه عليه. فلن يمارس الأب على الأم سوى الملامسات التي يستطيعها هو ذاته إذا كانت الأم ترغب في أن تفسح المجال لذلك وكان الأب لا يعارضه. ويحافظ أوديب الصبي،

---

(٧) المشهد البدائي والانحراف الجنسي، ١٩٧١.

المفهوم على هذا النحو، على نرجسيته بصورة جزئية. والواقع أنه يستجيب للغواية المنحرفة، غواية اعتبار الرغبات والإشباعات قبل التناسلية (سهلة المنال على الصبي) صحيحة صحة الرغبات والإشباعات التناسلية (سهلة المنال على الأب فقط) بل أكثر صحة. وهذه الغواية تتكشّف في تحليل الصغير هانس عندما يعبّر عن الأمنية التي مفادها ضرب الأحصنة وينتهي إلى الاعتراف بأنه يودّ أن يضرب أمه؛ إنه، في الواقع، لأمر أسهل على صبي صغير من ممارسة الجماع التناسلي مع امرأة في سن الرشد.

٧ ـ احتقار للمرأة غير سوي

يبدو أن لنظرية الواحدية الجنسية القضيبية أيضاً مزايا أخرى من وجهة النظر النرجسية. فإذا لم يكن للأم عضو أنثوي، فإن الصبي الصغير قادر مثلها، على مستوى أوديب المعكوس، أن يمنح الأب ما يرغب. وهذا الاستيهام موجود لدى العديد من الجنسيين المثليين الذين يرون أن الشرج، الذي يضفون عليه الصفة التناسلية، والعضو الأنثوي متكافئان. وينجم بالنسبة للطفل الذكر عن الجهل المزعوم بالعضو الأنثوي، على هذا النحو، مغنم نرجسي على وجهي أوديب الإيجابي والسلبي.

وتأكيد الواحدية الجنسية القضيبية ناشىء على هذا النحو، هو ذاته، من فترتين من العلاقة بالأم ـ بالأم العتيقة ذات القدرة الكلية، من جهة، وبالأم الأوديبية من جهة أخرى - خَبِر الطفل خلالهما قصوره بصورة مؤلمة، قصوراً مرتبطاً بعملية النضج قبل الأوان. والرغبة في التحرّر من أم البدء ستدفع الأطفال من الجنسين إلى إسقاط القوة على الأب وعضو الذكر لديه وإلى سحب التوظيف تقريباً من القدرات والأعضاء، الأمومية بصورة نوعية. وإذا كانت العلاقة بالأم جيدة بصورة كافية (لأسباب خارجية وداخلية على السواء)، فإن الطفل الذكر سيتّخذ أباه نموذجاً (كهانس الصغير) حتى يصبح مثله ويمتلك الأم يوماً من الأيام. وسيوظّف عندئذ

عضو الذكر الخاص به بقيمة جنسية ونرجسية حالية، ومستقبلية على وجه الخصوص. وسيحتفظ مع ذلك بجزء من توظيفه النرجسي لقدرات الأم وأعضائها: الثديين، والعضو الأنثوي، والاستعداد لإنجاب الأطفال. وستتيح له هذه السيرورة أن ينمو وفق جنسه، دون أن ينقص من قيمة القدرات الأنثوية على نحو خاص إنقاصاً ارتكاسياً، وبالتالي أن يدمج أنوثته، إذ تجعله على هذا النحو قادراً على أن يفهم رغبات شريكته خلال علاقاته الغرامية.

وإذا كانت علاقته بأمه العتيقة سيئة جداً، فإن بوسعه أن يسحب كل توظيفه النرجسي لمزايا الأم ليعيده برمته إلى عضو الذكر الأبوي وإلى عضو الذكر الخاص به. ولهذا السبب، سيكون دمج أنوثته عسيراً، بل متعذّراً ما دامت القدرات الأنثوية ستكون موضوع احتقار بالنسبة له. وستكون إعادة إضفاء الجنسية على دوافعه الجنسية المثلية السلبية مرفوضة بوصفها لاتقبلها الأنا بمقدار ما امتص توظيفُه الارتكاسي لعضو الذكر كل الليبيدو النرجسي الذي تكون الأنوثة محرومة منه من الآن فصاعداً. وتُشرح على هذا النحو، يبدو لي، شرحاً جزئياً تلك السمة النزاعية التي تتخذها الرغبات الجنسية المثلية السلبية على الغالب لدى الرجل، لأن الغلمة التي تدفع الفرد صوب أبيه ترتبط على وجه الدقة بنقص في قيمة الأنوثة، إذن أنوثته. وثمة في هذه الحال تعارض عنيف بين الجنسية المثلية والنرجسية. وفي هذا يكمن سبب، ينضاف إلى تلك الأسباب التي كشف عنها العديد من المؤلفين سابقاً، لجعل تحليل العلاقة المبكّرة بالأم لدى المصابين بالذهان الهذائي أمراً ضرورياً.

ويعزو فرويد إلى الرجل «احتقاراً سوياً» للمرأة. وقد يكون ناجماً عن غياب عضو الذكر. وتتجلى دائماً في التحليل، خلف الاحتقار البيّن، بحسب تجربتي، صورة ذهنية مثالية للأم محسودة ومرعبة.

والتقليل العارض من قيمة الأم والنساء «سوي» ويتيح للصبي أن

يوظّف هويته الجنسية الخاصة توظيفاً نرجسياً، ولكن هذا التقليل لايمكنه أن يستمرّ في سن الرشد إلا على صورة عواطف الحماية إزاء النساء. والاحتقار لدى الراشد ليس سوياً على الإطلاق: إنه يكشف عن ريبية فيما يخصّ حيازة صفات شخصية مقبولة. وبوسعه أن يكوّن مظهراً من مظاهر نكوص قضيبي نرجسي. وما قلته آنفاً عن السمة الدفاعية لنظرية الواحدية الجنسية القضيبية لايستبعد بالطبع قضايا جونز الخاصة على سبيل المثال بالطور القضيبي، بل يساهم في فهم السمة الدفاعية لهذا الطور. إنه يحمي الفرد على هذا النحو من مخاوف الخصاء في المستوى الأوديبي كما يحميه من الجرح النرجسي المرتبط بقصوره الداخلي.

ونجد في الطرف الآخر، بالنسبة للفرد ذي السمات الذهانية الهذائية، ذلك الراغب في تغيير جنسه الذي يلجأ إلى الجراحة التقويمية ليتخلّص من صفاته المذكرة ويُصنع له عضو أنثى. وبسبب عوامل تاريخية محدّدة مرتبطة بردّ فعله على الأبوين، فقد كان على وجه الاحتمال عاجزاً عن أن يسقط مثال الأنا لديه على الأب وعلى عضو الذكر الخاص به. وظلّ توظيفه النرجسي مرتبطاً بصفات أنثوية أمومية خاصة بالأم العتيقة. فأنوثة الرجل ووضعه الجنسي المثلي تقودهما، بسبب عوامل معقّدة ذكرناه للتوّ، تيارات دفاعية ودافعية كثيرة:

-نكوص كلاسيكي أمام الأوديب والخوف من الخصاء بواسطة الأب؛

-توحّد «سوي» بالأم في المشهد البدائي على مستوى الأوديب المعكوس ومستوى دمج الأنوثة؛

-رغبة في اكتساب عضو الذكر الكبير الأبوي، بفعل الدمج، اكتساب هدفه التوحّد بالأب لامتلاك الأم في الأوديب الإيجابي؛

-رغبة في أن يكون الأم ذات القوة الكلية وفي الاتصاف بصفاتها التي تستمرّ في أن تكون موضع التوظيف النرجسي؛

-رغبة في التحرّر من الأم ذات القوة الكلية بتوظيف قدراته الخاصة وبـ «التشبّت» بالأب وبعضو الذكر لديه.

٨- مجتمع النظام الأمومي: حقيقة سيكولوجية عميقة

الحاجة إلى التحرّر من أم البدء ذات القوة الكلية بالاعتماد على الأب وإنكار القدرات، والأعضاء والقيم الأنثوية بالمعنى الدقيق للكلمة، تبدو لي في الواقع مشتركة بين الجنسين. إن باشوفين درس الانتقال من النظام الأمومي إلى النظام البطريركي. وحتى لو أن وجود الحضارات ذات النظام الأمومي وجود إشكالي، فالحقيقة مع ذلك أن نتاجه يحتوي على حقيقة سيكولوجية عميقة، ذلك أن هذا النتاج هو إسقاط المغامرة الفردية للرجال والنساء خلال نموهم على تاريخ الإنسانية.

أجاب باشوفين، المحلّل النفسي قبل ظهور التحليل النفسي، خصمه مومسن بأنه كان محتّماً أن تكون لدى مومسن أسباب شخصية ليرفض وجود النظام الأمومي، وجوده ذاته. ويعتقد باشوفين أن الإومينيد، تراجيدياأشيل، تصف الانتقال من الحق في النظام الأمومي إلى الحق في النظام البطريركي. ومن المعلوم أن المقصود قصة الدعوى المقامةعلى أوريست الذي ارتكب جناية قتل الأم. وفعل ذلك ليثأر لأبيه، أغاممنون، الذي قتلته كليتمنستر. والإيرينه، اللواتي سيصبحن الإومينيد في نهاية المسرحية، هنّ بنات الليل، ربّات يسكنّ باطن الأرض، جهنميات، كن يحكمن قبل زيوس (كما كانت الأم تحكم قبل الأب). وهنّ، بصفتهن موصوفات بأنهن «سوداوات وكريهات بصورة مطلقة»، يمثّلن الاتهام. وأبولون هو الذي يقود الدفاع. ويستدعي أوريست أتينا، المولودة دون تدخّل الأم، لأنها بنت زيوس من دماغه، خرجت منه مدجّجة بالسلاح ومقنّعة، أي أنها أفلتت من العجز الأولي الطفلي. إنها تشكّل المحكمة، المسماة أريوباج، في المكان الذي كان الأمازونيون قد استقروا فيه قبل أن

تنتصر عليهم تيزه، إذ سحبوا من الإيرينه على هذا النحو امتيازاتهن، امتيازات نشر العدل. وتصرّح الإيرنيه بأن ثمة «قوانين جديدة ستلغي الآن تلك القوانين القديمة، إذا كان لابد من أن تنتصر قضية هذا القتل وجريمة قتل الأم. ويعتبرن أن جريمة كليتمنستر أهون من جريمة أوريست، ذلك أنها لم تكن هي والرجل الذي قتلته من دم واحد».

ويردّ أوريست بهذه الجملة المذهلة: «وأنا؟ هل أنا وأمي من دم واحد؟». ويدعمه أبولون: «ليست الأم هي التي توجد ذلك الذي نسميه طفلها. إنها ليست سوى حاضنة المنّي الذي حملت به. فمن يوجده هو الذكر. وهي، بوصفها غريبة، تحافظ على النبتة الصغيرة عندما لايحمل اليها الأذى إله من الآلهة. وسأقدّم إليك البرهان على ما أدفع به: «إن بوسع المرء أن يصبح أباً دون عون الأم، والشاهد هو الإلهة الحاضرة هنا، بنت زيوس الأولمبي». وتصادق على قوله أثينا وتقول عن نفسها «إنها من جانب الأب دون أي شك» (وبوسع المرء مقارنة هذه الفكرة، فكرة الحمل، بالفكرة التي صادر عليها ساد في عدة مناسبات).

وتصدر براءة أوريست وتنتحب الإيرينه: «اسمعيني، آه أيها الليل، يا أمي. إن آلهة ذات خدعات لايمكن تجنّبها سلبت مني أمجادي القديمة وأحالتني إلى لاشيء». وتهدّدن البلاد بأسوأ الكوارث. ويصدر أخيراً وعد إلى الإرينه بأنهن سيكنّ موضوع عبادة. وتسود السكينة نفوسهن، ويصبحن الإومينيد، وكل شيء ينتهي في الغبطة العامة.

وبوسع المرء أن يلاحظ أن أثينا، وهي امرأة، تتضامن مع أبولون، وهو رجل، في نفي امتيازات الأم. ويستند حسد عضو الذكر لدى البنت، في رأيي، لاإلى جهلها بعضوها الأنثوي وبعاطفة الخصاء الناجمة عنه (على الرغم من وجود أسباب نزاعية لكبت معرفتها به وأن الكبت ربما يكون سوياً

كما تؤكد دونيز برانشفيك وميشيل فان في كتابهما **إيروس وضد إيروس**[٨]، بل بالحري تماماً إلى الحاجة إلى أن تدحض قوة الأم.

٩- جلسة تحليل بنّاءة جداً

ها هو التقرير عن جلسة لابدّ لها من أن تدلي بالبرهان على ما أطرح. مريضتي هي الطفل الثالث في أسرة ذات ستة أطفال. إن لها أخوين يكبرانها وولُد أخ آخر بعدها. وتبدأ المريضة تشكو من وجودها لدى امرأة محلّلة نفسية: إنها لن تجد شيئاً عندها بالنظر إلى أن النساء أدنى من الرجال؛ وذلك موضوع مألوف جداً بالنسبة لها. ثم تروي المريضة حلماً. ثمة، على الخشبة في أحد المسارح، امرأة ذات ثدي مكشوف، ضخم، مستدير ومنتفخ. ولكن زبونتي تقول إنها قرأت العشيّة مقالاً عن ممثّلة تقدّم مشهداً خاصاً جداً في باريس. وتتعرّى الممثلة على نحو فاحش وهي تشتم الجمهور وتذلّه. والمريضة، في حلمها، موجودة في الصالة، بين المشاهدين، مع أخيها وصديق له. وعند قدميّ المرأة على خشبة المسرح صبي صغير في شهره الثامن عشر. وتنقلب إلى الوراء، في لحظة معيّنة، وترفع ثوبها وتبيّن عضوها الأنثوي. ويصاب أخ المريضة وصديقه بالهياج، ويسخران من المرأة ويقلّدان بالأصابع مقصيّن يقطعان. وتهدف هذه الإشارة إلى إعلام المرأة أنها مخصيّة. وتتابع المريضة روايتها مع استيهام من الاستيهامات: إنها سحبت عضو ذكر زوجها الذي يُفرغ دمه وكأنه بالون يفرغ من الهواء. ولابدّ من القول إن زوجها لم تكن قط تعيشه رجلاً كامل الرجولة، بل تعيشه ابن حماتها. وهذا المثال يوضّح أن وراء الإنقاص من قيمة المرأة (المحلّلة في التحويل) تحتجب صورة ذهنية مثالية أمومية، ذات قوة كلية، بوسعها أن تخلع البنت وهي في عرشها إذ تلد أطفالاً آخرين بعدها وترضعهم (كان

---

(٨) (دار نشر بيّو، المكتبة الصغيرة).

عمرها ثمانية عشر شهراً، كالصبي الصغير في الحلم، عندما ولدأخوها).
وهذه الأم ذلّتها كما ذلت الممثلة جمهور المسرح في حركتها اليومية. وبقي لديها وسيلة واحدة لتجاوز جرحها النرجسي: أن تدلّ هذه الأم على العيب في قوتها الكلية، أي في غياب عضو الذكر لديها؛ وتلك هي الوسيلة الوحيدة للانتصار عليها. ومن الأفضل من أجل هذا الأمر، مع ذلك، أن يكون المرء ذاته مزوّداً بعضو الذكر كصبيّي الحلم القادرين على أن يزدريا الأم، وكما كان بوسعها أن تفعل لو أنها كانت الصبي الصغير ذي الثمانية عشر شهراً في حلمها. وفي الاستيهام الذي يلي سرد الحلم، تهاجم المريضة مباشرة ثدي أمها إذ تفرغه، فالزوج برمته يمثّل الثدي وعضو الذكر لديه يمثّل الحلمة. ويصبح الزوج كـ «بالون أفرغ من الهواء»، أي كثدي رخو. إنه أيضاً، في مستوى آخر، الأخ الصغير الذي تخصيه وتدمّره.

وأشرت، في التحليلات التي أجريتها للنساء، إلى أن حسد عضو الذكر ليس غاية في ذاته، بل هو التعبير عن الانتصار على أم البدء ذات القوة الكلية بامتلاك العضو المحرومة منه الأم، أي عضو الذكر. وحسد عضو الذكر هو على هذا النحو أكثر قوة على وجه العموم بمقدار ما تكون الصورة الذهنية المثالية للأم أكثر إرهاقاً.

ومن المؤكد أن زوال التوظيف النرجسي، المترابط مع هذا الوضع، عن قدرات الأم وأعضائها يجعل التوحّد بالأم وقبول الأنوثة أمرين عسيرين. وتكون الجنسية المثلية الأنثوية السلبية، هي ذاتها، موضوعاً لإضفاء النزاع بصورة قويةويصبح دمجها لهذا السبب إشكالياً. ويساهم إضفاء المثالية على الأب وعلى عضو الذكر لديه في إثارة الاضطراب في الحياة النفسية الجنسية لهؤلاء النساء. وتقول على هذا النحو أتينا، ابنة زيوس: «ليس لديّ أم أدين لها بالحياة. إنني في كل شيء ولكل شيء من جهة الذكر على سبيل الحصر، حتى غشاء البكارة لديّ».

ولدينا حاجة مشتركة، حاجة الإفلات من تبعيتنا الأولية للأم في الحقل الجماعي الثقافي. ويعترف فرويد للطفل الموجود في الإنسان قدرة حاسمة، على الرغم من آرائه في الجنسية الأنثوية، تلك الآراء التي تعكس نزاعنا الأمومي الأساسي المرتبط بوضعنا، وضع المولودين قبل الأوان. وهو، لهذا السبب، يمنح الأم بصورة ضمنية، ذلك المكان الكبير الذي هو مكانها. وفي رأي باشوفين أن الانتقال من النظام الأمومي إلى النظام البطريركي يُخضع المبدأ المادي إلى المبدأ الروحي، والحق الجهنمي للقوى الأمومية المطلقة إلى الحق السماوي الأولمبي. ولاتفلت نظرية التحليل النفسي من هذا الصراع بين حق الأم وحق الأب: إن التقليل من أهمية العلاقات المبكّرة ومن توظيف الصورة الذهنية المثالية للأم يعبّر عن ميل إلى ترجيح الحق الأبوي وإلى الهروب من تبعيتنا الطفلية. وإهمال المفعولات البنّاءة لأوديب الذي يُعاش مع موضوعات كاملة، وللأنا العليا الأبوية وعضو الذكر، يرتبط، هو أيضاً، بتجديد القوة الأمومية البدئية. وإذا كانت هذه القوة مرهوبة على وجه الاحتمال، فإنها تمارس أيضاً ضرباً من السحر الذي لاشك فيه. وينبغي لنزاعاتنا الشخصية ألاتنسينا أننا قبل كل شيء أطفال الرجل والمرأة.

جانين شاسيغه - سميرجل

معجم مصطلحات

ملاحظة هامة: لاأرى موجباً لأن أكرّر هنا شرح المصطلحات التي وردت في الكتب السابقة التي ترجمتها. وقد كررت شرح بعضٍ منها سابقاً، بهدف التركيز عليها. فأكثر المصطلحات الواردة في هذا الكتاب مشروحة في «النرجسية» و«مدارس التحليل النفسي» و«الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث». وأقتصر فقط في هذا المعجم، على شرح خمسة منها.

١- بطريركية Patriarcat

البطريركية، بادىء ذي بدء، هي شكل من أشكال التنظيم الأسري يمارس فيه السلطة رئيس الأسرة، الأب الأعمر للجماعة الأسرية عادة. والعائدية في السلطة والقرارات والقيادة هي للبطريرك الذي يخضع لسلطانه وأوامره جميع أفراد الأسرة بمن فيهم النساء والأطفال والعبيد والخدم. وينطوي النظام البطريركي على أن النسب والإرث يكون من جهة الأب.

والبطريركية هي أيضاً شكل من التنظيم الاجتماعي والسياسي يكمل، على هذا المستوى العام، تنظيم الأسرة البطريركي. فالسلطان والقيادة في الجماعة الاجتماعية هما لأحد رؤساء الأسر أو لجماعة من الوجهاء بينهم. وليس للمرأة في المجتمع البطريركي حق سياسي ولامشاركة في الحياة العامة.

٢- تفسير إضافي Surinterprétation

استخدم فرويد هذا المصطلح وهو يتكلم على الأحلام في مناسبات عديدة ليدلّ على« الضرورة الماثلة في إضافة تفسير آخر بعد إعطاء تفسير متماسك وكامل في الظاهر» .

ويشير فرويد إلى أن المرء ليس بوسعه أن يتأكد من أن تفسير الحلم قد تمّ على نحو كامل وإلى أن ثمة إمكاناً لأن يكون للحلم معنى آخر .

ويتكلّم فرويد على إضافة تفسير إلى تفسير آخر كلما كان السياق يتيح ذلك ، كظهور تداعيات جديدة لدى المريض تساهم في توسيع النطاق للمادة التحليلية ، وذلك أمر يخوّل المحلّل أن يقوم بمقاربات جديدة .

وقد يكون التفسير الإضافي مرادفاً لتفسير أكثر عمقاً عندما ينصبّ على الاستيهامات اللاشعورية .

٣- توحّد (توحيد، تماهي، تماثل) Identification

التوحّد سيرورة سيكولوجية لتبنين الشخصية تبدأ بالتقليد اللاشعوري وتتلاحق بالتماثل لاستدخال النموذج . وبوسعنا أن نميّز المراحل التالية من التوحّد: ١- **التوحد الأولي** ، ويستمرّ حتى السنة الثالثة على وجه التقريب، حيث لاينفصل الاتصال مع العالم الخارجي عن تقليد السلوك الذي يسلكه أعضاء الوسط المحيط. والواقع أن هذا التوحد ضرب من الانصهار بالموضوع، ضرب من الوحدة التي تتكوّن من اثنين أكثر مما هو تقليد. ومثال ذلك أن الطفل الذي يقلّد حركات أبيه وهو يقرأ الصحيفة لايشعر بأنه يقلّده: إنه في الواقع هو أبوه الذي يحتاز دوره وقوته معاً؛ ٢- **التوحد البنّاء**، من العمر الأوديبي حتى البلوغ (٤-١٤) حيث تتنظّم الأنا والأنا العليا وفق النموذج الذي يقدّمه الراشدون في الوسط المحيط والأبوان على وجه الخصوص؛ ٣- **التوحد المستقل** (بعد البلوغ) حيث تقيّم أنا المراهق

نفسها، القوية بتجربتها، مكافئة لنماذجها بدلاً من الخضوع لها. وقد تتأخّر هذه المرحلة أو لاتتحقّق أبداً، وعلى وجه الخصوص عندما يظلّ الفرد مثبّتاً على المرحلة الأوديبية. وتمنع حظوة النموذج، ومثال ذلك حظوة الأب إزاء الابن، هذا الأخير من أن يكون مكافئاً للأب، أي تمنعه من أن يكوّن بوصفه موجوداً مستقلاً يوجد نموذجه الخاص، أي قيمه الخاصة.

٤- غلمة غيرية Allo-érotique

يُستخدم هذاالمصطلح عادةً في مقابل الغلمة الذاتية، ويعني النشاط الجنسي الذي يجد إشباعه بموضوع خارجي.

وقد قرن فرويد استخدام مصطلح الغلمة الذاتية الذي استعمله عام ١٩٨٩ باستخدام مصطلح الغلمة الغيرية التي تُقسم بدورها إلى غلمة مثلية Homo-érotisme، أي يتحقّق الإشباع من خلال موضوع من الجنس نفسه، وغلمه غيرية Hétéro-érotisme أي يتحقّق الإشباع من خلال موضوع من الجنس الآخر. وكان جونز على وجه الخصوص هو الذي عاد الى استخدام هذا المصطلح القليل الاستعمال.

٥- نُفاس Psychonévrose

مصطلح استخدمه فرويد للدلالة على زمرة من الأمراض النفسية المرتبطة بنزاعات طفلية، أعراضها هي التجلّي الرمزي لهذه النزاعات. ويشمل مصطلح النفاس في وجهة النظر الفرويدية عصاب التحويل (هستيريا الحصر، والعصاب الرهابي، وهستيريا التحوّل، والعصاب الوسواسي) والعصاب النرجسي (أو العصاب الوظيفي). وليس مصطلح النفاس مرادفاً لمصطلح العصاب ولا لمصطلح الحالة الحّدية (الوسطى بين العصاب والذهان) كما يميل بعضهم إلى الاعتقاد. ويتمّ فهم النفاس بصورة

صحيحة عند موازنته بضروب العصاب الراهنة التي يعكس علم أعراضها الجسمية مباشرة غياباً لتفريغ دافع من الدوافع. والأعصبة الراهنة هي، في تصنيف فرويد، الوهن النفسي، عصاب الحصر، توهّم المرض، التي يسبّبها اختلال وظيفي في الحياة الجنسية الراهنة.

والواقع أن مصطلح «النفاس» لم يعد استخدامها وارداً، إلا عند الكلام على فرويد، ولاسيما بعد التصنيف الحديث للأمراض النفسية التي تستخدم مصطلح العصاب استخداماً واسعاً يشمل نوعي العصاب عند فرويد.

الفهـــرس

الباب الثالث: هل ثمة عقدة ألكترا؟

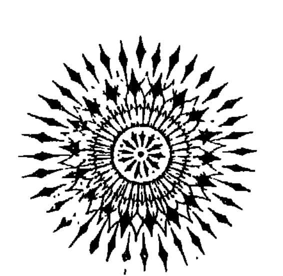


٢٥٠٠ ط١ /١٢/١٩٩٦









طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

سعر النسخة داخل القطر
٢٥٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٥٠٠ ل.س